



الشَّاب

بين العقل والعاطفة

تأليف الشيخ
محمد تقي فلسفي

تعريب

السيد نور الدين ميرزادة

مؤسسة الأعلام للطبوعات



الشاب
بين العقل والعاطفة

الشَّابُّ بَيْنَ الْعَقْلِ وَالْعَاطِفَةِ

تأليف
الشيخ محمد تقي فلسفي

تعريب
السيد نور الدين ميرزاده

المجلد الثاني

منشورات
مؤسسة الأمل للطبوعات

بيروت - لبنان

ص. ب. : ٧١٢٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المحاضرة السادسة عشرة

حول الشاب وإحراز الشخصية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى في كتابه العزيز : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْمَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾^(١) .

الشاب والمحيط الإجتماعي :

تبدأ الحياة الإجتماعية عند الإنسان فور اجتيازه مرحلة البلوغ إلى مرحلة الشباب ، فيدخل الشاب عالماً جديداً عليه ، ألا وهو عالم الإجتماع ، وهذا العالم أو بالأحرى هذا المحيط يتطلب منه الإختلاط بمختلف فئات المجتمع وطبقاته ، ليصبح كعجلة (تُرس تعشيق) تدفع حركتها سائر العجلات الملتصقة بها إلى الحركة ، يتحمل جانباً من المسؤولية ، ويعمل من أجل مجتمعه ، ليعترف به المجتمع فرداً مفيداً ونشطاً ، ويقبله عضواً حيواً في جسده المتكامل . وما يحتاجه الإنسان لتحقيق هذا الهدف الكبير والأساسي هو إحراز الشخصية والتحلّي بالصفات الحميدة التي تساعده في التكيف مع المجتمع .

إثبات الشخصية :

إن الشاب الذي يعتبر من الناحية الطبيعية سليم الخلقة والعقل ، ومن

(١) سورة مريم ، الآية : ٩٦ .

الناحية التربوية متحلياً بالصفات والسجايا الأخلاقية الحميدة بفضل ترعرعه في ظل أبوين كفؤين ومرّبٌ قدير، يستطيع أن يتكَيّف بسهولة مع مجتمعه ، وينجح بسرعة في إثبات شخصيته . على عكس ذلك الشاب الذي يكون ناقص الخلفة والعقل ، وجامعاً لأسوأ الصفات نتيجة ترعرعه في ظل أبوين غير كفؤين ومرّبٌ جاهل ، فإنه سيواجه صعوبات جمّة في محاولته لإثبات شخصيته والتكَيّف مع المجتمع ، فإما أن يستطيع بعد جهد جهيد أن يتكَيّف إلى حدّ ما مع مجتمعه ، وإما أن يبقى محروماً من الحياة الإجتماعية حتى آخر عمره .

الفئة الفاشلة :

وتصدر عن الفئة الفاشلة من الشباب ردود أفعال مختلفة ، فمنهم من ينظري على نفسه ، ومنهم من يمارس الفضولية والتطفّل على الناس ، ومنهم من يلجأ إلى التمرد وارتكاب الجريمة ، ومنهم من يعاني من إحباط في المعنويات وضغوط نفسية حادّة ، فيقدم على الانتحار .

«من المؤسف أن إثبات الشخصية لا يتم دائماً بالشكل الطبيعي ، فالأخلاق التي يتطّبع عليها الفتيان خلال مرحلة البلوغ تختلف باختلاف أحاسيس المحبة لديهم . ويعتقد المحلّل النفسي المعروف «رانغ» بأن التّخوّف من إبراز الشخصية وإثبات الوجود يشكّل العامل الأساس للنوبات العصبية التي تهاجم الشباب . إن الفئة المتمردة من الشباب لا يمكنها أن تتكَيّف مع المجتمع ، فهي منغلقة على نفسها ، مصرّة على سماحتها وتمردها ، ولن يكون أفرادها خارج تيار الفاسدين والمتذبذبين في المجتمع . البعض منهم لا يقبل أي عمل يطلب منه خشية المسؤولية ، والبعض يرفض أن يعيش تحت وصاية أسرته وذويه ، والبعض الآخر يعمل أجيراً لدى الغير بسبب عجزه عن إتخاذ القرار المناسب حول أي من الأعمال الحرّة . وتكون الإضطرابات

والإنفعالات النفسانية أحياناً قوية بشكل تدفع الشاب اليافع إلى الإنتحار . وغالباً ما يقترن ذلك بإثارة الخواطر والأحاسيس : نوساوس والتفكير المتواصل وإرتعاش العضلات وانكماشها وتقلصها ، وكل هذه الحالات تنطبق على المرضى النفسيين^(١) .

إظهار الكفاءة :

إن الشاب يميل بطبعه إلى إثبات شخصيته وإظهار كفائته . وهو يعتبر أن إثبات شخصيته الإجتماعية إنما يحقق له ذروة في الإستمتاع النفسي ، لذا فهو لن يذخر وسعاً من أجل بلوغ هذا الهدف .

والشاب الذي يحصل لأول مرة في حياته على عمل ما في مؤسسة وطنية أو دائرة حكومية يكاد يغمره الفرح والسرور ، لأنه يشعر بأن المجتمع بات يوليه بالغ اهتمامه باعتباره فرداً صالحاً من أفراد المجتمع .

كذلك فإن أول مرتب يناله لقاء عمله يعتز به ويفتخر ، مهما كان هذا المرتب ضئيلاً ، ولن يكون مستعداً للمقارنة بينه وبين ما كان يستحصل عليه بالمجان من أبيه ، مهما كان وفيراً ، لأن مرتبه هو دليل شخصيته وكفائته .

حُسن التوافق :

إن الشاب الذي يتحمّل مسؤولية إدارة أسرته بعد وفاة ميعلها ، يشعر في قرارة نفسه بالفخر والعزّ والشموخ ، فهو يبذل ما بوسعه لتأمين متطلبات أسرته غير آبه لما يعترضه من مشاكل وصعاب ، لأنه يستطيع بذلك أن يظهر جدارته أمام أسرته ويثبت شخصيته أمام مجتمعه . أما الشاب الذي لا يستطيع التكيف مع الناس بشكل سليم ، ولا يمكن أن يكون عضواً فاعلاً في المجتمع ، أو على الأقل أن يثبت شخصيته ، فإنه يعاني على الدوام من الشقاء واليأس والحرمان . . . وباختصار فإن إحراز الشخصية وحسن التوافق والتكيف مع

(١) ماذا أعرف ؟ ، البلوغ ، ص ٩٠ .

المجتمع هما من الميول الباطنية لجيل الشباب ، ومن الأركان الرئيسية للحياة الإجتماعية .

لقد تناولت كتب علم النفس مسألة الشخصية من جميع جوانبها ، وتطرق إليها الفلاسفة والعلماء بالبحث والدراسة ، وجاؤوا بتعاريف لمعنى الشخصية ومصدرها وقياسها واضطرابها ونموها وما إلى ذلك من الحالات التي ترتبط بالشخصية . وستطرق بدورنا في هذا البحث إلى مسألة الشخصية ليطلع الشباب على أهمية هذه المسألة من جميع أبعادها ، ويتعرفوا على السبيل الأمثل لإحراز الشخصية وبناء الذات .

الصفات الطبيعية والتربوية :

ما هي الشخصية ؟ ، الكل يعلم أن الناس سواسية من حيث التركيب الجسماني والنفساني ، لكنهم يختلفون عن بعضهم البعض الآخر من حيث الخصوصيات الطبيعية والتربوية ، فلكل إنسان وضع خاص .

وتختلف قوة الذكاء والذاكرة وسرعة البديهة والإدراك وحساسية الجسم ووردود الفعل العضلية وما إلى ذلك من صفات طبيعية من شخص لآخر ، يعني أن لكل فرد قوة معينة ، كذلك الأمر بالنسبة للصفات الأخلاقية كالصبر والتحمل والعصبية والعفو والتسامح والإنتمام والعطف والحقد والغرور والتواضع والتكبر وغيرها من الصفات ، فإنها تختلف من شخص لآخر ، إذ ان لكل فرد صفاته الخاصة به .

ما هي الشخصية ؟ :

إن الشخصية من وجهة نظر علماء النفس هي عبارة عن اتحاد خاص يضم مجموعة من الصفات الطبيعية والمكتسبة الثابتة لكل فرد ، تميّزه عن غيره في تعامله مع الناس وعلاقاته الإجتماعية .

« الشخصية هي عبارة عن بناء متماسك يضم في هيكلته نوع سلوك

الفرد وعلاقاته بالآخرين وحالته النفسية واستعداداته وطاقاته الكامنة بما يتألف والوضع الاجتماعي»^(١) .

«يقول ألبودت : الشخصية عبارة عن مجموعة متحركة (ديناميكياً) لمنظومات نفسية وجسمية تسبح في أعماق الإنسان ، تشكل بمجملها سبباً في تألفه مع مجتمعه وبيئته»^(٢) .

«ويعتبر «ألبودت» أن الشخصية تشكل مظهراً لعادات الإنسان وطبائعه وسلوكه ، يحدد كيفية تكيفه مع بيئته»^(٣) .

«أما «مودي» فيقول إن الشخصية هي عبارة عن مجموعة من الاحتياجات الفردية والاجتماعية للإنسان ، وكيفية تأمينها»^(٤) .

«ولا بد هنا من توضيح مسألة أن تكون الشخصية فريدة من نوعها ، فمن المسلم به أن الإنسان لا يمكن أن يكون فريداً من نوعه في كافة الأمور .

يشير كل من العلماء «كلوك هون» و«مودي» و«شنايدر» إلى أن بعض جوانب كل إنسان شبيهه ١ - بجميع الناس ، ٢ - ببعض الناس ، ٣ - فريدة من نوعها .

فالمرء يشبه سائر الناس من ناحية انفعالاته الناشئة عن الوراثة الحياتية والمشاركة بين النوع الإنساني وكذلك من النواحي العامة للحياة الاجتماعية . أما إذا كان يرتبط بمجموعة واحدة ويؤدي في المجتمع دوراً مماثلاً لأدوار غيره ، وربما يشبه بعض الناس من ناحية التكوين الجسماني الموروث ، ولا تتساوى تجاربه الماضية

(١) مبادئ علم النفس ، ص ١٨٣ .

(٢) علم النفس الاجتماعي ، ص ٣٤٩ .

(٣) علم الاجتماع ، صامويل كينغ ، ص ١٠٦ .

(٤) علم نفس الطفل ، ص ٣٠٦ .

بتجارب الآخرين ، فهو فريد من نوعه»^(١) .

«والشخصية هي عبارة عن مجموعة منتظمة ومتكاملة وثابتة لخصوصيات الفرد وسلوكه من النواحي الجسمانية والعقلية والإجتماعية التي تميّزه عن سائر الناس»^(٢) .

الصفات الثابتة :

«إن المقصود من الشخصية هو الوحدة التي تجمع بين الصفات الظاهرية والدوافع الخفية للفرد ، ومن بين كل تلك الصفات ، نعتبر أن تلك التي لها نوع من الثبات والإستقرار هي جزء من شخصيته . فإذا كان الشخص هادئاً في طبعه عادةً ويُثار بين الحين والآخر ، فإن صفته الشخصية هي الهدوء وليس الدافع الذي يخلّ بهدوئه»^(٣) .

الجنون الأخلاقي :

إذا كانت الشخصية الأخلاقية لإنسانٍ ما متّزنة هادئة ، واعتلته أحياناً موجة من الغضب والهيّاج ، فإنه سرعان ما يندم ، لأن حالة الغضب العابرة تلك لا تتوافق وشخصيته الأخلاقية ووضعه النفساني . أما إذا كانت شخصيته حادّة بطبيعتها ، فإنه لن يندم أبداً إذا ما غضب وهاج ، ويواصل سلوكه السيء ، وقد عبّر أمير المؤمنين علي عليه السلام عن هاتين الشخصيتين بالجنون المؤقت والجنون المستحكم .

حيث قال عليه السلام : الْجِدَّةُ ضَرْبٌ مِنَ الْجُنُونِ لِأَنَّ صَاحِبَهَا يَنْدَمُ فَإِنْ لَمْ يَنْدَمْ فَجُنُونُهُ مُسْتَحْكَمٌ^(٤) .

(١) علم النفس الإجتماعي ، ص ٣٤٩

(٢) علم نفس النمو ، ص ٤١٢

(٣) مبادئ علم النفس ، ص ١٥٠ .

(٤) نهج البلاغة ، الكلمة ٢٤٧ .

«لقد جيء بالكثير من المعاني لمفهوم الشخصية ، واستخدمت هذه الكلمة بطرق مختلفة» .

«وقد وجد «آلبودت» في العُرف العام خمسين معنى لكلمة شخص وشخصية»^(١) .

نقطتان مهمتان :

رغم أن علماء النفس قد عبّروا عن شخصية الإنسان بعبارات وتفسيرات كثيرة ومختلفة ، إلا أن كل هذه العبارات والتفسيرات تضمنت نقطتين مهمتين أجمع عليهما كل العلماء، الأولى ، تكوين مجموعة الصفات الطبيعية والمكتسبة الخاصة بكل فرد والتي تميّزه عن سائر أفراد مجتمعه ، والثانية ، التآلف الإجتماعي . وبعبارة أخرى فإن مجموعة الصفات الطبيعية والمكتسبة التي تعيّن للفرد سلوكه في علاقاته مع الناس وتآلفه معهم ، وتبرز قيمته الإجتماعية ، هي التي تحدّد شخصيته .

الإسلام والصفات الشخصية :

لقد أولى الإسلام اهتماماً كبيراً بمسألة الشخصية الإجتماعية للفرد من ناحية الصفات الطبيعية والمكتسبة وكذلك مسألة التآلف مع الناس وحسن معاشرتهم . وقد أشارت الأحاديث النبوية الشريفة والروايات الواردة عن أئمة الهدى سلام الله عليهم أجمعين ، إلى الصفات الحميدة لإحراز الشخصية وأهمية التآلف مع الناس . نورد هنا بعضاً منها :

عن علي بن الحسين عليه السلام قال : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم يَقُولُ فِي آخِرِ خُطْبَتِهِ : طُوبَى لِمَنْ طَابَ خُلُقُهُ وَطَهُرَتْ سَجِيئَتُهُ وَصَلَحَتْ سَرِيرَتُهُ وَحَسُنَتْ عِلَانِيَتُهُ وَأَنْفَقَ الْفُضْلَ مِنْ مَالِهِ وَأَمْسَكَ الْفُضْلَ مِنْ قَوْلِهِ وَأَنْصَفَ النَّاسَ مِنْ

(١) علم النفس الإجتماعي ، ص ٣٤٨ .

نَفْسِهِ^(١) .

وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال : قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام : الْمُؤْمِنُ مَأْلُوفٌ وَلَا خَيْرَ لِمَنْ لَا يَأْلَفُ وَلَا يُؤْلَفُ^(٢) . وعن عُنْبَسَةَ بنِ العابد قال : قَالَ لِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الصَّادِقِ عليه السلام : مَا يَقْدَمُ الْمُؤْمِنُ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِعَمَلٍ بَعْدَ الْفَرَايِضِ أَحَبُّ إِلَيَّ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ أَنْ يَسَعَ النَّاسَ بِخُلُقِهِ^(٣) .

وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام : أَعْجَزُ النَّاسِ مَنْ عَجَزَ عَنِ اكْتِسَابِ الْإِخْوَانِ وَأَعْجَزُ مِنْهُ مَنْ ضَيَّعَ مَنْ ظَفَرَ بِهِ مِنْهُمْ^(٤) .

المرونة :

من العوامل المهمة والأساسية لإحراز الشخصية والتكيف مع المحيط الاجتماعي ، اعتماد المرونة والليونة إزاء الأحداث الاجتماعية . فأولئك الذين يواجهون المستجدات بحكمة وتعقل ويجتنبون الشدة والصلابة والتعصب غير المطلوب ، باستطاعتهم تذليل العقبات والتغلب على الصعاب بسهولة ، وإثبات الشخصية ، أما أولئك الذين يعتمدون العند واللجاجة إزاء الأحداث دونما حاجة ، فإنهم يحطون من شخصيتهم ويواجهون أحياناً مصائب وويلات لا تحمد عقباها .

قابلية التكيف :

عن النبي صلى الله عليه وسلم : مَثَلُ الْمُؤْمِنِ مَثَلُ السُّنْبَلَةِ يُحَرِّكُهَا الرِّيحُ فَتَقُومُ مَرَّةً وَتَقَعُ أُخْرَى وَمَثَلُ الْكَافِرِ مَثَلُ الْأَرْزَةِ لَا تَزَالُ قَائِمَةً حَتَّى تَنْقَعِرَ^(٥) .

تحمل الفشل :

«إن الإنسان السليم الذي يمتلك قابلية المرونة وقدرة العودة إلى

(١) و٢ و٣) الكافي ج ٢ ، ص ١٤٤ و ١٠٢ و ١٠٠ .

(٤) نهج البلاغة ، الكلمة ، ١١ .

(٥) تفسير روح البيان ، ٤ ص ٣٥٦ .

حالته الطبيعية بمقدوره أن يتحمّل كل فشل قد يواجهه ، إذ ما ان يفشل حتى يستأنف جهوده ومساعيه من جديد ، وما ان يسد بوجهه طريق حتى يسلك غيره ويختار لنفسه هدفاً آخر ، لكن الإنسان صاحب النفس العليلة فهو لن يملك في هذه الحياة سوى طريق واحد وهدف واحد ، إن تعثر وأخطأ فإنه سيصاب بالإحباط واليأس» .

«وكلما زادت قابلية الإنسان على المرونة كلما قلت مخاوفه من الفشل وانطلق في ميادين النجاح محققاً آماله في هذه الحياة ، وكلما تضاءلت هذه القابلية لديه ، كلما أسرع في الهروب من الواقع والإستسلام لليأس»^(١) .

إن الهدف الأساس من كل ما ورد من أحاديث وروايات ، هو بناء الشخصية وتعزيز المكانة الإجتماعية للإنسان . وقد كان لتعاليم الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة الأطهار عليهم السلام الدور الكبير في بناء الشخصية الإسلامية وحثّها على التحلّي بالصفات الحميدة والأخلاق الفاضلة ، وتوجيهها نحو الآداب الإجتماعية وحسن الإختلاط والمجاورة .

منشأ الشخصية :

إن منشأ الشخصية هو من المسائل المهمة التي تناولها علماء النفس في أبحاثهم وتحليلهم النفسية ، ومعرفة منشأ الشخصية تعتبر مفيدة جداً لجيل الشباب ، فهي تساعدهم على بناء الشخصية بشكل سليم والنجاح في التكيف مع المجتمع ، لذا نرى من الضروري أن يعرف كل شاب منشأ شخصيته .

الوراثة والمحيط :

إن الصفات التي تتحلّى بها شخصية كل فرد من أفراد المجتمع وتكون

(١) سلامة الروح ، ص ٤٠ .

ركيزته في التآلف مع مجتمعه ، تقوم على عاملين أساسيين ، الوراثة الطبيعية والمحيط التربوي . بعبارة أخرى ، تقسم مميزات وصفات الشخصية إلى قسمين ، صفات طبيعية وأخرى مكتسبة .

«لا يمكننا أن نحدّد أياً من الوراثة والمحيط هو الذي يلعب دوراً مؤثراً في بناء شخصيتنا ، لا بل علينا أن نتناول العاملين معاً ونحدّد تأثير كل منهما . ومما لا شك فيه أن للوراثة دوراً كبيراً في تكوين العوامل الجسمانية من طول وقصر وكذلك في القوى المخية من حدّة أو قصور ، لكننا إذا ما أردنا أن نعرف سبب سوء الخلق أو حسنه ، والخجل والوقاحة وحب المعاشرة أو حب الإنزواء ، والإعتماد على النفس أو العجز والضعف ، علينا أن نبحث عنه في تأثيرات المحيط»^(١) .

كذلك من الضروري أن نضع كلا العاملين ، الوراثة والمحيط التربوي على بساط البحث والمناقشة لتعرف على الصفات الناجمة عنهما ، ودورهما في تكوين شخصية الإنسان وتآلفه مع مجتمعه .

يختلف كل إنسان بشكل طبيعي في خلقته وخلقه عن الآخرين ، ويرث كل إنسان بعض الصفات عن أبويه ، لذا فإن العقل والذكاء والذاكرة والذوق وتناسب الهندام والجمال والشكل والصوت والجاذبية وغيرها من الصفات الطبيعية للإنسان تختلف من شخص لآخر ، ولكل منها دور مستقل ومؤثر في بناء شخصية الإنسان وتعامله مع محيطه واحتكاكه بمجتمعه .

الغباء والشعور بالحقارة :

«يشعر الطفل الذي يكون أقل ذكاءً ممن هم في عمره أو من زملائه في المدرسة ، بأنه غريب عنهم ، إذ انه لا يستطيع أن

(١) نمو الشخصية ، ص ٣٥ .

ينسجم معهم في مختلف النشاطات التي يقومون بها ، وهو يعجز عن التكيف معهم لاختلاف ميله عنهم ، وهذا ما يجعله يشعر بالحقارة ، وتأخذ شخصيته طابع هذا الشعور»^(١) .

«وعندما يضطر طفل غبي أو متخلف عقلياً إلى منافسة من هم أكثر منه ذكاءً وفتنة في المدرسة فإنه سيواجه الفشل ، وسيقف عند قصور عقله وخفوت ذكائه ، وسيضعف شعوره بالحقارة الذاتية عندما يستهزئ به زملاؤه ويبعدونه عن كل نشاط يقومون به ، وقد يختلط سلوك مثل هذا الطفل في البيت وتجاربه في المدرسة ليولد في أعماقه عقدة خطيرة من الحقارة»^(٢) .

«قد يتعامل الناس مع إنسان يملك تكويناً جسمانياً معيناً ، وهذا التعامل لا بد وأن يترك أثره في شخصية هذا الإنسان ، مثلاً قد يحظى إنسان يمتلك جسماً قوياً وقامة منتصبة باحترام الآخرين وعدم جرأتهم على مخاصمته ومنازعته ، فإن هكذا إنسان تتكون لديه ثقة بالنفس كبيرة . أما من يعاني من ضعف في جسمه وهزل ، ولا يحظى باحترام الآخرين ، ويكون دائماً عرضة لسخريتهم ، فإن شخصيته ستكون ضعيفة ومهزوزة . وهنا لا بد من القول : قد لا يؤثر تركيبنا الجسماني على شخصيتنا بشكل مباشر ، إلا أن تعامل الناس معنا على أساس هذا التركيب سيرتكب في نفوسنا آثاراً جمّة»^(٣) .

طلاقة الوجه :

إن من صفات الشخصية ، التي لها أثر بارز في التكيف مع المحيط

(١) علم نفس النمو ، ص ٤١٧ .

(٢) علم نفس الطفل ، ص ٣١٨ .

(٣) مبادئ علم النفس ، ص ١٥٥ .

والتآلف مع المجتمع ، طلاقة الوجه وحسن المعاشرة . فالإنسان الذي يواجه الناس بطلاقة الوجه وبشاشته وحلاوة الكلم ، يستطيع بكل سهولة أن يذوب في مجتمعه وينال محبة الناس ومودتهم .

قال رسول الله ﷺ : يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ إِنَّكُمْ لَمْ تَسْعُوا النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ فَأَلْفَوْهُمْ بِطَلَاقَةِ الْوَجْهِ وَحُسْنِ الْبَشْرِ^(١) .

الوجه البشوش :

يمتلك البعض وجهاً بشوشاً وحُسنًا بهيًّا ، وهذه الحالة التي تعتبر من صفات الشخصية في حسن التآلف مع المحيط الإجتماعي ، تبدو واضحة تماماً على وجوههم . ومثل هؤلاء ليسوا مجبرين على تحمّل عناء التصنّع والتكلف ، لأنهم يمتلكون وجهاً جميلاً وساحراً وجذاباً ، وبات حسن الخلق من خصالهم ، فهم لا يستطيعون في الحالات الطبيعية أن يظهرُوا أمام الآخرين وعلامات الغضب والإنفعال بادية على وجوههم ، ولمزيد من التوضيح نقول : إن طلاقة الوجه وحسن البشر ، وهما من صفات الشخصية وعوامل النفوذ الإجتماعي ، قد اجتمعا فيهم تلقائياً .

الوجه العبوس :

أما أولئك الذين يمتلكون وجهاً عادياً غير بشوش أو وجهاً عبوساً ، فينبغي عليهم أن يحاولوا كثيراً لاكتساب البشاشة ، وأن يسعوا إلى التحلّي بهذه الصفة عن طريق التمارين حتى يتمكنوا من تحقيق نجاح في تعاملهم الإجتماعي وتآلفهم مع المحيط .

ومن الواضح أن بشاشة الوجه وحلاوة الكلم وفصاحة اللسان وغير ذلك من صفات الشخصية الحميدة ، إن كانت فطرية وطبيعية ، فإن صاحبها سرعان

(١) الكافي ٢ ، ص ١٠٣ .

ما ينجح في إحراز شخصيته وتكيفه مع محيطه الإجتماعي ، ولكن مثل هذه الصفات ليس لها أي قيمة تربوية وأخلاقية ، لأن صاحبها لم يتعب أو يشقى من أجل الحصول عليها .

عن إسحاق بن عمار ، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام : قال : إِنَّ الْخُلُقَ مَنِيحَةٌ يَمْنَحُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خَلْقَهُ ، فَمِنْهُ سَجِيَّةٌ وَمِنْهُ نِيَّةٌ . فَقُلْتُ فَأَيُّهُمَا أَفْضَلُ ؟ فَقَالَ : صَاحِبُ السَّجِيَّةِ وَهُوَ مَجْبُورٌ لَا يَسْتَطِيعُ غَيْرَهُ وَصَاحِبُ النِّيَّةِ يَصْبِرُ عَلَى الطَّاعَةِ تَصَبُّراً فَهُوَ أَفْضَلُهُمَا^(١) .

ونخلص إلى أن التركيبة الطبيعية لجسم الإنسان وعقله ونوعية صفاته حميدة كانت أم ذميمة ، لها أثرها العميق في تكوين شخصية الإنسان وتآلفه مع مجتمعه ، وبعبارة أدق نقول إن جانباً من شخصية كل إنسان يقوم على الصفات الموروثة .

الشخصية الموزونة :

«يؤدي قوام الإنسان وقدرته الجسمانية دوراً هاماً في تحديد سلوكه تجاه الآخرين وردود فعل الآخرين تجاهه . إن الطفل بكل مواصفاته الجسمانية والأخلاقية عادة ما يحظى باهتمام أو تحقير الآخرين له ، ومعرفة الطفل بأحاسيس الآخرين حياله وحيال تركيبته الجسمانية وحالته الصحية ، لا شك أن لها أثرها البالغ في رؤيته لنفسه واهتمامه بها ، وبالتالي فإن هذه المعرفة ستؤثر على سلوكه وفعاله» .

«إن الفتيان الذين يملكون قواماً متعادلاً عادة ما يكونون من أصحاب الشخصية الموزونة . أما الفتيان الذين يعانون من نقص جسماني ، فإنهم يلجأون إلى القيام بأعمال قبيحة للتعويض عما

(١) الكافي ٢ ، ص ١٠١ .

يعانونه ، وهذا الأمر يعيقهم عن التكيف مع المجتمع ، وبالتالي فإنه يؤثر كل التأثير على نمو شخصيتهم وتكاملها^(١) .

إن الشاب الذي يتمتع ظاهره وباطنه ، جسمه وعقله بكل الصفات والشروط المؤاتية للتألف مع المحيط الإجتماعي العام ، ينجح وبكل سهولة في إحراز شخصيته وتحقيق سبل تألفه مع المجتمع .

أما الشاب الذي يعاني من الغباء وضعف التفكير ، أو من قبح في الشكل أو نقص في الهندام لازمه منذ ولادته ، أو من عيوب وعاهات اكتسبها خلال حياته ، فإنه سيواجه صعوبات في تعامله الإجتماعي وسعيه لإثبات شخصيته ، وأحياناً قد يصاب بانتكاسات نفسية تبقى ملازمة له طوال حياته ، وتكون السبب في فشله في مطابقة نفسه مع بيئته الإجتماعية .

التعويض عن النقص :

وأولئك الذين يعانون من نقص أو عاهة في تركيبهم الطبيعية ، ينبغي عليهم أن يتناسوا ما هم عليه ويحيوا روح الأمل في نفوسهم ، حتى يتمكنوا من إحراز شخصيتهم وبلوغ الكمال والسعادة . وعليهم أيضاً أن يقدموا على ما يليق بهم من أعمال ، ويسعوا جاهدين إلى إبراز طاقاتهم واستعداداتهم الباطنية ، للتعويض عما يعانونه من نقص وإحراز الشخصية المناسبة .

«يقول هـ . شاختر» : كان هناك ولد من أقاربي يعيش دائماً في العزلة والإنطواء ، حتى في فرص المدرسة كان يجول الملعب بمفرده غارقاً في أحلامه وخياله ، وبعد خروجه من المدرسة كان يسرع بالعودة إلى البيت ، إذ لم يكن يحب اللعب مع رفاقه ، ولم ينتسب إلى أية جمعية خيرية ، ولم يصادف يوماً أن دعا رفاقاً له إلى البيت ، أو أن زاره هو كضيف ، كان يدعي أن أكثر ما

(١) علم نفس النمو ، ص ٤١٤ .

يحب في هذه الدنيا غرفته وكتبه» .

«ولكن الحقيقة أن ذلك الفتى لم يكن يملك جسماً قوياً وقواماً رشيقاً يساعده في أن يكون كغيره من رفاقه في الألعاب الرياضية ، فكان يتجنب اللعب ليستر ضعفه ويتجنب نفسه نظرات الشفقة أو الإستهقار ، وقد أصبحت هذه الحالة عادة له شيئاً فشيئاً ، مما جعله يتطبع على الإنطواء في مجمل مواقف الحياة» .

«لأن هذا الفتى كان يدرك مرضه أو يستشير طبيباً نفسانياً عن حالته ، لعلم أنه من الممكن جداً تقوية الجسم الهزيل والعضلات الضعيفة ، وأن الإنسان إذا ما افتقر لمقومات المشاركة في الألعاب الرياضية ، فإنه قد يكون يحمل في باطنه مقومات المشاركة في حقل آخر ، قد ينجح فيه ويرع إذا ما جدّ وسعى»^(١) .

إضمحلال الشخصية :

إن مما لا شك فيه أن المرابي الكفوء والمؤدب الحريص باستطاعته أن يؤدي دوراً مؤثراً في إحياء شخصية مثل هؤلاء الأفراد وتعزيز إرادتهم ، وبمقدوره أن ينقذهم من معاناتهم النفسية وإحباطهم المعنوي ، وأن يحيي في نفوسهم الأمل بإمكانية التآلف مع المجتمع .

لقد كان أحد صحابة الإمام الصادق عليه السلام يدعى يونس بن عمار ، وذات يوم أصيب يونس بمرض البرص أو الجذام ، وغطت بقع بيضاء كامل وجهه ، فأثرت في نفسه ، وأخذت شخصيته تضمحل شيئاً فشيئاً فاقدة مكانتها الاجتماعية ، وقد قيل في حقّه : لو كان للإسلام به حاجة أو كان لوجوده أدنى أثر أو قيمة لما ابتلي بهذا البلاء ، فجاء يونس بن عمار إلى الإمام الصادق عليه السلام شاكياً لسان الناس ، فقال له عليه السلام : لَقَدْ كَانَ مُؤْمِنٌ آلِ فِرْعَوْنَ

(١) نمو الشخصية ، ص ١١٦ .

مُكَّعِ الْأَصَابِعِ فَكَانَ يَقُولُ هَكَذَا وَيَمُدُّ يَدَيْهِ وَيَقُولُ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ^(١) .

أثر توجيهات المريبي :

لقد ردَّ الإمام الصادق عليه السلام بهذه العبارة القصيرة على أقاويل الناس الجوفاء ، حيث حاول عليه السلام أن يثبت لنا إمكانية ابتلاء المؤمن بالله وسنة نبيه بليّة أو عاهة ما ، مثلما ابتلي مؤمن آل فرعون بتلك العاهة . كما أنه عليه السلام قد ساعد في رفع معنويات يونس بن عمار ، حيث دعاه إلى عدم الإبتعاد عن الناس بسبب البقع البيضاء التي انتشرت في وجهه ، وطلب منه الإستمرار بواجباته في التبليغ كما كان يفعل مؤمن آل فرعون ، حيث كان يمدّ يده التي كانت تنقصها الأصابع ويقول يا قوم اتبعوا المرسلين ، فتلك العاهة لم تكن عزيمة مؤمن آل فرعون ، ولم تحبط من معنوياته وشخصيته .

وقد جاء كلام الإمام الصادق عليه السلام ليخفف عن يونس معاناته ويزيل قلقه ، ويشجعه على معاودة التآلف مع الناس ، ويثبت شخصيته ، وهذه هي حال كل مرءٍ كفوء ، فهو قادر على إنقاذ الناس من معاناتهم النفسية وإحباطهم المعنوي ، وتعزيز شخصيتهم .

مشكلة أصحاب الذكاء الخارق :

لا بد من القول إن مشكلة إحراز الشخصية وحسن التآلف الإجتماعي لا تنحصر بالأغبياء وأصحاب القصور الفكري أو قبيحي الشكل والمعاقين فقط ، بل هي مشكلة أصحاب الذكاء الخارق وجميلي الشكل من الشباب أيضاً ، حيث تواجههم موانع عديدة في طريقهم لإحراز الشخصية والتآلف الإجتماعي .

فالشباب الذي يعاني من الغباء وقصور العقل أو من القبح وفقدان عضو من أعضاء جسمه أو من عدم تناسق قوامه وهندامه ، يصبح أسير الإحساس

(١) الكافي ٢ ، ص ٢٥٩ .

بالحفظة والحقارة ، وتنقصه الجرأة على الإندفاع للتعايش مع الناس خشية إهمالهم وتحقيرهم له ، وهذا ما يجعله محروماً من حسن التكيف مع البيئة الإجتماعية وإثبات الشخصية .

الشعور بالتفوق :

أما الشاب الخارق الذكاء وكذلك الجميل الوجه والرشيح القوام ، فإنه يشعر دائماً بالتفوق والأفضلية ، ويرى نفسه فوق كل الناس ، وهذا الشعور يولد في نفسه أحياناً روح التكبر والغرور ، مما يجعله ينظر إلى الآخرين نظرة استحقار ، ولا يراعي الجانب الأخلاقي والأدبي في تعامله معهم ، ويمس بغروره وتكبره كرامات الناس ، وبالتالي يصبح محروماً من الألفة الإجتماعية وإثبات الشخصية نتيجة سوء معاشرته للناس .

«يواجه الطفل الخارق الذكاء أيضاً مشاكل جمّة في مسيرته نحو التكيف مع محيطه الأسري والإجتماعي بسبب حدة ذكائه .

إن المغالاة في مدح الطفل على كل ما يقوم به في سني حياته الأولى ، قد تثير في نفسه الغرور باستعداداته الفطرية ، كما أن ذكائه الخارق قد يثير كراهية سائر أقرانه له وحقدهم عليه ، كما أن نموه الجسماني لم يكن بالقدر الكافي الذي يجعل من هم أكبر منه سناً يصادقونه ويلعبونه» .

«والطفل الذي يفوق من هم في سنّه ذكاءً ، خاصة في أواخر عهد الطفولة وأوائل عهد البلوغ ، يستطيع أن يدرك جيداً الجوانب السلبية لفترة البلوغ وكل ما يلف لفّ هذه الفترة من أصول وأحكام وقوانين ، وقد يدفعه ذلك إلى اتخاذ أسلوب أو مسلك سلبي تجاه قدرة البالغين والنفور منهم»^(١) .

(١) علم نفس الطفل ، ص ٣١٦ .

«يصاب من يمتلك ذكاءً حاداً بالكثير من الإحباط والعديد من الموانع والمشاكل في تألفه الاجتماعي ، ويعتمد إنني ممارسة أعمال مذمومة كالسلوك السيء والتعصب والتهميم والإنطواء والغرور والتكبر والشعور بعدم حاجته للآخرين إرضاءً لميوله ورغباته»^(١) .

تحقير الآخرين :

كان ابن المقفع رجلاً ذكياً ذا شأن عظيم في عصره ، وكان يمتاز عن غيره بقوة عقله وحدة ذكائه . وقد نجح في بداية شبابه في تلقي العلوم وترجمة بعض الكتب العلمية إلى اللغة العربية لفطنته وكفائته الفطرية ، إلا أن تفوقه العقلي والفكري جعل منه إنساناً مغروراً وترك في سلوكه وأخلاقه آثاراً سيئة ، مما جعله يواجه مشاكل جمة في علاقاته الاجتماعية . وكان ابن المقفع يستهزئ بالناس ويحقرهم بكلمات وألفاظ بذينة ليثير في نفوسهم روح الحقد والعداء .

وكان سفيان بن معاوية الذي نصبه المنصور الدوانيقي والياً على البصرة من جملة الأشخاص الذين لم يأمنوا لسان ابن المقفع ، إذ كان هذا الأخير يستهزئ بسفيان بن معاوية أمام الناس ويثير حياءه .

وكان سفيان بن معاوية ذا أنف كبير قبيح الشكل ، وكلما دخل عليه ابن المقفع في دار الولاية قال بأعلى صوته أمام الملاء : السلام عليكم ، ويعني به السلام عليك وعلى أنفك الكبير ، وذات يوم ردّ عليه سفيان بالقول : إنني لست نادماً أبداً على إلتزامي الصمت حيالك ، فقال له ابن المقفع : إن من خصلته التلعثم في الكلام يجب أن لا يندم أبداً على إلتزام الصمت . وأحياناً كان ابن المقفع يعير سفيان بن معاوية بأمه ، حيث كان يناديه بأعلى الصوت

(١) علم نفس النمو ، ص ٤١٧ .

وأمام الجميع «بابن المغتلمة» أي يابن المنقادة للشهوة . وذات يوم أراد ابن المقفع أن يظهر جهل وسذاجة سفيان ، فسأله في محفل عام عن رجل يموت ويخلف زوجة وزوجاً ، كيف يتم تقسيم الميراث بينهما ؟ .

إثارة العداة :

لقد أثار ابن المقفع ذلك الرجل الذكي الفطن بكلامه المهين النابع من غروره وتكبّره ، حقد سفيان عليه وعداءه له ، وبات سفيان يتعّين الفرص للإنتقام من ابن المقفع شر انتقام .

وصادف أن ادّعى عبد الله بن علي الخلافة على ابن أخيه المنصور الدوانيقي ، وخرج لقتاله . فطلب الخليفة المنصور من أبي مسلم الخراساني الخروج إلى البصرة بجيش جرّار لقتال عمّه ، وأخيراً إنتصر جيش أبي مسلم على جيش عبد الله بن علي الذي لجأ إلى أخويه سليمان وعيسى متخفياً عندهما . وبعد فترة توجّه الأخوان إلى المنصور وطلبا منه الصّح عن أخيها عبد الله ، فقبل المنصور شفاعتهم ، وتقرر أن يكتب عهد أمان ليوّقه المنصور الدوانيقي .

وبعد عودتهما إلى البصرة أوكل إلى ابن المقفع الذي كان يعمل حينها كاتباً لدى عيسى ، كتابة عهد الأمان ، وطلبا منه أن يكون الكتاب من القوة بمكان بحيث يسلب الدوانيقي كل قدرة على إلحاق الأذى بأخيها عبد الله . فكتب ابن المقفع عهد الأمان وغالتي في تنظيمه ، حيث ذكر فيه أن المنصور الدوانيقي إذا ما مكر بعمّه عبد الله بن علي وألحق به الأذى فإن أمواله ستوزع على الرعية وسيعتق عبيده وجواريه ويصبح المسلمون في حلّ من بيعته . وعندما دخلا على المنصور وهما يحملان كتاب الأمان ليوّقه ، ثارت نائرتة فسأل عن الكاتب ، فقيل له إنه ابن المقفع ، فأمر المنصور بعد أن امتنع عن التوقيع ، أمر والي البصرة سراً بقتل ابن المقفع .

فرصة الإنتقام :

ولما كان سفيان والي البصرة يحمل ما يحمل في جوفه من عداٍ لابن المقفع الذي طالما مس كرامته وجرح شعوره ، ويتحین الفرصة للإنتقام ، جاءت أوامر الخليفة المنصور بقتل ابن المقفع لتلج صدر سفيان الذي استغل هذه الفرصة المناسبة للإنتقام من غريمه .

فأمر سفيان بحبس ابن المقفع في حجرة ، فدخل عليه وقال له : أتذكر ما قلته في شأنني وشأن أمي ؟ ، والله إن أمي لمغتلمة إن لم أقتلك قتلة لم ير الرعية مثلها من قبل ، فأمر سفيان باشعال التنور ، وجيء بابن المقفع وكان حينها في السادسة والثلاثين من العمر ، فأخذ يقطع من جسمه قطعة قطعة ويرميها أمام ناظريه داخل التنور ، وما زال كذلك حتى قضى بهذه الطريقة المفجعة^(١) .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : مَنْ زَرَعَ الْعُدْوَانَ حَصَدَ الْخُسْرَانَ^(٢) .

وقال أبو عبد الله الإمام الصادق عليه السلام : مَنْ زَرَعَ الْعَدَاوَةَ حَصَدَ مَا بَدَّرَ^(٣) .

إن عقل ابن المقفع وذكائه الخارق ليس فقط لم يساعده في بناء شخصيته وحسن تألفه مع مجتمعه ، بل كان لهما أثر سلبي عليه أيضاً ، فقد كان يستهزئ بالناس ويستحققهم بسبب غروره وتكبّره ، وهذا ما أوصله في النهاية إلى هذه الخاتمة المفجعة لحياته وهو في عزّ شبابه .

ونخلص إلى أن الخصائص الوراثية لكل شاب لها أثرها البالغ في تكوين شخصيته وتحقيق تألفه مع المجتمع ، وأن التركيبة الطبيعية لعقل الشاب

(١) موسوعة دهخدا، آ- أبو سعد ، ص ٣٥٢ .

(٢) غرر الحكم ، ص ٦٣٠ .

(٣) الكافي ٢ ، ص ٣٠٢ .

وجسمة تشكل مصدر جانب من صفات شخصيته الإجتماعية ، فإذا ما كانت تلك الصفات معتدلة وضمن حدودها الطبيعية ، إستطاع الشاب إحراز شخصيته بسهولة ، أما إذا كانت صفاته الطبيعية دون حدّها الطبيعي نتيجة عيوب وعاهات يعاني منها ، أو أنها تفوق حدّها الطبيعي نتيجة الذكاء الخارق الذي يتمتع به ، فإنه سيواجه مشاكل جمة في مسيرته لإثبات شخصيته .

دور البيئة في بناء الشخصية :

ثمة عامل آخر له علاقة مباشرة في بناء شخصية الشاب وتنظيم روابطه الإجتماعية ، وهو البيئة الطبيعية والتربوية الخاصة التي ينشأ فيها .

فالماء والهواء والحرارة والبرودة وكذلك الأب والأم والمدرسة والمجتمع والفقر والغنى الأسري والسلامة والمرض وما إلى ذلك من عوامل طبيعية واجتماعية ، كلها تشكل ركناً يقوم عليه جانب من شخصية الشاب .

الأسرة والمجتمع :

إن السلوك الحسن أو السيء والأخلاق الفاضلة أو الرذيلة التي اقتبسها الشاب من طفولته في كنف أبويه ومدرسته وزقاقه ، والتي ترسّخت في ضميره ، تشكّل جانباً من صفات شخصيته .

«ويؤكد علماء الإنسان (أنثروبولوجي) أهمية الأطر الثقافية والاجتماعية في بناء شخصية الإنسان . ومن جملة العوامل التي تركت أثراً بالغاً في تركيبة شخصية الإنسان ، بيئته المنطقية وطبقة أسرته والعلاقة بين أبويه ومستوى مدرسته ورفاقه وكل ما يرى ويسمع في حياته . وتأثير هذه العوامل في الطفل يبدأ منذ ولادته ، ويستمر معه ما دام حياً» .

أهم عوامل التربية :

«إن من أهم العوامل الإجتماعية المؤثرة في نفسية الطفل ، العلاقة

التي تنشأ بينه وبين أبويه ، فإذا ما كان أبواه متصلبين لا يقدان عليه العطف والحنان ، أصبح الطفل متقوقاً يهجر عالم الحقيقة والواقع ليلجأ إلى عالم الخيال بحثاً عما لم ينله في حياته العادية . ثم ان الأبوين قد يظهران لطفلها محبة تفوق الحد الطبيعي ، مما يدفعه إلى الغرور ، وربما جعلاه من حيث لا يدريان يتكلم عليهما في أي قرار ينوي اتخاذه ، ليصبح بالتالي إنساناً إتكالياً . وقد يعتمد بعض الآباء والأمهات إلى خلق جوٍّ من الجدل والنزاع داخل الأسرة ، متجاهلين أن ذلك يشكل أحد العوامل المؤثرة في شخصية الطفل»^(١) .

عن أبي جعفر الإمام الباقر عليه السلام قال : يُحْفَظُ الْأَطْفَالَ بِصَلَاحِ آبَائِهِمْ^(٢) .

وهنا لا بد من إعطاء بعض التوضيحات التي تبرز دور البيئة في تكوين شخصية الأبناء ، وتساعد الشباب في معرفة مدى تأثير الأسرة والمجتمع في تبلور صفاتهم الاجتماعية .

إن الوطن يعتبر بمثابة الأسرة الكبيرة ، والأسرة تعتبر بمثابة الوطن الصغير ، وتضم الأسرة مجموعة من الأفراد كباراً وصغاراً ، أما الوطن فيضم مجموعة من الأسر كبيرة وصغيرة ، وبعبارة أدق يشكل الفرد أحاد الأسرة ، وتشكل الأسرة أحاد المجتمع أو الوطن .

أسلوب إدارة الأسرة :

إن أسلوب إدارة البلاد وسياسة الحكومة في المجال الاجتماعي لا شك أنهما يتركان أثراً على أسلوب تفكير الآباء والأمهات ، ويسهمان في بلورة

(١) مبادئ علم النفس ، ص ١٥٧ .

(٢) بحار الأنوار ، ص ١٧٨ .

شخصيتهما المعنوية على هذا الأساس . فيأتي الأبوان ليديران أسرتهما وفقاً لاسلوب تفكيرهما ، وسعيان إلى بناء شخصية ابنهما على أساس هذا الاسلوب ، يعني أن الأطفال يتأثرون بمحيطهم الأسروي والإجتماعي تأثراً مباشراً .

«يقول مونتسكيو : إن قوانين التربية هي أول من يحكمنا ، ولما كان الهدف من هذه القوانين إعدادنا لتكون حلقة ضمن سلسلة من الحلقات تكوّن المجتمع ، فإنه يجب إدارة كل أسرة صغيرة وفقاً لما تقتضيه الأسرة الكبيرة أي المجتمع الذي يتألف من إتحاد الأسر الصغيرة» .

«إذا كانت هناك مبادئ تحكم المجتمع ، فإن نفس تلك المبادئ ستحكم الأسر الصغيرة التي يتألف منها المجتمع ، ولكن قوانين التربية تختلف باختلاف نوع الحكومات . فإذا كانت الحكومة دستورية بنيت قوانينها على أساس الكرامة والشرف ، وإذا كانت جمهورية بنيت هذه القوانين على التقوى ، أما إذا كانت إستبدادية فإنها تبنى على سياسة الإذلال والترهيب»^(١) .

«يقوم المنهج التربوي لدى الحكومات الدستورية على أساس تهذيب النفس والأخلاق وبناء جيل صالح عنوانه السخاء والكرم ، أما لدى الحكومات الإستبدادية فإن هذا المنهج يقوم على أساس إذلال الناس وتحقيرهم وإعداد جيل متشتت عنوانه العبودية والخضوع» .

«وفي ظل النظم الإستبدادية يتحول كل منزل إلى حكومة قائمة بحد ذاتها ، وينحصر المنهج التربوي فيها في إطار إذلال الناس وإرعابهم ، وفي ظل هكذا أجواء يصبح العلم عاملاً خطيراً تمنعك نتائجه سلباً على المجتمع»^(٢) .

(٢١) روح القوانين ، ص ٣٨ و ٤٢ .

المحيط الإجتماعي والسياسة العامة :

رغم أن محيط الأسرة الضيق النطاق ومحيط المجتمع الواسع النطاق يلعبان دوراً مؤثراً في بناء شخصية الفرد وتبلور صفاته الإجتماعية ، إلا أن تأثير المحيط الإجتماعي والسياسة العامة في هذا المجال يفوق تأثير محيط الأسرة والأبوين في الإنسان .

قال علي رضي الله عنه : النَّاسُ بِأَمْرَائِهِمْ أَشْبَهُ مِنْهُمْ بِآبَائِهِمْ ^(١) .

الأسرة والحالة الإقتصادية :

من العوامل الأخرى التي تلعب دوراً مؤثراً في بناء شخصية الطفل ، ويريز هذا الدور سلباً أو إيجاباً خلال مرحلتي البلوغ والشباب ، هي الحالة الإقتصادية والوضع المالي للأسرة .

فالأب الذي يوازي دخله نفقات الأسرة ، ويدبر أسرته بما يحفظ سمعته وكرامته أمام المجتمع ، يعتبر من الطبقة المتوسطة . والطفل وسط أسرة كهذه يكون طبيعياً من الناحية النفسية ، لأنه يستطيع إرضاء ميوله ورغباته بالشكل المطلوب ، ولذا فإنه سيصبح ذا شخصية جيدة ومناسبة إن لم تعترضه عقبات أخرى . وقد اعتبر أئمتنا رضي الله عنهم كفاف العيش من حيث الدخل والنفقة بأنه أفضل العيش وأنه ركن من أركان السعادة .

فقد روي عن العالم (الإمام موسى بن جعفر) رضي الله عنه أنه قال : طُوبَى لِمَنْ آمَنَ وَكَانَ عَيْشُهُ كَفَافاً ^(٢) .

أثر الحالة الإقتصادية في الشخصية :

إن الوضع المالي والإجتماعي للأسرة ينعكس بشكل مباشر أو

(١) بحار الأنوار ١٧ ، ص ١٢٩ .

(٢) بحار الأنوار ١٥ ، القسم ٢ ، ص ٢٣٦ .

غير مباشر على نمو شخصية الطفل وتكاملها ، فالطفل الذي تتوفر له جميع وسائل الحياة ويتم إرضاء ميوله بصورة جيدة ، قلماً يواجه صعوبات في حياته ، وهذا ما يساعد على نمو شخصيته بشكل جيد ، أما الطفل الذي يكون محروماً من هذه النعمة ، فإنه يشعر في قرارة نفسه على الدوام بالنقص والحقارة^(١) .

أما الآباء الذين لا يوازي مدخولهم نفقاتهم اليومية ، وهم عاجزون عن تحقيق متطلبات أسرهم من لوازم العيش الضرورية ، فيعدّون من الطبقة الفقيرة للمجتمع . والطفل في ظل أسرة فقيرة غالباً ما يعاني من النقص والحرمان ، ويشعر في أعماقه بالتخلف . ولا شك أن مرارة هذا الشعور تنعكس سلباً على بناء شخصيته ، وتشكّل عقبات وموانع كثيرة في طريق التآلف مع المجتمع .

الفقر وضعف الشخصية :

ويعاني الفرد الذي يربى وسط أسرة فقيرة الحال معدمة من ضعف في الشخصية خاصة في مرحلة الشباب ، فهو يشعر بالحقارة وأحياناً بالتخلف والحرمان نتيجة الفقر والعوز ، وهذا الشعور المؤلم يربك نفسيته ويؤثر في عقله وفطنته ، ويولد في نفسه الإحساس بضعف الشخصية .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : **الْفَقْرُ يُخْرِسُ الْفَطْنَ عَنْ حُجَّتِهِ وَالْمُقْبَلُ غَرِيبٌ فِي بَلَدَيْهِ**^(٢) .

وعنه عليه السلام : **إِنَّ الْفَقْرَ مُنْقَضَةٌ لِلدِّينِ ، مَذْهَبَةٌ لِلْعَقْلِ ، دَاعِيَةٌ لِلْمَقْتِ**^(٣) .

سوء الظن والإضطراب :

«للعوز تأثير سلبي على شخصيتنا ، فهو يولد الهمّ والغمّ والكآبة ،

(١) علم نفس النمو ، ص ٤١٩ .

(٢) سفينة البحار ، فقر ، ص ٣٧٩ .

(٣) نهج البلاغة ، الكلمة ٣١١ .

والإنسان الذي لا يستطيع أن يؤمن احتياجات أسرته من مأكـل ومشرّب وملبس ومأوى ، تراه على الدوام قلقاً مضطرباً حيراناً يسيء الظن بالآخرين وينقم عليهم» .

«هذه هي حال كل من يعاني من الفقر والعوز ، وهذه المعاناة لا شك أنها تنعكس سلباً على صفات الإنسان ويخلقه ، بحيث أننا لا نستطيع أن نتوقع من مثله خلقاً جميلاً وتضحية ووفاء بالمعهد وما إلى ذلك من خصال حميدة» .

«والفقير المعدم الذي يشعر بضعفه وحطته أمام الآخرين ، يعاني دائماً من الضعف والقلق والخوف ، مما يفقده الكثير من استعداداته ونشاطه وحسن خلقه ، ومثل هذا الإنسان سيصبح إذا ما استغنى يوماً مغروراً عديم الشفقة والرحمة والحياء»^(١) .

«لقد أعلنت رابطة التعاون الوطني للطلبة الجامعيين في كراس صدر عنها أن ألفاً من أصل مائة ألف طالب جامعي يعانون من أمراض نفسية ، فهم يشعرون في الأحياء الجامعية والمطاعم الخاصة بالجامعات وكأنهم داخل سجون مغلقة ، لأنهم يشعرون بالتبعية لها على الدوام من الناحية الاقتصادية ، أي أنهم في حالة انتظار مستمر لأموال تصلهم من ذويهم أو شيكات تأتيهم من أسرهم يؤمنون بها احتياجاتهم التي لا خلاص منها ، وهذا ما يجعلهم رغم ثقافتهم يتخلفون عن أولئك الذين تمتلئ جيوبهم بالمال من ناحية النمو الفكري . وشباب اليوم يرى في المال رمزاً للإستقلال»^(٢) .

(١) البهجة ، ص ١٦٧ .

(٢) مجلة حقوق اليوم ، السنة الأولى ، العدد ٦ .

الثروة والشخصية :

ولا يخفى على أحد أن ثروة الآباء وأموالهم قد يكون لها مردود سلبي على الأبناء كما هو الحال بالنسبة للفقير والعوز ، فقد تسهم الثروة في بناء شخصية الشاب بشكل فاضح وسيء ، مما سيجعله أمام مشاكل وعقبات كبيرة في مسيرته الحياتية .

فالجهلة من الآباء والأمهات ممن ينفقون ثرواتهم دون حساب إرضاء لميول أبنائهم ، ويزرعون في نفوسهم روح الأنانية وعبادة الهوى والشهوات ، ليس بمقدورهم أبداً أن ينموا لأبنائهم شخصية حسنة ومسؤولة ، ويعدّوه إعداداً سليماً للتألف مع مجتمعهم .

الأبناء وروح التمرد والعداء :

إن تبديد ثروة الأسرة بشكل عشوائي ، يشكل أخطاراً كبيرة على الأبناء ، وقد يزرع في نفوسهم روح التمرد والعداء وحب الشهوة والرذيلة والكسل والإسراف والكبر والغرور ، ونتيجة لكل هذه الصفات الذميمة يصبح الشاب عاجزاً عن تكييف نفسه مع محيطه الاجتماعي ، وبالتالي فإنه يواجه موجة من الإستياء والنفور الاجتماعي .

قال تعالى في كتابه العزيز : ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيْسْفَنَى أَنْ رَأَهُ اسْتَفْتَى﴾^(١) .

وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام : المال مادة الشهوات^(٢) .
ومن العوامل الأخرى التي لا شك أنها تترك أثراً بالغاً في بناء شخصية الأبناء ، هي الصفات الأخلاقية للوالدين والمربين وسائر أفراد المجتمع . فالخشونة والليونة والنقمة والرحمة وحسن المعاشرة وسوء التعامل والشجاعة والجبين والسخاء والبخل والتواضع والتكبر وعزة النفس والتعلّق ، وما إلى ذلك

(١) سورة العلق ؛ الأيتان : ٦ و ٧ .

(٢) نهج البلاغة ، الكلمة ٥٥ .

من صفات أخلاقية تجتمع في الأبوين ، تنتقل بشكل دينا ميكاني إلى الأبناء وتؤثر كل التأثير في بناء شخصيتهم ونجاحهم أو فشلهم في التكيف مع المجتمع . كما تلعب الأساليب التربوية الأخلاقية التي يتتبعها المدير والمعلم والطلبة في محيط المدرسة ، والمرأة والرجل وعامة الناس في محيط المجتمع ، تلعب دوراً كبيراً في التأثير على الصفات الأخلاقية للطلبة وتكوين شخصيتهم ، فالمحيط بمعناه الواسع الذي يشمل البيت والمدرسة والمجتمع يعتبر قاعدة تكوين جانب مهم من شخصية الإنسان ، ويعود نجاح الإنسان أو فشله في التآلف الإجتماعي إلى الصفات التي يكتسبها من محيط الأسرة والمدرسة والمجتمع .

الفضائل الأخلاقية :

إن أولئك الذين يترعرعون في ظل تربية سليمة يوفّرها لهم الآباء والأمهات والمربّون الأكفاء ، ويتعلمون منهم الإيمان والصدق والتواضع والرحمة وحسن الخلق والتعامل ، وبالتالي يكتسبون كل الفضائل الأخلاقية والصفات الحميدة ، تكون لهم شخصية تليق بهم كأفراد داخل مجتمعاتهم ، ويحظون بحب الناس واحترامهم وتقديرهم ، وغالباً ما يكون النجاح من نصيبهم في التعامل الإجتماعي العام .

قال تعالى في كتابه العزيز : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾^(١) .

محبة الناس :

عن أبي جعفر الإمام الباقر عليه السلام قال : البِشْرُ الحَسَنُ وَطَلَاةُ الوَجْهِ مَكْسَبَةٌ لِلْمَحَبَّةِ وَقُرْبَةٌ مِنَ اللَّهِ^(٢) .

(١) سورة مريم ؛ الآية : ٩٦ .

(٢) بحار الأنوار ، ١٧ ، ١٦٤ .

وقال الإمام الصادق عليه السلام : التواضع أضلُّ كُلِّ شَرَفٍ نَفِيسٍ وَمَرْتَبَةٍ رَفِيعَةٍ (١) .

وقال أمير المؤمنين عليه السلام : مَنْ تَأَلَّفَ النَّاسَ أَحْبَبَهُ (٢) .

وعن أبي عبد الله الإمام الصادق عليه السلام قال : مَنْ كَانَ رَفِيقًا فِي أَمْرِهِ نَالَ مَا يُرِيدُ مِنَ النَّاسِ (٣) .

الأخلاق الذميمة :

أما أولئك الذين يترععون في ظل تربية خاطئة يوفِّرها لهم الآباء والأمهات والجهلة من المرابين ، ويتعلمون منهم عدم الإيمان وسوء الخلق والقساوة والتكبر والأنانية والحرص والطمع ، ويكتسبون من محيطهم الاجتماعي الأخلاق الذميمة ، فإنهم يكونون من أصحاب الشخصية المريضة المنبوذة ، يستحقرهم الناس وينفرون منهم ، وغالباً ما يكون الفشل حليفهم في التعامل الاجتماعي العام .

قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ (٤) .

الصفات الذميمة :

عن أبي جعفر الإمام الباقر عليه السلام قال : عُبُوسُ الْوَجْهِ وَسُوءُ الْبَشْرِ مَكْسَبَةٌ لِلْمَقْتِ وَيُعَدُّ مِنَ اللَّهِ (٥) .

وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام قال : مَنْ رَضِيَ عَن نَفْسِهِ كَثُرَ السَّخِطُ عَلَيْهِ (٦) .

(١) المحجة البيضاء ، ٦ ، ص ٢٢٥ .

(٢) غرر الحكم ، ص ٦٢٢ .

(٣) الكافي ، ٢ ، ص ١٢٠ .

(٤) سورة يونس ؛ الآية : ٢٧ .

(٥) بحار الأنوار ، ١٧ ، ص ١٦٤ .

(٦) نهج البلاغة ، الكلمة ، ٦ .

وعنه رحمه الله قال : مَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ الْجِرْصُ عَظَمَتْ ذِلَّتُهُ ^(١) .

والملاحظ من خلال ما ورد من أحاديث أن هناك تأكيداً على التحلي بالصفات الحميدة ونبذ الصفات الذميمة ، لتحقيق النجاح في التآلف الإجتماعي واكتساب مودة الناس وحبهم واحترامهم . فقد حرص أئمتنا الأطهار رحمهم الله على دعوة الناس من خلال برنامج تربوي متكامل يهدف إلى بناء الشخصية وحسن التآلف الإجتماعي ، إلى التحلي بفضائل الأخلاق والصفات ، محذرين إياهم من سوء الأخلاق ورذائل الصفات .

(١) غرر الحكم ، ص ٦٢٩ .

المحاضرة السابعة عشرة

حول الشاب ونمو الشخصية

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى في محكم كتابه : ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِيَتَلَوْهُمْ
أُيُوهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾^(١) .

نمو الشخصية :

إن الشخصية الإجتماعية للإنسان وصفاته الأخلاقية هي كسائر أعضاء جسمه وعضلاته في حالة نمو مستمرة منذ الأيام الأولى لولادته ، ولكل من العوامل الطبيعية والظروف التربوية دور في تنمية الصفات الأخلاقية للإنسان ونمو شخصيته ، حيث ترسّى قواعد أخلاقه وطبائعه شيئاً فشيئاً ، وعلى أساسها يبني علاقاته مع المجتمع .

وهنا يأتي دور الآباء والأمهات والمربين ، إذ تدعوهم المسؤولية إلى الإشراف على أبنائهم إشرافاً صحيحاً وبناء شخصيتهم على الصفات الحميدة . كذلك ينبغي على الشباب أن يراقبوا أنفسهم ويلتفتوا إلى أخلاقهم وصفاتهم ، وأن يبادروا إلى إصلاح كل صفة رذيلة قد يكتسبونها .

(١) سورة الكهف ، الآية : ٧

تدارك النقص :

«إعلموا أن شخصيتكم كانت منذ ولادتكم وما زالت في حالة نمو مستمر، لذا قد تحسنون تكوينها لما فيه خيركم وسعادتكم إن كنتم صادقين مع أنفسكم ، أي ينبغي عليكم أن تفكروا بسبل تدارك النواقص الموجودة في شخصيتكم دون خجل أو وجل ودون استثناء أي منها ، لأن العيب أو النقص لا يمكن أن يبعث على الحياة إلا حينما لا نبادر إلى تداركه»^(١) .

الشخصية والنشئة الطبيعية :

إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن الصفات الطبيعية والمميزات التكوينية لكل إنسان ، هي أساس جانب من شخصيته ، وأن الصفات والمميزات المختلفة التي يحملها الطفل منذ ولادته تختلف من واحد لآخر ، نستنتج أن النشئة الطبيعية لشخصية الإنسان منذ ولادته تختلف من شخص لآخر ، وتبدأ أخلاق الإنسان وطبائعه التي تشكل فيما بعد صفات شخصيته تتبلور تدريجياً على أساس هذا الاختلاف .

«لقد أظهرت الدراسات التي أجراها علماء النفس حول المولود حديثاً ، أن هناك اختلافات في سلوك وطبائع الأطفال منذ الأيام الأولى للولادة ، فثمة طفل هادئ مستقر ، وثمة طفل عصبي غاضب غير مستقر يبكي باستمرار . وقد يكون للفترة التي يقضيها الطفل في بطن أمه وطريقة ولادته أثر في سلوكه العام ما بعد الولادة ، حتى لدى الأطفال الذين يولدون من أم واحدة ولهم أب واحد ، هناك اختلافات في الطبائع والسلوك» .

«ومن طفل لآخر تفاوت الأخلاق والخصال والتركيبة العامة من

حيث نوع النشاط وقدرة العضلات، ونسبة التكيف مع البيئة والقدرة الجسمانية وقابلية المقاومة ضد الالام، الإستعداد للتبسم أو البكاء أو ما شابه ذلك من انفعالات أو ردود فعل» .

«ويعتقد بعض علماء النفس أنه يمكن من خلال ردود الفعل والإنفعالات الأولية للطفل تحديد (نطفة شخصيته) التي تعتبر نتيجة قدرته العصبية وطريقة عمل شدده وقابليته الجنسية»^(١) .

الرضيع وردود الفعل :

يرى علماء النفس أن الحياة النفسية للرضيع معقدة للغاية وغامضة ، بحيث تضاربت الآراء حولها . فالبعض من علماء النفس يعتقد أن الرضيع لا يملك شخصية معنوية ونفسية ، وكل ما هناك سلسلة من ردود الفعل تصدر عنه في الأشهر الأولى من ولادته ، وتبدأ شخصيته تتبلور وتظهر منذ أن يشعر بوجوده بين الآخرين ، حينها فقط تبدأ خصوصياته الخلفية والنفسية بالظهور . والبعض الآخر من علماء النفس يعتقد أن للرضيع منذ ولادته شخصية معنوية خفية ليس بمقدوره إبرازها لأنه يفتقر للوسيلة .

الطفل والشخصية الخفية :

«من النقاط الأساسية التي تميّز بها الطب النفسي الحديث عن نظيره في العصور السالفة ، هو التوصل إلى وجود شخصية حقيقية خفية لدى الطفل ، وهذه الشخصية ليس لها أي مظهر خارجي حتى في الحالات التي يبدو فيها الشعور الظاهر للطفل عشوائياً ولا إرادياً ، وهذه المسألة تضطرننا إلى الرجوع لكتاب العالم النفساني «باروك» (الطب النفسي الأخلاقي والتجريبي والفردي

(١) علم نفس الطفل ، ص ٣٠٧ .

والإجماعي) ، حيث قدّم «باروك» تعريفه لهذه الشخصية على الشكل الآتي :

ردود فعل غامضة :

«إذا ما نظرنا إلى مريض نفسي وأخضعنا كل انفعالاته لدراسة وتحليل دقيقين ، لاتضح لنا بعد فترة وجيزة أن وراء هذه الإنفعالات التي قد يبدو بعضها غير طبيعي ومثيراً للدهشة والإستغراب ، إنساناً حقيقياً يشعر ويتألم ويميّز ويبدّي ردود فعلٍ مختلفة مثل مثله مثل أي إنسان سليم ، وغاية ما في الأمر أن انفعالاته وأعماله هذه كانت مبطنّة أو مخفية وأخذت تبرز بصورة غير مباشرة ومثيرة للدهشة والغرابة . وسبب هذه المظاهر هو ما أطلق عليه «باروك» اسم الشخصية العميقة والخفية» .

«وفي الأطفال الرّضع الذين يشبهون في كثير من الجوانب من الناحية الفيزيولوجية المجانين ، تثبت انفعالاتهم وردود أفعالهم الدفاعية وميولهم أن لهم شخصية لم تظهر بعد ، لأنهم يفتقرون لقدرة إظهارها ، وذلك بالرغم من أنهم يفتقدون قدرة التكلم أو القيام بأية حركة أخرى معبّرة .

إلا أن قدرة إظهار الشخصية التي تعتبر منعدمة تماماً لدى المجانين نتيجة المرض ، موجودة لدى الأطفال الرّضع لكنها لم تنمُ وتتوسع بعد»^(١) .

نمو الجسم والشخصية :

تنمو شخصية الطفل الرضيع تدريجياً مع نمو قواه الجسمية والعصبية . فالطفل الذي يبلغ من العمر عامين ، يكون قد تخطى مرحلة الرضاعة ، وتعلّم

(١) الطب النفسي للطنن ، ص ٣٠٧ .

الكثير من المسائل من أبويه ، واجتاز مراحل متعددة في طريق تنمية شخصيته ، فهو قد التقط جميع الصفات الحسنة والسيئة من محيط الأسرة ، وتطبعت نفسه عليها ، وهي تصدر منه أثناء لعبه أو الإحتكاك بالآخرين ، ومن هنا تتكون شخصيته سيئة كانت أم حسنة .

تفتح العواطف والأحاسيس :

والمرحلة الثانية للطفولة تبدأ من العام الثالث بعد الولادة وحتى سن الحادية عشرة أي بداية مرحلة البلوغ . وخلال هذه المرحلة الطويلة إلى حد ما ، تحصل تطورات وتحولات كبيرة على جسم الطفل ونفسيته ، مما يترك أثراً بالغاً على نمو شخصيته . ففي هذه المرحلة تزداد قوة إدراك الطفل وتفتح عواطفه وأحاسيسه وتتضاعف غرائزه وميوله بشكل ملحوظ ، حيث تزداد سرعة حركة الطفل ويركز سلوكه وبيانه ، وتكتمل الصفات التي كان قد التقطها في المرحلة الأولى للطفولة ، وتنمو شخصيته مهما كان اتجاهها .

«تسيطر على الطفل منذ بداية المرحلة الثانية للطفولة وربما قبل هذه المرحلة أحياناً ، حالة من التوتر الخلقي وتجتمع فيه المتناقضات من قبيل الغرور أو التواضع ، الفرح أو الحزن ، سوء الظن وعدم الثقة أو حسن الظن والثقة ، التسامح أو الثأر ، الحقد أو المحبة ، وغير ذلك من السجايا الأخلاقية الحميدة أو الذميمة ، وبذا تتشكل قاعدة الطبيعة النفسية للطفل ، وهناك بعض الأطفال ممن يستحيل وصف حياتهم الداخلية ونفسياتهم لغموضها .

وانطلاقاً من هذه المرحلة تتبلور طبائع الفرد ويبرز مسلكه النفسي الذي سيؤثر على حياته الفردية والإجتماعية» .

تجلي الضمير الأخلاقي :

«وفي المرحلة الثانية للطفولة تتجلى مفاهيم الإخلاص والشعور

بالمسؤولية والإحترام وغيرها ، وغالباً ما يسيطر الضمير الأخلاقي
أي حسّ التمييز بين الخير والشر على شخصية الفرد . وتنشأ
معظم الأحاسيس مثل العفة والستر والندم والحياء وأحياناً
الإنحرافات العدوانية ، من اختلالات تصيب الضمير الأخلاقي أو
صددمات خفيفة تلحق به نتيجة نمو الغرائز .

التمييز بين الخير والشر :

«لقد أجرى «بياجيه» ضمن سلسلة تحقيقاته الشهيرة والمثيرة
للإهتمام دراسة حول مراحل نمو حالة التمييز الوجداني لدى
الأطفال ، معتمداً على اختبارات خاصة . وقد أثبت هذا العالم
المعروف أن التمييز الوجداني يكون لدى الأطفال الذين تتراوح
أعمارهم بين ٦ - ١٢ سنة ، ضعيفاً في البداية ومعتمداً على
الغرائز والمويل المادية ، ويبدأ بالنمو تدريجياً حتى يصل إلى حدّ
الدقة في الإدراك الإرادي والشعور بالمواساة والمسؤولية وبالتالي
التمييز بين الخير والشر»^(١) .

وتضطرب خلال الدورة الثانية للطفولة ظروف حياة الطفل شيئاً فشيئاً ،
ويبدأ الطفل يواجه ظروفاً وأحوالاً جديدة . وفي هذه الدورة بالذات تزداد قوة
إدراك الطفل وتتفتح عواطفه وأحاسيسه وتعزز قدرته البدنية ويتوسع نطاق
نشاطاته ، وتتضاعف ثقته بنفسه إلى حد الإعتماد على النفس ، وذلك نتيجة
نمو قواه المادية والمعنوية .

وفي هذه الدورة أيضاً ينطلق الطفل إلى خارج محيط الأسرة ، ليدخل
إلى الروضة ومن ثم إلى المدرسة ، ويرى وجوهاً جديدة ويتعرف على أشخاص
لم يكن يعرفهم من قبل . فيتترك المحيط العام للروضة والمدرسة وطبائع

(١) الطب النفسي للطفل ، ص ٢٧ .

الأطفال ومواعظ المرين والمعلمين ، وكل ما يراه ويسمعه أثراً في نفسيته يساعد على نمو شخصيته سلباً كان أم إيجاباً .

تفجّر الإستعدادات :

كذلك يسهم اعتدال الأبوين في محبتهما للطفل وتنويه المعلم والمرتبّي له ، في تفجّر الإستعدادات الكامنة في أعماق الطفل ونمو شخصيته نمواً سليماً ، لأن عدم الإهتمام بالطفل وظلمه وتوبيخه دون سبب من قبل الأبوين والمعلم والمرتبّي ، من شأنه أن يجمع في أعماقه كل الإستعدادات ، ويولّد عقدة في نفسيته ، فتأتي شخصيته مريضة مهزوزة .

تكوّن الأخلاق :

بما أن الحديث ما زال حول الدورة الثانية من الطفولة ، نرى من الضروري أن نشير إلى أن الطفل في هذه الدورة يظهر حساسية خاصة تجاه أعمال وسلوك المحيطين به حسنة كانت أم سيئة ، كما تصدر منه ردود فعل مختلفة . ومما لا شك فيه أن الممارسات الخسنة أو الظالمة أو الممارسات الحسنة الصادرة عن المحيطين بالطفل ، وكذلك إحترام الطفل أو احتقاره وتوجيه الإهانة له ، كل ذلك يترك أثراً عميقاً في تكوّن أخلاقه وطبائعه ، وكذلك في كيفية نمو شخصيته . ويإنقضاء هذه الدورة يكون الطفل قد بدأ مرحلة البلوغ المحفوفة بالتوترات والإضطرابات . ويبدأ الطفل ما بين الثانية عشرة والخامسة عشرة من العمر ، مرحلة ثالثة من الطفولة وهي مرحلة المراهقة ، وتأثير هذه المرحلة على تكوّن أخلاق الطفل وطبائعه وكذلك نمو شخصيته أهم بكثير من تأثير المرحلتين الأولى والثانية .

أزمة البلوغ :

وبالرغم من أن شخصية الطفل تبدأ نموها منذ أيام الرضاعة ، ويستمر هذا النمو حتى إنقضاء المرحلة الثانية من الطفولة وهي مرحلة تسبق مرحلة البلوغ ، إلا أن هناك تغييرات جذرية تطرأ على جسم الطفل ونفسيته نتيجة

تأثيرات عوامل البلوغ التي تبرز خلال المرحلة الثالثة من الطفولة ، فيصيب الإرباك الشديد أخلاقه وطبائعه وتنقلب شخصيته لتدخل مرحلة جديدة من التفاعل والنمو ، وبايجاز نقول لا يمكن المقارنة بين تأثيرات المرحلة الثالثة على نمو شخصية الطفل وتأثيرات المرحلتين الأولى والثانية .

«بانتهاؤ مرحلة الطفولة الثانية يتعرض جسم الطفل ونفسيته لشوارة كبيرة تؤدي إلى بلورة شخصية البالغ ، وهذه المرحلة تسمى بمرحلة البلوغ» .

«ثمة تغييرات جذرية تطرأ على كافة أعضاء جسم الإنسان خلال هذه المرحلة ، أهمها تلك التي تطرأ على الجهاز الغددي للإنسان والتي تؤدي بالتالي إلى نمو الأعضاء التناسلية وظهور الخصائص الجنسية الثانوية ، كخشونة الصوت ، ونبت الشعر ، وزيادة النمو العضلي والطولي للإنسان ، ومن هنا فإن تغييرات مهمة وكثيرة تطرأ على كافة أعضاء جسم الإنسان» .

«وثة تآزر وتكامل ما بين الجهاز العصبي والجهاز الغددي ، أبرز ما يبدوان فيه في حالات التوتر الإنفعالي»^(١) .

تغييرات جذرية في الأخلاق والمعتقدات :

«إن التغييرات العضوية التي تحدث في بداية البلوغ تترك أثراً عميقاً في كيفية نمو شخصية الإنسان . والتصرفات الجديدة للبالغ حديثاً حيال نفسه وفي علاقاته مع الآخرين ، وكذلك رغباته وميوله الجديدة ، تشكل تغييراً جذرياً في أخلاقه وطبائعه» .

«وفي سن الثانية عشرة تطرأ تغييرات جذرية على أفكار الطفل

(١) الطب النفسي للطفل ، ص ٢٩ .

ومعتقداته ، وقد أثبتت التحقيقات التي أجريت حول الصفات والخصائص الأخلاقية التي تستأثر باهتمام الطفل ما بين الثانية عشرة والخامسة عشرة من العمر ، أن البالغ حديثاً يقف خلال هذه الفترة عند طفولية رغباته وميوله السابقة ، ويبدأ يتطلع إلى خصائص أخرى موجودة فيمن هم من عمره» .

«ففي سن الثانية عشرة تنجذب الفتاة وفقاً لثوابت وخصوصيات مرحلة البلوغ ، نحو شخصية الآخرين ، وما أن تصبح في سن الخامسة عشرة حتى تعتبر نفسها كاملة البلوغ ، فتسعى قدر استطاعتها لزيادة جاذبيتها ومحبوبيتها لدى الغير» .

«وفي هذه السنين بالذات تحصل تغييرات ملحوظة في أفكار الفتى ومعتقداته فيما يخص بقيمومة الآخرين عليه ، وقد يلزم الطفل في الثانية عشرة من العمر الشعور بالإستقلالية والغرور ، ويبقى متجاهلاً للأوامر الصادرة ممن هم أكبر منه سناً ، إلا أنه في منتصف مرحلة البلوغ تولد في نفسه رغبة شديدة لإبراز خصائص الرجولة الجديدة إن في خلقه أوفي طباعه ، ليثبت أنه قد بلغ فعلاً ويجب التصرف معه كرجل»^(١) .

ميول غير مستقرة :

تشكل عوامل البلوغ مصدراً للتحويلات الطبيعية التي تطرأ على جسم الفتى ونفسيته ، فظاهرة البلوغ تعكّر مزاج الفتى البالغ حديثاً وتجعله مضطرباً ، وهذا ما ينجم عنه رغبات مختلفة وميول حادة غير مستقرة تفتتح في أعماقه ، فكل رغبة تدفعه إلى اتخاذ تصميم ما وسلوك طريق ما ، ولكن لم يمض وقت طويل حتى يعود إلى رشده ويغيّر من تصميماته وسلوكه ، ولا بد من القول إن

(١) علم نفس الطفل ، ص ٣١١ .

هذا التغيير في التصميم والسلوك والإقدام والتراجع ، كل ذلك يساهم في تنمية قدرته على تمييز الأمور وتقييمها ، وينمي فكره ويمهد الأرضية لنمو شخصيته .

«إن مرحلة الطفولة الثالثة هي مرحلة تتكامل فيها أخلاق الفتى تدريجياً فيندفع للتكيف مع بيئته ومحيطه الأسري والاجتماعي . إن فترة البلوغ هي فترة القلق والإضطراب التي يصعب فيها التكيف مع المحيط» .

«والشخصية في هذه الفترة تكون متقلبة في البداية ، تتلون بعدة ألوان تناقض أو بالأحرى تبدو متناقضة وشخصية الفرد وما يحيط به ، ولكنه بالنتيجة مكتملة لتربية شخصيته» .

بناء الشخصية :

«إننا نخطئ إذا ما تصورنا أن المساعي التي تبذل لبناء الشخصية هي مساعٍ لا أهمية لها على مستقبلنا كالشكوك التي تعصف بالإنسان مع ولادة الغريزة الجنسية ، على العكس ، فهذه المساعي تشكل علامة واضحة على ميل الشخصية نحو وجهة معينة وتواصل رئيسي»^(١) .

قيم الحياة :

إن إحدى الحالات التي تشاهد بشكل عام في جميع البالغين حديثاً ، وتستحوذ على أفكارهم ، هي اهتمامهم بقيم الحياة على اختلافها . فالفتى يقف خلال مرحلة البلوغ على أهمية المسائل الاقتصادية والاجتماعية والعلمية والسياسية والأخلاقية والدينية والجمال وما شابه ذلك ، وترايد في نفسه علاقة خاصة تجاه كل ما من شأنه أن يؤثر على الحياة المادية والمعنوية للإنسان والتي تسمى بالقيم على حد تعبير علماء النفس .

(١) ماذا أعرف ؟ ، البلوغ ، ص ٧٣ .

«القيم ، كلمة تطلق في عرف علم النفس على كل ما من شأنه أن يسد احتياجات الإنسان أو يساعده على تأمين احتياجاته ، سواء كان شخصاً أو شيئاً أو فكرة أو حادثة . وليس للقيمة أي مفهوم غير تلك التي يوليها الإنسان لشيء ما ، ومن هنا فإن مفهوم القيمة مفهوم ذهني قد لا تربطه أي علاقة بالمفهوم الإجتماعي للقيمة ، أي القيمة التجارية لجنس ما أو عمل معين»^(١) .

تكوين الأخلاق على أساس القيم :

ثمة علاقة مباشرة بين تكوين أخلاق البالغين حديثاً والشبان وصفاتهم الشخصية وبين أسلوب تفكيرهم وتقييمهم للأشياء ، إذ تتكوّن أخلاقهم وطبائعهم بما يتناسب وتلك القيم . فالشبان يسعون إلى إيجاد نوع من التوافق بن أخلاقهم وصفاتهم والأشياء التي تكون حسب رأيهم ذات قيمة ، وطبيعي أن تؤثر الأشياء في تكوين أخلاق الشاب ونمو شخصيته ، كل حسب قيمتها لديه .

فالشاب الذي يعتبر العلم والدين هما الأكثر قيمة في هذه الحياة ، يسعى إلى بناء أفكاره وأخلاقه على أساسهما ، ويحاول أن يكتسب الصفات التي تتلائم وتحصيل العلم والإلمام بأمور الدين .

أما الشاب الذي يعتبر أن للثروة والمال أو التجمّل والتزيّن أو الرياضة قيمة ولا أسمى في هذه الحياة ، فتراه يسعى لأجلها ، ويحاول أن يكتسب من الصفات ما يتناسب وأهدافه .

زينة الحياة :

لقد عبّر الباري سبحانه وتعالى في كتابه العزيز عن قيم الحياة بكلمة «زينة» ، وجعلها وسيلة اختبار وامتحان لعباده ، ليعرف أيهم أحسن عملاً .

(١) نفس المصدر ، ص ١١ .

قال عزّ اسمه : ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾^(١) .

إن مصدر نجاح أو فشل الناس بشكل عام والشباب بشكل خاص وتقدّمهم أو تخلّفهم ، وسعادتهم أو تعاستهم ، هو زينة الحياة وقيمها وطبيعتها وكميتها .

فمن يسعى عبر الطرق المشروعة وبالمقدار الصحيح إلى الاستفادة من زينة الحياة وقيمها ، فإنه يبني لنفسه شخصية تليق به ، ويعيش حياته بهناء وسعادة ، ويكون من الأخيار الصالحين .

الشخصية الفاشلة :

ومن يحاول التهرب من أداء الواجب والقيام بالمسؤوليات المشروعة نتيجة ضعفه أو تقاعسه ، ولا يبالي لقيم الحياة التي تعتبر أساس سعادة الإنسان ، فإنه يبني لنفسه شخصية مهزوزة فاشلة ، ويعيش حياته بشقاء وتعاسة حتى يرحل عن هذه الدنيا .

أما ذلك الإنسان الذي يدفعه حب الحرص والشهوة والغرور والأنانية إلى الإتيان بالمحرمات والرذائل لتحقيق أهدافه ، فإنه يفسد شخصيته ، ويلوث نفسه بصفات ذميمة ، ويصبح منبوذاً في مجتمعه ، ويقضي حياته في الرذيلة والشقاء ، ويكون من الفاسدين البائسين ، وهذا كله يدخل في إطار اختبار الله سبحانه وتعالى لعباده .

إذن ، فمرحلة البلوغ والشباب هي مرحلة الإهتمام الشديد بقيمة الأشياء وزينة الحياة المادية والمعنوية بالنسبة للبالغين حديثاً والشباب ، ولهذا فإن أخلاقهم وشخصيتهم تنمو وتتوسع على أساس هذه القيم . وينبغي على الشباب

(١) سورة الكهف ؛ الآية : ٧ .

أن يعلموا أن الصفات التي يكتسبونها خلال هذه المرحلة سواء كانت حميدة أم ذميمة ، لها أثرها البالغ في سعادتهم أو شقتهم .

حساسية الشاب تجاه القيم :

«يستيقظ مفهوم القيم لدى الأطفال باكراً ولكن دون تحديد الجوانب ، ويبدأ هذا المفهوم الذي يكون على شكل رغبة أو أمنية لدى الطفل بالتوسع تدريجياً في حدود سن الخامسة عشرة ، ويكون الشاب حساساً جداً تجاه القيمة التي يوليها للأشياء والأعمال والأشخاص حسب مصالحه الشخصية وأفكاره ، فالتحية التي يلقيها على شخص ما تخرج عن كونها مجرد عادة ، حيث يعطيها قيمة معينة ، وفي العالم الذي يُوجده الشباب لأنفسهم ، يبدأون بإرساء قواعد عالم القيم إلى جانب دنيا العلم والمعرفة ، فيحدّدون القيم حسبما يرتأونها ، فتصبح ذات تأثير كبير في تنظيم سلوكهم وتحديد معتقداتهم»^(١) .

«ونتيجة لاستجابة الفرد لنداء القيم يتم تحديد موقعه من الشخصية ، فهذه القيم تولّد في نفسه جهازاً منتظماً ، وبهذا نستطيع أن ندرك المفهوم الأخلاقي للفرد الذي تشكل شخصيته الاجتماعية مظهره الخارجي»^(٢) .

قيمة أيام العمر :

إذا ما أراد الفتيان والشبان أن يكتسبوا من الأخلاق والصفات أحسنها ، ويحققوا لأنفسهم شخصية مناسبة ومتكاملة تساعدهم في بلوغ السعادة الحقيقية ، ينبغي عليهم أن يأخذوا بعين الاعتبار دائماً ثلاث نقاط أساسية هي :

(١ و ٢) ماذا أعرف ؟ ، البلوغ ، ص ١١١ و ١٢٠ .

أولاً - قيمة أيام العمر ، إذ ينبغي على الشاب أن يعلم أن كل يوم من أيام عمره هو بمثابة وحدة من مجموعة وحدات يتشكل منها عمره . ويرى أئمتنا عليهم السلام أن السعادة الحقيقية هي من نصيب ذلك الذي يستطيع أن يستفيد من كافة وحدات عمره خير استفادة ، ويخطو كل يوم خطوة نحو تحقيق الكمال المعنوي وتنمية شخصيته الإنسانية من أجل تحقيق السعادة .

عن أبي عبد الله الإمام الصادق عليه السلام أنه قال : مَنْ اسْتَوَى يَوْمَاهُ فَهُوَ مَغْبُورٌ وَمَنْ كَانَ آخِرُ يَوْمَيْهِ خَيْرَهُمَا فَهُوَ مَغْبُوطٌ وَمَنْ كَانَ آخِرُ يَوْمَيْهِ شَرَّهُمَا فَهُوَ مَلْعُونٌ وَمَنْ لَمْ يَزِدْ الزِّيَادَةَ فِي نَفْسِهِ فَهُوَ إِلَى النُّقْصَانِ وَمَنْ كَانَ إِلَى النُّقْصَانِ فَالْمَوْتُ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الْحَيَاةِ (١) .

إختلاف نظرة الشباب إلى القيم :

ثانياً : قيم الحياة ، إذ يرى البعض من الشباب أن العلم والإيمان والتقوى والفضيلة والجد والمثابرة وما شابه ذلك من أسمى قيم الحياة ، فيعملون على بناء شخصيتهم بما يتناسب وهذه القيم التي تساعدهم في تحقيق مكائهم الإجتماعية .

أما البعض الآخر من الشباب فيرى أن لعب الميسر وشرب الخمر والإتيان بالفواحش والمعاصي وإشباع الشهوات والغرائز وما شابه ذلك ، هي أسمى ما في هذه الحياة ، فيبدلون ما بوسعهم في سبيلها ، ويحاولون بناء شخصيتهم وإحراز مكائهم الإجتماعية بما يتناسب ومعتقداتهم الخاطئة .

إن إختلاف نظرة الشباب إلى قيمة الأشياء والأفعال لا يعكس فقط إختلاف نفسياتهم وطريقة تفكيرهم ، بل إن هذا الإختلاف في وجهات النظر والأهداف يبين أيضاً مكانة كل منهم وقيمتهم المعنوية . فالشاب الذي يرى أن في الكمال المعنوي والسمو النفسي أسمى قيم الحياة ، ويصبح محبوباً في

(١) معاني الأخبار ، ص ٣٤٢ .

مجتمعه بفضل علمه وإيمانه ، فإن قيمته لن تكون غير قيمة العلم والإيمان . والشاب الذي يكرّس جلّ اهتمامه ليحصل على ثروة كبيرة من المال تعزز له مكانته الإجتماعية ، لن تكون قيمته سوى قيمة المال والثروة . أما الشاب الذي يرى في تحقيق مركز بطولي أسمى القيم ، ويبدل ما بوسعه لتحقيق هدفه ، فإن قيمة شخصيته تقاس بقيمة بطولته أو المركز الذي حققه . ونخلص إلى أن قيمة كل انسان تحددها الصفة التي تقوم على أساسها مكانته الإجتماعية .

عن الإمام الجواد عليه السلام قال : قال علي عليه السلام : قِيمَةُ كُلِّ امْرِئٍ مَا يُحْسِنُهُ^(١) .

إختيار القيم الحقيقية :

إن الشاب مكلف بتحديد القيم الحقيقية التي تعود عليه بالنفع في حياته ، وذلك بالإستعانة بالتعاليم الإلهية والمربيين الأكفاء ، كما ينبغي عليه أن يتوخى الدقة في اختيار الأنسب منها ، وأن يكرّس حياته لما يحقق له مكانة إجتماعية مرموقة وسعادة دائمة .

وثمة شبان يغوصون في الإثم والرذيلة ويعتبرون ذلك أسمى ما في الحياة ، فيهددون أعمارهم في سبيلها ويفرقون في نكباتها وويلاتها ، وبعد أن يهدروا فرصة الشباب التي لا تعود ويضيعوا ثروة أعمارهم ، تراهم يعترفون بأخطائهم ويندمون على ما فعلوا حيث لا ينفع الندم .

عن أبي جعفر الإمام الباقر عليه السلام قال : ما مِنْ نَكْبَةٍ يُصِيبُ الْعَبْدَ إِلَّا يَذْنِبُ^(٢) .

تضييع الفرصة :

يلجأ بعض الشباب إلى أمور وهمية يتصوّرونها بأنها من قيم الحياة ،

(١) بحار الأنوار ، ١٧ ، ص ١٠١ .

(٢) الكافي ، ٢ ، ص ٢٦٩ .

فبدل أن ينشغلوا مثلاً بالدراسة خلال الفصل الدراسي ، ينكبون على مطالعة بعض الكتب غير المفيدة والضارة أحياناً ، ليتعبوا أدمغتهم بقراءة وحفظ سيرة حياة نجوم السينما وما شابه ذلك ، بدل أن يسعوا إلى تنميتها عن طريق مطالعة القضايا العلمية المفيدة ، وهذا ما سيجعلهم يتأخرون في دراستهم وتقدمهم في المجال العلمي ، هؤلاء أيضاً سيندمون يوماً ما على تضييعهم الفرص ، ولكن ندمهم سيأتي متأخراً .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : مَنْ شَغَلَ نَفْسَهُ بِمَا لَا يَجِبُ ضَيَّعَ مِنْ أَمْرِهِ مَا يَجِبُ^(١) .

الأخلاق الحميدة والذميمة :

ثالثاً : حدود القيم الأخلاقية ، فثمة عامل آخر له أهمية بالغة في نمو شخصية الشاب نمواً صحيحاً ، ألا وهو معرفة الأخلاق الحميدة والتمييز بينها وبين الأخلاق الذميمة . ولكن ثمة مشكلة تعترض الشاب في هذا الطريق ، وهي أن بعض الأخلاق الحميدة إن زادت عليها أصبحت ذميمة ، أي أن الإنسان ذا الخلق الحسن قد يسوء خلقه إن هو تغافل أو تجاهل . فعزة النفس مثلاً التي تعتبر من الصفات النبيلة لشخصية الإنسان ، تتحول إلى تكبر مذموم إذا ما فاقت حدّها الطبيعي ، وكذلك التواضع وهو من الأخلاق الحميدة يصبح تملقاً مرفوضاً إن زاد عن حدّه .

قال الإمام أبو محمد العسكري عليه السلام : إِنَّ لِلشَّخَاءِ مِقْدَاراً فَإِنْ زَادَ عَلَيْهِ فَهُوَ سَرَفٌ وَلِلْحَزْمِ مِقْدَاراً فَإِنْ زَادَ عَلَيْهِ فَهُوَ جُبْنٌ وَلِلْإِقْتِسَادِ مِقْدَاراً فَإِنْ زَادَ عَلَيْهِ فَهُوَ بُخْلٌ وَلِلشَّجَاعَةِ مِقْدَاراً فَإِنْ زَادَ عَلَيْهِ فَهُوَ تَهَوُّرٌ^(٢) .

مسؤولية المرئيين :

ولكي لا يرتكب الشاب أي خطأ وهو يسعى لاكتساب الأخلاق الحميدة ،

(١) غرر الحكم ، ص ٦٦١ .

(٢) بحار الأنوار ، ١٧ ، ص ٢١٨ .

ولا تزل قدمه وهو يسعى لتكوين شخصيته ، ولكي يصون نفسه من سوء الخلق ، عليه أن يستعين دائماً بالتعاليم الدينية والمناهج العلمية ، وينتفع من إرشادات وتوجيهات المرشدين الأكفاء في طريق تنمية أخلاقه .

وهنا تأتي مسؤولية مربّي جيل الشباب في تنظيم برنامجه التربوي بشكل يحوي كل القيم الإيمانية والأخلاقية والعلمية والعملية والجسمية والنفسية والمادية والمعنوية من جهة ، ومن جهة أخرى عليه أن يهتم بنسود برنامجه كمّاً ونوعاً لكي لا يصبح من الصعب على الشباب تنفيذه ، ولا يحبط من عزيمتهم ونشاطهم .

الإهتمام بجميع القيم :

«إن أي مجموعة من القيم نريد أن نختارها نحن كمربين ، علينا أن نلاحظ مدى توافقها مع آمال الشباب وميولهم . فهدفنا يجب أن يكون العمل من أجل الإبقاء على حيوية الشباب ونشاطهم ، والحفاظ على روح التضحية والإيثار في نفوسهم ، وتشجيعهم على استغلال قدرة الحب في نفوسهم ، حب الله والكرامة والجمال والمسؤولية ، للنهوض بالقيم السامية للحياة إلى قمة الكمال . لكننا في الوقت الذي نوجه الشاب إلى هذا السبيل علينا أن لا نتجاهل طاقته ، فاذا ما فاق هدفنا طاقته فإنه يبعث اليأس في نفسه ، لأن الجهود المضيئة قد تؤدي إلى السقوط المفاجيء أو إلى ذبول ومرض الشاب ، فالتوجيه الأخلاقي يجب أن يتم تدريجياً كالتوجيه البدني»^(١) .

قياس القدرة والرغبة :

لقد أولى الإسلام قدرة الإنسان وطاقته وكذلك رغبته وحيويته في أداء

(١) ماذا أعرف ؟ ، البلوغ ، ص ١٢١ .

واجباته العبادية والقيام ببرامجه التربوية اهتماماً بالغاً ، وهذا ما يؤكد الكثير من الروايات والآيات القرآنية الشريفة .

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾^(١) .

وقال تباركت أسماؤه : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾^(٢) .

وعن أبي عبد الله الإمام الصادق عليه السلام قال : لا تُكْرِهُوا إِلَى أَنْفُسِكُمْ الْعِبَادَةَ^(٣) .

عشق العباداة :

قال رسول الله ﷺ : أَفْضَلُ النَّاسِ مَنْ عَشِقَ الْعِبَادَةَ فَعَانَقَهَا وَأَحَبَّهَا بِقَلْبِهِ وَبَاشَرَهَا بِجَسَدِهِ^(٤) .

إن الفضل في نجاح الشاب في تكوين شخصيته وتحقيق سعادته يعود أولاً إلى المرئيين الأكفاء وبرامجهم الشاملة والمناسبة لجيل الشباب ، ومن ثم إلى نفس الشباب وطريقة تطبيقهم لهذه البرامج .

مسؤولية الشباب :

إن الشاب مكلف باقتناص فرصة الشباب للإستفادة من قيم الحياة وتأمين سعادته المادية والمعنوية ، وعليه أيضاً أن يستثمر طاقته وفق حسابات دقيقة في أداء الواجبات التي تنص عليها البرامج التربوية التي ينظمها المرَبون ، وذلك لتوفير سبل سمو شخصيته ونموها من جميع الجهات .

كذلك ينبغي على الشاب أن يأخذ بنظر الإعتبار أن أي إفراط أو تفريط سينال من سعادته ويحرمه من بلوغ الكمال الذي يليق به ، وهذا ما يتفق عليه الدين والعلم معاً .

(١) سورة البقرة : الآية : ٢٨٦ .

(٢) سورة الحج ؛ الآية : ٧٨ .

(٣) والكافي ٢ ، ص ٨٦ و ٨٣ .

فكما أن الخمول والكسل في أداء الواجبات المدرسية من قبل الشاب الطالب يعتبر عملاً سيئاً ومذموماً ، كذلك فإن الإجهاد في الدراسة وتحميل الجسم أكثر من طاقته يعتبر عملاً سيئاً ومضراً . وكما أن التساهل والتعاس في العمل يؤديان بالشاب العامل إلى التخلف والحرمان ، كذلك فإن إفراطه في العمل وحرصه وطمعه ، عمل مذموم ومرفوض .

تجنّب الإفراط والتفريط :

على كل حال ، ينبغي على الشاب الذي يرغب في استثمار القيم المشروعة للحياة ، أن يراعي الاعتدال في شؤونه ، ويتجنّب الإفراط والتفريط في عباداته وأعماله ، في استراحته ورياضته ، وليؤدي كل عمل وفق مقاييس سليمة .

وقد أولى أئمتنا عليهم السلام هذه النقطة إهتماماً بالغاً ضمن برامجهم التربوية ، حيث دعوا صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين إلى تجنّب الإفراط والتفريط وكذلك التساهل والتعاس في أداء كافة الواجبات العلمية والعملية والعبادية والإقتصادية والمادية والمعنوية ، وقد ورد في هذا المجال الكثير من الآيات القرآنية والروايات ، نكتفي بالإشارة إلى روايتين :

عن أبي جعفر الإمام الباقر عليه السلام قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ فَأَوْعِلُوا فِيهِ بِرِفْقٍ ^(١) .

وفي جانب آخر من هذه الرواية قال الإمام الباقر عليه السلام . وهو يصف الإنسان الذي يفرط في عمله : كَالرَّايِبِ الْمُنْتَبِّتِ الَّذِي لَا سَفَرًا قَطَعَ وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى ^(٢) .

(١) والكافي ٢ ، ص ٨٦ .

مفتاح البؤس والشقاء :

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : التَّوَانِي مِفْتَاحُ الْبُؤْسِ (١) .

ونستنتج من بحثنا هذا أن المرّين إذا ما عمّنوا بمسؤولياتهم ونظموا مناهجهم التربوية لجيل الشباب على أساس التوازن بين كافة القيم ، آخذين بعين الإعتبار طاقات الشباب وقدراتهم ، وكذلك إذا ما عمل الشباب بمسؤولياتهم وراعوا البرامج التربوية بكل رغبة بعيداً عن الإفراط والتفريط والتساهل واللامبالاة ، فإن نتائج مثمرة ستكون بانتظار الشباب الذين سيؤمنون سبل سعادتهم المادية والمعنوية ، وينجحون في تكوين شخصية مكتملة من جميع الجهات لأنفسهم .

إن العلم والإيمان والأخلاق والحرية والضمير والجمال وحب الذات والمال واللذة والعمل والشهرة والسياسة والرياضة وما شابه ذلك ، كلها أمور ذات قيمة في حياة الإنسان . وتحقيق أي من هذه القيم من شأنه أن يبعث البهجة والسرور في نفوس الفتيان والشباب ، ويؤثر إيجابياً على نمو شخصيتهم ، شرط أن لا يتجاوزوا حدود الاعتدال والمصلحة . وستحدث بالتفصيل عن بعض القيم خلال البحوث القادمة ، لكننا سنكتفي في هذا البحث بالحديث عن حالتين اثنتين ولو بشكل مختصر .

حب الذات :

من الحالات النفسية التي تبرز بقوة خلال مرحلة الشباب ، وتترك أثراً كبيراً على نمو شخصية الشاب وتكوين سلوكه الأخلاقي ، الحب الشديد للذات وعشق القيم الذاتية .

عبادة الذات :

إن المصدر الطبيعي للأناية هو غريزة حب الذات التي تعتبر من الغرائز

(١) المستطرف ، ٢ ، ص ٥٦ .

الرئيسية التي أوجدتها إرادة الله وحكمته في الإنسان ، وهذه الغريزة تبقى فاعلة ونشيطة منذ عهد الطفولة وحتى آخر العمر ، إلا أن غريزة حب الذات تتضاعف وتشتد خلال مرحلة البلوغ ، حيث تبرز الغريزة الجنسية ، حتى انها تتحول عند البعض من الشباب من حب للذات إلى عبادة لها ، وكأن هاتين الحالتين تندمجان خلال مرحلة البلوغ لتكوّنان قوة واحدة تترك تأثيرها بعمق في نفسية البالغين حديثاً .

ففي هذه المرحلة لا يقف الشاب عند حب ذاته فقط ، بل يتعدى ذلك إلى الإستمتاع برؤية جسمه وشعره وسائر أعضائه وكذلك ملبسه وتزيّنه ، حتى انه يذهب في ذلك إلى حدود عشق الذات الذي قد يؤول بالشباب أحياناً إلى حالة غير طبيعية من الأنانية وحب الذات ، وهو كما نعلم نوع من أنواع الأمراض النفسية .

يقول «موريس دبس» : يمكننا ملاحظة حالة إثبات الشخصية عند الشاب من خلال عزّة نفسه أو الأفضّل من ذلك من خلال حبه لذاته ، حيث تكون هذه الغريزة على أشدها في مرحلة البلوغ . وتأتي عبادة النفس في عصرنا الحالي من خلال الإهتمام الزائد بالجسم والتزيين والتجميل ، والدليل على ذلك اللذة التي يصيها الشخص لدى وقوفه أمام المرأة .

وقد تشتد هذه الحالة وتنفذ إلى أعماق الشاب فتجعله يعشق ذاته ، لا بل يعبدها إلى حدّ المغالاة . واستناداً إلى التحليلات النفسية الحديثة فإن هذه الحالة تنجم عن تحريكات جنسية تتفاعل في ذات الإنسان ، ولذا فإنها أقوى وأشد عند الفتيات من الفتيان»^(١) .

(١) ماذا أعرف ؟ ، البلوغ ، ص ٨٦ .

حب الذات ونمو الشخصية :

إن حب الذات الذي يعصف بأعماق الشاب مع حلول مرحلة البلوغ ، يعتبر من الثروات الكبيرة للإنسان ، وهذا الميل الطبيعي للإنسان يلعب دوراً مؤثراً في تحقيق مكانته الإجتماعية وتكوين سلوكه الأخلاقي وطبائعه ونمو شخصيته .

فحب الذات من الميول الطبيعية للإنسان ، وهو من ضروريات الحياة وأحد الأركان الأساسية لسعادة الإنسان مادياً ومعنوياً . والإنسان قادر من خلال حب الذات على بلوغ مفازات الحياة وتجنب كل ما من شأنه أن ينكده عليه حياته . إذن فحب الذات يحفظ حياة الإنسان وسلامة الفرد والمجتمع .

والإنسان إذا ما استطاع أن ينمي في نفسه حب الذات بالمقدار الصحيح ، ويستخدمه في مكانه ، فإنه سيكون قادراً على تحقيق أفضل النجاحات . فهذه الرغبة يمكنها أن تحفز الشباب على مواصلة العلم لبلوغ الكمال ، وأن تجعل منهم أشخاصاً مرغوباً فيهم داخل مجتمعاتهم ، يتحلون بأسمى الصفات الإنسانية والأخلاقية . وما يدفع الطالب إلى الدراسة والكاسب إلى التجارة والعامل إلى المصنع والفلاح إلى الحقل ، هو حب الذات .

ونخلص إلى أن معرفة الذات معرفة صحيحة وحب الذات بالمقدار السليم من شأنهما أن يأخذا بيد الإنسان نحو المجد والعظمة بعد أن يساعدها على تخطي مصاعب الحياة بقوة واندفاع وروح ملؤها الأمل .

«ينبغي على كل إنسان أن يعي قدره ويدرك أهمية ذاته ويتقبل واقعها ويحترمه على ما هو عليه ، وليس معنى ذلك أن يهتم بما يبرز كفاءته وكماله وتفوقه ، وإنما عليه أن يعد نفسه ليكون عضواً مفيداً لمجتمعه ، يتحمل مسؤوليات الحياة» .

«فالذي يثق بنفسه ويحترمها لا يمكن أن يكون أنانياً أو مغروراً ،

فهو بدلاً من أن يهدر وقته الثمين بالتفكير في نقائص الحياة أو في مدح نفسه وذم الآخرين أو في توقُّع المدح والثناء ، تراه يكرِّس جلَّ وقته لأموار مفيدة نافعة ، وهذا ما له أهميته في نمو شخصيته وسلامة نفسه وأخلاقه وسعادته»^(١) .

مفاسد الإعجاب بالنفس :

إن لذَّة الإعجاب بالنفس إذا ما تجاوزت حدودها ومورست بإفراط ، فإنها تولِّد مفاسد كثيرة . فالإفراط في الإعجاب بالنفس يصدِّ الشاب عن الرقي والتكامل ، ويجعل من الصعب عليه لا بل من المستحيل إكتساب الأخلاق الفاضلة والملكات الحميدة التي هي أساس نمو شخصيته ، ويخفي عن ناظره عيوبه ونقائصه ويدفعه نحو التكبر والغرور ليضلَّ عن الصواب ويدَّعي ما ليس له .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : الإعجابُ يَمْنَعُ الإزدياد^(٢) .

وعن الصادق عليه السلام : مَنْ أَعْجَبَ بِنَفْسِهِ وَفَعَلَهُ فَقَدْ ضَلَّ عَنْ مَنْهَجِ الرَّشِدِ وَأَدْعَى مَا نَيْسَ لَهُ^(٣) .

وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام : إِيَّاكَ أَنْ تُعْجِبَ بِنَفْسِكَ فَتُظْهِرَ عَلَيْكَ النُّقْصَ وَالشَّنَانَ^(٤) .

العجب مرض :

«يعتبر علماء الأخلاق حالة العجب المفرطة بأنها نوع من أنواع الانحراف الذي يمكن أن يكون حائلاً أمام رقي الأخلاق ، وإذا ما

(١) سلامة الروح ، ص ٦٤ .

(٢) بحار الأنوار ، ١٦ ، ص ٥٧ .

(٣) سفينة البحار ، «عجب» ، ص ١٦١ .

(٤) غرر الحكم ، ص ١٥١ .

استمرت هذه الحالة في الإنسان طويلاً فإنها تتحول إلى مرض نفسي .

وغالباً ما يصاحب هذه الحالة إحساس بالغرور الناجم عن مغالاة الإنسان في تصوّر قيمته الشخصية . وحالة التكبر والغرور هذه يمكن ملاحظتها خاصة لدى أصحاب الطباع الدفينة» .

حب الغرور :

«إن صفة العجب في الإنسان تولّد في أعماقه نوعاً من الإحساس بالغيرة والحسد تجاه الآخرين لا سيما في المجالات الرياضية ، حيث يرغب مثل هذا الإنسان في التغلب على جميع منافسيه والفوز بكافة المسابقات . وتنمو الأفكار والمعتقدات الشخصية وتتوسع وخاصة لدى الفتيات ، حيث يولد في نفوسهن نوع من التكبر يث فيهن حب الغرور واستعراض الشخصية . وهذا الأمر إن دلّ على شيء إنما يدلّ على مدى اهتمام الشباب وحرصهم على تحقيق شهرة لدى الآخرين لكسب مدحهم وثنائهم»^(١) .

من المؤسف أن مرحلة الشباب هي مرحلة تزداد فيها الأحاسيس حدّة وتتضاعف فيها التخييلات والأوهام . وهذه الحالة العاصفة تمنع الشباب في الغالب من النظر إلى الأمور نظرة واقعية ، وتحجب عنهم رؤية الأشخاص والأشياء كما هم أو كما هي . ويخطيء الشباب نتيجة هذه الحالة النفسية في معرفة ذاتهم وصفاتهم ، فيصابون بالعجب والغرور ، كما أنهم يخطئون في معرفة الناس ، فينظرون إليهم نظرة استخفاف واستحقار .

الإفراط في التفكير :

«يكون أسلوب التفكير لدى الشباب عادة شاعرياً ويأخذ طابع

(١) ماذا أعرف ؟ ، البلوغ ، ص ٨٦ .

الإفراط ، بمعنى أنه لا يكون هناك توافق ما بين تفكيره والأمور التي يفكر فيها . والوضع عند الأطفال مماثل إلى حد ما مع وجود اختلاف واحد ، وهو أن فكر الطفل ينجذب نحو العمل أولاً ، ثم يحاول تكييف نفسه مع الأشياء والموجودات ، بينما ينفصل أسلوب تفكير الشاب البالغ حديثاً عن الأشياء والموجودات ، بحيث لا يعود بإمكانه التخلص من عبادة الذات رغم الصراع الداخلي الذي يعيشه للتخلص من الأفكار الشخصية والتألف مع المحيط والمجتمع» .

«أضف إلى ذلك أن أسلوب التفكير هذا له طابع اللهو واللعب إلى حد ما . فهو يحب أن يمتع نظره بالأشياء ، حتى انه يلتذ بالنظر إلى نفسه . وينبهر تفكير الشاب بكل ما من شأنه أن يبرز شخصيته ، ومن هنا يمكن إجراء تعديل طفيف على معنى تعريف «استاندال» لأسلوب تفكير الشاب ، واعتباره أسلوباً ناجماً عن العجب والغرور وعبادة الذات ، كما هو الحال بالنسبة لأسلوب تفكير الطفل حسب تعريف «بياجيه»^(١) .

ضرورة تعديل الأحاسيس :

ينبغي على الشاب الذي يود الإستفادة من غريزة حب الذات التي تعتبر من أهم القيم الدنيوية وذلك لتأمين أسس نمو شخصيته ، ينبغي عليه منذ بداية مرحلة البلوغ الإستعانة بالتعاليم الإلهية والبرامج العلمية والدينية ، لمعرفة واجباته الإيمانية والأخلاقية والقيام بها بكل شوق ورغبة . كما يجب عليه منذ البداية أن يسعى وبمساعدة المرثي الكفوء والمخلص لتعديل أحاسيسه المفرطة وعواطفه الحادة وتحسين أخلاقه وطابعه .

(١) نفس المصدر ، ص ١٠٩ .

فالشاب الذي حُرِّم من فوائد البرامج الدينية والعلمية ولم يكن لديه مرَبٌ كفو أو كان لديه لكنه لم يلتزم بتوجيهاته ونصائحه ، فإنه معرض دائماً للانحرافات الأخلاقية والأمراض النفسية ، فالأحاسيس الحادة والمفرطة من شأنها أن تسوق الشاب نحو الكثير من المنزلقات وأحد هذه المنزلقات هو الإفراط في العجب والغرور أو ما يمكن أن نصفه بعبادة الذات .

الشخصية الكاذبة :

إن عبادة الذات تحجب عن الشاب السمع والبصر ، وتجعله عاجزاً عن إدراك الحقائق . فالشاب الذي يعبد نفسه لا يهتم سوى بنفسه ، وهو يتوقع أن يشاركه الناس في تشخيصه الخاطيء للأمور ، ويعتبرونه كبيراً مثلهم ، يحترمونه ويقدرونه . وقد يلجأ مثل هذا الشاب أحياناً إلى القيام بأعمال محرمة وممارسات حمقاء خلافاً لرغبته الباطنية وإيمانه القلبي ، وذلك لكي لا يشوّه شخصيته الكاذبة ويحطّ في قيمته الوهمية ويظهر عجزه وضعفه أمام منافسيه ، كما أنه قد يلجأ أحياناً إلى ارتكاب كبائر الذنوب ، فيخسر سمعته وقيمه بدلاً من أن يحرز شخصية تليق به .

«يقول «شاختر» : كنت أعرف شاباً كان يكره لعب الميسر ، لكنه كان يشارك في مجالس القمار وكان يلعب الميسر كي لا يستحقره رفاقه أو يخسرهم ويبين لهم أنه أقل منهم تهوراً رغم شبابه» .

«وهذا النوع من التبعية والخوف من المخاصمة والوحدة والإستحقار أحياناً إن على الصعيد الفردي أو الإجتماعي ، لهو داليل على عدم النضوج والضعف الأخلاقي»^(١) .

«وفي فرنسا قررت أربع فتيات من أسر مترفة وغنية جداً إجراء قرعة غريبة من نوعها ، فكتبن أربع قصاصات ورقية تحمل كل

(١) نمو الشخصية ، ص ٤٤ .

منها إحدى الجمل التالية : أنا سأنتحر ، أنا سأكون فتاة طيبة ، أنا سأبيع نفسي ، أنا سأسرق ، وأجرين القرعة ، وفي اليوم التالي إنتحرت إحداهن واسمها «إيزابيل» بعد أن قطعت أحد شرابيينها ، وسرقت «ماري» معطفاً ، وحسّنت «آني» أخلاقها ، أما «تشيبي» فباعت نفسها للآخرين»^(١) .

عبادة الذات وتعظيم الشخصية :

ونستشف مما ورد أن حب الذات وعشق النفس هما من القيم اللطيفة والجميلة في نظر الشباب . وهذه الرغبة إن تمت مراعاة الاعتدال في إرضائها وتوجيهها الوجهة الصحيحة ، فستنعكس نتائج مفيدة في نمو شخصية الشاب وتعزيز مكانته الإجتماعية ، أما إذا تحولت إلى عبادة للذات وأرضيت بإفراط ، فإن نتائجها ستكون مشؤومة ، وسيصبح الشاب منبوذاً في مجتمعه محطّم الشخصية ، كما أنها قد تؤدي أحياناً إلى مفاسد خطيرة لا تحمد عقباها .

التعلق بالقضايا السياسية :

ومن القضايا الأخرى التي تعتبر من وجهة نظر الشباب جميلة وذات قيمة كبيرة تستأثر باهتمامهم من جميع جوانبها ، هي القضايا السياسية . فالشباب يتابع الأخبار والشؤون السياسية في الصحف بتمعن ودقة ، ويبدى رغبة كبيرة في الإستماع إلى تصريحات السياسيين ، فيحاول تفسير وتحليل المواقف السياسية ، وي طرح كلاً منها على بساط النقد والبحث .

وتبدو القضايا السياسية في نظر الشباب لطيفة وقيمة ومهمة ومثيرة حتى أنها تأخذ منه أحياناً كل مأخذ ، فتصبح السياسة شغله الشاغل فينسى ما عليه من واجبات فردية وأسرية واجتماعية وكذلك واجباته المدرسية .

ومما لا شك فيه أن تحليل القضايا السياسية التي يشهدها العالم ومراقبة

(١) مجلة مقروءات ، العدد ١٨ ، السنة ١٣٢٥ هـ . ش .

تصريحات السياسيين ومواقفهم في شتى المجالات ، له كبير الأثر في تفتح عقل الشاب ونمو فكره وذكائه وتكوّن شخصيته شرط أن لا يتجاوز حدود المصلحة والإعتدال في هذا المجال ، فلا يستسلم لأفكار وهمية وأحاسيس مفرطة ، ولا يهدر ثروة الشباب ، فيتخلف عن تحصيل العلم والقيام بما هو مفيد من الأعمال .

الرغبة في اكتشاف الأشياء :

ولدى الشاب أيضاً رغبة في اكتشاف الأشياء ومعرفة الأشخاص ، فهو يرغب في إدراك حقائق الموجودات ومعرفة الناس وإيجاد علاقة بينه وبينهم بهدف رفع قيمة شخصيته والتزوّد بما يلزم لإحياء حياة اجتماعية ممتدة الأطراف ، لكنه غالباً ما يقع في الخطأ ويعجز عن إدراك حقائق الأشياء ومعرفة الأشخاص نتيجة عدم نضوج معلوماته العلمية وقلة تجاربه الاجتماعية .

توقع في غير محله :

وفيما يخصّ اكتشاف الأشياء ، يعطي الشاب لنفسه الحقّ في التدخل في أكثر القضايا أهمية ودقة في المجالات العلمية والدينية والسياسية ، ليعرب عن تأييده أو نفيه لها ، ويسدي موقفه تجاهها كأبي فرد محقق أو خبير مختص ، ويتوقع من الآخرين استساغة مواقفه وتأييد آرائه رغم أنه إما لا يعرف شيئاً عن هذه القضايا ، وإما يعرف ولكن معرفته محدودة وسطحية .

الفكر الخام والطموح :

«ثمة حالة من الإفراط وما لنحوليا الإستدلال ملموسة تماماً في صفوف وقاعات مدارسنا ، خاصة لدى الشباب الذين يعربون وبملاء إرادتهم عن عدم ثقهم بموقفهم تجاه موضوع ما ، أو جهلهم له ، ثم يعودون فيطرحون استدلالاتهم بضجة وفصاحة» .
«والسبب هو أن هؤلاء قد تعلّموا عدة لغات في فترة ليست

بطويلة ، ولم تكن أمامهم فرصة لهضم هذه اللغات واستيعابها وتحديد مواقع الإستفادة منها ، فهم يتصورون أنهم قد استوعبوا كل شيء ، لكن استيعابهم وفهمهم غالباً ما يكون ناقصاً .

«إنهم يتصورون دائماً أنهم لا يتفوهون إلاً بكلام رزين ، ومرّد هذا التصور ليس الرغبة أو اللذة أو المعرفة ، بل هم يريدون أن يثبتوا للجميع أنهم على حق ، حتى انه يُلاحظ لدى البعض منهم نوع من التعصّب والجمود الإستدلالي ، يتحوّل فيما بعد إلى نوع من المرض يصيب النظام الفكري وترتيبه»^(١) .

الشباب غير الناضج :

تبرز في القضايا السياسية أحياناً مشاكل تكون أكثر تعقيداً من أدقّ المسائل العلمية ، حتى ان كبار الساسة والمنظرين السياسيين الذين جُبلت حياتهم بالسياسة يعربون عن عجزهم في حلّها ، فيأتي البعض من الشباب ممن لم يكتملوا نضوجاً فيدي رآيه بهذه المسائل ويتخذ موقفه وقراره تجاهها إلى ما حيث تسمح به قدرة شخصيته ، ويتوقع من الآخرين أن يؤيدوا موقفه ويتعاونوا معه في هذا المجال . ومرّد هذا المستوى من الجهل والطموح الأجوف هشاشة فكر الإنسان وقلة تجربته خلال مرحلة الشباب .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : كَفَى بِالْمَرْءِ جَهْلًا أَنْ لَا يَعْرِفَ قَدْرَهُ^(٢) .

التطرّف غير المسؤول :

هذا النوع من التطرّف غير المسؤول الناجم عمّا يصاب به الإنسان خلال مرحلة الشباب من قصور في الفكر وإفراط في الأحاسيس ، قد يتسبب في وقوع أحداث غير متوقعة ، أو يؤدي أحياناً إلى وقوع مصائب لا تحمد عقباها .

(١) ماذا أعرف ؟ ، البلوغ ص ١٠٦ .

(٢) نهج البلاغة ، الخطبة ١٠٢ .

وفيما يخص معرفة الأشخاص ، يواجه الشاب مشاكل متعددة ، فهو يرغب في معرفة نفسه ومعرفة الآخرين جيداً ، وكذلك يميل إلى إدراك قيمته وقيمة الآخرين الحقيقية ، لكنه قلماً يحقق مراده ، لأن الشاب وحسبما تقتضيه طباعه يقع دائماً تحت تأثير الدوافع والتحريرات العاطفية ، وغالباً ما يحكم على نفسه والآخرين بمقتضى أحاسيسه لا على أساس عقله وفكره .

التصورات القائمة على الأحاسيس :

«إن الدور الذي يؤديه البلوغ في حياة كل منا ، هو أنه يدفعنا لاكتشاف الموجودات ، أي إن الإنسان يدفع لمعرفة نفسه والآخرين أي الأنا والأنت حسب مصطلح السيد «بوبر» ، إن على الصعيد الفردي أو الإجتماعي أو المثالي» .

«وينجح الشاب البالغ حديثاً في امتحانه الخاص بالإحتكاك بالآخرين ، فهو ينظر للآخرين من منظاره الخاص ، ويرى أنهم أفراد يشاركون في حياة اجتماعية ، ولكنه على كل حال يرى الشخص الذي يمتحنه إن كان الأنا أو الأنت من خلال نافذة تصورات القائمة على الأحاسيس ، فيرى فيه إنساناً مثالياً لا يملك منه سوى ملامحه»^(١) .

إن الشاب قلماً ينجح في معرفة الناس معرفة حقيقية كاملة وكشف خداع وأحبابيل الخونة منهم ، وذلك لصغر سنه وعدم نضوج عقله وقلة تجاربه ، هذا من جهة ، أما من جهة ثانية ، فهو ينظر إلى كافة الناس نظرة ثقة وحسن ظن ويرى فيهم الطهر والفضيلة ، وذلك لنقاء فطرته الإنسانية . كما أن أحاسيسه الحادة والمفرطة لا تدع مجالاً له ليتحرى عنهم ويتحقق في الأمر ، مما يجعله يُقدم على اتخاذ مواقف وقراراته دون دراسة .

(١) ماذا أعرف ؟ ، البلوغ ، ص ١٢٥ .

الطمأنينة قبل الاختبار :

ونتيجة لهذه العوامل الثلاثة ، غالباً ما يتيه الشاب ، فينخدع ويتعلق بالآخرين ويثق بهم دون اختبار ، ويقيم معهم علاقة صداقة ، ويسلمهم أسرار حياته ، ويندفع أحياناً بإيعاز منهم نحو ارتكاب أعمال شنيعة ، ولا يعود إلى رشده ليتدارك خطاه إلا بعدما تكون الأضرار قد هدّت كيانه ، ووصمات العار قد لوّثت جبينه الطاهر .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : الطُّمَأْنِينَةُ إِلَى كُلِّ أَحَدٍ قَبْلَ الْإِحْتِبَارِ مِنْ قُصُورِ الْعَقْلِ ^(١) .

إستغلال الشباب :

لقد شهد التاريخ وعلى مرّ العصور أحداثاً كثيرة كان فيها الشباب البسطاء الذي كانت تستهويهم القضايا السياسية لقمة سائغة للعناصر الفاسدة الذين لهثوا وراء الجاه والسلطة ، فاستدروهم واستغلّوا طاقاتهم الجبارة لصالح أهدافهم ونواياهم الخبيثة ، فدفعوا بهم إلى أكثر الأعمال ضرراً وخطورة أدّت بهم إلى السقوط وبمجمعاتهم إلى التعاسة والشقاء .

وصايا حكيمة :

وقد جاء أئمة الهدى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين بالكثير الكثير من النصائح والحكم والوصايا التي تحفظ المسلمين لا سيما جيل الشباب منهم من الإنزلاقات السياسية ، وتمنعهم من القيام بما هو ضارّ وخطير ، وتحدد لهم مسؤولياتهم .

عَنْ ابْنِ أَبِي بَرٍّ قَالَ سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ (الإمام الصادق) عليه السلام يَقُولُ : يَا مَعْشَرَ الْأَحْدَاثِ اتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَأْتُوا الرُّؤْسَاءَ ، دَعْوُهُمْ حَتَّى يَصِيرُوا أَذْنَاباً ^(٢) .

(١) غرر الحكم ، ص ٨٦ .

(٢) تفسير البرهان ، ص ٤١٢ .

الطاعة الذميمة :

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : لا تُطِيعُوا الْأَدْعِيَاءَ الَّذِينَ شَرِبْتُمْ بِصَفْوِكُمْ كَذَرَهُمْ وَخَلَطْتُمْ بِصِحَّتِكُمْ مَرَضَهُمْ وَأَدْخَلْتُمْ حَقَّكُمْ فِي بَاطِلِهِمْ ^(١) .

سلم الضلالة :

كان محمد بن مسلم الزهري من الذين تعاونوا مع حكومة بني أمية لسنوات طوال ، حيث عمل معهم في تنفيذ سياساتهم الظالمة وتمرير نواياهم الشريرة ، فكتب إليه الإمام السجاد عليه السلام يعظه ويذكره بأعماله الخطيرة ، ويدعوه إلى هجر سلوكه المشين وانتهاج الطريق القويم للتعويض عما فات .

ومما جاء في كتاب الإمام السجاد عليه السلام لمحمد بن مسلم الزهري : ... جَعَلُوكُ قُطْبًا أَدَارُوا بِكَ رَحَى مَظَالِمِهِمْ وَجَسْرًا يَعْبرُونَ عَلَيْكَ إِلَى بَلَايَاهُمْ وَسَلَّمًا إِلَى ضَلَالَتِهِمْ ... وَلَا تَحَسَبْ أَنِّي أَرَدْتُ تَوْبِيخَكَ وَتَغْنِيفَكَ وَتَغْيِيرَكَ لَكِنِّي أَرَدْتُ أَنْ يَنْعَشَ اللَّهُ مَا قَدْ فَاتَ مِنْ رَأْيِكَ وَيَرُدَّ مَا عَزَبَ مِنْ دِينِكَ ... أَمَا بَعْدُ فَأَعْرِضْ عَن كُلِّ مَا أَنْتَ فِيهِ حَتَّى تَلْحَقَ بِالصَّالِحِينَ ^(٢) .

ونخلص إلى القول إن لدى الشباب علاقة كبيرة بالقضايا والشؤون السياسية ، فهم يعتبرونها ذات قيمة وافرة في حياتهم ، ونحن بدورنا نقول للشباب إن باستطاعتهم أن يعزوا من قوة إدراكهم ونمو شخصيتهم إذا ما تجنّبوا الإفراط فيها وأمعنوا في القضايا السياسية ودرسوا وحلّلوا نظريات الساسة والمنظرين السياسيين في العالم . أما إذا سلكوا الطريق المعاكس ، وتخلفوا عن واجباتهم الأساسية في تحصيل العلم ، وسمحوا لأنفسهم أن يكونوا أداة طيعة بيد العناصر الفاسدة ، فإنهم في طريقهم نحو الضلالة والانحراف والسقوط .

(١) غرر الحكم ، ص ٨٠٦ .

(٢) تحف العقول ، ص ٢٧٥ .

المحاضرة الثامنة عشرة

حول دور البيئة في بناء شخصية الشاب

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى في محكم كتابه : ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَمْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾^(١) .

إختلاف حياة الكائنات الحية :

للحيوان عالمه الخاص ، وثمة إختلاف في حياة الحشرات والحيوانات البرية والبحرية على وجه الأرض من ناحية حاجتها لمساعدة الآخرين أو عدم حاجتها ، وكذلك من ناحية حياتها الفردية والجماعية ، والكل يواصل حياته تبعاً لظروفه الخاصة .

وينشط بعض الحيوانات منذ اليوم الأول للولادة ، ويعتمد على نفسه مستغنياً عن حماية أبويه ، مثل هذه الحيوانات بمقدورها أن تستقل في حياتها ، وأن تبحث عمّا تأكله وتشربه ، وأن تدافع عن نفسها من أجل البقاء ، وهذا الصنف من الحيوانات ليست لديه مرحلة طفولة ، لذا فهو لا يحتاج إلى مساعدة الآخرين ليواصل حياته .

(١) سورة الأعراف ؛ الآية : ١٣٨ .

الحيوانات ومرحلة الطفولة :

وثمة حيوانات تكون منذ ولادتها بحاجة إلى حماية الآخرين ، لأنها لا تستطيع العيش بمفردها وذلك بسبب ضعفها . وقد أوجد الله سبحانه وتعالى بحكمته محبة في قلوب كبار الحيوانات تجاه صغارها ، فتضحي من أجلها وتؤمن لها الطعام والماء وتدافع عنها تجاه الأعداء ، حتى يشتد عودها وتقوى على العيش المستقل ، ولهذه الحيوانات مرحلة طفولة ، إذن فهي بحاجة لحماية الآخرين من أجل البقاء .

مقدار المحبة :

الأمر الملفت للنظر في عالم الحيوان أن مقدار المحبة التي أوجدها الله سبحانه وتعالى في الحيوان تجاه صغاره ، يوازي فترة طفولة الصغار ومقدار احتياجها . وكل حيوان تمتد فترة طفولته وأيام عجزه ، كما تمتد بنفس المقدار محبة أبوية له وعطفهما عليه . وفي المقابل نرى أن هذه المحبة تكاد تلاشى كلما كان صغير الحيوان قوياً أثناء فترة طفولته . وعندما ينهي صغير الحيوان فترة الطفولة ويصبح على استعداد للإعتماد على نفسه ، تنتهي محبة أبويه له ، فيهجرائه ليذهب إلى سبيله ويحيا حياة مستقلة .

وتعتبر مرحلة الطفولة التي يمر بها الإنسان هي الأطول بين مختلف أنواع الثدييات ، واحتياجه لرعاية وحماية الآخرين أكبر . فصغير الإنسان يحتاج وعلى مدى سنين طويلة لرعاية كاملة وعون كبير من قبل ذويه قبل أن يصبح أهلاً لحياة مستقلة .

الإنسان ومرحلة الطفولة :

وبعبارة أخرى نقول لا تقتصر حاجة الطفل خلال فترة الطفولة على الترعير في أحضان الأم والإرتزاق من حليبها حتى يتمكن من الوقوف على قدميه وتنمو أسنانه ويبدأ بتناول طعامه بنفسه ومن ثم يبدأ حياة مستقلة ،

فالإنسان بحاجة أثناء طفولته لأن يشتد عوده وتقوى روحه وتتكون أخلاقه وطبائعه ويتعلم من الآخرين آداب الحديث والسلوك ويطلع على الآداب الإجتماعية ، ليعد نفسه إعداداً صحيحاً للتألف الإجتماعي ، وهذا كله يحتاج إلى فترة طفولة طويلة .

«إن مرحلة نمو الإنسان طويلة جداً قياساً بالمراحل التي تحتاجها سائر الكائنات الحية ، ومن هنا فإن المرحلة التي يمر بها الطفل معتمداً على الآخرين محتاجاً عونهم ورعايتهم تكون مرحلة طويلة . ويعيش الإنسان في مجتمعه وسط جوٍّ من العلاقات المتبادلة ، فيكتسب من خلال احتكاكه بالآخرين السنن والآداب الإجتماعية ، ليصبح بالتالي إنساناً إجتماعياً مؤدّباً . فالعلاقات المتبادلة بين الفرد والفرد وبين الفرد وثقافة مجتمعه ترسم للإنسان سبيل الحياة وتضفي عليه صبغة إجتماعية»^(١) .

الإنسان وحاجته للمجتمع :

إن حاجة الإنسان لحماية الآخرين ومساعدتهم لا تنحصر بفترة الطفولة حيث يكون الإنسان فيها عاجزاً ضعيف القوى ، بل تستمر إلى ما بعد هذه المرحلة ، لأن الإنسان يبقى في كافة مراحل عمره ، طفولته ، شبابه ، شيخوخته ، وكهولته بحاجة إلى دعم الآخرين وحمايتهم ، فهو خلق ليكون إجتماعياً ، لذا فهو عاجز عن خوض غمار الحياة وحيداً فريداً دون الحاجة للآخرين .

والإنسان ينبغي عليه أن يعيش في كنف مجتمعه ، لأنه إذا ما أراد الحصول على مستلزمات الحياة وقضاء حوائجه المادية وتذليل كل العقبات التي تواجهه في مسيرته الحياتية ، وكذلك بلوغ مدارج الكمال الإنساني واستغلال

(١) مبادئ علم الإجتماع ، ص ١٧٦ .

كل طاقاته واستعداداته الباطنية ، عليه أن يقيم علاقات اجتماعية تقوم على أساس تبادل الأداء وتضافر الجهود .

ضرورة الأخلاق :

إن حاجة الإنسان الأكيدة لحماية الآخرين وإقامة علاقات تعاون معهم تستوجب منه أن يتحلّى بأخلاق اجتماعية وذلك لتأمين سبل حياته وديمومتها . ويجب أن يكون قد بنا أفكاره وأخلاقه منذ طفولته بشكل يمكنه في الكبر من أن يكتيف نفسه مع بيئته الاجتماعية ويصبح عضواً مفيداً ومؤثراً فيها ، يستفيد من الناس ويفيدهم .

«يجب أن تتطابق أعمال الإنسان وسلوكه مع مقتضيات بيئته . وأهم عوامل البيئة التي لها أهميتها المباشرة على الإنسان ، سلوك الآخرين ونشاطاتهم . وتبرهن على هذه الحقيقة أفضل برهان طريقة حياة كل إنسان . والحقيقة أن كل إنسان يكون منذ ولادته بحاجة إلى حماية الآخرين ومساعدتهم ، ومن هنا فإنه ليس هناك أي عامل فردي في تكوّن أخلاقه وطبائعه ، وكل ما لديه هو مكتسب من الآخرين»^(١) .

سرّ النجاح :

تشكل أخلاق الفرد وطبائعه الإجتماعية سرّ نجاحه في مجتمعه ، فأكثر الناس سعادة في الحياة هو ذلك الذي ينشأ في ظل تربية سليمة ويكتسب من الأخلاق والصفات أحسنها وأفضلها ويعاشر الناس بالحسنى والفضيلة ويحترم حقوقهم وحدودهم ، ويسعى إلى التكتيف مع مجتمعه على أساس سليم .

آداب المعاشرة :

عن أبي عبد الله الإمام الصادق عليه السلام قال : خالطوا الناس وأتوهم

(١) الأخلاق والشخصية ، ص ٨٥ .

وَأَعْيُونُهُمْ وَلَا تُجَابِيهِمْ وَقُولُوا لَهُمْ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾^(١) .

من الأسباب التي جعلت فترة الطفولة لدى الإنسان تطول إلى هذا الحد ، ضرورة تنمية الأخلاق وأهمية اكتساب الصفات الإجتماعية . فعلى الإنسان أن يتعرف خلال طفولته على خير الحياة وشرها ويطلع على السنن والآداب الإجتماعية ، وعليه أن يتعلم كيف يعاشر الناس ويتعاون معهم في تسيير شؤونهم الحياتية ، وكيف يتكيف مع المجتمع ويحصل على مزايا حياة إجتماعية ، وبديهي أن يستلزم بلوغ هدف كبير كهذا سنوات طويلة .

عندما يولد الإنسان أنثى كان أم ذكراً يحمل معه طاقات واستعدادات مختلفة زرعها الله سبحانه وتعالى في أعماقه ، بعض هذه الإستعدادات يتفجر في حينها تلقائياً وبشكل طبيعي دون الحاجة لعوامل تربوية ، كقابلية تكوين النطفة لدى الفتى وتكوين الجنين في رحم الفتاة ، والتي تفتح تلقائياً مع حلول مرحلة البلوغ . بينما يحتاج البعض الآخر لمراقبة وإشراف تربوي ليتفتح ، كقابلية النطق .

فوليد الإنسان والحيوان عندما يولدان يكونان عاجزين عن النطق مع فارق واحد بينهما ، وهو أن وليد الحيوان لا يمتلك أساساً استعداد النطق ، بينما وليد الإنسان لديه مثل هذا الإستعداد ، حيث يصبح بمقدوره النطق تدريجياً إذا ما تكلم معه المحيطون به باستمرار ، أما إذا كان المحيطون بالطفل الوليد يعانون من صمم وبكم ، فإنه سيربى مثلهم عاجزاً عن النطق ، وسيبقى إستعداد النطق الطبيعي لديه عقيماً ، لأنه لا يمكن أن يفتح تلقائياً .

تنمية الإستعدادات :

ثمة إستعداد طبيعي آخر يحمله الإنسان في أعماقه ، وهذا الإستعداد

(١) مستدرک الوسائل ٢ ، ص ٦١ .

الذي لا يمكنه أن يبرز إلا في ظل التربية ، هو استعداد التآلف الإجتماعي .
فعندما يولد الإنسان تولد معه قابلية التآلف الإجتماعي ، لكن وجود هذه القابلية
بحد ذاتها لا يكفي لتحقيق التآلف ، بل يجب أن تتم تربية الطفل الوليد على
الأخلاق الإجتماعية وآداب المعاشرة وسبل التكيف مع البيئة تحقيقاً لهذا
الهدف .

وعلى سبيل المثال هناك بعض الحشرات كالنحل والأرصة (النملة
البيضاء العمياء) تعيش بطبيعتها بشكل جماعي ، وتتكاثر فيما بينها كالإنسان
في كافة مساعيها وأعمالها ، وهي بحاجة دائمة لهذا التعاون طالما بقيت على
قيد الحياة ، لكنها تختلف عن الإنسان في كونها لا تحتاج إلى تعلم الصفات
المكتسبة في معرفة مسؤولياتها وتحديد سبل تعاشها فيما بينها ، لأن هذه
المعرفة موجودة فيها بالفطرة ، وكل حشرة تعرف من تلقاء نفسها ما يتوجب
عليها من مسؤوليات في حياتها الجماعية ، وبإلهام من خالق الكون تعرف أيضاً
كيف تنسجم مع بيئتها . ولكن الأمر يختلف بالنسبة للإنسان فيما يخص
استعداد التآلف الإجتماعي ، ولكي يبرز هذا الإستعداد ويتفتح في أعماق
الطفل ، يجب اتباع سياسة الخطوة خطوة في تلقينه كافة مسؤولياته في الحياة
الإجتماعية ، وإعداده من خلال التربية للتكيف مع البيئة .

«لكل وليد قوى واستعدادات محدودة يمكنه أن يعتمد عليها
ليصبح إنساناً كاملاً ، ويتحول نتيجة التجارب تدريجياً إلى إنسان
اجتماعي - كما يقول علماء الاجتماع - ، والمقصود من
الإجتماعي هو السبيل الذي يسلكه الإنسان ليكون عضواً فاعلاً في
المجتمع الذي وُلد فيه وتعلم آدابه وسننه»^(١) .

المحيط التربوي :

إن الطفل منذ ولادته وحتى انقضاء مرحلة البلوغ يطوي مرحلة طفولته ،

(١) علم الإجتماع ، لصاموئيل كينغ ، ص ١٠١ .

وخلال هذه الفترة الطويلة يقوى جسمه وتشد قواه الجسمية والروحية ، وينمو استعداداه للتألف الإجتماعي تدريجياً ، فيكتسب الأخلاق الإجتماعية وصفات التكيف مع البيئة ، ويصبح جاهزاً لمعاشرة الناس والمجتمع .

وبالرغم من أن ظروف المحيط الطبيعي تترك آثارها بشكل ملحوظ على تكوين أخلاق الإنسان وطبائعه ، وتمنح كل إنسان ما يتناسب ومحيطه الطبيعي من صفات وأخلاق ، إلا أن العامل الأكثر تأثيراً على إبراز استعداد الطفل للتألف الإجتماعي وتدعيم أسس شخصيته واكتسابه الصفات الإجتماعية ، حميدة كانت أم ذميمة ، هو المحيط التربوي . إن الإنسان عادة ما يكتسب الصفات الإجتماعية في الفترة الواقعة بين مرحلتي الطفولة والشباب من محيط الأسرة والمدرسة والزقاق والحى وكل محيط كان يربطه به رابط .

الطفل والأسرة :

«في البداية لم يكن الطفل يعرف شيئاً عن المحيط الذي يحيط به ، ولكن سرعان ما تولد في نفسه علاقة خاصة بالأشياء من حوله والأشخاص المحيطين به ، ومن بين هؤلاء الأشخاص تعتبر الأم هي الأقرب إلى الإنسان ، حيث تعتبر في أغلب الثقافات الشخص الأهم الذي يراه الإنسان طوال عمره . ثم يأتي بعد الأم من حيث الأهمية الأب ثم باقي أفراد الأسرة ، وفي مثل هذه الدائرة المحدودة يصقل فكر الإنسان وذهنه ليدخل حياة حقيقية ، ومن هنا فلا غرابة من أن يولي علماء النفس والاجتماع والمحللون النفسانيون كل هذه الأهمية للسنين الأولى من حياة الطفل ومحيطه» .

«وتتسع دائرة الأسرة لتشمل الأصدقاء ثم تتسع أكثر فأكثر لتشمل أصدقاء المدرسة والمعلمين والكثير غيرهم من خارجه دائرة

الأسرة ، ولكل منهم أثره في جعل الطفل إنساناً إجتماعياً»^(١) .

الطفل وسلوك الآخرين :

«يقول «كولي» في كتابه «الطبيعة الإنسانية والنظام الإجتماعي» : إن الإنسان يكشف ذاته من خلال احتكاكه بأعضاء أسرته ، وتأتي هذه المعرفة من خلال مراقبة سلوك الآخرين تجاه الذات . يعني أن الطفل يكشف ذاته في بادئ الأمر ، ثم يحدد وضعه كإنسان من خلال تقييم تصوّر الآخرين وسلوكهم تجاهه ، ولهذا اعتبر «كولي» تصوّر الطفل تجاه نفسه بأنه مرآة لشخصيته» .

«لا يمكن للطفل أن يلمس حقيقة وجوده داخل محيطه ، وربما رأى من خلال سلوك الآخرين وتصرفهم معه ، نفسه أفضل أو أسوأ ممّا هو عليه» .

«ويعتقد عالم النفس الأمريكي «ستانلي هال» أنه حتى طريقة مناداة الطفل من قبل أفراد أسرته أو أصدقائه قد تترك أثراً كبيراً على تصوّره تجاه نفسه ، فالطفل الذي تناديه أمّه بـ«الملاك» ، يتكوّن لديه تصوّر عن نفسه يختلف كثيراً عن ذلك التصرّو الذي يكوّنه عن نفسه طفل تناديه أمّه بـ«الحقير»»^(٢) .

التربية الواعية :

تنفذ الأخلاق الإجتماعية حسنة كانت أم سيئة وكذلك صفات التآلف مع البيئة إلى أعماق الإنسان ، ويبرز إستعداده للتآلف الإجتماعي عبر عاملين ، الأول عامل الإدراك والوعي ، والثاني عامل اللاإدراك واللاوعي .

بعض هذه الصفات الإجتماعية يسعى المربون والمحيطون بالطفل إلى

(١) علم الإجتماع ، لصاموئيل كينغ ، ص ١٠١ .

(٢) نفس المصدر ، ص ١٠٢ .

تعليمه إياها وتذكيره بها مراراً وتكراراً ، هذه الصفات من شأنها أن تنفذ إلى أعماق الطفل عبر عامل الإدراك والوعي ، وشيئاً فشيئاً يعتاد الطفل عليها ويجعلها أساساً في حياته الإجتماعية ، كأن تقول الأم لابنها ، كن نظيفاً ، إغسل يديك ووجهك ، احسن جلوسك أمام الآخرين ، لا تكن ثرثاراً ، أو يقول المعلم لتلميذه ، لا تعبت بحقيبة زملائك ، لا تؤذ رفاقك ، إحترم معلمك ، كن مؤدباً في صفك وما إلى ذلك من أمور .

التربية اللاواعية :

والبعض الآخر من الصفات يكتسبها الطفل دون وعي أو إرادة من محيط الأسرة والمدرسة والزقاق والحي ، وذلك دون أن يعلمه أحد ودون رغبة منه ، مثلاً إذا كان طابع الخوف والجبن مسيطراً على الأبوين في المنزل ، أو كان الأبوان يؤمنان بالخرافات والأوهام ، أو كان المعلم في المدرسة بذيء الأخلاق واللسان ، أو كان طابع الظلم مسيطراً على الجيران والرفاق ، فإن الطفل سيقع لا محالة تحت هذه التأثيرات من حيث لا يدري ولا يرغب ، فيصبح إنساناً جباناً مؤمناً بالخرافات بذيء الأخلاق واللسان ظالماً ، وعلى أساس ذلك تتشكل طبائعه الإجتماعية .

أسس الشخصية :

ولا بد من القول إن محيط الأسرة والمدرسة والزقاق والحي له تأثير كبير في تكوين أخلاق الطفل وطبائعه ، ويشكل هذا المحيط مهما كان وضعه سليماً أو سقيماً أسس شخصية الطفل ، ويفتح له استعداداته الاجتماعية ، فالبيت والمدرسة والزقاق والحي ، الكل يشارك في إعداد الطفل منذ انطلاقة لحياة اجتماعية يتكيف فيها مع محيطه .

التربية السليمة والتربية السقيمة :

إن الإنسان الذي يتلقى منذ طفولته وحتى انتهاء فترة بلوغه تربية سليمة ، ويميز استعداده الإجتماعي بشكل لائق ، ويتعرع في محيط الأسرة والمدرسة

زقاق والحي بشكل سليم ، ويكتسب من المحيطين به خير الصفات الأخلاق من حيث يشعر أو لا يشعر ، فإنه حينما يصبح شاباً تتوفر فيه كافة الشروط اللازمة لحياة اجتماعية ، ويكون قادراً على التكيف مع الناس ومطابقة نفسه مع ظروف بيئته والإنسجام مع المستجدات الاجتماعية ليكون بذلك عضواً فاعلاً ومفيداً في مجتمعه .

أما ذلك الإنسان الذي يتلقى في طفولته تربية سقيمة ، ويكسب ما هو غير طبيعي ومناسب من الطبائع الاجتماعية ، ويكتسب من المحيطين به شرّ الصفات والأخلاق من حيث يدري أو لا يدري ، فإنه حينما يرغب في دخول المجتمع ، سيكون ضعيفاً بل وعاجزاً أحياناً عن التكيف مع المحيط ، وسيعيش في شبابه قلقاً مستمراً وعدم ارتياح على الدوام بسبب عجزه عن الإنسجام مع محيطه ومجتمعه ، وسيكون الفشل حليفه دائماً ، وهذه الإضطرابات والإنفعالات النفسية قد تدفع به إلى ارتكاب أعمال غير مباحة وإبراز ردود فعل سلبية .

المحيط الاجتماعي :

بالرغم من أن محيط الأسرة والمدرسة والزقاق يشكل عاملاً قوياً في إرساء وتدعيم قواعد شخصية الإنسان وتكوين أخلاقه وطبائعه ، ويترك تأثيره عليه شاء أم أبى ، إلا أن هناك عاملاً أكثر قوة وتأثيراً على الإنسان ، وهو المحيط الاجتماعي ، الذي يعتبر آخر مدرسة يمرّ بها الإنسان ساعياً لبناء شخصيته وتكوين أخلاقه .

«يقال إن كل مجتمع يقيم أفرادَه على نظام معين ، أي أن هذا المجتمع هو الذي يجعل أفرادَه يكتسبون نوعاً خاصاً من الشخصية . ويقال إنه بالرغم من وجود تباين بين شخصية أفراد المجتمع ما ، هناك قواسم مشتركة تمتاز بها شخصية أفراد أي من المجتمعات ، ومن هنا بات الإنجليزي يعرف يهودته والفرنسي بحماسة والألماني بحبه للحرب والإيطالي بعطفه والياباني باحترامه

للقانون والكوري بتمرده ، كما سمعنا كثيراً عن الطبيعة العدوانية لقبيلة «ماندان» والطبيعة الهادئة لقبيلة «زون» ، وحرص وجشع قبيلة «مانو» وانطواء وتساؤل قبيلة «بالي» ، وهذه القبائل كلها من قبائل الهنود الحمر ، ولكن علينا أن نبحث عن أسباب هذه الاختلافات»^(١) .

«إذن فالمحيط الإجتماعي هو الذي يتحكم بتحريك الفرد وبناء شخصيته وفق مقتضياته . فكل فرد يولد وتولد معه طاقة إدراكية وعاطفية واسعة ، لكن هذه الطاقة كما يفهم من كلمة - طاقة - هي ثروة كامنة بحد ذاتها ليس لها شكل فعلي ومنتظم ، لكنها تبرز تدريجياً وتأخذ مجرى معيناً حسب مقتضيات المحيط الإجتماعي . إذن فمجريات الحياة الإجتماعية هي التي تمنح الفرد إدراكات علمية ، وتجعل من الخرافات موضوع إدراكات الآخر ، وهي التي تجعل من هذا أسير أحاسيس العداة ومن ذاك أسير عاطفة الحب ، وهي التي تصبّ عداة هذا على بني جنسه وتسوق عداة ذلك نحو الموانع الطبيعية والإجتماعية» .

يتساوى الإنسان في كافة المجتمعات وجميع العصور من ناحية الخصائص العضوية الرئيسية ، لكنه من ناحية الخصائص الإجتماعية يختلف باختلاف المجتمعات والعصور . المرأة مثلاً تتساوى في كل المجتمعات من حيث التركيب الجسماني ، لكنها تختلف باختلاف المجتمعات من حيث الشخصية إستناداً لأبحاث مكثفة أجرتها «مرغريت ميد» ويمكننا أن نلاحظ في صفوف النساء من يملكن شخصية مطيعة أو شخصية محبة للإستقلال والحريّة أو شخصية مستبدة أو شخصية عدوانية .

«ونخلص إلى ما كتبه العالم «فريس» الذي قال إن التركيبة

(١) مبادئ علم الإجتماع ، ص ١٧٣ .

الإنسانية مهما كانت فإنها سندان بواسطة المجتمع . وستتبلور وفق
المقتضيات الإجتماعية . فالمجتمع من القوة بمكان يستطيع أن
يأخذ بيد الضعيف ليجعله ذا شخصية قوية ، كما يستطيع أن يأخذ
بيد القوي ويجعل منه إنساناً منزوياً مكتئباً ، يهدر كل إمكانياته
العظيمة ، ويضع حداً لحياته بالانتحار ربما»^(١) .

الإنسان والتبعية للمجتمع :

إن عناصر الجذب الإجتماعية من القدرة بمكان بحيث ينشد إليها عامة
الناس باستثناء أصحاب الفكر والعلماء والنوابغ ، ويتكيفون معها ومع آدابها
وسننها دون أدنى تفكير . فالمحيط الإجتماعي قادر على أن يجعل الشباب
يذوبون فيه ويتكيفون معه وينسون الأخلاق والصفات التي اكتسبوها من محيط
الأسرة والتي لا تنسجم والمحيط الإجتماعي .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : النَّاسُ بِزَمَانِهِمْ أَشْبَهُ مِنْهُمْ بِآبَائِهِمْ^(٢) .

«إن للإنسان غريزة إجتماعية ، وهذه الغريزة تفرض عليه أن يعيش
داخل مجموعة أو بالأحرى مجتمع لا يخرج منه أبداً . ومن هنا
كان الإنسان شديد الحساسية تجاه مجموعته ، يتبع أفكارها
وعقائدها ، ويعتقد «تروتر» أن تأثير المجموعة أو المجتمع على
الإنسان لا يمكن تلافيه أو مقاومته ، فالإنسان يتقبل كل ما هو
صحيح بنظر المجموعة ، ويكره كل ما هو قبيح ومرفوض من قبل
المجموعة ، لذا فإن احتمال حرية الفكر أو العقيدة هنا ضئيل جداً
أو يكاد ينعدم ، فمخالفة مبادئ المجتمع وسننه تدفع بالإنسان
إلى تأنيب الضمير ، لأنه سيشعر وكأنه ارتكب خطأ»^(٣) .

(١) مبادئ علم الاجتماع ، ص ١٩٥ .

(٢) ناسخ التواريخ ، ص ٨٦٩ .

(٣) علم الاجتماع ، ص ٤٠٣ .

الميل إلى البدع الحديثة :

«كلما ظهرت بدعة جديدة أفضل من عادات وتقاليد الأسلاف أو أنها تستهوي الأفراد لسبب ما ، يميل إليها عامة الناس ، لتتحول هذه البدعة تدريجياً إلى عادة من العادات بعد أن تفرض نفسها وترغم الأفراد على التكيف معها والإعتياد عليها ، والإنسان في الحقيقة يعيش في الظروف العادية على الدوام تقريباً تحت ضغط العادات ، فيتصرف دون تفكير وينتهج عادات مجتمعه وتقاليدته تلقائياً»^(١) .

تأثير المجتمع في المعتقدات :

إن قدرة الكيان الاجتماعي لا تترك تأثيراتها على شؤون الحياة السطحية وتصرفات وسلوك الفرد العادية وترتك مبدأ الخير والشر في ذهن الإنسان فحسب ، بل هي قادرة على التغلغل إلى أعماق الإنسان والتأثير على أفكاره ومعتقداته الدينية وبالتالي إحداثه عن جادة الحق والحقيقة .

لقد عاش بنو إسرائيل سنين طويلة في أسر الفراعنة ، وعانوا من ظروف حياتية قاسية ، حتى بعث الله سبحانه وتعالى موسى بن عمران ليواجه حكومة فرعون المتجبرة ويدعو الناس إلى الله الواحد الأحد . وفعلاً استطاع النبي موسى وبعباية إلهية إنقاذ بني إسرائيل من ذل العبودية والأسر ، حيث جاوز بهم النيل بسلام لينقذهم من محيط الكبت القاتل الذي كانوا يعيشونه . ومن المفترض بقوم كبري إسرائيل أن يصبحوا بعد تلك المعجزة من الشاكرين لله سبحانه وتعالى على الدوام ، ومن الذين لا يشركون به طرفة عين أو يتمردون على ما جاء به نبي الله موسى من تعاليم سماوية ، ولكن أمراً كهذا لم يحصل ، لأن مجرد دخولهم على مجتمع مشرك يعبد الأصنام قد أثر فيهم وحاد بأفكارهم

(١) نفس المصدر ، ص ٨٨ .

عن جادة الصّواب وجعلهم يميلون إلى عبادة الأصنام .

قال الله عزّ وجلّ في كتابه : ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَمْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾^(١) .

فالمجتمع المشرك قادر على أن يحمّد بالموحد الله سبحانه وتعالى نحو الشرك وعبادة الأصنام ، والمجتمع الكافر قادر على إحادة الفرد المؤمن الملتزم عن جادة الصّواب والفضيلة ، وتجريده من حيائه الإيماني والخلقي ، وسوقه نحو الفساد والرذيلة .

التعرّب بعد الهجرة :

لقد فرض الدين الإسلامي قيوداً على من يريد من المسلمين الإقامة في بلد غير إسلامي أو الهجرة إليه للضرورة ، وذلك صوتاً للمسلمين من شرّ مجتمعات الكفر والضلالة والمخاطر التي تلحق بفطرتهم الإيمانية والأخلاقية .

والمسلم لا يحق له الإقامة أو الهجرة إلى بلد يعرف أنه سيكون فيه عاجزاً عن أداء فرائضه الدينية ، لأن محيط هكذا بلد لا شك أنه سترك في نفسه أثراً سلبياً من شأنه أن يحمّده عن إسلامه . قال رسول الله ﷺ : إني بريء من كلّ مسلمٍ نزل مع مشركٍ في دار الحرب^(٢) .

وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام قال : من الكبائر قتل المؤمن عمداً إلى أن قال والتعرّب بعد الهجرة^(٣) .

وعن محمد بن سنان أن أبا الحسن الإمام الرضا عليه السلام كتّب إليه فيما كتّب من جواب مسأله : وحرم الله التعرّب بعد الهجرة للرّجوع عن الدين وتترك المؤازرة للأنبياء والحجج عليه السلام وما في ذلك من الفساد وإبطال حقّ كلِّ

(١) سورة الأعراف ؛ الآية : ١٣٨ .

(٢) مستدرک الوسائل ٢ ، ص ٢٦٠ .

ذِي حَقٍّ^(١) .

إن إرادة المجتمع بحد ذاتها تشكل أكبر قوة وأعظم قدرة ، فعندما يريد أفراد مجتمع ما شيئاً ما وينهضون من أجل تحقيقه حقاً كان أم باطلاً ، عدلاً كان أم ظلماً ، فإنهم سينجحون لا محالة .

قال أمير المؤمنين عليه السلام : إِرْجَافُ الْعَامَّةِ بِالشَّيْءِ دَلِيلٌ عَلَى مُقَدَّمَاتِ كَوْنِهِ^(٢) .

وعنه عليه السلام : خَوْضُ النَّاسِ فِي شَيْءٍ مُقَدَّمَةٌ الْكَائِنِ^(٣) .

حركة الفرد في المجتمع :

لا يفكر المرء في مجتمعه بصلاحيته أو فساده ولا بعواقب أعماله وتصرفاته ، فهو وسط مجتمعه أشبه ما يكون بقطعة صغيرة من الخشب تتقاذفها الأمواج المتلاطمة ، ويسير دون وعي أو إرادة في الوجهة التي يحددها له مجتمعه .

«يعتقد «لوبن» في نظريته بأن الفرد في مجتمعه يفقد شخصيته الواعية ويكون تابعاً لتلقينات المجتمع تماماً كتأثيرات التنويم المغناطيسي . ومن الممكن جداً أن يكون شخص ما في قمة التربية والأدب ، ويفكر عندما يخلو بنفسه بعواقب سلوكه وتصرفاته ، لكنه قد يتحول إلى إنسان متوحش بين المجموعة ، وينقاد إلى سلطة الغريزة ليقوم بأي عمل دون تفكير أو تأمل .

فالإنسان بين الجماعة يسقط إلى درجة الوحشية ، ويتبع أي تلقين دون تردد ، ويرتكب ما هو مخالف لعاداته وأفكاره . ويرى «لوبن»

(١) وسائل الشيعة ٤ ، ص ١٤ .

(٢) بحار الأنوار ١٧ ، ص ١١١ .

(٣) غرر الحكم ، ص ٣٩٦ .

أن الفرد بين الجماعة كحبة رمل بين الرمال تتلاعب بها الرياح
كيفما شاءت»^(١) .

حركة الغوغائيين :

لو افترضنا أن مجتمعاً ما يشكل العقلاء والعلماء والفضلاء والصالحون
غالبية أفراده ، فإن التوجّه العام لمثل هذا المجتمع وحركته الإجتماعية سيكونان
مصدراً للخير والصلاح ، وسيؤمنان لأفراد المجتمع مزيداً من الرفاهية ، ولكن
المجتمع الذي يشكل الجهلة والأميون والغوغائيون غالبية أفراده ، تكون الحركة
الإجتماعية فيه في الغالب ضارة وخطيرة قد تجرّ على المجتمع مزيداً من
الويلات والمصائب .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام في صفة الغوغاء : هُم الَّذِينَ إِذَا اجْتَمَعُوا
ضُرُّوا وَإِذَا تَفَرَّقُوا نَفَعُوا^(٢) .

إن الغوغاء الإجتماعية هي كالأمرض السارية التي تنفثُ بسرعة كبيرة
بين الناس ، وتبدأ قدرة المجتمع باستقطاب عامة الناس نحوها دون وعي منهم
أو شعور ، أما أصحاب الإرادات القوية من الناس ، فقد يتمكنون من حفظ
شخصيتهم وصون أنفسهم من كل التيارات المخربة والهدامة .

وثمة أفراد مخربون يستغلون جرائمهم ، ليلحقوا الأذى والضرر بالناس
دون أن يعرفهم الناس ، ولأنهم لم يُعرفوا فإنهم في أمان من الجزاء والعقاب .
قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : هُمُ الَّذِينَ إِذَا اجْتَمَعُوا غَلَبُوا وَإِذَا تَفَرَّقُوا
لَمْ يُعْرِفُوا^(٣) .

المجرمون المجهولون :

«هناك أفراد يعيشون وسط الجمع يسيطر عليهم حسّ الأنانية

(١) علم الاجتماع ، ص ٣٩٥ .
(٢) نهج البلاغة ، الكلمة ١٩٠

والخصومة ، والجمع الذي يعيشون فيه يسمح لهم بأن يتبادوا في حَسَمهم هذا . ومما يمتاز به الجمع من خصوصيات مهمة الكبر والغرور والتشَبُّث بالرأي والعقيدة ، وفي ظل هذا الرأي وتلك العقيدة ، لن يتوانى هذا الجمع عن ضرب كل ما يعترضه في طريقه تحقيقاً لأفكاره ومعتقداته»^(١) .

«وبين مجموعة من الأفراد بجمعهم هدف مشترك ، يشعر الفرد بقدرة غريبة لم يكن يشعر بها خارج الجمع . إضافة إلى أن الانتماء إلى الجمع يعني مجهولية الفرد وسقوط المسؤولية الفردية من على عاتقه ، ومن هنا يرى الفرد نفسه داخل الجمع متحرراً من قيود المسؤولية وبعيداً من أصابع الإتهام في كل ما قد يُقدم عليه دون أن يفكر بعواقبه» .

«فضلاً عن ذلك فإن قوة الإيحاء والتلقين تكون في المجموعة ذات الهدف المشترك بارزة تماماً ، بحيث إن أي تلقين فكري أو حسَّ إيحائي ينتشر بسرعة فائقة ليعمَّ كافة أفراد المجموعة» .

«أما الأفراد الذين يمتازون بشخصية فذة ويستطيعون مقاومة قدرة الإيحاء والتلقين والسير بعكس التيار فهم قليلون إن لم نقل نادرين ، ولكن كل ما يستطيع مثل هؤلاء الأفراد فعله هو إبداء الرأي وإظهار العقيدة والعمل على بث الفرقه بين الجمع ، علَّهم يستطيعون في كثير من الحالات منع الجمع من القيام بممارسات وحشية وأعمال ظالمة»^(٢) .

إن ما نريد في بحثنا هذا هو أن الإنسان يكون منذ ولادته وحتى انتهاء

(١) علم الإجتماع ، ص ٣٩٨ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٣٩٤ .

فترة بلوغه عُرضة لتأثيرات محيط المنزل والمدرسة والزقاق والحي ، وعلى أساس هذه التأثيرات القوية تقوم قواعد شخصيته وصفاته الأخلاقية ، التي تصبح فيما بعد وبالتحديد في مرحلة الشباب قاعدة لتعامله مع الناس وتكيفه مع المجتمع .

« طالما لم يتغير شكل المجتمع ولم يطرأ عليه تحوّل كبير ومهم ، لن تحصل مواجهة بين المبادئ والفهم ، وسيواصل الجميع حياتهم إلى جانب بعضهم البعض الآخر » .

« فتجد القدرة والفخر والإعتزاز والهيمنة هنا ، وتلمس الكدح والحرمان والمشقة والحقارة هناك ، وترى مبدأ القوة والعنف والإستغلال مسيطراً على هذه الفئة ، بينما يسيطر مبدأ الصبر والطاعة والخنوع على تلك الفئة ، للنساء صفاتهن الخاصة بهن وللرجال فضائلهم الخاصة بهم »^(١) .

إختلال الشخصية :

أما إذا تعرّض المجتمع لتحوّل وتغيير ، وسادت فيه مبادئ جديدة تتعارض والمبادئ التي خرج فيها الإنسان من محيط أسرته ، فإن الشاب سيصبح متردداً في اتخاذ القرارات ، ومتحيراً بين البقاء على مبادئ الأسرة أو إنتهاج المبادئ الإجتماعية الجديدة ، وهذا التردّد وعدم الثقة والحيرة من شأنها أن تترك شخصية الشاب وأخلاقه .

التطور في عالم الصناعة :

من المؤسف أن المبادئ الإجتماعية في عالمنا اليوم ونعني به عالم الصناعة والآلة ، هي في تغيير مستمر ، حيث تبدّل السنن والآداب العامة باستمرار وفي فترات قصيرة ، وأثناء هذا التغيير والتبدّل كم من المحرمات

(١) الأخلاق والشخصية ، ص ٨٣ .

تصبح حلالاً في نظر الناس والعكس بالعكس .

بمعنى أن السنن والآداب الإجتماعية كانت في الماضي وما نزال في الحاضر عرضة لتحويلات وتغييرات كبيرة ، ولم ولن تشهد ثباتاً واستقراراً ، لكنها أي هذه التحويلات والتغييرات كانت تتم ببطء مرة كل عدة قرون ، لكنها باتت في عصرنا الصناعي الآلي سريعة جداً ، بحيث باتت هذه التغييرات تطراً على الشؤون الأساسية للمجتمع خلال فترة حياة جيل واحد أو أقل ربما ، وأصبح مرفوضاً لدى المجتمع الكثير من السنن والآداب التي كانت يوماً مقبولة لديه ، وطبيعي في مثل هذه الظروف والأجواء أن يعاني معظم الشباب من صراعات نفسية باطنية ، وقلق عميق إزاء تضارب المبادئ التي استحصلوا عليها من محيط الأسرة والمنزل مع المبادئ الإجتماعية الجديدة .

وهنا نرى من الضروري جداً أن نتطرق في بحثنا إلى السنن والآداب الإجتماعية ، لكي يعي أولياء الأطفال وكذلك جيل الشباب أهمية هذه المشكلة الإجتماعية والتربوية العظيمة ، ويعرفوا وجهة نظر الإسلام حيال التغييرات المباحة وغير المباحة ، ويدركوا دور التطور الصناعي والآلي في التسريع بتغيير الآداب الإجتماعية والسنن الأخلاقية .

الآداب الإجتماعية :

كانت منذ سالف العصر والزمان وحتى يومنا هذا لكل ملة أو أمة مهمما اختلاف ظروف معيشتها أو انتماءاتها أو مذاهبها أو لغاتها ، كانت لها سلسلة من المقررات تشكل سننها وآدابها الإجتماعية ، وتتعامل على أساسها فيما بينها .

إن السنن والآداب الإجتماعية هي عبارة عن مجموعة مقررات عابرة انتقلت من الأجيال السالفة إلى الأجيال المتقدمة ، وأضيفت إليها سنن وآداب جديدة حسب مقتضى ظروف كل جيل .

ويعتقد «سيمنر» أن الآداب الإجتماعية هي الوسيلة الوحيدة التي تسكن الفرد من التألف مع المجتمع . والآداب الإجتماعية تشمل

على أدق العادات والتقاليد المتبعة في الحياة اليومية ، صغيرة كانت أم كبيرة ، لذا لا يمكن حصرها أو عدّها»^(١) .

الأسس الأخلاقية :

«وتنضمّ الأخلاق أيضاً إلى السنن والعادات والآداب الإجتماعية عندما يصبح لها بعد عملي . وتصبح سنن وآداب كل مجتمع قاعدة لنشاطاته وفعاليته ، وتشكل هذه السنن والآداب في الحقيقة السّداة التي تنسج عليها لحمة النشاطات الفردية لأي مجتمع كان ، وهذه حقيقة كانت منذ قيام البشرية وما زالت قائمة حتى يومنا هذا» .

«على كل حال فإن الآداب اعتبرت بمثابة أسس للأخلاق ، لأن رواج بعضها يدفع بالإنسان إلى اقتباس أخلاقه وعاداته من تلك الآداب ، وكل عادة بدورها تولّد توقّعا لا شعورياً»^(٢) .

إن كافة المقررات العادية والسنن والعادات والآداب الإجتماعية لا تتساوى من حيث القيمة في نظر الناس ، فالمجتمع لا ينظر إليها جميعاً من منظار واحد ، بل ينظر إلى بعضها على أنها مهمة ويجب تطبيقها ، وإلى بعضها الآخر على أنها عادية يمكن تجاهلها .

إختلاف الآداب والسنن :

إن السنن والآداب الناجمة عن المعتقدات الدينية أو الأسس والمبادئ الوطنية ، والتي تلعب دوراً مهماً في سعادة المجتمع ، تعتبر ذات أهمية بالغة لا يمكن تجاهلها أو التمرد عليها ، لأن في ذلك أضراراً مادية ومعنوية ، أما السنن والآداب النابعة من أفكار عادية ومبادئ حياتية سطحية ، فإنها ليست بذات

(١) علم الاجتماع ، ص ٨٧ .

(٢) الأخلاق والشخصية ، ص ٧٧ .

أهمية ، وقد يتجاهلها البعض من أفراد المجتمع .

وقد أطلق بعض علماء الاجتماع على الجزء الأول من الآداب التي تتوفر من خلالها سعادة الإنسان اسم «السنن» ، فيما أطلقوا على الجزء الثاني اسم «العادات والتقاليد» .

«تلك المجموعة من الآداب التي يرى المجتمع في الإلتزام بها ضرورة تؤمن سعادته ورفاهيته ، وفي تجاهلها وعدم تطبيقها خطراً يحدق به ، تسمى بـ «السنن» .

«والسنن في تعريف «سيمنر» و«كلير» هي عبارة عن مجموعة من الآداب والعادات والتقاليد التي تضمن صلاح المجتمع وسعادته ، ف يسعى الإنسان إلى تكييف نفسه معها دونما حاجة لأحد يجبره على ذلك . ففي الوقت الذي يستطيع الإنسان أن يضرب بعرض الحائط الآداب والتقاليد العادية دونما أي توبيخ أو عقاب يفرضه الآخرون عليه ، فإنه لن يتجرأ على تجاهل سنة من السنن الإجتماعية ، لأن ضرراً كبيراً سيلحق به نتيجة هذا التجاهل لأي سنة من السنن التي يعزز الدين دعائمها»^(١) .

عادات غير ثابتة :

إن الآداب والعادات الإجتماعية لكل قوم تكون متناسبة مع الوضع المعيشي والظروف الحياتية لأولئك القوم . ومع الأخذ بعين الإعتبار سعي جميع الأقسام والشعوب نحو الرقي والتكامل ، والتغير الدائم الذي يطرأ على ظروفها الحياتية في ظل التقدم والتطور العلمي والصناعي الذي تحققه ، فإن آدابها وعاداتها الإجتماعية بدورها لا يمكن أن تكون ثابتة ومستقرة ، بل هي دائماً في حالة تغير أو تبدل .

(١) علم الاجتماع ، ص ٨٩ .

«إن الآداب والعادات الإجتماعية تتغير بتغير الظروف الإجتماعية ، ولكن هناك مقاومة تبرز عادة عند كل تغيير ، فالعادات المرتبطة بأفكار وآراء وتقاليد الأسرة العادية أو الأسرة المالكة تبدي عادة مقاومة بوجه أي تغيير في العادات والآداب الإجتماعية أكثر من العادات والتقاليد المرتبطة بالمجال الإقتصادي لشعب ما ، كعادة جني المحصول»^(١) .

تغير الزمان :

ليس العقلاء والعارفون بمنأى عن التغييرات التي لا بد منها في كل مجتمع ، لكنهم يعلمون أن هذه التغييرات لن تحصل إلا بتغير مقتضيات الزمان ، لذا فهم لن يثنوا أمام أي تغيير اجتماعي ، ولن يضلوا سبيل الحياة الصحيح ، بل يتدارسون هذه التغييرات بكل دقة ويواكبون التطور والتقدم الأساس والمفيد لزمانهم ، ويسعون إلى تطبيق أنفسهم مع الظروف الجديدة لمحيطهم ، ومعنى ذلك أنهم يطبقون عملياً الآداب والعادات الجديدة .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : **أَعْرِفُ النَّاسَ بِالزَّمَانِ مَنْ لَمْ يَتَعَجَّبْ مِنْ أَحْدَائِهِ**^(١) .

وعنه عليه السلام : **يُنْبَغِي لِمَنْ عَرَفَ الزَّمَانَ أَنْ لَا يَأْمَنَ الصُّرُوفَ وَالْغَيْرَ**^(٢) .

التربية بمقتضى الزمان :

تشكل سيرة حياة الناس في أي زمان كان آداب اولئك الناس وعاداتهم وتقاليدهم الخاصة بزمانهم ، وكل إنسان قادر على أن يتألف مع الناس ويكيف نفسه مع ما يقتضيه زمانه . الآباء والأمهات الواعون الحرصون مكلفون بدورهم

(١) علم الاجتماع ، ص ٨٨ .

(٢) غرر الحكم ، ص ٢٠١ .

(٣) فهرست الغرر ، ص ١٤٨ .

بتربية أبنائهم حسبما يقتضيه زمانهم وظروف حياتهم ، ليخلقوا فيهم خير الصفات التي تتناسب وزمانهم ، وهذا ما يعتبر شرطاً لحسن التعايش مع المجتمع .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : لا تَقْسِرُوا أَوْلَادَكُمْ عَلَى آدَابِكُمْ فَإِنَّهُمْ مَخْلُوقُونَ لِزَمَانٍ غَيْرِ زَمَانِكُمْ ^(١) .

وهنا لا بد من إعطاء توضيح بسيط بهدف قطع الطريق أمام المفرضين والجهلة الذين قد يسيئون فهم وتأويل هذا الحديث ، وهو أن المقصود بكلمة آداب الواردة في نص الوصية التربوية لأمير المؤمنين علي عليه السلام هو العادات الإجتماعية المألوفة ، وإلا فإن السنن الإنسانية والضوابط الإسلامية التي تعتبر أساس سعادة الإنسان ثابتة وغير قابلة للتغيير .

التطور بمقتضى الزمان :

إذن فمن واجب الآباء والأمهات الواعين تربية أبنائهم على أساس تلك السنن الثابتة لضمان سعادتهم ، ولْيَعْلَمُوا أَنَّهُ لَوْ انصَرَفَ مَجْتَمَعٌ جَاهِلٌ عَنِ الإلتزام بالسنن الثابتة ، وأخذ يبيح الحرام ويحرم المباح تحت شعار تغيّر مقتضيات الزمان ، فإن ذلك لن يغيّر شيئاً من تلك السنن ، ومثل هذا المجتمع لا بد وأنه سيواجه ما سيترتب على أعماله من عواقب مشؤومة .

وبعبارة أوضح نقول إن المراد من حديث أمير المؤمنين عليه السلام هو أنه لو كان هناك أب قد تعلّم بالأمس الطب من خلال كتاب القانون لابن سينا وأخذ يعالج مرضاه بنفس الأسلوب الذي كان متبعاً آنذاك ، ينبغي عليه أن لا يفرض على ابنه اليوم المنهاج ذاته ، لأن مقتضيات الزمان قد تغيّرت ، وظروف الطبابة قد تبدّلت ، وإذا ما أراد مثل هذا الأب أن يصبح ابنه طبيباً ، عليه أن يتماشى مع عصره وزمانه ، فيرسله إلى الجامعة ليتلقّى جديد الطب والجراحة وآخر ما توصلت إليه التحقيقات والبحوث العلمية في مجال الطب .

(١) شرح ابن أبي الحديد ٢٠ ، الكلمة ١٠٢ ، ص ٢٦٧ .

الوسائل الحديثة :

وإذا كان الأب بالأمس يبني بيوتاً وأكواخاً للناس من الطين والأجر وكانت تروق لهم ، عليه أن لا يفرض هذه الطريقة البدائية في البناء على ابنه ، لأن طرق البناء وكذلك الوسائل والمعدات المستخدمة في هذا المجال قد تغيرت اليوم وتطورت . وهو مكلف بإرسال ابنه إلى الجامعة ليصبح مهندساً معمارياً يتقن فن العمارة الحديث الذي يتماشى ومقتضيات زمانه .

كذلك الأمر بالنسبة للغزل والنسيج ، فحتى الأمس كانت هذه الحرفة تتم بواسطة عجلات خشبية بدائية ، أما اليوم فقد دخلت الوسائل الحديثة والآلات المتطورة في صناعة الغزل والنسيج . وبالأمس كانت وسائل النقل والشحن تقتصر على الدواب كالخيول والجمال ، لكنها اليوم باتت تشمل على السيارات والطائرات والقطارات والسفن . وبالأمس أيضاً كان الإنسان يستخدم السراج والقنديل اللذين يعملان على الطاقة الزيتية والنفطية للإنارة ، لكنه اليوم استبدلهما بمصابيح تعمل على الطاقة الكهربائية . وحتى الأمس كان الإنسان يجلس على الأرض في بيته وأينما ذهب ، بينما اليوم نرى الكرسي والطاولة يزيّنان كل بيت ومجلس . وما نريد أن نشبهه من خلال حديثنا هذا هو أن كل الآداب والعادات المتعلقة بجميع مجالات الحياة وشؤونها قد تغيرت .

ومن هذا المنطلق جاءت وصية أمير المؤمنين عليه السلام لاتباعه بأن لا يقسروا أولادهم على آدابهم ، لأنهم مخلوقون لزمان غير زمانهم . والواجب يدعو الآباء والأمهات إلى مجاراة التقدّم الذي بلغه عالمنا اليوم ، وتربية أبنائهم بمقتضى زمانهم كي يتمكنوا من تكييف أنفسهم مع ظروف زمانهم والتكيف مع مجتمعهم على أفضل وجه ، ولكن على الآباء والأمهات أن يحرصوا على أبنائهم دون أن يسمحوا لهم بتجاهل السنن الأساسية الثابتة والضوابط الإسلامية التي تشكل أساس سعادتهم تحت حجة تغير مقتضيات الزمان .

السنن الثابتة :

يمكننا أن نعتبر إقامة العدل وأداء الأمانة والوفاء بالعهد والشعور بالمسؤولية وعزّة النفس والصدق والإخلاص وما إلى ذلك من صفات إنسانية نبيلة وحميدة من السنن الإلهية الثابتة التي تضمن للإنسان سعادته في الحياة . وواجب على كل مسلم الإقتداء بهذه السنن وتربية أبنائه على أساسها في كل زمان ومكان .

أما شرب الخمر ولعب الميسر والجور والظلم والعدوان والفسق والفجور والخيانة والزنا وما إلى ذلك من صفات رذيلة وذميمة ، فهي من المحرمات التي أكدها الإسلام ، لأنها لا تعود على الإنسان إلّا بالتعاسة والشقاء ، لذا فمن واجب كل مسلم إجتنب هذه الرذائل وتحذير أبنائه من إتبانها .

فلو افترضنا اعتبرت الخيانة في مجتمع متحلل فاسد دليلاً على الكفاءة، والظلم والتعدّي رمزاً للإقتدار ، والفجور دليلاً على الرقي والتقدّم ، وشرب الخمر ولعب الميسر درجة في سلّم الآداب والعادات الرائجة ، فذلك لا يعني أبداً أن يستسلم المسلم لهذه العادات ويلوث سمعته وشرفه في الإنغماس في تلك الرذائل ، كما لا يحق له أن يربي أبنائه على أساس تلك العادات الخاطئة متدرّعاً بمقتضيات الزمان ، لأن في ذلك ضياعه وضياع أبنائه .

إن تقبّل الآداب والعادات الجديدة المنبثقة من التقدّم العلمي للمجتمع والتي تسهم في تسهيل الحياة للإنسان هو دليل على قوة الشخصية وتحورها ويجسد قدرة الإنسان على التكيف مع العادات الإجتماعية الجديدة . أما رفضها ورفض السنن الإنسانية والإنصياع وراء الرذائل والآثام فهو دليل على الضعة والإنحطاط ويجسد ضعف الشخصية وانهزام الإنسان أمام النفس الأمّارة .

ولشدّيد الأسف أن الكثير من السنن الأخلاقية والإنسانية بات مهملاً في عصر التكنولوجيا الحالي ، كما أن بعضها الآخر بات منسياً كالعديد من العادات والتقاليد البالية .

وفي عصرنا الحالي أخذ نور الإيمان يخفت شيئاً فشيئاً في قلوب الناس وارتباطهم بالله سبحانه وتعالى يضعف ، أما النزاهة والتقوى وهما أساس سعادة الإنسان فقد أصحبا وكأنهما ضرب من الخيال والوهم . فالتقدم المستمر الحاصل في مجال العلوم الطبيعية وكشف أسرار الخلقة جعلاً الإنسان يغط في سكرته وغروره متجاهلاً كل النداءات السماوية ، هذا من جهة ومن جهة أخرى فقد أدى هذان العاملان إلى غرق الإنسان في التفاهات المادية متناسياً القيم المعنوية والإنسانية .

الهدف من الحياة في عالم اليوم :

وفي عالم التقدّم الصناعي فقدت القيم الإنسانية والأخلاقية معناها الحقيقي ، ولم يعد الهدف من الحياة في نظر المجتمعات سوى تحقيق العيش الأفضل والإستمتاع الأكثر وإرضاء الغرائز والأهواء النفسية . ونتيجة لهذا الأسلوب الخاطيء من التفكير ولدت في أعماق الإنسان غريزة الوحشية والعدوانية ، وما زالت هذه الغريزة تتفاعل باستمرار ، حيث أخذ مبدأ التعاون من أجل البقاء يفقد مكانته في أعماق الإنسان ، ليحلّ محله مبدأ الصراع على البقاء ، وبات الناس يتعاملون مع بعضهم البعض بقساوة ووحشية تماماً كالحيوانات الضارية .

إن ظاهرة الصناعة وما توصلت إليه من رقي وتقدم ، حملت إلى المجتمعات الكثير من الإيجابيات والسلبيات ، وعادت على الإنسان بالكثير من الخسارة والمنفعة في شتى مجالات الحياة . وقد تغلب الإنسان بواسطة القدرة الصناعية في صراعه مع الطبيعة ، وما أصوات السيارات والطائرات والقطارات والسفن إلا تجسيد لسيادة الإنسان في الأرض برأ وبحراً وجواً ، ففي ظل التطور الصناعي توسعت حدود سيادة الإنسان ، وهي في طريقها إلى مزيد من التوسع ، فالإنسان قد بلغ أعماق البحار من جهة وتمكّن من الخروج من جو الأرض ليفكر في تسخير الكواكب والأجرام السماوية من جهة أخرى .

أفضل سبل الحياة في ظل العلم :

لقد تمكّن الإنسان بفضل التقدّم الصناعي من بلوغ الأعماق المظلمة في الطبيعة وكشف أسرارها ، كما أنه استطاع بفضل العلم تسخير الثروات الطبيعية لنفسه وتحقيق أفضل سبل الحياة .

فبتطور الصناعة تم اكتشاف عالم الميكروبات والجراثيم المليء بالأسرار ، وتوصّل الإنسان إلى معرفة مصادر الأمراض الفتّانة ، واستطاع بسلاح العلم وقاية نفسه من الكثير من الأمراض المهلكة .

وبخلاصة فإن الصناعة وبكل ما توصّلت إليه من تطوّر قد تركت آثاراً في شتى مجالات الحياة ، وقد أحدثت نقلة نوعية في مجالات الزراعة والرّي والسدود والطرق والصحة والإقتصاد والغزل والنسيج وغيرها من الشؤون الحياتية ممّا وفرّ الراحة والرفاهية للمجتمعات الصناعية .

الصناعة والنتائج السلبية :

التي جانب النتائج الإيجابية التي تعود بها الصناعة على الإنسان ، والمكاسب التي تحقّقها المجتمعات من خلال الصناعة ، ثمة نتائج سلبية تعرّد بها الصناعة على الإنسان ، وتظهر هذه السلبيات بوضوح في الجرائم البشعة التي ترتكب في الحرب والسلم .

وقد ساهم التطوّر الصناعي في حصول الإنسان على أصناف عديدة من الأسلحة الفتّانة ، وبدوره ساهم هذا السلاح في رفع القدرة القتالية لدى الشعوب وتشجيعها على ارتكاب المجازر وهدم المدن والقضاء على المدنية . وفعلاً أقدم الإنسان خلال الحرب العالمية الثانية على ارتكاب كل هذه الممارسات والجرائم البشعة بسبب الأسلحة الفتّانة التي لم يحصل عليها إلاّ عن طريق الصناعة .

أخطار تهتد البشرية :

والأهم من كل ما ذكرناه هو أن هناك أخطاراً تهتد البشرية نتيجة التقدم الذي آلت إليه العلوم الطبيعية والصناعات الآلية من جهة ، وضعف المبادئ الإيمانية والأخلاقية من جهة أخرى ، وهذا ما يدفع بالعالم من العلماء والمفكرين إلى التشكيك بفائدة تقدم العلوم الطبيعية في تأمين سعادة الإنسان ، إذ إنهم يعتقدون أن الإنسان الذي توصل إلى صناعة القنبلة الذرية قد هبأ أسباب دماره ، إذ من الممكن أن يؤدي هذا الإنجاز العلمي العظيم إلى القضاء على الحياة البشرية خلال فترة وجيزة .

«يقول راسل : إن صناعة القنبلة الذرية وما يفوقها من حيث القدرة التخريبية ، أي القنبلة الهيدروجينية قد أثارت جواً من الخوف والقلق في نفوس الناس ، وأثارت أيضاً مزيداً من التشكيك بآثار النتائج العلمية على حياة الناس ، بحيث ذهب البعض من أصحاب الرأي ومنهم «انشتاين» في تفكيرهم إلى التأكيد أن هناك خطراً يهدد الكرة الأرضية بالفناء»^(١) .

«وفي كتاب آخر له يقول راسل : ثمة أشخاص ومن جملتهم «انشتاين» يعتقدون باحتمال أن يكون الإنسان قد طوى فترة حياته ، وقد ينجح خلال سنوات معدودة في القضاء على نفسه بسبب ما يحققه من إنجازات علمية مذهلة»^(٢) .

تعزيز مبادئ الأخلاق :

«يقول «ليكونت دونوي» : اليوم ، حيث يتهتد البشرية جمعاء خطر الدمار الشامل نتيجة استخدام الطاقة الذرية ، بدأ الناس

(١) تأثير العلم على المجتمع ، ص ١٤٦ .

(٢) الآمال الجديدة ، ص ٢٤ .

يدركون أن السبيل الوحيد لخلاصهم هو تعزيز مبادئ الأخلاق لدى الإنسان . وهذه هي المرة الأولى في تاريخ البشرية التي يخشى فيها الإنسان من إنجاز حقيقته بذكائه ، ويقف متحيراً إزاء سلامة موقفه»^(١) .

البلوغ الجنسي والبلوغ الاقتصادي :

لقد برزت ظروف خاصة من جراء التطور العلمي والصناعي أحدثت هوة لا مفر منها بين البلوغين الجنسي والإقتصادي للشباب ، وآلت إلى ترده في الإقدام على الزواج ، لأن من يريد أن يعيش في عالم العلم والصناعة ويواكب تطوراته ويتكيف مع شروطه ومقتضياته ، عليه أن ينفق الكثير من سنوات عمره في الدراسة ليتخصص في أحد المجالات العلمية أو الصناعية ، ليضمن لنفسه مدخولاً مناسباً يعينه وأسرته على مواصلة الحياة .

ضعف الأخلاق :

وخلال هذه المسيرة الطويلة ، تولد الرغبة الجنسية مزيداً من الضغط على الشاب وتعمّر عليه صفو حياته ومزاجه . كما أن مشاهدة الأفلام المبتذلة التي تعتبر من نتاجات عالم الصناعة ، تضاعف من الرغبة الجنسية لدى الشاب وتزيد من الضغوط التي تولدها الشهوة عليه . كذلك الأمر بالنسبة لمشاهدة النساء المتبرجات في الطرق العامة ، فهي توجع ونار الشهوة لدى الشاب وتضعف من قوة إرادته وعفته وأخلاقه . ونتيجة لكل هذه العوامل ينجر الشباب صبياناً وفتيات في تيار الرذيلة والفساد ، متجاهلين كل القيم الأخلاقية والسنن الإجتماعية .

يقول «ويل ديورانت» : برزت المعامل والمصانع على حين غرة ، وأخذ الرجال والنساء والأبناء يهجرون البيت والأسرة للعمل

(١) مصير الإنسان ، ص ٦٥ .

داخل مبانٍ فقيرة أُقيمت لتأوي الآلات والمعدات لا البشر ،
والحصول على أجور يصرفها كل منهم على نفسه كما يحلوه» .

«فكبرت المدن وتوسعت ، فانصرف الرجال عن العمل في
مزارعهم وداخل حقولهم ليقبوعوا داخل ورش عمل قذرة ومظلمة ،
يتصارعون مع المنشار والمسن والحزام والملزمة والقاطع والعجلة
والمكبس والمقبض الحديدي ، من أجل الحياة» .

صعوبة الحياة في عالم الصناعة :

«إن ظهور المعدات والآلات الصناعية وتطورها ساهم في تعقيد
الحياة على الإنسان سنة بعد سنة ، بحيث أصبح النضوج العقلي
والحس الإدراكي في المدن أكثر تأخرًا من الأرياف، وبات الشاب
ابن العشرين سنة في المدينة يوحى وكأنه ما زال طفلاً بحاجة
لسنين أخرى حتى ينضج وعياً وفكراً ، وسبب ذلك يعود إلى
التغيير الذي يطرأ باستمرار على أوضاعه والغموض الذي يحيط
بها ، كما أن فترة النمو والنضوج قد طالت أكثر في المدن ، حيث
بات الإنسان بحاجة إلى مزيد من التربية والتعليم ليتفتح ذهنه
ويستوعب مسؤوليات الحياة الجديدة»^(١) .

زوال العقدة والحياء :

«إن البلوغ الجنسي يتحقق في أوانه لدى الشاب في المدينة ،
لكن بلوغه الاقتصادي يتأخر قليلاً . وتحديد الشهوة الذي يعتبر
أمراً منطقيًا وعمليًا في الحياة الريفية ، يبدو في المجتمع
الصناعي الذي لم يقبل على الزواج قبل سنّ الثلاثين أمراً صعباً
وغير طبيعي . وفي مثل هذه الحالة تطفئ الشهوة ، ويصيح من

(١) مباهج الفلسفة ، ص ٨٨ .

العسير ضبط النفس ، فتزول العفة التي كانت يوماً فضيلة من الفضائل ويذهب الحياء . فترى الرجال يفتخرون بكثرة ذنوبهم ، والنساء يتسابقن فيما بينهن ليتساوين مع الرجال في ارتكاب المآثم والذنوب ، ويصبح الإتصال بين الجنسين قبل الزواج أمراً مألوفاً ، وتُجمع مراكز البغي والفساد من الشوارع والأحياء ، لا بأمر من الشرطة أو السلطات ، وإنما نتيجة انتشار البغي خارج حدود هذه المراكز»^(١) .

شيوخ الرذيلة :

ونستشف من بحثنا الأنف الذكر أن عالم الصناعة الآلية لا يربك فقط الآداب والتقاليد العادية ، بل ويساهم في إحداث تغيير في السنن الإجتماعية الثابتة والقوانين الأخلاقية الأساسية ، وإذا ما عمّ الفساد الأخلاقي وشاع بين مجتمع ما ، فإن هذا المجتمع سيرفض الكثير من الفضائل ليحلّ محلها الكثير من الرذائل .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : إِذَا خَبْتُ الزَّمَانَ كَسَدَتِ الْفَضَائِلُ وَضُرَّتْ وَنَفَقَتِ الرَّذَائِلُ وَنَفَعَتْ^(٢) .

«إن ما يتعلق بالسليم والسقيم والصواب والخطأ من أفكارنا ، يرتبط كلياً بالآداب والعادات والسنن السائدة . فالآداب والعادات الإجتماعية بإمكانها أن توحى بالخطأ على أنه صواب ، ويصبح ما كان يوماً مقبولاً لدى المجتمع مرفوضاً وبالعكس ، كما أنه قد يبدو عمل ما في نظر مجتمع ما صحيحاً ، لكنه بنفس الوقت يبدو لمجتمع آخر عملاً خاطئاً»^(٣) .

(١) نفس المصدر ، ص ٨٩ .

(٢) ابن أبي الحديد ٢٠ ، الكلمة ١٢٥ ، ص ٢٧٠ .

(٣) علم الاجتماع ، ص ٩٠ .

التنبؤ بالإنحطاط الخلفي :

لقد تأثر المسلمون في العالم كغيرهم من الشعوب والأمم بالتقدم الذي أحرزه عالم الصناعة والآلة ، فهجروا الكثير من سننهم الإجتماعية وأحكامهم الإسلامية ، لأنها برأيهم تسلبهم ملذات الحياة وتحول بينهم وبين مصالحهم ، واستسلموا عملياً للآثام والرذائل ، لأنها حسب رأيهم تحقق لهم ملذاتهم وتحفظ له مصالحهم .

وقد تنبأ الرسول الأكرم ﷺ قبل عدة قرون بما سيؤول إليه حال المسلمين من انحطاط خلفي ، وحذر ﷺ في أحاديث كثيرة من تبدل السنن الإجتماعية والسجايا الإنسانية .

قال رسول الله ﷺ : يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ . . . السُّنَّةُ فِيهِمْ بِدْعَةٌ وَابِدْعَةُ فِيهِمْ سُنَّةٌ وَالْحَلِيمُ مِنْهُمْ غَادِرٌ وَالْغَادِرُ بَيْنَهُمْ حَلِيمٌ^(١) .
وقال علي بن أبي طالب : صَارَ الْفُسُوقُ فِي النَّاسِ نَسْبًا وَالْعَفَافُ عَجَبًا^(٢) .

إنهيار صرح الأخلاق :

طبيعي أن الشاب في مثل هذه البيئة المسمومة والظروف الإجتماعية الفاسدة ينحرف في تيار الفساد والرذيلة ، فينهار صرح الفضائل الأخلاقية والسجايا الإنسانية الذي شُيِّد في محيط الأسرة ، وينسى الشاب شخصيته التي بناها منذ صغره في ظل مراقبة أبويه ، فتتأثر أخلاقه بالمحيط الإجتماعي ، وتتطابق صفات شخصيته مع مقتضيات المحيط الإجتماعي الفاسد والظروف الإجتماعية المضللة .

(١) سفينة البحار ١ ، « زمن » ، ص ٥٥٧ .

(٢) غرر الحكم ، ص ٤٥٧ .

والذي يستطيع أن يحفظ نفسه من الإنجراف في تيار الرذيلة هو ذلك
الإنسان الذي يجاهد ويسعى في سبيل الحفاظ على السنن الإسلامية
والإنسانية ، وسيطر على شهواته وميوله غير المشروعة ، دون أن يفقد
شخصيته ، وهذا الطريق كما نعلم لا يخلو من الصعوبات .

المحاضرة التاسعة عشرة

حول الشاب والشخصية

بسم الله الرَّحْمَن الرَّحِيم

قال الله تعالى في محكم كتابه : ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتَىٰ يَدُكُرُّهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾^(١) .

الشاب وتوكيد الشخصية :

إن الرغبة في إثبات الوجود وتوكيد الشخصية هي حالة نفسية طبيعية يمرّ بها الفتیان والشبان بقضاء من الله سبحانه وتعالى وحكمه .

فالفتى الذي طوى مرحلة الطفولة والتطفل ، يجد نفسه شاء أم أبى ملزماً بايجاد مقومات حياة اجتماعية مستقلة ، واكتساب الصفات التي تضمن له تآلفه مع محيطه وإحراز شخصيته ، لكن هذا الأمر لا يمكن أن يتحقق بسهولة .

فجيل الشباب ليس على استعداد لاتباع سلوك ومناهج من هم أكبر منهم سناً دون قيد أو شرط ، كما أن الشباب ليسوا مستعدين لمطابقة صفات شخصيتهم مع أفكار الكبار ، والملاحظ أن هناك تضاماً بين جيل الشباب وجيل الكهول في سائر الأمم والشعوب ، وهذا التضاد يجبر أحياناً إلى حصول شجارات ونزاعات تؤدي بالتالي إلى قيام حالة من التمرد والعصيان بين جيل الشباب .

(١) سورة الأنبياء ٤ الآية : ٦٠ .

الشباب والأحاسيس الحادة :

ومما لا شك فيه أن للأحاسيس الحادة التي تصحو بشكل طبيعي في أعماق الشباب إثر ظاهرة البلوغ دوراً مؤثراً في جعل الشباب يتمردون على الكبار ويعارضونهم ويعاندونهم .

العواطف العابرة :

«إن الوثوب غير الطبيعي لحساسية الشاب تجاه الأفراد أو الأشياء يبين أن مرحلة البلوغ بكل سنواتها ما هي إلا مرحلة خاصة بالأحاسيس . والإنفعالات التي تؤثر على التركيبة الجسمانية للإنسان من شأنها أن تولد نوعاً من الاختلالات ، وتطول فترة ظهور هذه الإنفعالات نتيجة التصورات الذهنية التي تسيطر على الشاب . فمثلاً تدلّل حركة واحدة على تعلق الشاب بشخص ما ، فتولد انفعالات وعواطف متعددة لا تلبث أن تزول ، ويبقى من كل ذلك الإطار الخارجي للحادثة أو القصة التي لا يبقى منها سوى شعور دائم وثابت بالحب»^(١) .

«إن الحساسية التي تولد في الإنسان خلال مرحلة البلوغ تمنحه نوعاً من الحيوية والنشاط والحماس ، وقد أشاد «روسو» في كتابه «اميل» ببلوغ سنوات الحيوية والنشاط ، كما أن «شاتوبريان» كان له نفس الرأي . ولكن ما المقصود من هذه الحيوية والنشاط ؟ المقصود هو حالة من الحساسية المفرطة والمعارضة التي تسيطر على ضمير الإنسان سيطرة كاملة ، فتمنحه مزيداً من الطاقة وتسوق سلوكه نحو اتجاه معين . وهذا ما يمكن لمسه من خلال طريقة الشاب في الحب والبغضاء»^(٢) .

(١ و ٢) ماذا أعرف؟ ، البلوغ ، ص ٥١ و ٥٢ .

الشباب وتمرده على العادات والتقاليد القديمة :

وإلى جانب وثوب الأحاسيس العامة ، تظهر سلسلة من الميول والرغبات الخاصة لدى الفتى خلال فترة البلوغ ، ولكل من هذه الميول والرغبات دور في اندفاع الشاب نحو التمرد على العديد من الآداب والسنن التي ينتهجها الكبار ، كما أنها قد تدفع بالشباب إلى معارضة من يكبره سنأ فيما يتعلق بانتخاب الصفات اللازمة لشخصيته . ولمزيد من التوضيح سنتطرق في بحثنا إلى العديد من هذه الميول والرغبات .

الشباب والحدائثة :

من الميول والرغبات الكامنة بشكل طبيعي في أعماق كل شاب والتي تترك أثراً بالغاً على شخصيته ، حبّ الحدائثة والتطور ، فالشاب بالرغم من احتفاظه بميزاته الطبيعية وصفاته الثابتة ، تراه ينشد نحو مواكبة العصر الذي يعيشه ، فهو يعيش الحدائثة والتجديد ، ويحرص على متابعة آخر الخطابات والتصريحات ، ويشارك في البحث بأخر المستجدات ، ولا يرتدي من الملابس أو يتزين إلا وفق أحدث التصاميم والأزياء ، كما أنه يرغب في أن يختار لنفسه مسلكاً جديداً غير ذلك الذي سلكه من سبقه .

يقول موريس دبس : إن الشاب يعكس أوضاع زمانه ، وهو يتأثر قبل الآخرين بكل ما يستجد على صعيد الوضع الاجتماعي ، حتى ان تأثير هذه الأوضاع عليه أسرع بكثير مما قد يتصوره البعض . إننا نرى اليوم خصوصيات يمتاز بها الشاب تتطابق وتطور الزمان ، فالشاب الرياضي يندفع برغبة كبيرة وقدم راسخة نحو الميادين الرياضية ، والشاب الكشّاف لا يأبه الإقامة داخل الخيمة ولا يخشى النيران أو صمت الغابات ، والفتاة الشابة أخذت تقصّر شعرها وتميل إلى الرياضة والألعاب الخشنة^(١) .

(١) ماذا أعرف ؟ ، البلوغ ، ص ١١ .

العقل سبيل التكامل :

إن للحيوان الذي شاء الله سبحانه وتعالى له أن يبقى منقاداً لغرائزه ، سلوكاً معيناً ثابتاً لم يتغير على مدى قرون من الزمن ولن يتغير ، أما الإنسان فقد جعله الله تبارك وتعالى قادراً على سلوك طريق الرقي والتكامل بالإعتماد على قوة العقل الخلاقة ، والتخطيط والسعي لكل ما من شأنه أن يجعله في حالة تطوّر دائم .

فإنسان قد بلغ خلال قرون عديدة شهدت تقدماً تدريجياً في مجال العلم والتكنولوجيا ، جوانب لا بأس بها من أسرار الطبيعة ، وسعى إلى الاستفادة منها لصالحه . كما سعى كل عالم في عصره إلى الاستفادة من تجاربه لتغيير نمط الحياة نحو الأحسن .

التكيف مع التحولات :

وبخلاصة فإن الإنسان قد جدّ بمرور الزمان في السير على طريق التكامل وما زال ، والعاقل هو من عرف زمانه وأدرك مقتضياته وسعى إلى التكيف معها ، وقد ورد الكثير من الروايات بهذا الشأن .

عن أبي عبد الله الإمام الصادق عليه السلام قال في حكم داود عليه السلام : عَلَى الْعَاقِلِ أَنْ يَكُونَ عَارِفًا بِزَمَانِهِ مُقْبِلًا عَلَى شَأْنِهِ (١) .

وعنه عليه السلام قال : الْعَالِمُ بِزَمَانِهِ لَا تَهْجُمُ عَلَيْهِ اللَّوَابِسُ (٢) .

معرفة الأيام :

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : مَنْ عَرَفَ الْأَيَّامَ لَمْ يَغْفُلْ عَنِ الْإِسْتِعْدَادِ (٣) .

(١) بحار الأنوار ، ٥ ، ص ٣٤٢ .

(٢) الكافي ، ١ ، ص ٢٧ .

(٣) تحف العتول ، ص ٩٨ .

رَأَى الرَّسُولُ ﷺ أَنْ اتَّسَعَ الْفُتُوحُ يَقْضِي بِأَنْ يَتَعَلَّمَ بَعْضُ أَصْحَابِهِ
صَنْعَةَ الدَّبَابَاتِ وَالْمَجَانِيقِ وَالضَّبُورِ فَأَرْسَلَ إِلَى جَرَشِ الْيَمَنِ اثْنَيْنِ مِنْ أَصْحَابِهِ
يَتَعَلَّمَانِهَا^(١) .

شرط السعادة :

إذن ، فالشرط الأساس لسعادة الفرد والمجتمع ، هو معرفة كل إنسان
بزمانه وما يقتضيه زمانه ومواكبة التقدم الحاصل في شتى مجالات الحياة ،
والعاقل هو من يحاول أن يكيّف نفسه مع التقدم الصحيح الحاصل في زمانه ،
ويستفيع من مزايا هذا التقدم المفيدة .

الكهول المحافظون :

سرعان ما تسترعي الأفكار الجديدة والتقدم الحديث انتباه الشاب لما
يضمّره من رغبة في الحدّاث والتجدّد ، فيحاول تكييف نفسه مع مقتضيات
زمانه ، أما الكهول الذين يمكن تسميتهم بالمحافظين فيرغبون في البقاء على
الأداب والعادات والتقاليد القديمة ، وذلك للحفاظ قدر الإمكان على الأساليب
القديمة التي أتبعوها في حياتهم اليومية . وهذا التباين في الرغبات يشكل عاملاً
من عوامل الخلافات بين الشاب والكهول في محيط الأسرة والمجتمع .

ولا يمكننا أن نقول إن تمرّد الشاب على الآداب والعادات والتقاليد
الخاصة بالجيل القديم ، هو أمر مفيد دائماً وأبداً ، بل على العكس ، فهذا
التمرّد قد يشكل في بعض الحالات أخطاراً كبيرة تؤدي إلى وقوع أضرار لا
يمكن أن تعوّض . ولكننا نستطيع القول إن الرغبة في الحدّاث والتجدد الكامنة
في أعماق كل شاب ، إذا ما تم توجيهها بشكل سليم من قبل مربّين أكفّاء ،
وتم صونها من أي إفراط أو تطرّف غير مسؤول ، فإنها ستكون أداة لتجديد بناء
محيط الأسرة ومصدراً للتحوّلات الإجتماعية ، كما يمكنها أن تسهم في إنقاذ

(١) الإسلام والحضارة العربية ، ص ١٠٣ .

المجتمع من بعض العادات والتقاليد الخاطئة ، وحمايته من الإنحطاط والرذيلة بل ومن السقوط والإنحراف أحياناً .

مخلفات الحرب :

«يقول جواهر لال نهرو : لقد أربكت الحرب كل أفكارنا ومعتقداتنا التي ربينا عليها ، وجعلتنا نشكك حتى في بعض الأسس الإجتماعية والمدنية الجديدة ، لقد رأينا كيف قضت الحرب على أعداد هائلة من شباب العالم ، وسمعنا الكثير من الخدع والأكاذيب ، ووقفنا على الكثير من الممارسات الوحشية والدمار والخراب ، وكنا نسأل أنفسنا هل حلت نهاية المدنية ؟» .
«فترة الحرب وما بعدها كانت فترة ترقب وتفكك وانهيار جميع المعتقدات والعادات والتقاليد البالية ، وكانت فترة تسودها حالة من الشك والتردد التي تعقب دائماً التغييرات والتحويلات المتسارعة» .

الشباب وتحديد المحيط :

«في مثل هذه الفترات التاريخية التي يمرّ بها العالم ، لا بد من أن تنشط أفكارنا وتتماسك أجسامنا وأرواحنا . وفي مثل هذه الفترات تأخذ الحياة الرتيبة السائرة على وتيرة واحدة نفساً جديداً ، وتحصل مستجدات كبيرة يستطيع كل منا أن يتحمّل جانباً من مسؤولية بناء عالم جديد بنظام حديث ، وفي مثل هذه الفترات يستطيع الشباب أن يؤدي دوراً أساسياً ومهماً ، لأنه قادر على التكيف مع الأفكار الجديدة والمقتضيات المستجدة أكثر من ذلك الكهل الذي جُبلت أفكاره بالأفكار القديمة ولم يعد ذهنه يستوعب الجديد»^(١) .

(١) نظرة إلى تاريخ العالم ٣ ، ص ١٤٦٢ .

الرسول الأكرم (ص) والشباب :

كانت بلاد الحجاز قبل الإسلام مركزاً للفساد والعادات والتقاليد المذمومة ، وكان أهل هذه البلاد منحرفين عقائدياً وأخلاقياً ، بحيث انهم كانوا يجمعون من الصفات شرّها كوأد البنات والقتل والسرقة والنهب وعبادة الأصنام ، ولم تكن ممارساتهم هذه تشعرهم بعذاب الضمير .

وعندما جاهر الرسول الأكرم (ص) بأمر من الله سبحانه وتعالى بالدين الإسلامي واضعاً الحجر الأساس لأول ثورة تغييرية تهدف إلى سعادة البشرية ، لجأ الشباب بشوق ورغبة إلى هذا الدين الحنيف ليقفوا جنباً إلى جنب مع رسول الله ﷺ من أجل القضاء على المعتقدات الباطلة والسنن الفاسدة ، واستطاعوا فعلاً بفضل سعيهم ومشايرتهم تطهير أرض الحجاز من الفساد والمفسدين خلال مدة قصيرة ، كما تمكنوا من الأخذ بيد ذلك المجتمع المتخلف نحو مدارج الرقي والكمال .

ونستنتج من خلال ما ذكر أن الرغبة في الحدأة والتجدد تشكل عاملاً من عوامل الخلاف بين جيل الشباب وجيل الكهول ، فهذه الرغبة الطبيعية تدفع بالشباب للعمل على إحراز شخصيته والبحث عمّا يناسبه من الصفات الأخلاقية ، وفي الوقت نفسه تدفعه للتمرد على بعض الآداب والعادات والتقاليد التي يعتمدها كبار السن .

الشباب والرغبة المفرطة في التحرر :

من العوامل الأخرى التي تحفز الشباب على التمرد على الآداب والعادات والتقاليد الإجتماعية ، الرغبة المفرطة في الإستقلال والتحرر . وردة فعل هذه الرغبة المفرطة عادة ما تكون معارضة جانب من سلوك كبار السن ، واختيار صفات جديدة تكون أساساً للأخلاق والشخصية ، وهنا لا بد من إعطاء بعض التوضيحات في هذا المجال .

أثر التقليد وعدمه :

ثمة رغبتان مفيدتان يختزنهما الإنسان في أعماقه ، ويستطيع أن يستفيد منهما لضمان أسس سعادته شرط أن تكون هذه الاستفادة في محلها وبالمقدار الصحيح . الرغبة الأولى هي تقليد الآخرين في أعمالهم وسلوكهم ، والثانية هي الرغبة في الامتناع عن تقليد الآخرين .

ومن الآثار المفيدة للتقليد هو أن كل جيل يستطيع أن يتعلم الكثير من الأجيال السابقة ويستفيد من تجاربها ، أو أن أي امرئ بإمكانه أن يقتدي بسلوك الآخرين وتصرفاتهم ليعيش برغد وسلام شرط أن يحكم عقله في اختيار الأشخاص الذين يود الاقتداء بهم ، وانتخاب خير السلوك والتصرفات التي يروم تقليدهم بها .

أما أثر الامتناع عن التقليد فهو بقاء أبواب الرقي والتسامي مفتحة أمام الإنسان الذي ينبغي عليه أن لا يحجم نفسه ضمن إطار تقليد الآخرين المحدود ، إذ من الممكن جداً أن يرتكب بتقليده الأعمى الأخطاء ذاتها التي ارتكبتها الآخرون ، ومن هنا يجب على الإنسان أن يعتمد على عقله ويستجمع أفكاره في تقييم تصرفات الغير وأتباع أحسنها .

ميزان العقل :

قال تعالى : ﴿ قَبَشْرٌ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾^(١) .

في هذه الآية الكريمة ، تم تحديد التقليد وعدم التقليد وفق ميزان العقل ، وقد بشر الله سبحانه وتعالى أولئك الذين يستمعون القول ويتبعون أحسنه بالنصر والسعادة ، على عكس أولئك الذين يقلدون الآخرين تقليدًا أعمى دون تفكير وتعقل ، فنصيبهم ليس سوى التعاسة والخسران .

(١) سورة الزمر ؛ الآية : ١٨ .

قال أبو عبد الله الإمام الصادق عليه السلام : إِيَّاكَ أَنْ تَنْصِبَ رَجُلًا دُونَ الْحُجَّةِ
فَتُصَدِّقَهُ فِي كُلِّ مَا قَالَ^(١) .

التقليد الأعمى :

ليس هناك بين الأدميين من هو معصوم عن الخطأ حتى وإن كان عالماً أو
مفكراً أو حكيماً ، والعاقِل هو ذاك الشخص الذي يحكم عقله حتى في تقليد
من هم في منزلة علمية متقدمة ، ويتجنب التقليد الأعمى ليأمن من العواقب .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : إِنْ كَلَّمَ الْحُكَمَاءِ إِذَا كَانَ صَوَابًا كَانَ دَوَاءً
وَإِذَا كَانَ خَطَأً كَانَ دَاءً^(٢) .

«إنكم تعلمون جيداً أننا نرغب في تكرار أي عمل يُؤدّي أماناً ،
وسبب ذلك يعود إلى وجود عامل العدوى وعامل الإيحاء ، أضف
إلى ذلك وجود عامل ثالث في أعماق كلِّ منا ، وهو الرغبة في
قول (لا) . وتتفوق هذه الغريزة أو الرغبة حيناً وتلك أحياناً حسب
مزاج الشخص وخلقه وسنّه ، والرغبتان مفيدتان للإنسان ، فالأولى
تتحفنا بكل ما هو غريب علينا ، والثانية تمنحنا قوة المقاومة وتوحي
لنا بضرورة القيام بتصرفات غير تلك التي يقوم بها الآخرون» .

«وإذا ما أعطى الإنسان آياً من هاتين الغريزتين حجماً أكبر من
حجمها ، فإن الأولى ستجعل منه إنساناً مقلداً ضعيف الإرادة
والثانية تجعل منه إنساناً موهوماً لا نفع منه . وبشكل عام فإن
لهاتين الغريزتين تأثيرهما على سلوك الفرد وتصرفاته»^(٣) .

(١) بحار الأنوار ، ١ ، ص ٩٠ .

(٢) نهج البلاغة ، الكلمة ٢٧٥ .

(٣) ماذا أعرف ؟ ، البلوغ ، ص ٧٦ .

التقليد الأخرق :

من المشاكل التي اعترضت دعوة الأنبياء والرسل هو تعصب البعض في تقليدهم الأخرق لأسلافهم . فالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم جاءوا يدعون الناس إلى العقل والتدبر وذلك بهدف إنقاذهم من الشرك والضلالة وعبادة الأصنام وسوء الخلق والأخلاق ، وضمان سعادتهم ، إلا أن المشركين الجهلة المتعصبين كانوا يعتمدون في تمسكهم بمعتقداتهم الباطلة وعدم تصحيح سلوكهم السيء المشين على سلوك آبائهم ، وكانوا يجعلون من تقليدهم للآخرين في معتقداتهم ومسالكهم الباطلة سنداً على صحة أفكارهم وأعمالهم الباطلة . وواضح تماماً مدى تأثير مثل هذا التقليد الأعمى والأخرق في خفوت العقل وضياع الفكر .

قال تعالى : ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكَ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾^(١) .

وقال عز من قائل : ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاجِسَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾^(٢) .

«إذا تغلب رد فعل التقليد فإن الفرد سيستوعب كل الآداب والسنن الاجتماعية ، كما أنه في الوقت نفسه سيتقبل كل العادات والأطوار المضحكة والكلمات والمصطلحات المتداولة في المجتمع ، فقط ليكون مثل الآخرين ، وهكذا يكون مثل هذا الفرد قد حاول عن طريق البلاهة والحماقة تطبيق نفسه مع المحيط»^(٣) .

الإستبداد بالرأي :

كما هو الحال بالنسبة للتقليد الأعمى الذي يسلب الإنسان كل تفكير

(١) سورة الشعراء ؛ الآية : ٧٢ .

(٢) سورة الأعراف ؛ الآية : ٢٨ .

(٣) ماذا أعرف ؟ ، البلوغ ، ص ٨٤ .

وتدبير ، ويحرفه عن جادة الرقي والتكامل ، كذلك الأمر بالنسبة إلى الامتناع عن تقليد ما هو صحيح وعقلاني نتيجة الغرور والاستبداد بالرأي ، فهو يؤدي بالإنسان إلى التخلف والحرمان وأحياناً إلى الهلاك .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : لا تَسْتَبِدَّ بِرَأْيِكَ فَمَنْ اسْتَبَدَّ بِرَأْيِهِ هَلَكَ (١) .

التوازن العقلاني :

إن السبيل الوحيد الذي يكفل النجاح والموفقية والسعادة في هذا المجال ، هو التوازن العقلاني بين الرغبة في التقليد وفي عدمه . فالعقل كما أشار إليه القرآن الكريم هو ذلك الإنسان الذي يتجنب التقليد الأعمى والأخرق ولا ينصاع إلى كل ما يقوله أو يفعله الآخرون ولا يكون أسير غروره واستبداده اللذين يدفعانه إلى اجتناب التقليد البناء والمفيد دون دراية أو دراسة .

«كل هذه العوامل تجعل من العسير مطالعة مراحل ما بعد الحروب كتاريخ . ولكن في الوقت نفسه الذي نبحث فيه في المعتقدات والأفكار ونرفض الكثير منها فقط بسبب ما يقال عنها بأنها بالية ورجعية علينا أن ننتبه إلى أننا لسنا قادرين على التلاعب بالأفكار والمعتقدات تحت هذه الحجة ، بل لا بد لنا أن نسعى لكي نفهم ما يتوجب علينا القيام به وأي الطرق علينا أن نسلك» (٢) .

من المؤسف أن التوازن بين الرغبة في التقليد وعدمه ينعدم خلال فترة البلوغ والشباب ، وبرز لدى الشباب حالة من التمرد على سنن وآداب الكبار تصل بهم إلى حد الإفراط . فالشباب يحبذ ضمن برنامج حياته وسعيه لإحراز شخصيته تجنب تقليد الآخرين قدر استطاعته واعتماد أساليب جديدة في الحياة ، أو تقليد من سبق له أن تمرد على الآداب والسنن السائدة واعتمد

(١) غرر الحكم ، ص ٨١١ .

(٢) نظرة على تاريخ العالم ٣ ، ص ١٤٦٢ .

المبادرة الشخصية .

وهذه الرغبة في عدم التقليد أو التقليد في الجهة المعاكسة سببت وما زالت تسبب خلافات بين جيل الشباب وجيل الكهول ، وقد أدت في بعض الحالات إلى حصول جرائم كبيرة .

التقليد في الجهة المعاكسة :

«في الوقت الذي تطفئ فيه غريزة التقليد على كيان الإنسان في المرحلة الثالثة من مراحل الطفولة ، تبدأ غريزة الإمتناع عن التقليد تتفاعل في كيان الإنسان مع بداية مرحلة البلوغ لتضفي على طبعه حالة من المعارضة . فتتخط قوة المحاكاة وقبول الإيحاءات بينما تقوى قدرة مراقبة السلوك ومواجهة المشاكل والصعاب ، وتتجلى هذه الحالة في الفتيان خاصة لرغبتهم في النزاع والهجوم ، ومع هذا فإن رد فعل التقليد لم يزل قائماً وقد اختلط مع رد فعل عدم التقليد أو تجنبه . والرغبة في اكتشاف مسالك جديدة وهذا ما يمكن ملاحظته بكثرة في جيل اليوم وهي في الحقيقة ناتجة عن التقليد في الجهة المعاكسة»^(١) .

في العام ١٩٦٦ أقدم شاب في شيكاغو على قتل تسع مرضعات ، ولم يمض وقت طويل حتى قام شاب آخر في جامعة تكساس بارتكاب جريمة قتل بحق ١٦ شخصاً . وهاتان الجريمةتان البشتان دفعتا بشاب في الثامنة عشرة من العمر يُدعى «روبرت سميث» إلى تقليد الشابين المذكورين ، حيث قام في العام ذاته بارتكاب جريمة راح ضحيتها ستة أشخاص .

«إقترح شاب أمريكي في الثامنة عشرة من العمر يُدعى «روبرت سميث» اليوم معهداً للتجميل وفتح النار على طلاب المعهد مما

(١) ماذا أعرف ؟ ، البلوغ ، ص ٧٧ .

أسفر عن مقتل وجرح ست فتيات . وكان «سميث» قد دخل إلى أحد صفوف المعهد وطلب من الفتيات الإستلقاء أرضاً بشكل دائري ، وما أن فعلن حتى صوّب مسدّسه نحو أدمغتهن وفتح النار . ونتيجة لهذا الحادث توفيت فتاتان على الفور بينما توفيت ثلاث أخريات أثناء نقلهن إلى المستشفى ، وما زالت الفتاة السادسة في غيبوبة تامة حيث لا يرى الأطباء أملاً في نجاتها .

وبعد أن ارتكب جريمته خرج سميث من الصف وهو يضحك بشدة . وكانت امرأة قد اتصلت بالشرطة التي حضرت على الفور وطوّقت المكان وتمكنت من إلقاء القبض على القاتل وتسليمه للعدالة . ولدنى استجوابه إعترف «سميث» بأن تصاعد عمليات القتل الجماعي في أمريكا بالأونة الأخيرة هو الذي دفعه إلى ارتكاب جريمته»^(١) .

ونستنتج من هذه الحادثة أن الرغبة في الحصول على الحرية المطلقة والميل بإفراط نحو عدم التقليد الذي يؤول بالشباب إلى مزيد من التمرد على الآداب والتقاليد الإجتماعية ، يشكلان أساس الخلافات بين جيل الشباب والكبار في السن على مسألة اختيار الصفات الأخلاقية وتوكيد الشخصية .

الشباب والأوهام :

من الميول والرغبات الأخرى التي تبرز بشدة خلال مرحلة الشباب وتؤدي إلى تمرد البالغين حديثاً على الأساليب العقلانية والتصرفات الواعية للكبار ، هو حبّ الأوهام والتصورات الواهية . ففي هذه المرحلة تنفذ الأفكار الجذابة التي يستحيل حدوثها إلى أعماق الشباب لتسرح بهم في عالم الخيال والأوهام وتحجب عنهم واقع الحياة وحقائق الأمور .

«ربما لم تكن أوهام الإنسان وتصوراته الواهية شديدة بهذا الشكل

(١) صحيفة إطلاعات الإيرانية ، العدد ١٢١٣١ .

في جميع مراحل حياته مثلما هي عليه في هذه المرحلة وخاصة في المرحلة الممتدة من سن الـ ١٧ إلى سن الـ ٢٠ التي لها ميزة خاصة في حياة الإنسان» .

«والوهم هو عبارة عن صورة متأرجحة للتفكير في مرحلة البلوغ . ويبدأ نتيجة انفعال خفيف وبسيط لتشكل بدايات التصورات الذهنية ، وبعد أن تتداعى الأفكار والذكريات تنبثق من هذه التصورات تصورات أخرى جديدة تجعل الشاب يسرح في عالم نصف خيالي لكنه مرتبط تماماً بأحاسيسه الفعلية»^(١) .

التخيّلات المفيدة :

إن الرغبة في التحليق في عالم التخيّلات موجودة بالفطرة في أعماق كل شاب ، وهذه الرغبة إن استخدمت بشكل سليم وبالمقدار الصحيح ، فإنها ستعود بنتائج إيجابية . فالتخيّلات المفيدة ضمن حدود المصلحة من شأنها أن تُفَعِّلَ من قوة الإبداع لدى الشاب وتنمي ذهنه وتمنحه أفكاراً جديدة ورائعة .

«يقول «كريسي موريسن» : إن قوة التصرّ والتخيّل لدى الأطفال تشكل مصدر فرحهم وبهجتهم . وعند اللعب يطلق الأطفال هذه التصورات والتخيّلات بحريّة ، والدليل على ذلك مدى ثقة واطمئنان الطفل لمن يلاعبهم . والطفل الذي يحمل بندقيّة خشبية ويحاول تقليد الجنود في مشيهم يتصور نفسه جندياً واقعياً . وقد يتحوّل تصوّر عميق نتيجة التربية والتجربة أو تأثيرات المحيط إلى عمل فني رائع أو لوحة فنية جميلة أو اختراع ميكانيكي عظيم .

فالأفكار والمعتقدات هي وليدة قوة التصرّ والتخيّل هذه ، وكذلك

(١) ماذا أعرف ؟ البلوغ ، ص ٥٠ .

الأمر بالنسبة للنبوغ والذكاء . وتجلّى قدرة العقل البشري على تقديم اختراعات في مجال الإليكترونيات والميكانيكيات واستيعاب مسائل الرياضيات المعقدة بفضل قوة التصرّو والتخيّل»^(١) .

التخيّلات والتطوّر الفكري :

«يقول «موريس دبس» : لا بد من التمييز وبدقة تامة بين النشاط الفكري الطبيعي للشباب اليافع وبين الحالات غير الطبيعية لهم والموجودة أيضاً عند المصابين بأمراض عصبية . ولهذه التخيّلات أثرها الكبير في تطوّر الشاب فكرياً وثقافياً .

ولو اعتقدنا نحن مثلما يعتقد «ب . غو يوم» بأن للتخيّل والتصرّو أثراً أكبر من فاعلية الذكاء على حياة الإنسان ، عندها علينا أن ندعّن إلى أن مرحلة البلوغ هي من المراحل الأساسية لتنمية جسم الإنسان» .

الشباب والحس المرهف :

«إن الإنسان ليق أكثر بهذه المسألة عندما يرى أن حركة التصرّوات والتخيّلات الإبداعية لا سيما حركة التطوّر الفني في هذه المرحلة هي أكثر ما يلفت النظر . فالشاب البالغ حديثاً الذي يشعر برغبة جامحة تشدّه نحو الصور الشاعرية ، يتكون لديه حسّ مرهف أكثر من الآخرين تجاه كل ما هو جميل . فالتخيّل والتصرّو يدفعان بالشباب إلى اكتشاف كنه وجوده وإدراك الآخرين»^(٢) .

إن تخيّلات مرحلة الشباب إذا ما تجاوزت حدودها وتحوّلت إلى أوهام وأحلام تجرف الشاب إلى بحر الأمانى المستحيلة وتحجب عنه واقع الحياة ،

(١) سرّ خلقة الإنسان ، ص ١٤٠ .

(٢) ماذا أعرف ؟ ، البلوغ ، ص ٤٩ .

فإنها ستكون سبباً في بؤسه وشقائه ، لأن في مثل هذه الحالة يخفت نور العقل ويجد الإنسان الذي أضاع كنز وجوده نفسه عاجزاً عن الجدّ والنشاط ومضطرباً لقضاء بقية عمره في تعاسة وحرمان .

التخيّلات الباطلة :

«إن تخيّلنا وتصوراتنا هي في محلها وهي أمر ضروري شرط أن تكون مقدمة للعمل ، وإلاّ فإن التخيّلات التي لا تكون مقدمة لعمل باطلة أساساً ، لأنها تضيّع على الإنسان عمره وتحول بينه وبين تطوّره ورفقته» .

«إن الفرق بين الكتاب والمخترعين الذين ينسجون ما في أفكارهم بخيالهم وبين الناس الخياليين هو أن الكتاب والمخترعين يمسكون بزمام تخيّلاتهم ويطلقونها أينما وكيفما شاؤوا ، بينما الناس العاديون من الخياليين يطلقون تخيّلاتهم بشكل عشوائي كالفرس الهائج . إن الذي يبحث عن الأمل ويسعى إليه في عالم الحقيقة يدنو يوماً بعد يوم من هدفه ومراده ، أما ذلك الذي يبحث عن الأمل في عالم الخيال والأوهام ، فإنه يتعد شيئاً فشيئاً عن الهدف ، وهذا ما يجعله يغرق في اليأس»^(١) .

الإسلام والآمال :

إعتبر الرسول الأكرم ﷺ التخيّلات المفيدة والآمال التي يعيشها الإنسان في محلها والتي تسهم في سعي الإنسان ومشايرته ، أمراً مقبولاً وممدوحاً .

قال رسول الله ﷺ : **الْأْمَلُ رَحْمَةٌ لَأُمَّتِي وَلَوْ لَا الْأَمَلُ مَا رَضَعَتْ وَالِدَةٌ وَلَدَهَا وَلَا غَرَسَ غَارِسٌ شَجَرًا**^(٢) .

(١) البهجة ، ص ١١٠ .

(٢) سفينة البحار ، «أمل» ، ص ٣٠ .

كثرة الأمانى وطول الأمل :

أما التخيّلات الضّارة والأمال الطويلة التي يستحيل تحقيقها فقد نبذتها الروايات والأحاديث ، واعتبرها الأئمة الأطهار عليهم السلام دليلاً على الحمق والجهل .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : مِنْ الْحُمَقِ الْإِتْكَالُ عَلَى الْأَمَلِ (١) .

وعنه عليه السلام : كَثْرَةُ الْأَمَانِي مِنْ مَسَادِ الْعَقْلِ (٢) .

وعنه عليه السلام أيضاً : مَنْ أَطَالَ الْأَمَلَ أَسَاءَ الْعَمَلَ (٣) .

إن حبّ التخيّلات المستحيلة والأمال الطويلة لدى جيل الشباب لا سيما الإناث منهم يفوق حدود المصلحة وما تقتضيه الضرورة ، وفي بعض الحالات تستولي التصوّرات الوهمية على روح الشباب فتجرّهم إلى عالم الأحلام والأوهام مما يجعلهم لا يقوون على إدراك حقائق الأمور . ففي المدرسة لا يستوعبون شيئاً من المحاضرات التي يلقيها المعلم نتيجة تشتت أفكارهم ، وفي المنزل يقومون بأعمال غير متّزنة ويسخرون من الحياة العادية غارقين في عالم تخيّلاتهم الحلوة والمستحيلة . وهذه الحالة النفسية تعتبر من أسباب تمرّد جيل الشباب على الأساليب المتّزنة والعقلانية للكبار .

الشخصية الموهومة :

إن حدّة التخيّل والتصوّر لدى البالغ حديثاً تجعله يتمتع بشخصية كالتّي يرغب فيها ويتمناها ، فتصبح في نظره جميلة ومحبية إلى نفسه .

وتتشكل هوة سحيقة بين الوجود الحقيقي والتصوّر الأسطوري أو

(١) غرر الحكم ، ص ٧٢٦ و٥٦١ .

(٢) نهج البلاغة ، الكلمة ٣٥ .

الخرافي الذي يبعث على التخيّلات ، وتزداد هذه الهوة عمقاً شيئاً فشيئاً حتى يصبح التقرب بينهما أدنى إلى المستحيل»^(١) .

«ويحظى التصوّر والتخيّل العاطفي بمكانة كبيرة لدى الفتيات لا سيما المثقفات منهن ، إذ يكفيهن لقاء عابر وبعض الدرّشة لينسجن في أذهانهن قصة عاطفية مكتملة السبك»^(٢) .

الشباب وأسباب التمرد :

إذن فالوثوب السريع للأحاسيس والهباج العاطفي والرغبة في التجدد والحدّات والميل إلى عدم التقليد أو التقليد في الجهة المعاكسة وكذلك التخيّلات المستحيلة والأمال الطويلة ، كل ذلك يعتبر من الرغبات الطبيعية التي تبرز خلال مرحلة الشباب وتظهر لدى الشباب على الإطلاق مع فارق الشدّة والضعف .

ومما لا شك فيه أن لكل من هذه الرغبات والميول دوره المؤثر في بناء الصفات الأخلاقية وإرساء قواعد الشخصية للشباب ، إلا أن هذه الرغبات والميول تدفع بالشباب في بعض الحالات إلى مخالفة آداب الأسلاف وعاداتهم وتقاليدهم ، وقد تصل به أحياناً إلى حدّ الطغيان .

التمرد السطحي :

يسلك البعض من الشباب طرقاً عادية جداً لإحراز الشخصية واختيار سبيل التكيّف مع المحيط ، فهم يسلكون مباشرة المنهاج الأسروي والاجتماعي تحقيقاً لهذا الهدف ، وسرعان ما يكتفون أنفسهم مع ظروف الحياة ويتألفون مع المجتمع وإذا ما صادف أن تمردوا في بعض الحالات على الآداب والسنن الاجتماعية لانفعالات عاطفية أو دوافع تقتضيها مرحلة الشباب ، فإن تمردهم سيكون سطحيّاً وعابراً ، إذ إنهم سيعودون عاجلاً عن تمردهم إلى حيثما كانوا .

(١) (٢) ماذا أعرف؟ ، البلوغ ، ص ٨٦ و٦٩ .

عصيان غير مستقر :

«ينجح البعض في إحراز الشخصية بهدوء ودونما ضجة . والشباب غالباً ما تستهويه التغييرات والرقي المستقر . والفكر عادة ما يتكيف شيئاً فشيئاً مع المصالح الجديدة ، فيحتكرها لنفسه ويحاول تدريجياً تطبيقها مع الحقيقة .

وهذا العمل يتم عند البعض بصورة دراماتيكية يصحبها نوع من استعراض الذات وعصيان غير مستقر . فالرغبة بكل ما هو جديد وأمنية تحديد الشخصية تؤدي إلى بروز وضع غير عادي في طريقة الكلام وارتداء الملابس . إن اكتشاف الوجود الذاتي يولد نوعاً من حب الذات والتفاخر المفرط . وهذه الأزمة المفتعلة التي تظهر في السلوك اليومي وكذلك في الأفكار والمشاعر ، تهدأ في نهاية مرحلة البلوغ ، والسبب يعود إلى أن تكامل هذه الفئة من الشباب يتم وفق نسق خاص وضربات مفاجئة تؤدي إلى وقوع أحداث صغيرة»^(١) .

الشباب وحالة الانقلاب :

يتخذ البعض من الشباب حالة الانقلاب لتوكيد الذات وإثبات الشخصية ، فهم لا يستسلمون للآداب والسنن العادية ويرغبون في أن يكون لهم وضع استثنائي في مجتمعهم . وهؤلاء لا يفكرون في اكتساب صفات الآخرين وأخلاقهم بشكل طبيعي ، أو في تطبيق أنفسهم مع الوضع القائم في المجتمع ، بل يرغبون في مخالفة الأساليب المتبعة قدر استطاعتهم بهدف إحراز شخصية مميزة .

ولمخالفة هذا الصنف من الشباب للآداب والتقاليد والعادات الاجتماعية

(١) ماذا أعرف ؟ ، البلوغ ، ص ٨٩ .

جذور عميقة ، ولم تكن العواطف التي تبرز خلال مرحلة الشباب والرغبة في التجدد ومخالفة التقليد والتخيلات الواهية هي وحدها سبب هذه المخالفة ، بل هناك أسباب أخرى كوجود دوافع خيرة وشر في أعماق الشباب ، وهذه الدوافع متى ما اجتمعت . تؤدي إلى تمرد الشباب على الأساليب الإجتماعية .

المخالفة من جراء المرض أو النبوغ :

وثمة فئة أخرى من الشباب تفتقر إلى النظرة الواقعية للأمر نتيجة مرض نفسي أو سوء تربية ، هذه الفئة تراها تلجأ إلى أساليب متطرفة وانقلابية وأحياناً إلى الطغيان والعصيان بهدف إحراز الشخصية ، والبعض من الشباب يتعدون في أساليبهم عن الحقيقة بشكل يجعلهم عاجزين طوال حياتهم عن التكيف مع محيطهم الإجتماعي .

وهناك فئة ثالثة من الشباب الانقلابي تتمرد بسبب ذكائها ونبوغها على الأساليب الإجتماعية الخاطئة ، وترفض الآداب والسنن الإجتماعية المذمومة بنظرة منطقية وواقعية ، وهذه الفئة العظيمة ليس فقط لا تقلد الأعمال والأساليب الخاطئة للآخرين ولا تلوث نفسها بخطاياهم ، بل وتسعى إلى تعبير النمط السائد في المجتمع وإيجاد محيط جديد يتوافق وأفكارها .

ولمزيد من التوضيح نتحدث بشكل موجز عن هاتين الفئتين .

الغرور الفطري :

«إضافة إلى أمراض إبراز الشخصية وهي أمراض سطحية ، هناك أمراض فكرية أساسية ، ومن جملة هذه الأمراض ، مرض «البارانويا»^(١) ، ومن علامات هذا المرض تكرار المريض لـ(الأنا)

(١) هو مرض الذاتية وهو مرض مطبوع بالانانية وسرعة الإنفعال والشك . (م) .

مما يجعل الحياة الإجتماعية مستحيلة» .

«إن الطفل المصاب بالبارانويا يمتلك منذ ولادته أخلاقاً خاصة تجعله في وضع يصعب إصلاحه ، ومن جملة ما يعاني منه المصاب بهذا المرض ، الغرور الفطري الذي يسيطر على كل رغباته وميوله بسبب أنانيته»^(١) .

المنطق الخاطيء :

«إن النمو المتزايد لحسّ الأنانية وعبادة الذات واللامبالاة التي تولد نتيجة حساسية مفرطة قد تؤدي إلى نضوج فكرة إلحاق الأذى بالآخرين في ذهن المريض ، كل ذلك له علاقة مباشرة بمنطقه الخاطيء ، ويكمن خطر هذه الحالة أو المرض في أن الطفل المصاب بالبارانويا يستند دائماً إلى هذا المنطق الخاطيء ولا يحيد عنه . وتكون رؤيته للأشياء والموجودات خاطئة تماماً كما لو أنه ينظر إليها من خلال مرآة مكسورة» .

«يتميّز الطفل المصاب بالبارانويا عالى الدوام بسلوك وشكل يميّزانه عن غيره ، إذ إنه يكون منقبض الوجه باهتاً وغالباً ما يكون متوتر المزاج ، له شفتان دقيقتان ونظرة ثابتة وباهتة ، وعندما يصاب بالبهتان يصعب إخراجه من هذه الحالة . له شخصية غير قابلة للتأثير أو التأثر ، وهذه الحالة من الإنكماش الروحي التي تبدو واضحة تماماً على قسماّت وجهه تميّزه دائماً عن الآخرين ، كما أن وضعه الصحي يكون كعضلات وجهه خاملاً» .

شخصية غير قابلة للتغيير :

«ينكمش الطفل تماماً ويصبح لا مبالياً تجاه الأشياء والموجودات ،

(١) ماذا أعرف ؟ ، البلوغ ، ص ٩١ .

ويصدر عنه سلوك وكأنه في حالة هجوم . وكل هذه الحالات تؤلف شخصية قد تكون قابلة للإنهيار ولكنها غير قابلة للتغيير أو التغيير .

إنه سريع الحركة وينادي منذ طفولته بالاستقلال ويسعى لشق طريق حياته بمفرده . وأحياناً يعلن مثل هؤلاء الأطفال الحرب ضد المجتمعات التي لم تسع لإرضاء وإشباع حسّ الأناية لديهم ، وبما أنهم يصبحون أشخاصاً غاضبين وخطرين فإنهم يلحقون بمن حولهم أضراراً جسيمة» .

«كان فتى في الخامسة عشرة من عمره جميل ولا مبالٍ يقضي معظم أوقاته في اللهو بالمتفجرات ، فأقدم يوماً على تفجير كمية منها مما تسبب في نشوب حريق كبير . هل تعرفون الدوافع التي تكمن وراء فعلته ؟ ، أجل ، إنه كان ينوي تفجير العالم ، كل العالم - حسب زعمه - وهذا الهدف الكبير من وجهة نظره دليل واضح على أخلاقه»^(١) .

الهستيريا :

«والمرض الثاني هو الهستيريا ، وتفشي هذا المرض هو أقل بكثير مما كان أطباء الأمراض الدماغية في أواخر القرن الماضي يتوقعونه ، ومع ذلك فإن الهستيريا تلاحظ بكثرة بين الفتيات اللواتي يبدين رغبة في استعراض أنفسهن . فهن يرغبن في لفت الأنظار من خلال تصرفاتهن أو أداء أدوار كوميدية أو تقليد شخصية معينة كي يستطعن أن يحققن جزءاً من أمانيهن وتخيلاتهن» .

(١) ماذا أعرف ؟ ، تربية الأطفال ، ص ٣٣ .

الفصام :

«إن من أكثر الأمراض التي تتناول الشخصية نفوراً واشمئزازاً ، الجنون المبكر بالصورة التي يظهر فيها عند البالغين حديثاً والشبان . ويصاب المريض بالأرق الشديد ولا سيما في بدء المرض ، ويتأثر الانتباه الغريزي قليلاً نتيجة فقدان الإنتقائية الناشئة عن اضطراب العلاقة السوية بين الشكل والأرضية ، أما الإنتباه الإرادي المتواصل فيعاني كثيراً بسبب انشغال المريض بعالمه الداخلي واضطراب فكره ووجدانه ، فيسيطر على المريض الخمول أو التبدُّل أو نقص النشاط الحركي وهو الطابع الشائع في أغلب حالات الفصام أو ما يُسمى اليوم بـ«الشيزوفرينيا»^(١) .

الشباب والغضب :

إن التربية خلال مرحلة الطفولة عندما تكون خاطئة تسهم في عدم تألف المرء مع محيطه الإجتماعي وتحطُّم شخصيته تماماً كبعض الأمراض النفسية . فالإنسان الذي ترعرع وتربى في صغره على التكبر والأنانية أو الحقد والضعف أو الغنج والدلال وما إلى ذلك من صفات مذمومة ، لا بُدَّ وأنه سيواجه في فترة مراهقته وشبابه مشاكل مختلفة ، كما أنه سيكون عاجزاً عن تطبيق نفسه مع المجتمع وإحراز شخصيته .

مثل هؤلاء يكونون دائماً منزعجين غاضبين ، ويعتبرون الجميع بأنهم سيئو الخلق ، وذلك بسبب الإحباط النفسي الذي يعانونه وكذلك عدم اكتراث الناس لتوقعاتهم غير الصحيحة . ويلجأ هؤلاء في الغالب إما إلى التمرد على الآداب والتقاليد الإجتماعية وإما إلى محاربة الناس ليخففوا من عذاباتهم وتحقير الناس لهم ، متجاهلين أنهم بهذه الأعمال والممارسات المذمومة ليس

(١) ماذا أعرف ؟ ، البلوغ ص ٩١ .

فقط عاجزين عن إحراز الشخصية والخلاص من الإحباط النفسي ، بل إنهم يضيفون مشكلة جديدة إلى مشاكلهم التي ستكون يوماً سبب شقائهم وتعاستهم .

«ثمة الكثير من الأطفال الطبيعيين الذين يولدون من أبوين فاسدين مجرمين ويتدربون وسط أجواء موبوءة ، لا يستطيعون في النهاية أن يطبقوا أنفسهم مع مجتمعاتهم ، فتراهم إما يملأون السجون وإما يعيشون في الأرض ظلماً وعدواناً ، ومثل هؤلاء يجب اعتبارهم ثمرة أو بالأحرى نتاج الإنحطاط والفساد المتأني من التمدن الصناعي» .

العجز عن التكيف مع المحيط :

«وفي المدارس الحديثة التي لا تهتم بضرورة السعي لتنمية مبادئ الأخلاق والتربية ، يتجرّد الأطفال من أدنى حسّ بالمسؤولية ، وعندما يشبّون ويواجهون متاعب المحيط وضغوط الحياة المادية والمعنوية ، لا يجدون مفرّاً سوى الإنطواء أو الاستنجاد بالآخرين ، كما أنهم يكونون عاجزين عن التكيف مع محيطهم ، وإذا وصل بهم الأمر إلى طريق مسدود فإنهم يفضلون إما ارتكاب الجريمة أو الإنتحار»^(١) .

عدم الثقة بالنفس :

«إن الطفل الذي أسيئت تربيته ، عندما يكبر ويرث ثروة كبيرة لا يجد مفرّاً من معايشرة الناس والاحتكاك بهم ، لكنه عندما لا يجد فيمن حوله روح التساهل والتعاطف التي كان يمتاز بها أصدقاء طفولته ، يعتبر الجميع فاسدين ولا يستحقون المعايشرة ، متجاهلاً

(١) الإنسان ذلك المجهول ، ص ٢١٤ .

أن ذلك سينغص عليه حياته . أما إذا لم يرث عن أبويه لُروة تعينه في حياته ووجد نفسه مضطراً إلى العمل ، عندها ستبدأ مأساة حياته بسبب فقدانه حسن الشجاعة والثقة بالنفس ، ويملكه اليأس ، ويدرك عاجلاً أنه لم تتم تربيته لحياة من أجل البقاء ، فهو عاجز عن الاتكال على نفسه ، وهذا ما يجعله يلتحق بصفوف من هم عالة على مجتمعاتهم كاللصوص والمنجمين والمقامرين والخمارين وغيرهم»^(١) .

إذن ، فتمرد هذه الفئة من الشباب الذين يمتازون بشخصية متقلبة ولا يستطيعون التكيف مع محيطهم الاجتماعي ، ناجم عن أمراض نفسية واضطرابات روحية يعانونها أو سوء تربية .

الأذكياء والشخصية :

للأذكياء ومن نستطيع أن نعتبرهم نوابغ عصورهم شخصية انقلابية لا يمكنها أن تتوافق مع الآداب والسنن الاجتماعية الخاطئة ، وسبب ذلك يعود إلى صحة تشخيصهم وقوة إدراكهم للأمور .

وما التحولات العظيمة التي شهدتها التاريخ طوال قرون متمادية ، وكذلك التقدم الكبير الذي أحرزته المجتمعات على غير سعيد ، إلا نتيجة من نتائج النضوج الفكري والعقلي لكبار الرجال الذين قارعوا الانحطاط والفساد والجهل وقادوا الناس إلى الكمال والسعادة بعزم راسخ وإرادة صلبة .

القادة الروحيون :

وفي طليعة هؤلاء الرجال الانقلابيين كان هناك قادة روحيين أرباباً آخرى أنبياء مرسلون من رب العالمين ، عملوا كل في عصره على إرساء قواعد حركة تصحيحية شملت معتقدات الناس وأخلاقهم وسلوكهم .

(١) عقدة الحقارة ، ص ١٤ .

فالأنبيا صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين بُعثوا في أكثر الشعوب والقبائل تخلفاً وجهلاً ، فحاربوا الشرك وعبادة الأصنام والجهل والظلم حتى الرمق الأخير لإنقاذ الناس من مستنقعات الفساد التي كادت تقضي عليهم .
والأنبياء هم الذين ثاروا بروح إنقلابية للدفاع عن الحق والحقيقة والقضاء على الآداب والسنن الإجتماعية الفاسدة ، لم يردعهم في ذلك ظلم الطغاة ، ولم يخشوا الموت في سبيل الله ، فسعوا بكل ما أوتوا من قوة لزرع بذور تعاليمهم السامية في ضمائر الناس الخصبه لإنقاذهم من الجهالة والضلالة .

قيادة إبراهيم (ع) :

من الشخصيات الربّانية التي تمرّدت على المعتقدات والآداب الخاطئة لقومها ، وفجّرت بشخصيتها الإنقلابية المتأتية من النضوج العقلي والعناية الإلهية بركاناً عظيماً ، إبراهيم الخليل عليه السلام . وقد تحدّث القرآن الكريم في أكثر من سورة عن مواقف هذا القائد العظيم . لقد كانت لابراهيم عليه السلام منذ صغره شخصية فذة وعظيمة ، وقد اصطفاه الله سبحانه وتعالى ليكون قائداً لقومه وهادياً لهم .

قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ (١) .

حديث إبراهيم (ع) وأزر :

فبدأ إبراهيم عليه السلام دعوته الإنقلابية التي كان الهدف منها بالدرجة الأولى مقارعة عبادة الأصنام من محيط أسرته وأقاربه .

قال تعالى : ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً﴾ (٢) .

وقال عزّ من قائل : ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنْتَه

(١) سورة الأنبياء ؛ الآية : ٥١ .

(٢) سورة مريم ؛ الآيتان : ٤٢ و ٤٣ .

لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿١﴾ .

فأجاب إبراهيم (ع) بكل صراحة بعد أن كان قد قرّر وعزم على اقتلاع جذور الشرك وتحطيم الأصنام :

﴿وَأَعْتَبْتُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ (١) .

إبراهيم (ع) ومقارعة الأصنام :

لقد واصل إبراهيم ﷺ الشاب رسالته السماوية ونهجه الثوري ، وقام بين الناس معتمداً على منطق الاستدلال القوي ، فأعلن بكل صراحة عن مخالفته لعبادة الأصنام التي ما هي إلا من آداب قومه وتقاليدهم البالية معتبراً إياهم وآباءهم من الجهلة والضالين .

قال تعالى : ﴿مَا هَذِهِ التَّمَائِلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٣) .

فبعثت كلمات إبراهيم ﷺ التي نزلت كالصاعقة على قومه موجة من الخوف والغضب بين الناس فقالوله : كيف تتجرأ على الآلهة ؟ ، ألا تخاف غضبها ؟ ، فقال إبراهيم ﷺ : ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ﴾ (٤) .

تصعيد المواجهة :

ولما رأى إبراهيم ﷺ أن قومه الميتة قلوبهم لا يمكن أن يعودوا إلى رشدهم ويكفوا عن عبادة الأصنام رغم كل نصائحه وما أتى به من براهين لهم ، صعد من أسلوب مواجهته وأخذ يتهدد قومه ، فقال : ﴿وَنَسْأَلُ اللَّهَ لِأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ (٥) .

(١) سورة مريم ؛ الآية : ٤٦ .

(٢) سورة مريم ؛ الآية : ٤٨ .

(٣) سورة الأنبياء ؛ الآيتان : ٥٢ و ٥٤ .

(٤) سورة الأنعام ؛ الآية : ٨١ .

(٥) سورة الأنبياء ؛ الآية : ٥٧ .

الإعلان عن تحطيم الأصنام :

لقد أراد إبراهيم ﷺ من خلال هذا التهديد أن يعرب عن مخالفته التامة للدين المزيّف الذي كان يدين به قومه ، وقد أعلن للناس بصراحة عن عزمه على تحطيم الأصنام ، وأخذ يتحين الفرصة المناسبة لتحقيق هدفه ، وفعلاً نفذ إبراهيم ﷺ ذات يوم تهديده ، فحطّم الأصنام جميعها باستثناء كبيرهم .

وقد نزلت هذه الخطوة الانقلابية كالصاعقة ، فأريكت الأجواء في المدينة ، وضجّ المشركون الغاضبون يصرخون تعبيراً عن غضبهم وحقنهم وه يبحثون عمّن أباح لنفسه أن يظلم آلهتهم . وكان واضحاً أن الفاعل ليس إلا إبراهيم ﷺ ، فكلماته كانت قد طرقت أسماع الناس أجمعين .

﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتَىٰ يَذُكُرْكُمُ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾^(١) .

محاكمة إبراهيم (ع) :

وقد تقرّر محاكمة إبراهيم ﷺ في الملأ لينال جزاءه ، فجاؤوا به ، وبعد نقاش حادّ بين إبراهيم ﷺ وعبدة الأصنام ، خاطبهم بكل صراحة ودون خوف أو وجل :

﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ * أَفَ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾^(٢) .

ثمره الانقلاب :

لقد دفعت الشخصية الانقلابية لإبراهيم الخليل ﷺ القائمة على النضوج العقلي والمستلهمة من الوحي الإلهي ، دفعت به إلى معارضة الآداب والعادات والتقاليد الباطلة التي كانت سائدة في قومه ، فانفض يحارب الأصنام

(١) و٢) سورة الأنبياء : الآيات : ٦٠ و٦٦ و٦٧ .

وعبادة الأصنام . ورغم أنه قد واجه في حركته الإنقلابية تلك الكثير من المشاكل والصعاب ، إلا أنه قد نجح في تحريك عقول الناس ودفعهم للتفكير والتدبر .

نهضة الرسول الأكرم (ص) :

ومن الشخصيات الربانية التي نهضت ضد الآداب والعادات والتقاليد الذميمة معتمدة على نور العقل والوحي ، وساهمت في حدوث تغيير كبير في المجتمع ، وأنقذت الناس من حضيض الجهالة لتحفظ لهم عزّتهم وكرامتهم ، الرسول الأكرم ﷺ .

وكان الرسول الأكرم ﷺ قد بعث نبياً في مجتمع جاهل يسوده الشرك وعبادة الأصنام ، وتتفشى فيه الجرائم والرذائل ، حيث كان الجور والظلم وأدب البنات وتحقير النساء والنهب والسرقة وهتك الأعراض وشرب الخمر ولعب الميسر وما إلى ذلك من صفات رذيلة ، كل ذلك كان يعتبر من الآداب والعادات والتقاليد التي كانت سائدة آنذاك بين الناس الذين لم يكونوا يشعرون لا بخجل ولا بندم .

فثار الرسول الأكرم ﷺ بتوجيه من الباري سبحانه وتعالى وبإلهام من عقله الكامل ضد كل تلك العادات والتقاليد المذمومة بعزم راسخ وإرادة لا تلين . ولم يكن هدف الرسول ﷺ ينحصر في إطار مخالفته الشخصية لهذه الآداب والعادات المرفوضة فحسب ، بل كان هدفه ﷺ أسمى من ذلك بكثير وأكبر من أن ينحصر في هذا الإطار ، لقد كان النبي ﷺ يسعى إلى تطهير الناس من أدران الذل والعار والهوان ، وذلك بالقضاء على العادات والتقاليد الرذيلة ، وبناء بيئة جديدة تقوم على أساس العقل والمنطق والعدل والإنصاف والإرادة الإلهية ، وبناء الشخصية التي تكون قادرة على التآلف مع هذه البيئة ، وفعلاً استطاع الرسول ﷺ تحقيق إنجازات عظيمة ونجاحات باهرة في هذا المجال . إن ما نريد أن نبينه هنا هو أن الرسول ﷺ ليس فقط

لم يتبع الناس الجهلة لبناء شخصيته وتطبيق نفسه مع الآداب والعادات والتقاليد الضالة والفاصلة ، وإنما سعى بإرادته القوية إلى جعل الناس يتكيفون مع أفكاره ويتبعون منهجه لتحقيق أهدافه الأخلاقية والإنسانية السامية .

العصر الجاهلي :

قال علي عليه السلام : بَعَثَهُ وَالنَّاسُ ضَلَالٌ فِي حَيْرَةٍ وَخَابِطُونَ فِي فِتْنَةٍ . قَدْ اسْتَهْوَتْهُمْ الْأَهْوَاءُ وَاسْتَزَلَّتْهُمْ الْكِبْرِيَاءُ وَاسْتَحَفَّتْهُمْ الْجَاهِلِيَّةُ الْجَهْلَاءُ حَيَارَى فِي زَلْزَالٍ مِنَ الْأَمْرِ وَبَلَاءٍ مِنَ الْجَهْلِ (١) .

تغييرات جذرية :

لقد نفذت كلمات الرسول عليه السلام وخطبه الحكيمة إلى أعماق الناس ، وأحدث منطقه السليم حركة إصلاحية عظيمة خلال فترة وجيزة ، مما أدى إلى حدوث تغييرات جذرية في ذلك المحيط الجاهل والفاسد .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : قَدْ صُرِفَتْ نَحْوُهُ أَفْتِدَةُ الْأَبْرَارِ وَوُئِيَتْ إِلَيْهِ أَرْزَمَةُ الْأَبْصَارِ . دَفَنَ اللَّهُ بِهِ الضَّعَائِنَ وَأَطْفَأَ بِهِ النَّوَائِرَ ، أَلْفَ بِهِ إِخْوَاناً وَفَرَّقَ بِهِ أَقْرَاناً ، أَعَزَّ بِهِ الدُّلَّةَ وَأَذَلَّ بِهِ العِرَّةَ (٢) .

«يقول نهرو : لقد كان محمد عليه السلام كقادة العديد من المذاهب الأخرى رجلاً ثورياً حارب الكثير من العادات والنظم الاجتماعية التي كانت سائدة آنذاك .

لقد جذب الدين الذي دعا إليه محمد عليه السلام الكثير من شعوب وقبائل المناطق المجاورة لبساطته وصراحته والأسلوب الذي جاء به محمد عليه السلام ، فتلك الشعوب كانت قد رزحت سنين طويلة تحت

(١) نهج البلاغة ، الخطبة ٩٤ .

(٢) نفس المصدر ، الخطبة ٩٥ .

سلطة القدرة المطلقة للملوك المتجبرين والقادة الروحانيين المستبدين من وعاظ السلاطين . لقد كانت تلك الشعوب قد نبذت النظم القديمة وكانت مهية لاستقبال أي جديد ، جاء الإسلام بهذا الجديد ، فاستقبلته الشعوب بحفاوة ، لأنه حمل إليها ما يحسن من أوضاعها وينهي الكثير من المفاسد القديمة ، حتى بات كل مسلم يشعر أنه عضو في مجتمع كبير تربطه الأخوة^(١) .

الرسول (ص) والشباب :

لقد أحدثت كلمات الرسول ﷺ وخطبه الرنّانة في بدايات الدعوة تحولاً روحياً عظيماً في جيل الشباب ، ولما كان الشباب بفطرتهم إنقلابيين ويرغبون في التجدد والحداثة ، إلتفوا حول الرسول ﷺ معلنين انضوائهم تحت راية الإسلام ، فبدأوا في ظل قيادته الرشيدة وتوجيهاته الحكيمة حملة ضد السنن الفاسدة والعادات والتقاليد المذمومة التي كانت سائدة آنذاك ، معلنين عن مخالفتهم للمعتقدات والأفكار الباطلة أينما حلّوا في أسرهم ومجتمعهم ، أوفي رحيلهم وترحالهم .

المواجهة الأولى بين الشباب والمشرّكين :

كان سعد بن مالك من الشباب الشيطيين والمتحمسين في صدر الإسلام ، وقد اعتنق الإسلام على يد الرسول الأكرم ﷺ وهو في سن الـ ١٧ ، وكان سعد قد أظهر وفاءه للإسلام ومخالفته للجاهلية في أكثر من مكان وزمان لا سيما في الظروف الحرجة التي مرّ بها المسلمون قبل الهجرة .

وكان أصحاب الرسول ﷺ إذا أرادوا الإتيان بالصلاة ينزلون إلى شعاب مكة ليتّقوا شرّ المشركين ، فبينما سعد بن مالك في نفر من أصحاب رسول

(١) نظرة إلى تاريخ العالم ، ٣٢٣ .

الله ﷺ في شعب من شعاب مكة ، إذ ظهر عليهم نفر من المشركين ، فناكروهم وعابوا عليهم دينهم حتى قاتلوهم فاقتلوا ، فضرب سعد رجلاً من المشركين بلحى جمل ، فشجّه فكان أول دم أريق في الإسلام .

وكان المشركون في تلك الأيام في ذروة قوتهم وجبروتهم ، بينما المسلمون في نهاية الضعف والعجز ، وأي صدام بين الطرفين آنذاك كان يجرّ إلى أحداث خطيرة ، ولكن الشباب الذين أعدّوا أنفسهم لتحمل شتى أنواع التعذيب والأذى لم يخشوا عواقب الأمور أو المخاطر التي قد يواجهونها نتيجة دفاعهم عن حرمة الإسلام .

يقول سعد : كنت رجلاً برّاً بأمي ، فلما أسلمت قالت : يا سعد ما هذا الدين الذي أحدثت ، لتدعن دينك أو لا أكل ولا أشرب حتى أموت ، وعيرتني ، فقال : لا تفعلي يا أمّه ، فياني لا أدع ديني ، قال : فمكثت يوماً وليلة لا تأكل فأصبحت وقد جهدت وتصوّرت أن ابنها لو رآها على هذا الحال من الضعف سترك دينه لبرّه بها وقد غاب عنها أن عطف الأم وبرّها لا يمكنه أن يقف أمام الحب الإلهي لو تغلغل إلى النفس ، ولهذا قال لها سعد في اليوم التالي : والله لو كانت لك ألف نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني . ولما رأت الأم التصميم القاطع لولدها ويثت من تغيير معتقده عدلت عن قرارها الإمساك عن الطعام^(١) .

وبخلاصة فإن السلوك الثوري للرسول الأكرم ﷺ والخطب الحماسية الرنانة كان لهما الأثر الكبير في بناء شخصية ثورية للشباب الذين ثاروا بالإتكال على الله وتوجهات قائدهم العظيم ضد سنن الجاهلية الفاسدة ، فحطموا الأصنام وهذّوا بيوتها واقتلعوا جذور الظلم والعدوان وقضوا على الآداب والتقاليد والعادات الباطلة والنظم الفاسدة وأقاموا مكانها نظاماً جديداً قائماً على أساس العلم والإيمان والعدل والحرية والأخلاق والفضيلة ، إستطاع أن ينقذ البشرية من الجهل والضلالة .

(١) اسد الغابة ٢ ، ص ٢٩٠ .

المحاضرة العشرون

حول الشاب وتغيير الشخصية

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى في محكم كتابه : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾^(١) .

الصفات القابلة للتغيير :

ثمة مسألة أساسية ينبغي الالتفات إليها وبدقة خلال البحوث المتعلقة بالشخصية ، كما أن معرفتها من قبل جيل الشباب لا تخلو من الأهمية ، وهي أن الصفات الأخلاقية والعادات المكتسبة التي تعتبر القاعدة الأساس لشخصية الإنسان ، تكون خلال مرحلة الشباب قابلة للتغيير والتحول .

وبعبارة أخرى نقول : إن التربية سواء كانت حسنة أو سيئة وكذلك العادات المقبولة أو المرفوضة التي يتطبع عليها الشباب خلال مرحلتي الطفولة والمراهقة ويكتسبون منها من محيط الأسرة أو المجتمع ، ليست أمراً واقعاً لا يمكن التخلف عنه أو تجنبه ، إذ يمكن أن تتغير كل هذه الصفات والعادات في ظل ظروف معينة ومناسبة لتحل محلها صفات جديدة .

(١) سورة الشمس ، الأيتان : ٩ و ١٠ .

الصفات الوراثية والمكتسبة :

«عندما تدقق النظر في جسمك من أعلى الرأس وحتى أخمص القدمين تلاحظ أن كل جزء من تركيبك الجسمانية كأنك ورثته عن أبوك أو أجدادك لتقارب الشبه بينهما ، وعلى سبيل المثال قد تكون ورثت شعرك الأسود الداكن المتجعد عن أمك ، ووجهك المستدير عن جدتك ، ولون بشرتك عن أبيك ، وطول قامتك عن جدك ، على أية حال تعتبر تركيبتنا الجسمانية وقوانا وراثية دون أدنى شك ويمكن تحديد مصدرها ، ولكن لا يمكن تحديد مصدر الطباع كالحزن والكآبة والهزل والمزاج وغيرها ، ولكن من المسلّم به أن العادات والصفات وبشكل عام طريقة التفكير والسلوك لها علاقة بالشؤون والمواقف الحياتية ، أي أنها من تكوين البيئة» .

«نتيجة لشؤون الحياة ومواقفها تأخذ شخصيتنا قالباً معيناً دون أن نشعر ، ولكن من حسن حظنا أن باستطاعتنا أن نخرج من هذا القالب متى ما شئنا ، بمعنى أننا نستطيع بقوة إرادتنا اقتلاع أي عادة أو خصلة فينا نشعر أنها باتت بالية وغير نافعة ، وإحلال صفة أو خصلة نافعة محلها . أجل ، يمكن تغيير الشخصية من خلال تغيير جزء من الصفات والخصال أو بأكملها»^(١) .

الإجتهد في إصلاح النفس :

ومن هنا ينبغي على الشاب الذي قد تكون تربيته الأسرية أو الإجتماعية سيئة وفاسدة ، ولا يمكنه التكيف مع مجتمعه ، ينبغي عليه أن لا ييأس ، ولا يتصور أنه كُتب عليه أن يعيش طوال حياته محبباً وتعبساً ، لأنه قادر على

(١) نمو الشخصية ، ص ٣٦ .

إصلاح نفسه وتغيير شخصيته، إلى الأحسن وذلك بالإجتهاد والتصميم والإرادة .
ومن الناحيتين الدينية والعلمية تقع على شاب كهذا مسؤولية مكافحة
عاداته الفاسدة والضارة وتطهير نفسه من سوء الخلق والأخلاق الذي لا يعود
عليه سوى بالحرمان والشقاء ، والسعي لتأمين مقومات سعادته من خلال
اكتساب خير الصفات .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : لا تترك الإجهاد في إصلاح نفسك فإنه لا
يعينك عليها إلا الجِدُّ (١) .

وعنه عليه السلام : أيها الناس تولوا من أنفسكم تآديها وأعدلوا بها عن ضراوة
عاداتها (٢) .

وعن أبي عبد الله الإمام الصادق عليه السلام : إقصِدْ نَفْسَكَ عَمَّا يَضُرُّهَا مِنْ
قَبْلِ أَنْ تَفَارِقَ وَأَسْعَ فِي فَكَاكِبِهَا كَمَا تَسْعَى فِي طَلَبِ مَعِيشَتِكَ فَإِنَّ نَفْسَكَ رَهِينَةٌ
بِعَمَلِكَ (٣) .

إستخدام العقل والمنطق :

«إن العادات التي تطبّعنا عليها طوال سنوات طويلة لا يمكن أن
تزول بين ليلة وضحاها ، لكننا ولحسن الحظ نستطيع أن نطرد كل
عادة مهما كانت قديمة أسرع بكثير مما اكتسبناها لو أننا اعتمدنا
على العقل والمنطق» .

«علينا أولاً أن نعرف القواعد العامة التي تتحكم بكيان الإنسان ،
ومن ثم نعرف أنفسنا حقّ المعرفة ، أي نفهم ماذا علينا أن نطرد
من عادات وصفات من ذاتنا ، وماذا علينا أن نسعى لتتميتها ،

(١) غرر الحكم ، ص ٨١٨ .

(٢) نهج البلاغة ، الكلمة ٣٥١ .

(٣) وسائل الشيعة ٤ ، ص ٤٠ .

وينبغي علينا أن نعرف أية قابلية تكمن فينا يمكنها أن تؤمن لنا السعادة في الحياة ، فإذا ما عرفنا كل هذه الأمور علينا أن نتزوّد أولاً بالصبر ثم نكون مراقبين على أنفسنا حريصين ، ونسعى بكل جد وإرادة حتى نغيّر ما أردنا تغييره في نفوسنا^(١) .

الغرور يحجب العقل :

إن الشاب الذي يعاني من سوء الأخلاق والعادات ولا يخطو خطوة واحدة على طريق إصلاحها ، يكون إما نتيجة الغرور الذي يحجب عقله ويعيقه عن إدراك انحرافات المعنوية ، وإما بسبب الجهل الذي يجعله غير قادر على التمييز بين الفضيلة والرذيلة ، أو بسبب ضعف في الإرادة يمنعه من اتخاذ قرار يقضي بإصلاح ذاته ، وأياً يكون السبب فإن الإسلام قد انتقد هذا الصنف من الشباب .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : جَهْلُ الْمَرْءِ بِعُيُوبِهِ مِنْ أَكْبَرِ ذُنُوبِهِ ^(٢) .

وقال عليه السلام أيضاً : الْجَهْلُ بِالْفَضَائِلِ مِنْ أَقْبَحِ الرَّذَائِلِ ^(٣) .

أعجز الناس :

وعنه عليه السلام : أَعْجَزُ النَّاسِ مَنْ قَدَرَ عَلَى أَنْ يُزِيلَ النَّقْصَ عَنْ نَفْسِهِ وَلَمْ يَفْعَلْ ^(٤) .

إن الشباب ليس لهم مقرّ أو مستقر تحت سلطة العادات والتقاليد الثابتة التي تسود مجتمعاتهم . فعالم نشاط غرائزهم عالم حي ومرن وملئ بالتجارب . إن بمقدور الشباب أن يغيّروا بسعيهم

(١) نمو الشخصية ، ص ٣٦ .

(٢) إرشاد المفيد ، ص ١٤٢ .

(٣) غرر الحكم ، ص ٩١ .

(٤) مستدرک الوسائل ٢ ، ص ٣١٠ .

وهمهم المحيط الذي يعيشون فيه . ولكن لا يخفى على أحد أنهم أي الشباب قد لا يستطيعون تشخيص وتحديد التغييرات والإصلاحات التي ينبغي عليهم أن يقدموا عليها ، ولاهم بمستعدين للتضحية في سبيل هذه الإصلاحات»^(١) .

السعادة في ظل العمل والمثابرة :

إن ممّا لا شك فيه أن سعادة كل إنسان مرهونة بعمله ومثابرته ، فالشاب الذي يسعى بجد إلى تحليل ذاته ونفسيته ويجتهد في تطهيرها من الرذائل الأخلاقية ، فإنه سيحصل على شخصية مناسبة وسيضمن لنفسه سبل السعادة .

على عكس ذلك الشاب الذي لا يهمله سوء خلقه وعاداته ، ويبقى محتفظاً في ذاته وأعماقه بمساوىء الأخلاق ، فإنه يكون قد أسهم في دمار شخصيته وحقق سبل حرمانها وشقائها ، وقد أشار إلى ذلك القرآن الكريم مقروناً بالقسم :

قال تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾^(٢) .

أثر سوء المعاشرة :

لا يفوتنا أن نذكر أن العادات الحسنة والأخلاق الحميدة هي الأخرى قابلة للتحوّل والتغيير ، ومن هنا يجب على أولئك الشباب الذين كبروا منذ صغرهم على الفضائل والأخلاق الحميدة في ظل أبويهم ومربيهم الأكفاء أن لا يفتروا ولا يتصوّروا أن أخلاقهم الفاضلة يمكنها أن تستمر طالما هم أحياء ومهما كانت الظروف ، أو أنهم سيقون سعداء أبد الدهر، لأن سوء المعاشرة وكذلك فساد البيئة والمحيط بإمكانهما محو النتائج الطيبة التي استحصل عليها الإنسان خلال طفولته ، وتحويل صفاتهم وعاداتهم الحميدة إلى صفات وعادات ذميمة ، وهذا ما من شأنه أن يحطّم الشخصية المعنوية التي

(١) الأخلاق والشخصية ، ١٢٤ .

(٢) سورة الشمس ؛ الآيات ٩ و ١٠ .

اكتسبها ويزيل دعائم التآلف الإجتماعي التي بناها ، فيعرضه للفشل والحرمان .

فما أكثر الشباب الذين خسروا طبيبتهم وطهارتهم نتيجة ترددهم على مراكز الفساد أو معاشرتهم لأصدقاء السوء ، لقد فرط هؤلاء بأخلاقهم الفاضلة وصفاتهم الحميدة ، وحطموا شخصيتهم وكيانهم بالإنجرار وراء الخمرة والميسر والمخدرات ، وغرقوا في مستنقعات الفساد والرذيلة وقد وصل الإنحطاط ببعض منهم إلى وضع حدّ لحياتهم المخزية من خلال الإقدام على الإنتحار .

لقد أوصى أئمة الهدى عليهم السلام أتباعهم بالحذر من سوء الصحبة والمعاشرة لصون أنفسهم من مخاطر الإنزلاق في الرذائل والآثام .

في وصية أمير المؤمنين عليه السلام لكميل بن زياد : يا كميلُ جانِبِ المُنَافِقِينَ وَلَا تُصَاحِبِ الخَائِنِينَ ، إِيَّاكَ وَتَطْرُقُ أَبْوَابِ الظَّالِمِينَ وَالإِخْتِلَاطَ بِهِمْ ، إِيَّاكَ أَنْ تُطِيعَهُمْ أَوْ تُشَهَّدَ مَجَالِسَهُمْ بِمَا سَخِطَ اللهُ عَلَيْكَ (١) .

وقال أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً : إِيَّاكَ وَصُحْبَةَ مَنْ أَلْهَاكَ وَأَغْرَاكَ فَإِنَّهُ يَخْذُلُكَ وَيُوبِقُكَ (٢) .

مجالسة شارِب الخمر :

عن الإمام الرضا عليه السلام : لَا تُجَالِسْ شَارِبَ الخَمْرِ وَلَا تُسَلِّمْ عَلَيْهِ (٣) .

وعن الإمام الجواد عليه السلام : إِيَّاكَ وَمُصَاحِبَةَ الشَّرِيرِ فَإِنَّهُ كَالسَّيْفِ يَحْسُنُ مَنَظَرَهُ وَيَقْبَحُ أَثَرَهُ (٤) .

(١) مستدرك الوسائل ٢ ، ص ٦٧ .

(٢) غرر الحكم ، ص ١٥٢ .

(٣) مستدرك الوسائل ٢ ، ص ٦٧ .

(٤) بحار الأنوار ١٧ ، ص ٢١٤ .

الأخلاق هل تتبع الغرائز؟ :

كانت مسألة تغيير الأخلاق والصفات عند الإنسان وعدم تغييرها وكذلك قابلية الأخلاق الإنسانية للتغيير والتطوير من المسائل النفسية والتربوية المهمة التي قامت عليها الكثير من النظريات وما زالت تطرح على بساط البحث والدراسة والتحليل .

البعض يعتقد أن القاعدة الأساس لأخلاق الإنسان هي غرائزه الطبيعية التي انتقلت إليه بالوراثة اللاإرادية من جيل لجيل . ونظراً إلى أن الغرائز القوية ممتزجة بفطرة الإنسان وتمتد جذورها إلى أعماقه ، فإن أخلاقه وطبائعه في مختلف سني حياته تكون مرهونة بوضع غرائزه الطبيعية ، لذا فمن المستحيل تغييرها تغييراً أساسياً .

«لقد حلّل المحافظون حالة الغرائز الطبيعية لدى الإنسان تحليلاً علمياً ليبرهنوا على مبدأ عدم إمكانية تغيير طبائع الإنسان . فهم يعتقدون أنه بالرغم من تغيير الظروف والمقتضيات تبقى طبائع الإنسان في مختلف مراحل عمره كما كانت عليه من قبل ، ولا يطرأ عليها أي تغيير جذري» .

«إن عامل الوراثة له من الأهمية ما يفوق أهمية المحيط ودوره في تكوين طبائع الإنسان ، وهذا العامل خارج عن سلطة وإرادة الإنسان . ومن هنا فإن السعي إلى تغيير الطبائع والسنن والآداب والعادات والتقاليد الإجتماعية تغييراً كاملاً أشبه ما يكون بالصيد في الماء العكر ، لأنها باقية على ما كانت عليه من قبل»^(١) .

(١) الأخلاق والشخصية ، ص ١٠٦ .

هل المحيط أقوى من الغرائز؟ :

ويعتقد البعض أن النشاطات الذاتية والميول الغريزية ليس لها دور مهم في تكوين طبائع الإنسان ، فصفات الفرد الأخلاقية تتشكل في محيطه التربوي ويقول أصحاب هذه العقيدة إن للإنسان استعداداً مطلقاً لا حدود له لتقبل أي شكل من أشكال التربية ، فهو قادر على طرد كل عادة ذميمة من نفسه واستبدالها بعادة حسنة وصفة حميدة .

«لقد راح البعض من المصلحين إلى حيث راح «جان لوك» في استصغار النشاطات الذاتية والتقليل من أهميتها والتأكيد على أهمية الاستعداد لدى الإنسان لاكتساب خير العادات والصفات، بمعنى أن الإنسان قابل للتربية والإصلاح وليس هناك ما يحدّه بحدود» .

«فروح الإنسان في الأزل ليست سوى صفحة بيضاء يمكن أن تستوعب ما تمليه عليها المشيئة الذاتية .

لذا ينبغي أن يقوم منهج التربية والتعليم على أساس بناء مجتمع مثالي والترويج للمبدأ القائل بأن الإنسان قادر على بلوغ الكمال»^(١) .

القواعد الأساسية للتربية :

والحقيقة أن الوراثة والتربية تعتبران قوتين كبيرتين وعاملين مؤثرين في تكوين شخصية الإنسان وصفاته الأخلاقية ، إذ لا يمكن أن نتجاهل قدرة التربية أمام قدرة الغرائز ، ولا يمكن الإعتماد على قدرة التربية وتجاهل قدرة الغرائز ، فلكل من هاتين القوتين أثرها ودورها في تكوين طبائع الإنسان وصفاته .

(١) نفس المصدر ، ص ١٠٥ ،

إن الرغبات الإنسانية والغرائز الطبيعية هي بمثابة القواعد الأساسية التي يقوم عليها صرح التربية ، أو بمعنى آخر التربية عبارة عن أداة لتعديل الرغبات وال ميول الطبيعية وتنظيم طرق استخدام الغرائز .

«إن الطبائع هي عبارة عن مجموعة من الغرائز تركت التربية والتجربة أثرها عليها وأعدت تنظيمها بشكل دقيق»^(١) .

وعندما تتحوّل الآداب والتقاليد التربوية إلى عادة نتيجة التكرار والممارسة وتصبح خلقاً وطبعاً ثابتاً ، يستطيع الإنسان على أساسها استخدام ثرواته الطبيعية ، حيث تصبّ الغرائز في مجاري العادات .

«وحالما تتشكل العادات تبدأ مسيرة وجودها بالاعتماد على النشاطات الذاتية للإنسان ، وسرعان ما تفرض سيطرتها على هذه النشاطات ، فتبدأ بتحريكها وتقويتها وتفكيكها كما يحلو لها ، فتبني من الغرائز الخام وغير المنتظمة عالماً يتطابق ومشيئتها بشكل يدفعنا إلى القول بأن هذا العالم ليس من صنع العقل ولا هو وليد الغريزة وإنما هو من صنع العادة»^(٢) .

تأثير العادات في حياة الإنسان :

إن العادات هي من أكثر العوامل تأثيراً في حياة الإنسان ، فهي التي تدفعه إلى القيام بكل ما اعتاد عليه من أعمال . إن الصفات والأخلاق التي تتجذّر في أعماق الإنسان نتيجة الممارسة والتمرين وتأخذ شكل العادة ، تكون كالصفات الذاتية والرغبات الطبيعية قوية ومؤثرة رغم أنها مكتسبة .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : العادة طبعٌ ثانٍ^(٣) .

(١) مباحج الفلسفة ، ص ٢١١ .

(٢) الأخلاق والشخصية ، ص ١٢٣ .

(٣) غرر الحكم ، ص ٢٦ .

مصدر العادات الحسنة والسيئة :

يعتبر المحيط التربوي مصدراً لعادات الناس مهما تكن سيئة أو حسنة . فإذا ما تم التخطيط للبرامج التربوية بشكل سليم وتم بناء صرح الحياة على أساس الطهر والفضيلة فإن الإنسان يتطبع تدريجياً على الخلق الحسن والعادات الحميدة بما يضمن له سعادته في مسيرته الحياتية . أما إذا كان المحيط التربوي فاسداً فإن العادات التي ستصدر منه ستكون عادات مضرّة بالإنسان ومسببة له التعاسة والشقاء .

وقد جاء الإسلام الذي أقام منهجه التربوي السليم على أساس إحياء الميول والرغبات الإنسانية وتعديل الغرائز والأهواء النفسية ، ليشجع المسلمين على اكتساب خير العادات مثل التقوى وامتلاك النفس وحب العدل والأخلاق من خلال الإعتماد على المناهج العلمية والعملية والمواظبة على أداء الفرائض الدينية والتكاليف العبادية والأخلاقية .

في الحَبَرِ : إلْزَمُوا التَّقْوَى وَاسْتَعِيدُواهَا^(١) .

التصبر على المكروه :

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : عَوَّدَ نَفْسَكَ التَّصَبُّرَ عَلَى الْمَكْرُوهِ^(٢) .

إن الذي يربى في طفولته في ظل أبوين ومربين جهلة وبتزعزع في محيط فاسد ويعتاد على السيئات من الأخلاق والطبائع ، تعترضه في شبابه مشاكل كبيرة تتكد على حياته . فمثله لا يستطيع إحراز شخصية مناسبة تساعد على التكيف مع المجتمع ، ومرّد ذلك سوء التربية .

العادات تحكم الإنسان :

إن العادات الضارة تحكمها على الإنسان كحكم العدو المتملك ، تسيطر

(١) مجمع البحرين ، «عود» .

(٢) نهج البلاغة ، الرسالة ٣١ .

على جوارح الإنسان وتدفعه دون إرادة منه إلى ارتكاب الخطايا والأثام والتخلص من مثل هذه العادات أمر عسير جداً .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : العادةُ عدوٌّ مُتملِّكٌ (١) .

وعن الإمام أبي محمد العسكري عليه السلام قال : رَدُّ الْمُعْتَادِ عَنْ عَادَتِهِ كَالْمُعْجِزِ (٢) .

أسلوب مكافحة العادات الضارة :

بالرغم من أن مكافحة العادات الضارة أمر عسير جداً كما ذكرنا إلا أنها ليست مستحيلة . فالشاب بإمكانه أن يتغلب على العادات الضارة التي تعتبر عدواً له ويحرز شخصية مناسبة يستطيع من خلالها التآلف مع المجتمع ، وذلك من خلال خطوتين مهمتين تعتبران شرطاً أساسياً للنجاح .

الخطوة الأولى - أن يحدد هدفه بدقة من خلال مكافحة العادات الضارة ويعرف كيف يتصرف وماذا يريد وأياً من العادات ينوي مكافحتها وما هو البديل .

«عندما يريد الإنسان أن يُقدِّم على عمل ما عليه أن يعرف ماذا سيعمل وماذا سيترتب على عمله من نتائج . ولكي يكون عمله دقيقاً ومناسباً عليه أن يفكر بنتائجه كما يفكر بها الآخرون - أي من منظار الآخرين وليس من منظاره - وعليه أن يعرف سلفاً ما إذا كان للعمل الذي ينوي القيام به تأثير إيجابي في إبراز شخصيته أم لا» (٣) ؟

(١) غرر الحكم ، ص ٣٣ .

(٢) بحار الأنوار ، ١٧ ، ص ٢١٧ .

(٣) الأخلاق والشخصية ، ص ١١٨ .

تعبئة القوى :

الخطوة الثانية - أن يتقدّم باتجاه الهدف بإرادة وثبات ، وأن يعيىء ويكرّس كل قواه وطاقاته لبلوغ الهدف .

وقد يتبادر إلى ذهن الشاب سؤال وهو كيف يمكن تعزيز الإرادة ؟ ، وكيف يمكن تعبئة القوى لبلوغ الهدف ؟ ، وما هو المحور الأساس لقوة الإرادة في الإنسان ؟ .

يجيب علم النفس بأن الغرائز الطبيعية للإنسان هي القاعدة الأساس لإرادته وقراراته في شتى مجالات الحياة . فالدوافع الغريزية هي أقوى قدرة محرّكة للإنسان . لذا لا بد من الإستفادة من قدرة الغرائز لتعزيز قوة الإرادة وتعبئة كل القوى لمكافحة العادات الضارة وطردها أو تعديلها .

الإستفادة من الغرائز :

«تزيد الغريزة من إمكانية إعادة النظر في العادات وتضاعف من إمكانية النجاح . إن الغرائز يجب أن تكون أساس المسألة الأخلاقية بالنسبة للطفل والبالغ على السواء ، إذ ينبغي الإستفادة منها قدر المستطاع في تكوين عادات جديدة أو تعديل بعض من العادات القديمة . ويمكن توضيح تأثير الغريزة في طبائع الإنسان وشخصيته كمحور لإصلاح العادات وإعادة النظر فيها على الشكل التالي : تتبعد الغريزة عن حدود العادات المميزة والقوية ، هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن للغريزة بحدّ ذاتها قانوناً وحدوداً خاصة بها . والغريزة تعتبر عاملاً مهماً للتخلّص من العادات والتقاليد ، وكلما استخدمها الإنسان بشكل صحيح ومناسب كلما قويت شخصيته واكتملت»^(١) .

(١) الأخلاق والشخصية ، ص ١٠٤ .

سبل تعزيز الإرادة :

لو افترضنا أن هناك رجلاً قضى خمسين عاماً من عمره يأكل ويشرب من طيبات الأرض ما يحلوه ويروق ثم أصيب بداء السكرى ، فزار الطبيب فمنعه عن تناول السكريات ، فامتثل لأوامره .

هكذا إنسان يسعى إلى تناسي كل ما اعتاد عليه خلال خمسين عاماً من عمره ، والإمتثال لإرشادات الطبيب ووصاياه بإرادة قوية وعزم راسخ ، فيضع لنفسه عملياً حدوداً وقيوداً جديدة ، يا ترى من أين جاء بهذه الإرادة القوية ؟ ، أجل ، مصدرها حب الحياة ، لقد كان هذا الإنسان قبل مرضه يستفيد من كل النعم إشباعاً لرغبة اللذة في نفسه ، ولكنه عندما تعرض صحته وسلامته للخطر قدّم غريزة حب الحياة على الأخريات ، وهذه الغريزة بدورها تمنعه عن كل ما من شأنه أن يلحق به الضرر ، فتقتدي سائر الغرائز والرغبات الأخرى بغريزة حب الحياة التي تؤدي دور القائد ، فتستجيب مجتمعة لوصايا الطبيب . ولكي يستطيع الإنسان أن يعزز من قوة إرادته في سبيل معالجة الأمراض الأخلاقية ومكافحة العادات الضارة عليه أن يستفيد من قوة الغريزة لتوحد جميع القوى وتتقدم باتجاه الهدف .

إن الإنسان الذي ربى في طفولته على الدلال والغرور نتيجة سوء تربية والديه ومرّيه له وتطبع على هاتين الصفتين الذميتين ، يصبح في شبابه موضع اشمئزاز الناس وكرهيتهم ، فلا يستطيع أن يتألف معهم ولا يستطيع أن يتحّب إليهم ، وهذا ما يجعله يشعر على الدوام بالحظة والحقارة والحرمان . مثل هذا الشاب ليس أمامه سبيل للتخلص من عذاباتة سوى معالجة خلقه الدميم ، ولكي يستطيع أن يعزز إرادته لمكافحة سوء الخلق عليه أن يستفيد من غريزة حب الذات ويحث سائر قواه على التعاون تحت لواء هذه الغريزة .

غريزة حب الذات :

إن غريزة سب الذات موجودة بالفطرة في أعماق كل إنسان . والإنسان

المغرور الذي يتعرّض لاستحقار الناس على الدوام وتُجرح مشاعره وعزّة نفسه ، إذا ما عرف سبب هذا الاستحقار وأدرك عيوبه الأخلاقية ، لاستطاع أن يعزّز إرادته من خلال غريزة حبّ الذات ، ليواجه بها عاداته الدميمة ويتغلّب عليها استرجاعاً لعزّة نفسه ومكانته بين الناس .

«يقول «ويل ديورانت» : إذا أردنا أن نكون أقوياء علينا أن نعرف أولاً ما هي الإرادة . إن الإرادة ليست بالعنصر الغامض الذي يأخذ مكانه بين طبائع الإنسان وسلوكه كما يأخذ قائد الأوركسترا مكانه في مواجهة الفرقة ليدير العازفين بحركات يديه ، بل هي مجموعة وجوه كل الدوافع والرغبات الإنسانية . وهذه القوة المحرّكة ليس لها قائد تطيعه إلا نفسها» .

«وبين كل الدوافع والرغبات يجب أن يكون هناك دافع أكثر قوة من سائر الدوافع كي يستطيع أن يجمعها تحت سلطته . ومعنى قوة الإرادة أن تبرز رغبة وترتفع فوق كل الرغبات فتكون من القوة بمكان بحيث تستطيع أن تسير بكل الرغبات باتجاه واحد ونحو هدف واحد . إن الإنسان إذا لم يكن لديه هدف بناءً واحد أو جهة حاكمة واحدة يستطيع أن يضحّي بسائر الرغبات والميول الأخرى في سبيلها ، فلن يصل إلى مقصده ولن يكون سوى حجر في بناء إنسان آخر»^(١) .

الغريزة والإيمان :

لقد أولى الإسلام قبل أن يكون هناك مدارس لعلم النفس ، قوة الغرائز أهمية كبيرة ، وأكد ضرورة استخدام هذه القوة لتعزيز الإرادة ، كما أكد ضرورة

(١) مباهج الفلسفة ، ص ٢٢٢ .

الاعتماد على الميول الطبيعية في سبيل إصلاح أخلاق المجتمعات ومكافحة عاداتها الضارة والدميمة ، ولكن ثمة فرق بين المدرسة النفسانية والمدرسة الإسلامية ، فالأولى تعتبر أن الدوافع الغريزية هي القاعدة الأساس التي يمكن من خلالها الانطلاق لتعزيز الإرادة ، أما الثانية وهي المدرسة الإسلامية فتؤكد ضرورة استخدام القوة الغريزية إنطلاقاً من قاعدة الإيمان المتينة ، وتوصي بضرورة الاستفادة من هاتين القوتين مجتمعتين لمكافحة العادات المنبوذة والصفات الرذيلة ، وهذا بحد ذاته يعتبر أحد عوامل تفوق التعاليم الإلهية على سائر المدارس العلمية والنفسانية .

ومما لا شك فيه أن لقوة الغرائز والرغبات الطبيعية دورها المؤثر في تعزيز قوة الإرادة ، ولكن قوة الإيمان من القدرة بمكان إذ تستطيع عند الضرورة كبح أعتى الغرائز ومنعها من التمرد والفلتان .

علاج الغرور :

إن الدين الإسلامي يدعو أتباعه إلى إصلاح ملكات النفس ونبذ العادات الضارة بعزم راسخ وسعي دؤوب في ظل الإيمان بالله والاستفادة من الغرائز الطبيعية ، وذلك ليضمن لهم سعادتهم .

وهنا لا بد من ذكر بعض الأحاديث التي توضح سبيل الاستفادة من قوة الغرائز وقوة الإيمان في المنهاج التربوي للإسلام .

قال أبو الحسن الثالث الإمام الهادي عليه السلام : مَنْ رَضِيَ عَنْ نَفْسِهِ كَثُرَ السَّاحِطُونَ عَلَيْهِ^(١) .

وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام : مَنْ رَضِيَ عَنْ نَفْسِهِ أَسْخَطَ رَبَّهُ^(٢) .

يعتبر الغرور من العادات الدميمة التي تحطم شخصية المغتر وتجعله

(١) بحار الأنوار ١٧ ، ص ٢١٥ .

(٢) غرر الحكم ، ص ٦٤٢ .

عرضة لاشتمزاز الناس واستيائهم . ويعتمد علماء النفس في علاج هذا المرض على قدرة غريزة حبّ الذات فقط ، ويوصون الإنسان المغرور بالإقلاع عن هذه الصفة إذا ما أراد أن يكون محبوباً بين الناس .

أما المدرسة الإسلامية فتؤكد على ضرورة الاستفادة من القدرتين معاً ، فهي من جهة توظف غريزة حبّ الذات في الإنسان من خلال تحذيره من اشتمزاز الناس واستيائهم ، وتوضح من جهة أخرى أن هذه الصفة الذميمة لا تبعث فقط على اشتمزاز الناس وجرح مشاعر الإنسان وعزّة نفسه ، بل وتبعث أيضاً على سخط الله وشقاء الإنسان .

مكافحة الحسد :

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : العَجَبُ لِغَفْلَةِ الحُسَادِ عَن سَلَامَةِ الأَجْسَادِ (١) .

وعن أبي جعفر الإمام الباقر عليه السلام : إِنَّ الحَسَدَ لَيَأْكُلُ الإِيمَانَ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الحَطَبَ (٢) .

الحسد أيضاً من الصفات المذمومة التي تترك تفكير الإنسان وتسلبه قراره . ويعتمد علماء النفس على غريزة حبّ الذات لعلاج هذا المرض الخلقي ، ويحذرون الحاسد من أنه سيخسر سلامته وحياته إن لم يهجر هذه الصفة الدنيئة .

أما الإسلام فيعتمد لعلاج هذا المرض على الرغبة في السلامة وغريزة حبّ الذات معاً ، لكنه إلى جانب ذلك يحذر الإنسان من خطر كبير يتهدّد إيمانه إن لم يطرد هذا المرض من أعماقه ، والحقيقة أن الإسلام يعتمد على القدرة الغريزية والقوة الإيمانية معاً في مكافحة الحسد .

(١) نهج البلاغة ، الكلمة ٢١٦ .

(٢) الكافي ٢ ، ص ٣٠٦ .

علاج التكبر :

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : **دَبْنُ تَكْبَرٍ عَلَى النَّاسِ ذَلٌّ** (١) .

وقال النبي الأكرم صلى الله عليه وسلم : **لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَى رَجُلٍ يَجْرُ إِزَارَهُ بَطْرًا** (٢) .

يعتبر التكبر أيضاً من الصفات الذميمة التي من كانت به ذل . ويرى علماء النفس أن علاج هذا المرض يكمن في الإستفادة من غريزة عزة النفس . إلا أن الإسلام قد جمع بين قدرة الغريزة وقوة الإيمان في علاج هذا المرض ، وأكد أن التكبر يعود على الإنسان بالذل في الدنيا والآخرة .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : **مَنْ لَمْ يُنْزِعْ نَفْسَهُ عَنْ ذَنَائَةِ الْمَطَامِعِ فَقَدْ أَذَلَّ نَفْسَهُ وَهُوَ فِي الْأَجْرَةِ أَذَلُّ وَأُخْزَى** (٣) .

ويتضح من خلال هذه الأحاديث والروايات وغيرها الكثير الكثير مدى اعتماد الإسلام على القوة الغريزية والقدرة الإيمانية معاً ضمن برنامجه التربوي ، وتأكيد على الإستفادة من هاتين القوتين في مكافحة مساوئ الأخلاق والعادات الذميمة الضارة .

صعوبة المكافحة :

ولا يخفى أن نبذ العادات الذميمة ومكافحتها من وجهة نظر الدين والعلم أمر ليس باليسير . فالذي يستطيع التغلب على عاداته وطبائعه الذميمة وتغيير شخصيته المريضة ، هو ذلك الإنسان الذي لا يخشى المشاكل والعقبات ولا يصاب باليأس إن هو فشل مرة أو عدة مرات .

ومع الأخذ بنظر الإعتبار أن العادة هي طبع ثانٍ للإنسان ، فإن مكافحتها يحتاج إلى شيء من الثبات والاستدامة . والشباب الذي يجد كثيراً لإصلاح

(١) تحف العباد ، ص ٨٨ .

(٢) - مجموعة وران ، ١ ، ص ١٩٩ .

(٣) غور الحكيم ، ص ٦٩٠ .

ملكاته الأخلاقية ، ويشار من أجل تحقيق هدفه ، لا شك أن النجاح سيكون حليفه

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : مَنْ اسْتَدَامَ قَرَعَ الْبَابَ وَلَجَّ وَأَجَّ (١)

السعادة في المجاهدة :

وعنه عليه السلام : مَنْ أَجْهَدَ نَفْسَهُ فِي صَلَاحِهَا سَعَدَ (٢) .

«إذا كنا نبحث عن القدرة علينا أولاً أن نختار هدفاً لنا ثم نرسم طريقنا إليه ، وعلينا أن لا نحيد عن ذلك الهدف مهما حصل . وينبغي علينا أن نمضي حتى النهاية في الطريق الذي سنرسمه لأنفسنا ، فكل فشل من شأنه أن يحبط من عزيمتنا ، وقد يزيد كل نجاح من قدرتنا . إن تنفيذ أي عمل يستوجب عملاً جديداً ، والنجاحات الصغيرة تمنحنا قدرة ونشاطاً وتزيدنا ثقة بتحقيق نجاحات كبيرة ، وبالعامل تخلق الإرادة» .

«أما الذي يأخذ جانب الحيلة والتردد في أي عمل ينوي القيام به ، فإنه سيقبى يراوح في مكانه . كن ممن لا يفرحون عند تحقيق أي نجاح محدود ، ويمكنك إذا ما حققت نجاحاً كبيراً أن تحتفل اليوم بنسود غداً إلى العمل ثانية لتبحث عن عمل أكثر خطورة وتحمل مسؤولية أكبر» .

«وقد نشغل أو حتى تهلك ، ولكن إعلم أن اليوم الذي تموت فيه هو أحقر من أن يجعلك تضحي بسلوكك ومعتقداتك ، أما إذا لم تكن فإن هذه المخاطر ستشدد من عزمك وستدنيك من هدفك وستأخذ بيدك نحو التسامي والرقى» (٣) .

(١) (٢) عزير الحكم ، ص ٧١٨ و ٦٤٤ .

(٣) مباهج الفلسفة ، ص ٣٢٢ .

الإسلام ثورة من أجل التغيير :

إن من أهم العوامل التي تساعد في تغيير الشخصية والتي يمكنها أن تكون درساً وعبرة للشباب ، تزيد في أعماقهم من نور الأمل وقوة الإرادة ، هي دراسة ومطالعة الحركة والثورة العظيمة التي أحدثها الإسلام في العصر الجاهلي المتخلف .

فقد قام المنهج التربوي الذي جاء به الرسول الأكرم ﷺ لإنقاذ قبائل ذلك العصر البائسة من العادات الضارة والأخلاق الرذيلة ، ودفعها بعزم راسخ وقوة إرادة نحو إصلاح ذاتها ، قام على مبدأ قوة الإيمان والدوافع الغريزية ، هذا المبدأ الذي يضمن سعادة الإنسان المادية والمعنوية .

فعندما بعث الله سبحانه وتعالى نبيه محمداً ﷺ وأمره بدعوة قومه إلى الاسلام ، اجتمع ﷺ بقومه وألقى فيهم خطبة شرح فيها ما جاء به من عند الله تبارك وتعالى ثم قال :

وَاللَّهِ يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ مَا أَعْلَمُ شَابًا جَاءَ قَوْمَهُ بِأَفْضَلٍ مِمَّا جِئْتُكُمْ بِهِ ،
إِنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِأَمْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ (١) .

ولما أخذ الإسلام ينتشر بين الناس راحت قريش إلى أبي طالب وقالت له : إذا كان الفقر والعوز هما اللذان دفعا بابن أخيك إلى ما فام به فبينا مستعدون لأن نجمع له من المال الكثير ونمكنه ليصبح من أثري أثرياء قريش .

فقال رسول الله ﷺ : ما لي حاجة في المال فأجيبوني تكربنوا ملوكاً في الدنيا وملوكاً في الآخرة (٢) .

أثر الدعوة :

لقد كان للدعوة التي أطلقها الرسول الأكرم ﷺ بين الجاهليين أثرها

(١) السيرة الحلبية ، ص ٢٢٢ .

(٢) بحار الأنوار ، ٦ ، ص ٣٤٤ .

البالغ والسريع في إنقاذ الناس من الشرك والضلالة وهديتهم إلى سواء السبيل ، وقد أثارت هذه الدعوة حيرة المجتمعات آنذاك وجاءت بعد مضي قرون عديدة لتثير دهشة العلماء والمفكرين وإعجابهم .

روابط الأخوة :

«يقول الدكتور «واغلري» أستاذ جامعة نابولي ، لقد كانت انطلاقة الإسلام بين الأقاليم والمجتمعات التي كانت تعيش في الصحاري الجرداء المترامية الأطراف أشبه ما تكون بنبع ينضج ماءً زلالاً سرعان ما تحوّل إلى جداول ثم إلى أنهار فاضت ليتشعب منها الآلاف من القنوات الجارية التي شقّت طريقها إلى مختلف المناطق» .

«وما أن ذاق أقوام هذه المناطق طعم المياه المعجزة حتى نبذوا الخلافات والنزاعات وباتت تربط بينهم روابط الوحدة والأخوة والمساواة ، فزال مبدأ الثأر والانتقام الذي كان سائداً آنذاك لتحلّ محلّه مبادئ جديدة تقوم على أساس الأخوة والاتحاد والمساواة» .

«ولم يكن هذا النبع قد تحوّل بعد إلى نهر يضعب مقاومة تياره حتى أتت أمواجه العاتية على كل المجتمعات التي كانت تعتبر آنذاك متحضّرة ، وقبل أن تستفيق المجتمعات وتدرك مغزى ما يجري داهمها التيار محطّماً كل الحواجز والسدود ، موقظاً خربره من كانوا يغفّون في غفلتهم ، موحداً بين الشعوب والقبائل» .

«ولم يكن التاريخ قد شهد مثل هذه الحادثة من قبل ، وكان من الصعب على المرء أن يتصوّر ويستوعب مدى السرعة التي حقق الإسلام خلالها فتوحاته»^(١) .

(١) الدفاع عن الإسلام ، ص ٢٣ .

إرساء قواعد حضارة جديدة :

«يقول «نهرو» : إنه لأمر يدعو إلى الدهشة والاستغراب أن يصحو العرب الذين كانوا طوال قرون من الزمن خامدين لا يعرفون ما يجري حولهم ، ويتمكنوا فجأة من تغيير معالم العالم بقدرة مذهلة» .

«وبعدّ ماضي العرب وكيف أنهم استطاعوا أن ينتشروا بسرعة في آسيا وأوروبا وإفريقيا ويؤسسوا حضارة راقية وكبيرة ، من عجائب التاريخ . ولا يخفى أن القدرة التي استطاعت أن توظف العرب من غفلتهم وتمنحهم الثقة بالنفس والاعتدال ، هي الاسلام»^(١) .

ضعف أهل مكة :

ولد الرسول الأكرم ﷺ في عام سُمِّي بعام الفيل لأن ملك الحبشة جهز في ذلك العام جيشاً لهدم الكعبة الشريفة بقيادة ابرهه وزوّده بعدد من الأفيال المدربة ، وحينما بلغ أهل مكة خبر وصول جيش ابرهه إلى مشارف المدينة ، أصابهم الهلع والخوف ، فقرروا مغادرة مكة بنسائهم وأولادهم وأموالهم وأنعامهم ، لكن عبد المطلب الذي تألم من هذا القرار ووصفه بالعار والفضيحة سعى إلى طرد هذه الفكرة من أذهان الناس ولكن دون جدوى فنفذ أهل مكة قرارهم وتركوا ديارهم لاجئين إلى الجبال والوديان المحيطة أو إلى أبعد من ذلك أو مهاجرين عن طريق البحر ، وقد أثبت أهل مكة بعملهم هذا شدة خوفهم وضعفهم وعجزهم عن مواجهة جيش الحبشة .

وبعد أربعين عاماً من تلك الواقعة بعث محمد ﷺ بالنبوة ، فبدأ بتطبيق رسالته في إصلاح الناس ، وبالفعل نجح الرسول الأكرم ﷺ في فترة وجيزة في إحداث تحوّل كبير ومهم في أخلاق الناس ومعنوياتهم .

(١) نظرة إلى تاريخ العالم ١ ، ص ٣١٧ .

الإسلام والقدرة :

لقد أصبح أولئك القوم الذين لم يستطيعوا مقاومة جيش ابرهه فدفعهم الخوف إلى ترك ديارهم هارين ، أصبحوا في حياة الرسول ﷺ وبعد وفاته من الشجاعة والقدرة ما جعلهم يواجهون أعتى الجيوش آنذاك فيدحروها محققين فتوحات باهرة .

تفوق المسلمين :

«لقد كان العرب يحققون الانتصار تلو الانتصار ، وكانوا يحققون هذه الانتصارات في الغالب دون حرب أو مقاومة من الطرف الآخر . واستطاعوا بعد وفاة الرسول الأكرم ﷺ فتح إيران وسوريا وأرمينيا بالكامل وجزء من آسيا الوسطى من جهة ، ومصر وجزء من شمال افريقيا من جهة ثانية . ففي الشرق سقطت مدن هرات وكابل وبلخ أمامهم فزحفوا نحو ولاية السند وسواحل نهر السند في الهند» .

«اجتاز العرب من المغرب وافريقيا مضيقاً بحرياً ووصلوا إلى إسبانيا وأوروبا . وهذا المضيق كان اليونانيون يطلقون عليه حتى ذلك اليوم اسم «أعمدة هرقل» . ولما كان القائد العربي الذي اجتاز هذا المضيق يدعى «طارق» سُمي من يومها بـ«جبل طارق» أو «صخرة طارق» ، وعُرف هذا المضيق لدى الأوروبيين بـ«جيب التار» .

لقد سقطت إسبانيا بسرعة ، فزحف المسلمون نحو جنوب فرنسا ، وباتت إمبراطورية الإسلام بعد حوالي مائة عام من وفاة الرسول الأكرم ﷺ تمتد من جنوب فرنسا وإسبانيا وكامل الشمال الأفريقي مروراً بالسويس والحجاز وإيران وآسيا الوسطى حتى حدود منغوليا»^(١) .

(١) نفس المصدر ، ص ٣٢٣ .

عوامل النصر :

إن من أهم العوامل المعنوية التي ساعدت الرسول الأكرم ﷺ في تحقيق هذا الانتصار العظيم ، الإيمان بالله والصبر والثبات أمام المشاكل والصعاب . لقد كان ﷺ مؤمناً بخالق الكون وبتعاليمه المقدسة ، ونجح في صنع رجال مؤمنين يتحلون بأرقى الصفات الانسانية والأخلاقية .

قال تعالى : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ ﴾ (١) .

ثبات النبي (ص) :

لقد استطاع النبي ﷺ وبالإنكسار على الله سبحانه وتعالى الوقوف بعزم ثابت وإرادة راسخة بوجه تهديدات المشركين وضغوطاتهم ، ونجح في صنع رجال لا يخشون الأعداء ولا يهابون المخاطر ولن ينشوا أمام الضغوطات .

ثبات المسلمين :

من الأشخاص الذين آمنوا بما جاء به الرسول الأكرم ﷺ في بداية البعثة وفي ظل أكثر الظروف قساوة ، عياش بن أبي ربيعة وزوجته أسماء بنت سلامة ، فقد عانا الكثير من المشاكل والصعوبات والضغوطات في طريق إعلاء كلمة الحق .

كان لعياش شقيقان من أمه هما أبو جهل والحارث ، وكان عندما اعتنق الإسلام في الثلاثين من عمره وزوجته في العشرين من العمر ، وما أن أعلن عياش إسلامه حتى ثارت نائرة قومه ، فحاولوا تعذيبه وإلحاق الأذى به لمنعه من اتباع رسول الله ﷺ ، إلا أن ذلك لم يؤثر به وبقي ثابتاً على إسلامه .

وهاجر عياش وزوجته بمعية مجموعة من المسلمين إلى الحبشة بأمر من

(١) سورة البقرة ؛ الآية : ٢٨٥ .

الرسول الأكرم ﷺ ، لكنهما عادا إلى مكة ثانية قبل الآخرين ، فتمرّضا مجدّداً لأذى المشركين وتعذيبهم حتى حان موعد هجرة الرسول ﷺ والمسلمين إلى المدينة ، فهاجرا وتخلّصا من شر الأعداء .

وعندما علمت أسماء أم عياش بهجرة ولدها أقسمت اليمين بأنها لن تدهن شعرها ولن تجلس في فيء حتى يعود عياش . فشذّ أبو جهل والحارث الرحال إلى المدينة وأخبرا عياش بما أقسمت عليه أمهم وقالوا له : إنك أكثرنا معرّة عند أمنا ، وإنك على دين يوصي ببرّ الوالدين ، فعدّ إلى مكة واعبّد ربك فيها كما تعبده هنا في المدينة .

فلما سمع عياش بذلك تألم لحال أمه وصدق أخويه ، فطلب منهما عهداً بعدم الخيانة إن هو عاد إلى مكة ، فغادر معهما المدينة ، وما أن ابتعدوا عن المدينة حتى شرعا يعذبانه ويؤذيانه ، فربطاه ودخلا به المدينة نهاراً وهو على هذه الحال ، وقالوا : «يا أهل مكة هكذا فافعلوا بسفهائكم كما فعلنا بسفيهننا» ، ثم رميا به في حجرة لا سقف لها .

الثبات في ظل الإيمان :

وبقي عياش سجيناً في مكة لسنوات عديدة لاقى خلالها شتى صنوف التعذيب ، لكنه لم تظهر عليه علامات الضعف المعنوي والإنهيار الروحي ، فقد كان على اتصال بخالقه ومتسلحاً بقوة الإيمان في وجه المصائب والمصاعب .

وكان الرسول الأكرم ﷺ في المدينة يدعو له بالخلاص ، وكان الناس متأثرين لما حلّ بعياش ، وبعد مدّة تمكّن أحد المسلمين وفق خطة بارعة من التسلّل إلى مكة وإنقاذ عياش من السجن والعودة به إلى المدينة^(١) .

ومن المسلمين الأوائل أيضاً سعيد بن زيد وزوجته فاطمة . حيث اعتنق

(١) شباب قريش ، ص ١٢٨ .

سيد الإسلام وهو في العشرين من العمر وزوجته تصفريه بسنوات ، كان سعيد وزوجته يحضران عند الرسول الأكرم ﷺ في ظروف مشحونة بالمخاطر لاكتساب تعاليم الإسلام وتعلم قراءة القرآن .

وكان لفاطمة شقيق حاد الأخلاق قوي الجسم شديد المعارضة للإسلام . وذات يوم من أيام الصيف الحار التقى به رجل من قريش في أزقة مكة وقال له : أنت تزعم أنك هكذا وقد دخل عليك هذا الأمر في بيتك وسبأت اختك ، فرجع غاضباً . وقد كان رسول الله ﷺ يجمع الرجل والرجلين إذا أسلما عند الرجل به قوة فيكونان معه ويصيان من طعامه . وقد كان ضم إلى زوج اخته رجلين ، فجاء وقرع الباب والقوم يقرأون القرآن في صحيفة معهم ، فلما سمعوا الصوت تبادروا واختفوا ، وقامت المرأة وفتحت الباب ، فقال لها : يا عدوة نفسها قد بلغني أنك أسلمت ، وصفعها بقوة فسال الدم ، فلما رأت الدم كشفت عن السر وقالت بكل صراحة وثبات : ما كنت فاعلاً فافعل فقد أسلمت^(١) .

دور المربي :

لقد كانت النساء والبنات مضطهدات في العصر الجاهلي ومحرومات من كافة حقوقهن الإنسانية والمدنية ، وكن يعاملن أسوأ من العبيد والحيوانات إلى أن جاء الإسلام حاملاً منهجه التربوي الذي يضمن للمرأة شخصيتها ويمنحها قوة في الإرادة واستقلالاً في الفكر استطاعت من خلالها فتاة شابة الوقوف بوجه أخيها دفاعاً عن إيمانها ومنتقداً بكل شجاعة .

يقع الإنسان بشكل عام والطفل والشباب بشكل خاص تحت تأثير من يتولّى تربيتهم ، فيتأثرون بأفكارهم وسلوكهم حسنة كانت أم سيئة . فسلوك المربي وتصرفاته وأحاديثه وأفكاره تعتبر كلها من العوامل المهمة في تكوين شخصية الإنسان .

(١) اسد الغابة ٤ ، ص ٥٤ .

«يقول نبيرو : لقد بعث محمد ﷺ من المدينة برسائل إلى ملوك ورؤساء العالم يدعوهم فيها إلى الإيمان بالله الواحد ورسوله ، ومن المؤكد أن يكون من بعث إليهم محمد ﷺ قد تساءلوا وهم في حيرة من أسرمم : من يكون ذلك الرجل المجهول حتى يتجرأ ويخاطبهم بصيغة الأمر ؟» .

«يمكننا أن نلاحظ من خلال هذه الرسائل مدى ثقة محمد ﷺ بنفسه وإيمانه بما يكتبه ، وقد استطاع أن يزرع مثل هذه الثقة في نفوس أتباعه وأهل بلاده الذين تمكنوا من السيطرة على نصف العالم المكتشف آنذاك دون صعوبة أو عناء يذكر»^(١) .

الرسول (ص) وثمرة جهاده :

لقد استطاع الرسول الأكرم ﷺ خلال ثلاثة وعشرين عاماً من الجهاد والسعي المتواصل تنفيذ برامجه الإصلاحية الواحد تلو الآخر ، وجابه بفضل الاعتماد على قوة الإيمان بالله والاستفادة الصحيحة من القوى الغريزية ، كل العادات الضارة والأخلاق الذميمة التي كانت سائدة أيام الجاهلية ومنتقلة إليها من جيل إلى جيل ، فساهم في تغيير الصفات الشخصية للإنسان واستعاد له عزته وكرامته .

كذلك حطّم الرسول ﷺ كل الأصنام التي صنعتها أيدي الجهل والضلالة ، وهدّم معابد الوثنية ، وحرّر الجاهلين من أسر عبادة الأصنام والأخشاب والحجارة ، ليهديهم إلى عبادة الله الواحد الأحد كما عمل الرسول ﷺ على اقتلاع جذور الفوارق الطبقية والقبلية والعنصرية التي كانت مظهراً من مظاهر الظلم والجور وعاملاً من عوامل الفساد الأخلاقي والاجتماعي ، فساوى بين الناس في الحقوق والعدل والحرية ، كما طهر ﷺ

(١) نظرة إلى تاريخ العالم ، ص ٣٢٠ .

عقولهم من العداوة والحقد والبغضاء التي كانت تسبب الكثير من المجازر الوحشية والجرائم الهمجية آنذاك ، وبث مكانها روح الأخوة والمحبة والمساواة التي تبعث على سلامة الإنسان وسعادته .

ونستشف من البحث السابق أن شخصية الإنسان من وجهة النظر الدينية والعلمية قابلة للتغير والتحول . ومن هنا ينبغي على الشاب الذي يجمع صفة ذميمة أو أكثر تمنعه من تحقيق التآلف مع الناس وإحراز شخصية مناسبة أن لا يستسلم لليأس .

ترك العادات المذمومة :

إذا كان الإنسان مؤمناً حقيقياً فيإمكانه أن يترك الصفات السيئة والعادات الذميمة بالانكال على قوة إيمانه بالله سبحانه وتعالى وقدره غرائزه ، وأن يتحلّى بالسجايا والصفات الإنسانية والأخلاقية من خلال إطاعة الأوامر الإلهية .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : **ذَلُّوا أَنْفُسَكُمْ بِتَرْكِ الْعَادَاتِ وَقُدُوهَا إِلَى فِعْلِ الطَّاعَاتِ وَحَمَلُوا بِهَا أَعْيَاءَ الْمَغَارِمِ وَحَلُّوهَا بِفِعْلِ الْمَكَارِمِ وَصُونُوهَا عَنْ دَنْسِ الْمَآثِمِ** (١) .

ضرورة مكارم الأخلاق :

أما إذا افتقد الشاب لعنصر الإيمان وعجز عن التآلف مع مجتمعه وإحراز الشخصية المناسبة نتيجة عاداته الذميمة وأخلاقه السيئة ، ما عليه إلا المبادرة لإصلاح نفسه والتحلّي بخير الصفات معتمداً في ذلك على قوة الغرائز ، لأن بلوغ السعادة وإحراز المكانة الاجتماعية وهما من الرغبات الفطرية في الإنسان ، لا يمكن تحقيقهما إلا من خلال التحلّي بالصفات الحميدة ومكارم الأخلاق .

(١) غرر الحكم ، ص ٤٠٧ .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : لَوْ كُنَّا لَا نَرْجُو جَنَّةَ وَلَا نَارًا وَلَا ثَوَابًا وَلَا
عِقَابًا لَكَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَطَالِبَ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ فَإِنَّهَا بِمَا تَدُلُّ عَلَيَّ سَبِيلَ
النُّجَاحِ (١) .

(١) آداب النفس ١ ، ص ٢٦ .

المحاضرة الحادية والعشرون

حول الشاب والخوف وتحطم الشخصية

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى في محكم كتابه : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾^(١) .

الشرط الأساس لإثبات الشخصية :

إن اكتساب الصفات الحميدة والأخلاق الفاضلة يعتبر من الشروط الأساسية لتوكيد الذات وإثبات الشخصية الاجتماعية . فالشاب الذي يتحلّى بصفات أخلاقية وإنسانية حميدة يكون عزيزاً ومحبوباً في مجتمعه مهما كان صغيراً . فهو قادر على التكيف مع الناس والتآلف مع المجتمع ، على عكس الشاب الذي تجتمع فيه أسوأ الصفات والأخلاق ، فهو مهما كبر يبقى منبوذاً من قبل الناس ، ولا يستطيع تكيف نفسه مع مجتمعه ويظل عاجزاً عن إحراز شخصية مناسبة لنفسه .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : **سُوءُ الْخُلُقِ يُوجِشُ الْقَرِيبَ وَيُنْفِرُ الْبَعِيدَ**^(٢) .

(١) سورة الرعد ؛ الآية : ١١ .

(٢) غرر الحكم ، ص ٤٣٥ .

أثر الأخلاق :

وعنه عليه السلام : رَبُّ عَزِيزٍ أَدَلَّهُ خُلُقُهُ وَذَلِيلٍ أَعَزَّهُ خُلُقُهُ ^(١) .

فمسألة الأخلاق من المسائل التي تحظى بأهمية كبيرة في حياة الإنسان ، حتى ان الله سبحانه وتعالى ربط في كتابه العزيز بين تغيير أوضاع الإنسان الفردية والاجتماعية وبين تغيير خُلُقهِ وملكاته النفسية ، حيث قال عزَّ من قائل : إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ .

الإسلام وتزكية النفوس :

إن من المهام الإلهية التي حملها الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم خلال دعوته للإسلام تزكية النفوس ومكافحة مساوئ الأخلاق . هذه المهمة العظيمة والاصلاحات التي قام بها نبي الرحمة صلى الله عليه وآله وسلم أسفرت عن حدوث تغييرات كبيرة في صدر الاسلام ، حيث استطاع أولئك الذين كانوا يقعون تحت نير الجهل والتخلف إستعادة عزَّتِهِم وكرامتهم وبسط سيادتهم على جزء كبير من العالم آنذاك .

وفي عالمنا اليوم يعتقد العلماء والفلاسفة والمفكرون أن مسألة الأخلاق مسألة ذات أهمية كبيرة لعامة الناس لا سيما جيل الشباب . ومن هنا يتوجب على الشباب أن يبادروا إلى تزكية نفوسهم وتعزيز مبادئهم الأخلاقية إلى جانب اهتماماتهم العلمية والتربوية ، وعليهم أيضاً أن يسعوا إلى التحلّي بالملكات الحسنة والصفات الحميدة من خلال تطهير نفوسهم من مساوئ الأخلاق وذلك ليزودوا بما يساعدهم في تحقيق التآلف الاجتماعي وبالتالي في إحراز الشخصية المناسبة والمكانة الاجتماعية التي تليق بهم .

(١) سفينة البحار ، «خلق» ، ٤١١ .

أهمية تربية الأخلاق :

«يقول «موريس دبس» : كيف يمكن إحراز الحد الأقصى من الاستفادة من مرحلة إثبات الشخصية لتعليم وتربية المراهقين من كلا الجنسين وفق القوانين التربوية الجديدة ؟ ، والجواب هو يجب دراسة قضية تكوين الأخلاق التي اتضحت أهميتها بشكل كبير اليوم في جميع بلدان العالم . فسياسة التربية والتعليم مهما كانت مكتملة لا يمكنها أن تنحصر في تنمية القوى الفكرية لدى الإنسان ، بل يجب أن تمهّد الأرضية لحركة الأخلاق أيضاً من خلال إحياء بعض الملكات في أعماق الإنسان كالاتتماد على النفس والثقة بالحياة وحب العمل والمسؤولية والشعور باللذة عند تذليل العقبات والمثابرة والجد وغيرها . وبإيجاز نقول يجب الإعتماد على رغبة الإنسان في إثبات شخصيته ومسألة تفعيل الإرادة لديه حتى يتحقق ما يلي :

١ - نجاح الشاب المراهق فعلاً في إثبات كفائته ليكون في مأمن من التصورات والأوهام .

٢ - يحظى نشاطه الفردي بالتفاته جماعية تشده نحو الجماعة لتنقذه من خطر الأنانية الفردية»^(١) .

ومما لا شك فيه أن للصفات الذميمة والأخلاق الرذيلة دوراً مؤثراً في مسخ الشخصية الإجتماعية للشباب ، فقد يؤدي خلق ذميم واحد كالغرور أو التكبر أو الجبن أو عدم الثقة بالنفس إلى تشويه صورة الشاب في المجتمع ، ويمنعه من إحراز شخصيته وتآلفه الاجتماعي .

ولمزيد من التوضيح سنتطرق في بحثنا إلى دراسة حالة الخوف الانفعالية

(١) ماذا أعرف ؟ ، البلوغ ، ٩٢ .

ومعرفة جذورها ، وستحدث بشيء من التفصيل عن هذه الحالة .

هل الخوف غريزي عند الطفل ؟ :

من القضايا الملفتة للنظر في علم نفس الطفل هو البحث في الجذور الأساسية لحالة الخوف والهلع التي تسيطر على الطفل في سني حياته الأولى ، وفيما إذا كانت هذه الحالة ناجمة عن غريزة طبيعية أم أنها نتيجة إichاءات الوالدين والمربين والمحيطين بالطفل .

فالبعض يعتقد أن للعامل الرئيسي للخوف جذوراً طبيعية تمتد إلى أعماق الإنسان ولها أثرها الإيجابي في صيانة ذات الإنسان وابتعاده عن المحيط الخطر . وهناك البعض ممن يعتقد أن الخوف ليس فطرياً في ذات الإنسان ، بل هو أشبه ما يكون بالأمراض السارية التي تنتقل إلى الإنسان من خلال تصرفات وحركات مرعبة يقوم بها آخرون ، مما يؤدي إلى إصابة الطفل بالخوف والهلع والتشويش الذهني .

الخوف الغريزي والإيحائي :

«يقول «راسل» : يصاب الطفل الرضيع بالخوف بسهولة . أما الدكتور «واتسن» وزوجته فقد توصلا إلى أن أكثر ما يمكن أن يثير الخوف والهلع في نفس الطفل الأصوات العالية والاحساس بأن أحداً ما يريد أن يلقي به من علو شاهق . ومع ذلك فإن الرضيع يحظى برعاية وحماية تامة لا تدع له مجالاً للتوهم بالخوف» . .

حاجة الطفل للخوف :

«وخلال العامين الثاني والثالث من عمر الطفل تنشأ مخاوف جديدة ، ولكن يجب معرفة إلى أي مدى ترجع هذه المخاوف إلى الإيحاء وإلى أي مدى تصل علاقتها بالغريزة . وانعدام الخوف لدى الطفل في العام الأول من عمره لا يعني عدم وجود صفات

غريزية لدى الطفل ، لأن الغرائز تنضج تدريجياً مع تقدم عمر الطفل ، حتى ان المتطرفين من أتباع المدرسة الفرويدية لا يزعمون أن الغريزة الجنسية تنضج عند الولادة . وطبيعي أن يحتاج الطفل الذي يبدأ بالجري في كل اتجاه للخوف أكثر من ذلك الذي لم يقو على الجري بعد ، إذن لا غرابة لو قلنا ان غريزة الخوف تنشأ من الحاجة إليه .

ولهذه المسألة أهمية كبيرة من الناحية التربوية ، فلو كانت كل المخاوف ناجمة عن الإيحاء ، لأمكن إزالتها بطريقة سهلة جداً وهي الإمتناع عن الإتيان بما يثير مخاوف وهلع الطفل ، أما إذا كان بعضها غريزياً فإننا سنحتاج إلى أساليب أدق .

«إن الأطفال دون السنة لا يخافون مطلقاً من الحيوانات ، كما أننا لا نجد طفلاً يخاف من الظلام ما لم يكن قد تم تخويله منه . ومن المسلم به أن غالبية المخاوف التي اعتدنا عليها هي اكتسابية ، وأن الخوف لم يكن لينشأ عند الأطفال ما لم يعتمد الكبار إلى بثه في نفوسهم»^(١) .

الخوف غير المبرر :

لو قلنا على سبيل الافتراض إن السبب الرئيسي للخوف له جذور فطرية علينا أن ندعن إلى أن الجزء الأكبر من الخوف غير المبرر الذي يعاني منه الأطفال وقد يصاحب بعضهم حتى في شبابهم وربما نهاية حياتهم ناجم عن جهل الأبوين والمربين وسوء تربيتهم والخرافات القديمة التي يحملونها معهم .

وبالرغم من أن بعض المخاوف ذات البعد الفردي التي يعاني منها الأطفال تزول تلقائياً مع بلوغ الإنسان مرحلة الشباب وازدياد قدرته البدنية والفكرية ، إلا أن آثارها تبقى مترسبة في أعماق الإنسان فتتحول خلال مرحلة

(١) في التربية ، ص ٦٩ .

الشباب من مخاوف فردية إلى مخاوف إجتماعية

الخوف نتيجة القسوة :

إن الطفل الذي يكون أبواه قاسيين ظالمين ولا يجد مفرأ من قسوتهما وظلمهما يشعر على الدوام بالخوف والقلق وسيطران عليه . وحينما يشب هذا الطفل ويفارق أبواه الحياة تزول أسباب مخاوفه ذات البعد الفردي تلقائياً ، لكن آثار تلك المخاوف تبقى مترسبة في ذهنه وأعماقه ، مما يجعله يشعر في قرارة نفسه بالخطئة والحقارة والنقص ، فيتملكه الخوف والقلق في جميع شؤون حياته خاصة فيما يتعلق بالتآلف الاجتماعي وتوكيد الشخصية .

ومثل هذا الشاب يعيش على الدوام صراعاً نفسياً حاداً ، فهو من جهة يطمح حسب رغبته الفطرية إلى التآلف اجتماعياً وتحقيق حسن التآلف مع الناس وإثبات شخصيته ، ومن جهة ثانية لا يسمح لنفسه بالتألق ولا يتجرأ على معاشره الناس والتكيف معهم ، ويشعر على الدوام أنه غير كفوء لمعاشره الناس ، ويرغب في الإنطواء والإنزواء ، وكل ذلك بسبب ما يعانيه من ضعف في الشخصية وخوف وقلق مستمرين .

علاج مرض الخوف :

لحسن الحظ أن الخوف الضار الذي يعتبر من الأمراض الأخلاقية قابل للعلاج . ولو شاء الشاب لاستطاع من خلال تحليل حالاته النفسية وانفعالاته السيطرة على الخوف وطرده من أعماقه .

ويعتبر الخجل من علامات الخوف من الفشل ودليلاً على التخوف من التعامل مع الأفراد ، وسبب ذلك يعود إلى فترة الطفولة ، فالطفل الذي يحرم من العطف والحنان ويعامل بقسوة سيكون عاجزاً في المستقبل عن خوض غمار الحياة ومنافسة الآخرين في شؤون الحياة ، وهذا ما يضطره إلى ترجيح الإنزواء على

الإختلاط ، وقد يلجأ أحياناً إلى أمور أخرى يشغل نفسه بها ليعوّض عن فشله» .

تحليل الحالات النفسية :

ولا يمكن إزالة هذا النقص والضعف النفسي من خلال الابتعاد عن الناس ، بل يجب على من يعاني من مثل هذه الحالة أن يجبر نفسه على مخالطة الناس ، وليسأل نفسه : لماذا أهرب من هذا الشخص أو أبتعد من تلك المجموعة ؟ ، ممّ أنا خائف ؟ ، من الذي يغيظني ؟ ، ألا تعلم أنك ستكسب ودّ الجميع وجههم لك لو أصبحت عاقلاً وسلكت مسلكاً صحيحاً^(١) ؟

البحث عن علاج :

أول ما يجب أن نلتفت إليه في بحثنا لموضوع الخوف هو أن الخوف والقلق لا يعتبران حالة مدمومة ومرفوضة في جميع الأحوال والأوقات ، لأن الخوف المعقول الناتج عن الاحساس بالخطر الحقيقي والدال على بعد النظر وقوة التفكير لدى الإنسان ، أمر مقبول ومحمود .

إن فعل الخوف المعقول في التركيبة النفسية للإنسان أشبه ما يكون بفعل الأمراض في التركيبة العضوية له . فمثلما يبنىء الاحساس بالألم عن إصابة الإنسان بمرض ما ويدفعه إلى البحث عن علاج لمرضه ، كذلك الأمر بالنسبة للخوف المعقول ، فهو ينذر الإنسان بوجود خطر داهم ويحفّزه على البحث عن سبيل للوقاية .

قال أمير المؤمنين عليه السلام : كَمْ مِنْ خَائِفٍ وَقَدْ يَخُوفُهُ عَلَى قَرَارَةِ الْأَمْنِ^(٢) .

(١) البهجة ، ص ٣٣ .

(٢) غرر الحكم ، ص ٥٥٢ .

الخوف النافع :

إن خوف الطالب الجامعي من الفشل في الامتحانات قد يحثه على الدراسة من أجل ضمان النجاح ، ويدفعه إلى التعويض عن كسل الماضي وتقاعسه بالسعي والمثابرة والاستعداد للإمتحان من أجل تحقيق النجاح .

كما أن خوف المريض من مضاعفات مرضه يشكل حافزاً له على الإلتزام بنصائح الطبيب وإرشاداته . فالخوف هو الذي يدفع بالمريض إلى البحث عن علاج ، وهو الذي يجبره على تناول الدواء المناسب وعدم تناول الأكلات التي يحددها الطبيب وذلك لضمان شفائه وسلامته .

كذلك خوف المؤمنين من عذاب الله يشكل حافزاً أساسياً للإنسان على الإتيان بأوامر الله وتجنب نواهيه سبحانه وتعالى . فالمؤمن يتجنب كل ما من شأنه أن ينال من إيمانه ويتعد عن الخطايا والآثام مخافة الله القادر وسوء الحساب .

قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَتَّقُونَ اللَّهَ وَلَا يَتَّقُونَ الْمِيثَاقَ وَالَّذِينَ يَصُلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴾ (١) .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام : الخَوْفُ سِجْنُ النَّفْسِ وَرَادِعُهَا عَنِ الْمَعَاصِي (٢) .

إذن ، فالخوف المعقول وهو دليل على وجود خطر يدهم الإنسان ويحذره من العواقب هو خوف نافع وضروري ، فالذي لا يخاف الخطر ولا يفكر بعواقبه سيندم يوماً حينما يباغته الخطر .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : مَنْ قَلَّتْ مَخَافَتُهُ كَثُرَتْ آفَتُهُ (٣) .

(١) سورة الرعد ؛ الآيات : ٢٠ و ٢١ .

(٢) غرر الحكم ، ص ٨٧ .

(٣) نفس المصنر ، ص ٦٥١ .

الخوف الضار :

أما الخوف المذموم والضرار فهو ذلك الخوف الذي يسلب الإنسان سعادته ويعيقه عن التقدّم نحو التكامل ، وهو الخوف الناجم عن الجهل والضعف والجبن ، وهو الخوف الذي يربك إرادة الإنسان ويحطّ من قواه البدنية والنفسية ويؤول به إلى الضياع والتشتت .

وقد عانت الشعوب والممل على مرّ العصور من الخوف الضار وغير المبرر وحصدت نتائجها المشؤومة ، وقد حذر الدين الإسلامي ضمن مناهجه التربوية المسلمين من عواقب الخوف الضار .

وليك عزيزي القارئ بعض الأمثلة في هذا المضمار :

الخوف من الطيرة :

من المخاوف الضارة التي انتقلت من جيل إلى جيل عبر القرون ، الخوف من سوء الطالع . وقد حمل هذا الخوف الكثير من البؤس والشقاء والمعاناة إلى الإنسان وترك عليه نتائج سيئة .

فالكثير من الناس يتشائمون من الرقم ١٣ ومن نعيق الغراب أو البوم وما إلى ذلك من أمور يعتبرونها نذير شؤم ، وإذا حصل أن صادف إنسان أحد هذه المشؤومات فإنه يقلق ويضطرب ويخشى من مواجهة خطر مجهول ، وهذا ما يعكّر عليه صفو حياته ويسلبه سعادته .

وقد جاء الإسلام ليحارب هذه الخرافات التي إن دلت على شيء إنما تدلّ على جهل مطلقها . وقد وردت الكثير من الأحاديث والروايات التي تنفي هذه الخرافات وتعتبرها منافية لأساس التوحيد .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : الطيرة لَيْسَتْ بِحَقٍّ (١) .

(١) نهج البلاغة ، الكلمة ٣٩٢ .

وقال رسول الله ﷺ : الطَّيْرَةُ شِرْكٌ (١) .

الطَّيْرَةُ وَالْقَلْقُ :

ليس للطَّيْرَةُ أي أثر على قانون الخلقة ونظام التكوين ولا يمكنها أن تغيّر في الأسباب والمسببات أو أن تسهم بشكل مستقل في وقوع حادث سيء . والفرد الذي لا يؤمن بها يعيش مرتاح البال هانئاً دون أن تؤثر فيه الطَّيْرَةُ . أما من يؤمن بها فإنه ما ان يواجه سوء الطالع حتى يصاب بإرباك فكري وقلق مستمر . والاضطراب الفكري والقلق النفسي هما بحدّ ذاتهما حالة نفسية قائمة تستطيع أن تغيّر من سلوك الإنسان وتعود عليه بنتائج مشؤومة . وطبيعي أن هذه النتائج المشؤومة ليست من آثار سوء الطالع ، بل هي ناجمة عن الإختلالات النفسية التي تحصل نتيجة الإيمان بالقأل .

عن عمرو بن حُرَيْثٍ قَالَ : قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْإِمَامُ الصَّادِقُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : الطَّيْرَةُ عَلَى مَا تَجْعَلُهَا . إِنْ هَوَّنَتْهَا تَهَوَّنَتْ وَإِنْ شَدَّدَتْهَا تَشَدَّدَتْ وَإِنْ لَمْ تَجْعَلْهَا شَيْئاً لَمْ تَكُنْ شَيْئاً (٢) .

الخوف والقرارات المتسرّعة :

من المخاوف المذمومة التي كانت في الماضي تسلب الكثير من الناس راحتهم واستقرارهم الخوف من شؤم المرأة وشؤم الذّابة وشؤم الدّار وكان من يؤمن بمثل هذه الخرافات إذا ما صادفته حادثة سيئة في حياته لسبب من الأسباب ربطها بشؤم المرأة أو الذّابة أو الدّار واعتبرها نذير شؤم ، فأقدم على اتخاذ قرار متسرّع غير عقلائي وظالم أحياناً بحقها خشية مواجهة المزيد من الحوادث المؤسفة ، وحتى يؤمننا هذا لا يزال هناك من يؤمن بمثل هذه الخرافات .

(١) حياة الحيوان للدميري ٢ ، ص ٦٦ .

(٢) روضة الكافي ، ص ١٩٧ .

فكم من أسر قد تشتت وتفككت نتيجة تصوّر الأب أن زوجته مصدر شؤم ، وكم من أطفال عانوا الشقاء والحرمان واليتم ، وكم من بيوت قد دُمّرت نتيجة تصوّر أصحابها أنها مصدر شؤم .

الإسلام ومجاربة الخرافات :

ولما جاء الإسلام عمد إلى مكافحة هذه العقائد الخرافية الباطلة الناجمة عن الجهل ، ودعا الناس إلى عدم التشاؤم منها وعدم ربط كل ما يستجدّ عليهم في حياتهم بها وما يترتب على ذلك من قرارات متسرعة وهدامة . كما أن الإسلام قد أوضح ضمن برامج التربية معنى سوء طالع المرأة والدابة والدار في محاولة منه لتنوير عقول الناس في هذا المجال .

عن خالد بن نجیح عن أبي عبد الله الإمام الصادق عليه السلام قالَ تَدَاكُرُوا الشُّؤْمَ عِنْدَهُ فَقَالَ : الشُّؤْمُ فِي ثَلَاثٍ فِي الْمَرْأَةِ وَالِدَّابَّةِ وَالِدَّارِ . فَأَمَّا شُؤْمُ الْمَرْأَةِ فَكَثْرَةُ مَهْرِهَا وَعُقُوقُ زَوْجِهَا ، وَأَمَّا الدَّابَّةُ فَسُوءُ خُلُقِهَا وَمَنْعُهَا ظَهْرَهَا ، وَأَمَّا الدَّارُ فَضَيْقُ سَاحَتِهَا وَشَرُّ جِيرَانِهَا وَكَثْرَةُ عُيُوبِهَا^(١) .

لم يشر الإمام الصادق عليه السلام في هذا الحديث إلى الشؤم الوهمي الذي يخافه الجهلة من الناس في الأمور الثلاثة المذكورة أعلاه والتي يعتبرونها نذير شؤم ، وقد رفضه بشكل غير مباشر واعتبره غير ذي أهمية ، واكتفى عليه السلام بالإشارة إلى الصفات السيئة التي تجلب الشؤم الحقيقي وتخلّ بحياة الناس ، وتحذير المسلمين منها .

الإنسان وعلم النجوم :

لقد رغب الإنسان منذ أمدٍ بعيدٍ وما زال في التعرف على عالم النجوم والأجرام السماوية واكتشاف أسرار الكون ، وقد برز الكثيرون ممن يمتلكون الفراسة والذكاء الخارق ليجروا دراسات وأبحاثاً دقيقة في هذا المجال كرسوا

(١) أمالي الصدوق ، ص ١٤٥ .

لها كل حياتهم . وقد صدر عن العلماء والباحثين في علم النجوم الكثير من الأبحاث والدراسات والكتب والنظريات ، كانت في بعضها صحيحة وبعضها الآخر خاطئة ، وقد توصل العلماء إلى كيفية اجتياز البحار والمحيطات والصحارى بمساعدة النجوم .

وفي عالمنا المعاصر اتضحت حقائق كثيرة كان الإنسان يجهلها ، وذلك نتيجة التطور الكبير الذي أحرزه الإنسان في مجال التكنولوجيا . وباتت مسألة تسخير الفضاء والوصول إلى أكبر عدد ممكن من الكواكب والأجرام السماوية من أهم المسائل التي تستحوذ على اهتمام الإنسان ، وباتت البلدان الكبرى المتقدمة تتنافس فيما بينها لكي تكون كل منها السَّابِقة في هذا المجال .

إدعاءات باطلة :

من جملة ما جاءت به الأبحاث والتحقيقات الفلكية والنجومية القديمة أن جزءاً من الأحداث التي تحصل على سطح الكرة الأرضية له علاقة مباشرة بالأجرام السماوية ، وأن جانباً من سعادة أو تعاسة الإنسان مرهون بأوضاع خاصة وظروف معينة تمرّ بها هذه الأجرام ، وهناك من ادّعى معرفته بهذه الأمور وأنه يستطيع أن يحدّد فترات سعادة وتعاسة الإنسان من خلال محاسبات نجومية أو ما يعرف بالتنجيم .

الخوف واستشارة الكهنة :

والذين يصدّقون هذه الخرافات ويؤمنون بها كانوا يعيشون حالة دائمة من الخوف والقلق إزاء ما تخبئه لهم النجوم ، فكانوا دائماً في حيرة من أمرهم لا يعرفون ماذا يصنعون ، وهذا ما كان يدفع بهم إلى استشارة الكهنة وأولئك الذين كانوا يدّعون علم الغيب عليهم يستطيعون حمايتهم من الشر الذي يحمله المجهول السماوي .

وما أكثرهم أولئك الذين ساقتهم عقيدتهم الخرافية إلى البؤس والشقاء ،

وما أكثر أولئك الذين حرموا أنفسهم من الرقي والتقدم الذي بلغه غيرهم .

الإسلام وعلم النجوم :

أما الإسلام فقد شجع على الخوض في علم الفلك والنجوم للوقوف على عظمة الكون وخالفه ، كما أنه حذر من تصديق المعتقدات الخرافية التي لا تمت إلى الحقيقة بصلة .

فقد أقسم الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز بالشمس والقمر والنجوم وكذلك بالليل والنهار ، وهناك سور في القرآن الكريم حملت اسم النجم والشمس والقمر والليل والضحى ، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على أهمية العلوم السماوية في الإسلام .

قال الإمام موسى بن جعفر عليه السلام : اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَدْ مَدَحَ النُّجُومَ وَلَوْلَا أَنَّ النُّجُومَ صَحِيحَةٌ مَا مَدَحَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ، وَالْأَنْبِيَاءُ كَانُوا عَالِمِينَ بِهَا^(١) .

التفكير في خلق السموات والأرض :

لقد تحدّث القرآن الكريم في غير سورة عن عظمة الأجرام السماوية معتبراً إياها دليلاً بارزاً على وجود الخالق ، كما حثّ القرآن الكريم الناس على التدبّر والتفكير في خلق السموات والأرض .

قال تعالى : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ آيَاتٍ لِأُولِي الْأَبْصَارِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوباً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً﴾^(٢) .

التصورات الخاطئة :

كذلك شجع الائمة الأطهار عليهم السلام بدورهم المسلمين على التدبّر والتفكير

(١) بحار الأنوار ، ١٤ ، ص ١٥١ .

(٢) سورة آل عمران ؛ الآيتان : ١٩٠ ، ١٩١ .

في الأجرام السماوية للوقوف على عظمة النظام التكويني الإلهي وتقوية إيمانهم ، وحذروهم من الانجرار وراء المعتقدات الباطلة والتصورات الخاطئة ، ودعوهم إلى مكافحة هذه الخرافات من خلال المجاهدة والسعي لبسط العلوم والمعارف الحقيقية .

كان أمير المؤمنين علي عليه السلام قد جهّز جيشاً لمحاربة الخوارج ، وعندما أراد عليه السلام الخروج بجيشه جاءه أحد أصحابه وقال له : يا أمير المؤمنين أخشى إن خرجت في هذه الساعة أن لا تبلغ مرادك وأن تهزم أمام عدوك ، وما خشيتي هذه إلا نابعة من معرفتي بما سيحصل من خلال احتساب النجوم .

فقال أمير المؤمنين علي عليه السلام : أتزعم أنك تهدي إلى الساعة التي من سار فيها صرف عنه السوء ؟ ، وتُخَوِّف من الساعة التي من سار فيها حاق به الضرُّ ؟ ، فمن صدّقك بهذا فقد كذّب القرآن واستغنى عن الاستعانة بالله في نيل المحبوب ودفع المكروه ، ويُنْبغي في قولك للعامل بأمرك أن يُوليك الحمد دون ربه لأنك بزعمك أنت هديته إلى الساعة التي نال فيها النفع وأمن الضرُّ ، ثم أقبل عليه السلام على الناس فقال : سيروا على اسم الله (١) .

لقد تصوّر هذا الرجل أن باستطاعته من خلال المحاسبات النجومية أن يعلم الغيب وأن يحيط بالأشخاص بما سيواجهونه في المستقبل من أحداث ، ومن هذا المنطلق جاء ليعرب لأمير المؤمنين عليه السلام عن خشيته من هزيمة تترىص بجيشه إن خرج في الساعة الفلانية .

ولو كان أمير المؤمنين عليه السلام كغيره ممن يؤمنون بمثل هذه الخرافات لارتاب عند سماعه هذا الخبر وانصرف عن قراره بخروج الجيش في مثل تلك الساعة . لكن أمير المؤمنين عليه السلام ترعرع في مدرسة الإسلام لم يبال لما سمعه ولم يدع الخوف والقلق يسيطران عليه ، ففرض بكل قاطعية ما تقوّه به الرجل ،

وخرج بجيشه في تلك الساعة متوكلاً على الله ، فتغلب على عدوه وعاد منتصراً ظافراً .

الخوف وأثره على الجسم والروح :

«يشكل الخوف والقلق مرضاً بات مستشرياً في كافة أنحاء العالم كمرض الكوليرا والطاعون ، وأخذ هذا المرض يتسبب في ظهور أمراض باتت تحير عقول الأطباء . إن ما نراه ونشعر به هو أن الخوف والقلق يؤديان إلى تحجيم قدرتنا الروحية والجسمانية وضعف قدرتنا الذهنية ، ويتسببان إلى حد ما في شل نشاطاتنا العملية» .

«أليس الخوف وليد التصوّر ؟ ، ألا نتصوّر على سبيل المثال أنه إذا رعدت السماء وبرقت فإنّ بيتنا قد يحترق ؟ ، أو أنّ حرباً ما إذا اندلعت فقد تتسبب في دمار بيتنا وزواله ؟ ، كل هذا مجرد تصور واحتمال . فبدل أن نستسلم لمثل هذا التصورات علينا أن نسعى لطردها من أفكارنا وأن نفكر بما هو أكثر جدية ، ونُقل لأنفسنا مثلاً : كم من الصواعق قد حدثت ولم نصب بأذى ، وكم من الحروب قد اندلعت لكنها لم تسفر عن هدم بيوتنا ؟ .

«وكذا الأمر بالنسبة للمستقبل ، فلا أحد يستطيع التكهّن بما سيحمله لنا ، لذا علينا أن نتصور لأنفسنا مستقبلاً خالياً من المصائب والمحن ، وعلينا أن نتصور أن القدر سيكون في صالحنا كما قادنّا إلى ما نحن عليه الآن ، علينا أن نكون مؤمنين بالقدر متفائلين ، ونطرد من مخيلاتنا كل الهواجس والتصورات الخاطئة ، لأننا لن نكون في المستقبل إلا كما نتصور»^(١) .

(١) سلامة الروح ، ص ٩٩ .

الخوف وضعف الإرادة :

ونستشف ممّا ذكر أن المخاوف والهواجس التي لا أساس لها ولا مبرر لن تعود إلّا بالضرر على جيل الشباب وجيل الكهول أيضاً ، فهي لن تشكل سوى سدّ منيع أمام سعادة البشر كل البشر . فمثل هذه المخاوف والهواجس تحطّم شخصية الإنسان وتضعف من عزمه وإرادته وتجزّده من ثقته بنفسه فتسوقه نحو الإحباط والفشل .

وقد جاء الإسلام بمنهجه التربوي الذي يعتمد على قوة العقل وقدرة الإيمان لينقذ المسلمين من شرّ المخاوف والهواجس الضارة وغير المبررة .

الخوف الناجم عن عاهة جسمانية :

ثمة مخاوف وهواجس مختلفة تبرز في الغالب خلال مرحلة الشباب ، وتثير قلق واضطراب المراهقين والشباب إزاء إمكانية التكيف مع المجتمع ، فتتهار قواهم وتتحطم شخصيتهم ، وهذه المخاوف والهواجس لها جذور مختلفة .

فبعضها ناجم عن اختلال في الصفات الموروثة وسببها عاهات جسمانية . فالطفل الذي يكون في عينه حَوْل أو عمى وهو لم يزل في رحم أمّه ، والطفل الذي يولد وفي شفّتيه شق كبير أو في أطرافه اعوجاج واضح ، وكذا الطفل الذي يولد وفيه عاهة جسمانية أو أكثر ، كلهم عندما يكبرون يشعرون بالنقص والحقارة ، وهذا الشعور يتزايد عندهم كلما كبروا أكثر .

الخوف من السخرية :

هؤلاء الأطفال عندما يبلغون ويصبحون شباباً يساورهم الخوف والقلق من الدخول في المجتمع والاختلاط بالناس ، فهم يخشون من سخرية الناس منهم أو النظر إليهم نظرة استحقار واستخفاف . ويديهي أن لا يستطيع مثل هؤلاء الشباب إثبات وجودهم وشخصيتهم في مجتمعاتهم بسهولة .

«خال صغير على وحنة فتاة جميلة أو اعوجاج في ساقها أو عمودها الفقري وما إلى ذلك من عاهات كافية لأن يشعر الإنسان بعقدة الحقارة من بداية حياته وحتى نهايتها» .

«إن الطفل المصاب بعاهة جسمانية غالباً ما يكون عاجزاً عن الدفاع عن نفسه أمام من هم في سنّه ، لذا فهو مضطر لسماع وقبول سخريتهم منه واستهزائهم به ، وردّ فعله الوحيد إزاء ذلك غض الطرف والسمع وكظم الأحاسيس ، وهذا ما من شأنه أن يولد له اضطرابات فكرية في المستقبل»^(١) .

كتب طالب شاب يتلثم في الكلام ولا يستطيع النطق بانسيابية يقول : رغم أنني طالب ذكي واجتزت جميع الامتحانات بتفوق ونجاح ، إلا أنني أعاني كثيراً من لكنة في لساني ، فأنا لا أتجرأ على الكلام مع أي كان ، وفي الصف أختار دائماً الطبقات الأخيرة لأخفي نفسي عن أنظار المعلمين كي لا يسألوني سؤالاً فأتلثم في الإجابة وأكون موضع سخرية بين زملائي . وأنا لا أتجرأ على وضع ساعة في معصمي لأنني أخاف أن يسألني أحدهم عن الوقت فيعتقد لساني عند الإجابة .

«خضع أستاذ جامعي لتحليل نفسي ، فتبيّن على أثره أنه يعاني من عقدة الحقارة ، وهذه العقدة ترجع إلى مرحلة دراسته الابتدائية ، حيث كان أكثر زملائه طولاً ، فكان يلفت انتباه المشرفين على المدرسة أكثر من غيره ، وكلّما وقع حادث في المدرسة أُشير إليه بأصابع الإتهام وعُرّض للضرب والقصاص ليكون عبرة لغيره من التلاميذ ، وقد شعر هذا الطفل من حينها بأنه مظلوم لا بسبب شيء وإنما بسبب طوله»^(٢) .

(١) عقدة الحقارة ، ص ١٢ .

(٢) عقدة الحقارة ، ص ١٣ .

علاج العاهات الموروثة :

لقد ساهم التطور الذي حققه الإنسان اليوم في مختلف المجالات العلمية في جعل الكثير من النقائص والعاهات الموروثة كتشقق الشفتين وانحراف العينين وما شابه قابلة للعلاج إذا ما خضع لظروف علاجية مناسبة استطاعت أن تزيل عاهته ، فإن عقده الباطنية ستحلّ وسيتحرّر من الإحساس بالحقارة والخوف الناجم عنها .

والشاب الذي لا يجد علاجاً لقبحه أو لاعوجاج في ساقه وقدمه ويبقى منظوياً على نفسه خشية سخرية الآخرين منه ، ليس فقط لم يستطع التعويض عما يعانیه بل سيساهم في ازدياد معاناته وبالتالي مضاعفة مخاوفه وهواجسه .

تشخيص المواهب والإستعدادات الذاتية :

يتوجب على شاب كهذا أن يسعى لاكتشاف ما يضمّره في ذاته من مواهب واستعدادات وتشخيص كفائته في الممارسات الحياتية والقيام بما يسهل عليه . وينبغي عليه أيضاً أن ينسى ما هو عليه في التعامل الإجتماعي ، وأن يلتفت إلى الآخرين بدل أن يركز تفكيره على عيوبه وعاهاته ، أو أنه يحاول أن يقارن بين ما يعانیه وبين ما يعانیه غيره ولعل ما يعانیه غيره أعظم وأشد ، وهكذا فإنه يخفف من آلامه وعذابه النفسي .

ويبدو أن تنفيذ هاتين النصيحتين من شأنه أن يسهم في بروز استعدادات الإنسان الداخلية وإيصاله إلى درجة الكمال التي تليق به في فترة وجيزة ، فيستطيع من خلال النجاح الذي يحرزه التعويض عن الحقارة التي يضمّرها لنفسه نتيجة نقص عضوي أو عاهة ما ، وبذلك ينجح في إحراز شخصية مناسبة في أسرته ومجتمعه .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : أَكْثَرُ النَّظَرِ إِلَى مَنْ فَضَلْتَ عَنَّا فَإِنَّ ذَلِكَ

مِنْ أَبْوَابِ الشُّكْرِ^(١) .

وعن أبي عبد الله الامام الصادق عليه السلام قال : أَنْظِرْ إِلَى مَنْ هُوَ دُونَكَ فَتَكُونَ لِأَنْعَمِ اللَّهِ شَاكِرًا وَلِمَزِيدِهِ مُسْتَوْجِبًا وَلِجُودِهِ سَاكِنًا^(٢) .

إستغلال سائر الملكات :

تقل آلام وهموم المصاب بثقل حاسة السمع أو التلثم في النطق إذا ما قارن بين حالته وحالة من هو أصم وأبكم ، وكذا الأمر بالنسبة للمصاب بانحراف في العين أو العرج إذا ما قارن بين حالته وحالة الأعمى كلياً أو المشلول المقعد . فالمصاب بعاهات جزئية بسيطة قادر على إستغلال عقله ودكائه وسائر ملكاته التي أنعم بها الله عليه للتعويض عما يعانيه .

أما الذي يقهر روح النشاط والأمل في نفسه بسبب نقص أن عاهة أصيب بها ، ويتجاهل سائر ملكاته الطبيعية نتيجة الاحباط المعنوي والنفسي لن يكون نصيبه غير الفشل والحرمان . فهو ليس بقادر على إستغلال طاقاته واستعداداته الباطنية لتأمين سبل الرقي والسعادة .

ومن هنا ينبغي على الشاب المعاق أن يتذكر دائماً أن هناك الكثيرين في العالم بماضيه وحاضره ممن ولدوا وفيهم عاهة موروثة أو نقص عضوي أو قبح في الشكل أو اختلال في التركيب الجسماني ، شقوا وما زالوا يشقون طريقهم نحو السعادة دون أن يعرف الخوف واليأس طريقهما إلى قلوبهم . فقد سعى هؤلاء بعزم راسخ وإرادة قوية إلى إستغلال طاقاتهم واستعداداتهم الذاتية لضمان عزتهم وشموخهم وسعادتهم ، وبلغ بعضهم مكانة علمية مرموقة وأحرزوا شهرة اجتماعية كبيرة نتيجة كفاءتهم ومجاهداتهم .

(١) غرر الحكم ، ص ١١٧ .

(٢) مستدرک الوسائل ٢ ، ص ٦٤ .

سبل التعويض عن الحفارة :

إذن نستنتج من خلال البحث الأنف الذكر أن جانباً من مخاوف الشباب التي تحول دون تألفهم الاجتماعي وتبعث على فشل شخصيتهم مرده العاهات والنقائص الجسمانية واختلال الصفات الموروثة .

وكما قلنا ينبغي على مثل هؤلاء الشباب أن يحاولوا تجاهل ما هم عليه قدر إمكانهم ويسعوا إلى تنمية طاقاتهم واستعداداتهم في مختلف الميادين العلمية والعملية للتعويض عن عقدة الحفارة التي يعانونها وإحراز الشخصية المناسبة .

الخوف وسوء التربية :

يرجع سبب بعض المخاوف التي يعاني منها الشباب إلى الصفات المكتسبة الناجمة عن سوء التربية لهم خلال مرحلة الطفولة . فسوء الآباء والأمهات غير المبررة على أبنائهم وكذلك حنانهم المفرط عليهم وغير ذلك من ظروف سيئة تحيط بالأسرة ، لها أثرها السيء في نفسية الطفل ، ويتحول هذا الأثر خلال مرحلة الشباب إلى صفات مذمومة منها الخوف من المعاشرة الاجتماعية والفشل في محاولة التكيف مع المحيط .

«ثمة حقيقة تتوضح معالمها أكثر يوماً بعد يوم ، وهي أن الاحساسات والحوادث والتجارب التي يمر بها الإنسان خلال طفولته لها أثرها البالغ في حياته المستقبلية وشخصيته . ويمكن الجزم بأن هذه الاحساسات والحوادث والتجارب تعتبر أساس سلامة الإنسان أو سقمه وسعادته أو شقائه طوال حياته» .

«فالطفل يصنع خلال السنوات الأولى من عمره أساس حياته ، وهذا الأساس يكتمل بمجرد أن يقوى الطفل على ترك مهده . تماماً كالغرس الجديدة عندما تشتل في الأرض ، فهي تنمو حسبما

شتلت مستقيمة كانت أم منحرفة . إنه قانون طبيعي لا تستثنى منه حتى حياة الإنسان»^(١) .

وهنا نورد بعض الأمثلة التي تبيّن بوضوح أن جانباً من مخاوف الشباب إزاء التكيّف الاجتماعي ومساءلة إثبات الشخصية مرده سوء التربية التي تلقاها هؤلاء الشباب خلال طفولتهم .

التربية على أساس الخوف والرجاء :

إن التربية الصحيحة والمثمرة هي تلك التي تقوم على أساس الخوف والرجاء . بمعنى أن يشعر الإنسان الذي يخضع لتربية صالحة بأنه يستحق المكافأة إذا ما أذى واجبه بنحو حسن ، ويستحق العقاب إذا ما تخلف عن أداء الواجب . فالأمل بالمكافأة يدفع الإنسان إلى تادية واجباته ويزيد من سعيه ونشاطه ، والخوف من العقاب يمنعه من التخلف والتمرد .

وعلى هذا الأساس قام المنهاج التربوي للإسلام ، وعلى كل مسلم يشعر بالمسؤولية أن يضع نفسه بين الخوف والرجاء ، بمعنى أن لا يقنط دائماً من الرحمة الإلهية ولا يتصور نفسه مصاناً من العذاب الإلهي .

قال أبو عبد الله الإمام الصادق عليه السلام : كَانَ أَبِي يَقُولُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَفِي قَلْبِهِ نُورَانِ نُورٌ حَيْفَةٌ وَنُورٌ رَجَاءٌ لَوْ وُزِنَ هَذَا لَمْ يَزِدْ عَلَى هَذَا وَلَوْ وُزِنَ هَذَا لَمْ يَزِدْ عَلَى هَذَا^(٢) .

الموازنة بين الخوف والرجاء :

يترك انعدام الموازنة بين الخوف والرجاء آثاراً سلبية على الإنسان ، حيث يشكل عائقاً أمام سلوكه المسلك الصحيح في أداء مسؤولياته العلمية والعملية . فإذا زاد الخوف عن الرجاء عاش الإنسان يائساً قانطاً ، أما إذا زاد الرجاء عن

(١) عقدة الحضارة ، ص ٩ .

(٢) الكافي ٢ ، ص ٦٧ .

الخوف فإن الإنسان يصاب بالغرور واللامبالاة .

وهنا لا بد من السؤال هل يتوجب على المربين الاجتماعيين مراعاة الاعتماد على هذين العاملين بنحو متساو في تنفيذ مناهجهم التربوية والتعليمية ، أم أنهم يستطيعون الاعتماد على أحدهما أكثر من الآخر ؟ .

التنويه من عوامل التقدم :

لقد توصل علماء التربية والتعليم بعد اختبارات وتحاليل نفسية دقيقة إلى أن رجاء المكافأة يدفع المرء إلى المثابرة أكثر من خوف العقاب ، وأن التنويه يعدّ من عوامل تقدم الإنسان على عكس التوبيخ . ولو استطاع المربون الاعتماد على هذا العامل فإنهم سينجحون حتماً في تنفيذ مناهجهم التربوية .

المقارنة بين التنويه والتوبيخ :

ويقول «نورمان . ل . مان» : أيهما أنجح في دفع المرء نحو العطاء والمثابرة مدحه على عمل حسن قام به أم توبيخه بسبب خطأ ارتكبه ؟ . والجواب نستقيه من أفضل اختبار جرى في هذا المجال حتى الآن .

«تم تقسيم ١٠٦ فتيات من الصفين الرابع والسادس ابتدائي إلى أربعة أقسام ، ولوحظ أن القدرة الحسابية لدى الأقسام الأربعة متساوية ، وطلب من جميع الأقسام حلّ ما تستطيع من مجموع ٣٠ سؤالاً خلال ١٥ دقيقة . واستمر الاختبار لمدة خمسة أيام ، كانت توجه التوبيخات إلى القسم الأول على سوء أجوبته (دون الأخذ بنظر الاعتبار نتيجة عمله) ، ولم يكن هذا القسم يعام عدد الأسئلة التي أجاب عليها بشكل صحيح . أما القسم الثاني فقد وجهت إليه التنويهات على حسن أجوبته دون الاهتمام بمدى صحتها ، وترك القسم الثالث دون أن يوجه إليه شيء لكنه كان شاهداً على ما يجري لغيره من الأقسام ، أما القسم الرابع

فلم يكن يعلم بما يجري للأقسام الأخرى لأنه وضع في غرفة منفصلة .

وجاءت النتيجة على الشكل التالي : معدل الأسئلة التي أجابت عليها كل الأقسام في اليوم الأول كان متساوياً ، أي إثني عشر سؤالاً ، وفي اليوم الثاني كان القسمان اللذان وجهت إليهما التوبيخات والتوبيخات متساويين من حيث الاجابة ، إذ أجاب كل منهما على ١٦ سؤالاً ، أما في اليوم الثالث فقد تقدم القسم الذي وجهت إليه التوبيخات في عدد الاجابات بينما تراجع القسم الثاني الذي وجهت إليه التوبيخات ، ولم يحقق القسمان الأخران تقدماً يذكر في هذا المجال^(١) .

الثواب والعقاب في الإسلام :

لقد أولى الإسلام منذ نشوئه ، هذه المسألة النفسية الحساسة ، أي أرجحية الثواب على العقاب في التأثير على الإنسان ، إهتماماً كبيراً ، وأكد على أهمية العمل من منطلق الأمل برحمة الله أكثر من الخوف من عقابه وعذابه في أداء الأحكام الإسلامية .

وبالرغم من أن القرآن الكريم قد جمع بين البشري والانذار أي بين الثواب والعقاب إلا أنه رحح كفة الثواب واعتبرها أثقل من كفة العقاب ، وحدد ثواب الحسنة أضعاف جزاء السيئة .

قال تعالى : ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾^(٢) .

(١) مبادئ علم النفس ، ص ٢٢٨

(٢) سورة الأنعام : الآية : ١٦٠ .

مسؤولية السلطان :

عن الإمام الصادق عليه السلام قال : ثلاثة تجب على السلطان للخاصة والعامّة : مكافأة المحسنين بالإحسان ليزدادوا رغبة فيه وتعمد ذنوب المسيء ليؤتوب ويترجع عن غيئه وتألّفهم جميعاً بالإحسان والإنصاف^(١) .

لقد كان أمير المؤمنين عليه السلام يؤكد في رسائله على أهمية تشجيع المحسنين ، وكان يدعو رجاله وقادة جيشه إلى القيام بهذا التكليف التربوي المؤثر ، فقد كتب عليه السلام إلى مالك الأشتر يوماً يقول : فافسح في أمالهم وواصل في حُسن النّاء عليهم وتعدّد ما أبلّى ذو البلاء منهم ، فإن كثرة الذكر لِحُسن أفعالهم تهزّ الشُّجاع وتحرّض الناكِل^(٢) .

حسن التربية وراحة البال :

إن الطفل الذي يربى وسط أسرته على أساس الخوف والرجاء ، فيشأب على حسن عمله ويعاقب على ما يرتكبه من سوء عمل ، كل بمقداره الصحيح ، والطفل الذي يحظى بما يلزم من المحبة والحنان والتشجيع من قبل أبويه ، يكون طفلاً مرتاح البال مستقراً وهادئاً يدرك جيداً أنه إذا قام بعمل حسن سيستحق عليه الثواب وإن ارتكب سيئة سيعاقب ويوبخ .

وحينما يكبر هذا الطفل وتكبر معه هذه الفكرة تراه يندفع إلى معاشرّة الناس دون خوف أو تردد وينفذ إلى المجتمع ليثبت شخصيته معتمداً في ذلك على سلامة منطقه وصحة سلوكه .

سوء التربية والقلق :

أما الطفل الذي يربى في كنف أبوين قاسيين صارمين يحفرانه ويهيئانه ويحطان من قدره طوال فترة الطفولة ، ويعيش حالة مستمرة من الخوف من

(١) تحف العقول ، ص ٣١٩ .

(٢) نهج البلاغة ، الرسالة ٥٣ .

التوبيخ والملامة أو التعذيب والضرب أحياناً ، ولم يحظ بمحبة أبويه وتشجيعهما له ، فإنه يكون طفلاً قلقاً متوتراً مضطرب البال ، ويعيش على الدوام أسير عقدة الحقارة .

وحينما يكبر هذا الطفل وتكبر معه هذه العقدة وتلك الذكريات المؤلمة ، يبقى أسير القلق والخوف ، فهو يخشى الاختلاط بالناس لتصوره أنه لن يلاقي وسط الناس أفضل مما قاساه وسط أسرته من توبيخ وملامة وقسوة وتعذيب وآلام ، لذا فمن الأفضل له حسب رأيه أن يتجنب الاختلاط بالناس قدر استطاعته لكي لا يواجه مصائب وويلات جديدة .

أعراض الخوف :

ومما لا شك فيه أن جانباً من مخاوف الشباب وهواجسهم ناجم عن الأساليب التربوية التعسفية التي ينتهجها الأبوان بحق أبنائهم مما يجعل منهم أفراداً جبناءً ضعيفي الإرادة والشخصية . ويمكن ملاحظة آثار الاضطراب والقلق وعدم الثقة بالنفس في حركات مثل هؤلاء الشباب وأفعالهم وسلوكهم وأقوالهم ، وإن لم يبادروا إلى معالجة أنفسهم مما يعانونه فسيبقون على ما هم عليه طوال العمر .

«يعتقد «آلرز» بأن الخوف يظهر بصور مختلفة إما بشكل مكشوف أو مخفي في السلوك غير الطبيعي للإنسان . ويعتقد غالبية علماء النفس أن من مسببات الخوف التلثم في النطق والتبول اللاشعوري وكثرة الكوابيس والمنامات المزعجة أو الحركات الانفعالية العصبية» .

«فالخوف والاضطراب هو أساس جميع الحالات العصبية ، كما أنه أساس أغلب الأمراض العقلية والنفسية . وإضافة إلى هذه الأمراض فإن الخوف يثبت في الإنسان روح الحسد والخجل ، وهذان العاملان يتسببان في عذاب ضمير الإنسان طوال

حياته»^(١) .

إن للثشت الفكري والإضطراب النفسي لكل إنسان وكذلك للاستقرار الفكري والنفسي أثر مباشر على سائر قوى الإنسان الجسمانية لا سيما النطق والتعبير ، بمعنى أن حديث كل إنسان يدل بكمه ونوعه على وضعه الباطني وحالته النفسية .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : بَيَانُ الرَّجُلِ يُنبِئُ عَنْ قُوَّةِ جَنَانِهِ^(٢) .

«المصاب بهذا المرض النفساني تراه إما يشرثر في الكلام ويتكلم بسرعة وإما يجد مشقة في العثور على كلمات يربطها ببعضها البعض لتكوّن جملاً ، أو أنه يبعث على ملل الحاضرين بكلمات طوال جوفاء إستعراضية ، بينما الفرد السليم يتكلم دائماً بشكل طبيعي ومنطقي دون أن يتجاهل مشاعر الآخرين» .

«ومن هنا جاء اهتمام الأطباء النفسيين بطريقة الكلام عند الإنسان ، فهم يعتقدون بأن هناك علاقة مباشرة بين الفكر والبيان ، وحسن البيان دليل على سلامة الفكر»^(٣) .

الخوف وعقدة الحقارة :

إن الشاب الذي يعاني من عقدة الحقارة نتيجة سوء تربية الأبوين ولا يتق بنفسه أبداً يعيش على الدوام حالة الخوف الإنفعالية . فهو يرى نفسه أصغر من أن يستطيع أن يتألف مع المجتمع ويثبت وجوده ، ولهذا السبب نجده يضطرب عندما يواجه الناس ، وتعتبره حالة من الخوف والقلق نلاحظها من خلال حركات غير طبيعية يقوم بها وشروذ نظراته وتلعثمه في الكلام .

(١) علم نفس النمو ، ص ٢٣٨ .

(٢) غرر الحكم ، ص ٣٤٣ .

(٣) سلامة الروح ، ص ١٦ .

ويقوم أمثال هؤلاء الشباب أحياناً بحركات جريئة ويتكلمون بما يوحي إلى قدرتهم وشجاعتهم وذلك لاختفاء عقدة الحقارة وستر الخوف الذي يساورهم غافلين عن أن الحركات غير الطبيعية والكلمات المصطنعة لا يمكنها أن تزيل الخوف الباطني أو تهديء من اضطراب الإنسان وقلقه وخوفه .

«ثلاثة أطفال ذهب بهم أمهم إلى حديقة الحيوانات للتنزه ، وما ان وصلوا إلى قفص الأسد وسمعوا صوت زئيره حتى ارتمى أحدهم في أحضان أمه باكياً ، وقال الثاني وقد شحب لونه وارتحف صوته إنني لا أخاف من الأسد ، بينما تسمرت عينا الطفل الثالث على الأسد وضرب الأرض بقدميه وقال لأمه : دعيني أذهب وأبصق على هذا الأسد» .

«إن الاحساس بالخوف قد بان على هؤلاء الأطفال الثلاثة بأشكال مختلفة ، فالأول قد أبدى تخوفه بصراحة ، أما الاثنان الآخران فقد تصوّرا أن بإمكانهما أن يوحيا بعدم تخوفهما أو أن يسترا تخوفهما بشكل أو بآخر»^(١) .

الخوف وأثره على الجسم والروح :

يشكل الخوف غير المبرر مصدر خطر على عامة الناس وخاصة الشباب الذين يقضون ربع أعمارهم وما زالوا في بداية حياتهم الاجتماعية ، وإذا ما لازم هذا الخوف الإنسان لفترة طويلة فإنه سيؤدي به إلى الفشل والاحباط وسيضعف من قواه الجسمانية والروحية .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : مَنْ هَابَ خَابَ^(٢) .

«إن الخوف الذي لا يدفع الإنسان إلى القيام بعمل ضروري

(١) البهجة ، ص ١٠٥ .

(٢) غرر الحكم ، ص ٦١٣ .

ونافع ، من شأنه أن يضعف جسمه وروحه ، لأن هناك غدداً ترشح إفرازات عند الخوف ، وهذه الإفرازات تتحول إلى مادة سامة تعيث في أجسامنا وتخلّ تفكيرنا وسلوكنا ما لم يستهلكها نشاط العضلات»^(١) .

مكافحة مصدر الخوف :

لا يمكن معالجة مرض الخوف باستعراض القوة والتظاهر بعدم الخوف فقط ، بل يجب مكافحة جذوره النفسية الحقيقية لإنقاذ الروح من أسرها ، فطالما لم تحل عقدة الخوف في أعماق الإنسان فإن القلق والاضطراب لن يزولا عنه أبداً .

لقد شارك أهل البصرة وخلافاً للمعايير الإسلامية في حرب الجمل وحملوا على ولاية أمير المؤمنين علي عليه السلام ، وبعد هزيمتهم أصيبوا بحالة من الخوف والقلق وأصبحت البصرة معرضة لأخطار جديدة نتيجة هذه الحالة النفسية التي ضربت أهلها ، فكتب أمير المؤمنين عليه السلام لابن عباس والي البصرة آنذاك يدعوه إلى العمل على تهدئة النفوس وإعادة الوضع إلى ما كان عليه في السابق .

ومما جاء في كتابه عليه السلام لابن عباس : ... فحادث أهلها بالإحسان إليهم وأحلل عقدة الخوف عن قلوبهم^(٢) .

علاج الخوف :

إن الشاب الذي ينمو منذ طفولته ضعيف الإرادة عديم الشخصية ويخشى معاشرته الناس والمجتمع نتيجة تحقير الأبوين له بإمكانه أن يجد علاجاً لمرضه وأن يتخلص من مسببات آلامه وعذاباته إذا ما استطاع أن يطبق أفكاره وأعماله

(١) البهجة ، ص ٤٨ .

(٢) نهج البلاغة ، الرسالة ١٨ .

مع النقاط التالية :

١ - عليه أن يعلم أن الخوف يعتبر من الأمراض الخطيرة التي تشتك بمجتمعات اليوم ، كما أنه يشكل عاملاً مهماً في شقاء الإنسان وتعاسته . فالخوف مصدر الفشل والاحباط وعدو راحة البال والاستقرار ، وكلما ازداد الإنسان خوفاً كلما ازداد ضعفاً ووهناً وساهم في تحطيم شخصيته ، وبإمكانه لو بادر إلى معالجة نفسه أن يضمن سبل شفاؤه وسلامة نفسيته وبالتالي سعادته وهنائه .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : لا يُبْغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يُقِيمَ عَلَى الْخَوْفِ إِذَا وَجَدَ إِلَى الْأَمْنِ سَبِيلًا (١) .

٢ - عليه أن يعلم أن عدم الاتزان في أقواله وفعاله إنما نابع من الخوف الباطني ، وطالما لم يقتلع جذور هذا الخوف من أعماقه لا يستطيع أن يحقق الثقة بنفسه ولا يمكنه أن يتكيف مع الناس ويضبط أقواله وفعاله أمامهم .

«لا تكفي مكافحة الشعور بالخوف والتظاهر بعدم الخوف ، ولا بد من مكافحة سبب الخوف ، بمعنى أن نسعى لإزالة سبب الخوف فور ما ندركه ، وإلا فلا طائل من مكافحة الشعور بالخوف ما دام السبب باق» (٢) .

قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ .

وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام : مَنْ حَسَنَتْ سَرِيرَتُهُ حَسَنَتْ عِلَاقَتُهُ (٣) .

تحليل الحالات النفسية :

٣ - عليه أن يحاسب نفسه بدقة ويحلل حالته النفسية بشكل سليم ليكشف

(١) غرر الحكم ، ص ٨٥١ .

(٢) البهجة ، ص ٥١ .

(٣) غرر الحكم ، ص ٦٣٠ .

على سبب خوفه ثم يعمل على إزالته .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : مَنْ حَسَبَ نَفْسَهُ رِيحَ وَمَنْ غَفَلَ عَنْهَا خَسِرَ (١) .

ونشير على سبيل المثال إلى الشاب الذي سبق وتحدثنا عنه وهو ذاك الذي يعاني من عقدة الحقدرة نتيجة التربية الخاطئة التي تلقاها في صغره ، وبات يخاف من معاشره الناس ويخشى التحدث إليهم ، مثل هذا الشاب إذا بادر إلى محاسبة نفسه وعرف أن سبب ما يعانيه اليوم ليس سوى تحقير أبويه له في طفولته ، يستطيع أن يعالج نفسه بواسطة المنطق ، إذ بإمكانه أن يقنع نفسه بأن ذاك الزمن الذي كان يحقر فيه من قبل أبويه قد ولّى إلى غير رجعة وها هو اليوم أصبح فرداً بالغاً من أفراد المجتمع الذي لا يمكن أن يضمّر العداة له ، فإذا ما خطا خطوات صحيحة وأدى ما عليه من واجبات استطاع أن يثبت وجوده في مجتمعه ويكسب اهتمامهم وثناءهم .

وليس هناك من شك في أن محاسبة النفس على أساس المنطق والعقل من شأنها أن تخفّف من قلقه ومخاوفه وتبعث في أعماقه نور الأمل وتجعله متفائلاً إزاء مستقبله ، ويكون بذلك قد خطا الخطوة الأولى على طريق علاج مرض الخوف .

كسب الود :

٤ - بعد محاسبة النفس والشعور بالأمل ، ينبغي على الشاب إذا ما أراد أن يتجرأ على معاشره الناس والتحدث إليهم أن يتبع أبسط الأساليب الأخلاقية في أولى روابطه الاجتماعية وذلك بهدف كسب ودّ الناس ومحبتهم له . وقد أكدت كتب علم النفس أهمية هذه الخطوة بعد أن سبقها في ذلك الائمة الأطهار عليه السلام قبل ١٤ قرناً .

(١) نهج البلاغة ، الكلمة ١٩٩ .

« إن من علامات الفرد الخجول صعوبة تعرّفه على الآخرين وعدم
تمكّنه من التحدّث بطلاقة وحرية أمام الغير . وإذا ما أردنا أن
نكافح الخوف والخجل معاً علينا أن نلتفت إلى نقطتين صغيرتين
ولكن مهمتين في الوقت نفسه علّنا نستطيع التخلص كلياً أو جزئياً
من معاناة الخجل » .

إبدأوا بالسلام :

« النقطة الأولى أن نكون البادئين بالسلام على من نلقاه ، والنقطة
الثانية أن نكون مبتسمين بشوشين مع الآخرين . وقد يبدو هذا
العلاج في نظركم سخيلاً لكنه أنقذ الآلاف من المصابين بمرض
الخجل ، وأنتم ما عليكم إلا أن تجربوه ، وسوف لا تندمون^(١) .
قال أمير المؤمنين عليه السلام : لِكُلِّ دَاخِلٍ دَهْشَةٌ فَأَبْدَأُوا بِالسَّلَامِ^(٢) .

وعنه عليه السلام : البِشَاشَةُ جِبَالَةُ المَوَدَّةِ^(٣) .

نستشف مما ورد أن القساوة المفرطة التي تصدر عن الآباء والأمهات
بحق أبنائهم لا سيما الأطفال تشكل أحد عوامل الخوف الذي يسيطر على
الإنسان في فترة شبابه . فالطفل الذي يربى وسط جو من الاضطراب والقلق
والخوف يسود محيط أسرته يفتقر إلى الثقة بالنفس ، وعندما يكبر يتملكه
الخوف من معاشره الناس ، مثل هذا الشاب إذا ما عزم وتوكل فإنه قادر على
حل عقده الباطنية والتخلص من قيود الخوف والقلق .

المحبة المفرطة :

ثمة عوامل أخرى للخوف منها المحبة المفرطة التي يتلقاها الأبناء في
طفولتهم . فالطفل الذي يربى في كنف أبوين جاهلين يغدقان عليه بالحب
والحنان دون حساب فيصبح مدللاً مغروراً ، والطفل الذي لم يوبّخه أبواه لسوء

(١) البهجة ، ص ٥٦ .

(٢) غرر الحكم ، ص ٥٧٩ .

(٣) مجموعة ورام ، ص ٣١ .

فعاله ، وكذلك الطفل الذي يربى على التنويه دون التوبيخ والثواب دون العقاب والأمل دون الخوف تسوء تربيته ، مثل هؤلاء الأطفال عندما يكبرون ويدخلون المحيط الاجتماعي يواجهون مشاكل متعددة في مسألة التكيف مع الناس وإحراز الشخصية ، وسرعان ما تؤدي بهم هذه المشاكل إلى الفشل . فهم يتوقعون أن يفرح الآخرون لدى رؤيتهم ويحترمونها وينفذون لهم ما يريدون رغم عدم امتلاكهم لشروط الكفاءة .

الخوف والإنقطاع عن المجتمع :

وعندما يرى مثل هؤلاء الذين لم يُرفض لهم طلب يوماً من قبل أسرهم وليس في قاموسهم أي معنى للاعتراض والتجاهل ، عندما يرون أن الناس يتجاهلونهم ويستهزؤون بهم ويسخرون من توقعاتهم غير المبررة فإنهم ينكفئون وينقطعون عن المجتمع خوفاً من سخرية الناس وإهاناتهم .

وهذه الفئة من الناس تشمل في الغالب الرجال والنساء الذين انقطعوا عن الناس وهجروا الحياة بسبب سوء التربية .

«يقول «ماك برايد» : إنلتقت في وسط مدينة لندن مؤخراً ناطقاً متجولاً في سلامة تامة وعافية ، وبينما كنا نتحدث شكالي أن الجميع كانوا يحبونه عندما كان طفلاً صغيراً إلا أن أحداً لا يهتم له الآن بعد أن أصبح رجلاً ، وكان هذا الناطق المتجول يمسك بقبعته ويجمع قوت يومه من المازة تماماً كالمسول . لو أن هذا الرجل قد كرس جلّ وقته واهتمامه من أجل التعليم لكان بمقدوره اليوم أن يؤمن قوت يومه بسهولة وأن يكون مجموعة من الأصدقاء حوله . لكنه كان خائفاً من الحياة ، وحسبما بدا لي من حديثه كان يمتنى أن يعود طفلاً صغيراً لكنه لم يكن مستعداً لأن يعتمد على نفسه» .

«إن الطفل الصغير المدلل لن يستطيع مقاومة مصاعب الحياة تماماً

كالزهرة المنزلية التي تفقد المقاومة أمام رياح الشتاء الباردة^(١) .

الخوف من تحمّل المسؤولية :

تبقى أفكار الإنسان الذي تمتع بدلال مفرط في كنف أبويه وترعرع ضعيف الإرادة والشخصية ، صبيانية حتى في مرحلة شبابه وكهولته ، ويبقى عاجزاً عن التآلف مع الناس ، ويخشى تحمّل أية مسؤولية اجتماعية . فهو لن يتجرأ حتى على اختيار شريكة له في حياته ، حتى وإن اضطر لذلك تراه يختار امرأة تكبره في السن لتكون له بمثابة الأم ، وإذا ما اتار امرأة في سنه توقع منها أيضاً أن تكون له أمّاً قبل أن تكون زوجة .

ومثل هذا الشاب مثل ذلك الشاب الذي يعاني من عقدة الحفارة ، بإمكانه إذا ما أراد أن يبادر إلى محاسبة نفسه ويقف على أسباب حالة الخوف النفسية التي تسيطر عليه ويتخذ العلاج اللازم وفق برنامج عملي صحيح للتخلّص من شرّ خلقه الذميم .

الخوف من المرحلة الدراسية :

من أنواع الخوف الأخرى التي تثير قلق الشاب وتشوش أفكاره وتسهم في انهيار شخصيته الخوف من المرحلة الدراسية والحرمان من التعليم ، وهذا الخوف يظهر في الشباب لا سيما أولئك الذين أخفقوا مرة أو أكثر في الامتحان . إلا أنه من الممكن أيضاً إزالة هذا الخوف وتوفير سبل السعادة والنجاح من خلال محاسبة النفس واستشارة أصحاب الفكر والمعرفة .

« كان هناك طالب جامعي يحاول أن يبرهن من خلال حديثه على عدم أهمية علم الرياضيات أو كان يتحدث عن عجزه في هذا الحقل إن لم يجد من يصغي إليه ، وكل ذلك كان بسبب رسوبه في هذه المادة مرة أو مرتين . وذات يوم التقى هذا الشاب لحسن

(١) عقدة الحفارة ، ص ١٥ .

حظه أستاذاً حنوناً حاول بعد عدة لقاءات أن يثبت له أهمية علم الرياضيات وضرورته وقدرة الطالب عليّ تعلّمه واستيعابه ، فأشرف عليّ تدريسه حتى أصبح الطالب الذي كان حتىّ الأمس يشعر بحقارته وعدم كفائته أمام الأستاذ عالماً رياضياً شهيراً^(١) .

وثمة أنواع أخرى من الخوف يبتلي بها الإنسان خلال مرحلة شبابه ، لكنها قابلة للعلاج بالعزم والإرادة .

قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام : **إِنْ كُنْتُمْ لِلنَّجَاةِ طَالِبِينَ فَارْفُضُوا الغَفْلَةَ وَاللَّهُوَّ وَالزُّمُوَ الجِهَادَ والجِدَّ**^(٢) .

(١) البهجة ، ص ١٠٦ .

(٢) غرر الحكم ، ص ٢٧٧ .

المحاضرة الثانية والعشرون

حول الشاب والحرية

بسم الله الرَّحْمَن الرَّحِيم

قال تعالى في محكم كتابه : ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾^(١) .

الحرية وبلوغ الكمال :

تعتبر الحرية من أكبر النعم الإلهية وأرقى عناصر السعادة المادية والمعنوية للإنسان . وتعتبر الرغبة في الحرية والتحرر الموجودة بالفطرة في أعماق كل إنسان من أجمل الرغبات الطبيعية لدى هذا الإنسان .

ففي ظل الحرية يستطيع العقل أن يفكر جيداً ، ويقدر استطاعته يكون حجم إدراكه للحقائق . وفي ظل الحرية بمقدور الإنسان أن يبرز استعداداته المادية والمعنوية ويستثمرها ليصل بالتالي إلى الكمال الذي يليق به . وفي محيط تسوده الحرية يمكن إرضاء جميع الرغبات الغريزية والميول الطبيعية بالمقدار الصحيح الذي يجعل الحياة في نظر الإنسان جميلة ولذيذة .

وخلاصة القول إن جميع أبناء البشر بمختلف قومياتهم وشعوبهم ينشدون الحرية ويعشقونها وينبذون الأسر والقيود ، وإذا ما فقدوا حريتهم يوماً فإنهم سيحاولون بكل ما في وسعهم استعادتها .

(١) سورة القيامة ؛ الآية : ٥ .

الحيوان والرغبة في الحرية :

ليس الإنسان وحده من يرغب في الحرية ويسعى إلى تحطيم القيود من أجل بلوغها ، فهناك رغبة مماثلة تسيطر على عالم الحيوان . فعندما يوضع طائر طليق داخل قفص فإنه يفقد صوابه ولا يقر له قرار ، فيسيطر عليه الخوف والقلق ويتخبط يميناً ويساراً بشكل جنوني علّه يستطيع أن يجد منفذاً يفرّ عبره لينقذ نفسه من الأسر ويستعيد حريته .

وبالرغم من أن الصياد قد وفر للطائر داخل القفص كافة مستلزمات العيش من ماء وطعام ، إلا أن الطائر لم يأبه لذلك وكأنه يريد أن يفهم الصياد بطريقته الخاصة أن لا قيمة للماء والطعام بدون حرية ، ويواصل الطائر الحبيس مساعيه أملاً في استعادة حريته .

الفرق بين الحرية والإفراط :

لا يخفى على أحد أن ثمة فرقاً بين الحرية والإفراط أو اللامبالاة من وجهة نظر الدين والعلم . فالحرية هي سبيل الموقية والنجاح ، والإفراط هو طريق الانحراف والسقوط . والحرية من شأنها أن تحيي الفضائل الأخلاقية وتسمو بالإنسان ، بينما الإفراط أو اللامبالاة من شأنهما قتل الفضيلة في الإنسان والهبوط به إلى مستوى الحيوانات . الحرية تجعل الإنسان يستخدم غرائزه الطبيعية في محلها وتأخذ بيد المجتمع نحو السعادة ، أما اللامبالاة فإنها تجعل الإنسان يفرط في استخدام غرائزه لتغرقه في مستنقع الفساد والرذيلة . والحرية عامل من عوامل النظم الاجتماعي وبناء الحضارة الإنسانية ، بينما اللامبالاة تؤدي إلى التسيّب والفوضى وترتك النظم الاجتماعي . وأخيراً الحرية مشعل ينير درب الإنسانية ويهدي الإنسان إلى سبيل سعاده ، أما الإفراط فهو بمثابة نار مشتعلة تستطيع أن تأتي على جذور الفضيلة وأساس السعادة .

الشباب والرغبة في الحرية :

من الرغبات المدمرة التي تفتتح بقوة في أعماق الإنسان عند بلوغه مرحلة الشباب فتسيطر على كافة أحاسيسه ومشاعره ، الرغبة في الحرية ، ولكن أية حرية ؟ ، إنها ليست الحرية المعتدلة المعقولة بل الحرية المفرطة والحادة .

إن الشاب بطبعه يرغب في الحرية المطلقة الخارجة عن إطار القيود والشروط . والحديث عن العقل والمنطق والقانون والضوابط والمصلحة والحدود يعتبر إلى حد ما حديثاً مرفوضاً ولا أهمية له من وجهة نظر الشاب . والأمر الذي يستحوذ على كل اهتماماته في هذه الفترة هو كيفية إرضاء غرائزه وإشباع رغباته النفسية ، وهذا ما لا يتحقق إلا بواسطة الحرية المطلقة التي لا تحدّ بحدود . ومن هنا قيل ان مرحلة الشباب هي مرحلة الافراط والكهولة مرحلة الاعتدال والشيخوخة مرحلة التحفظ .

الشباب والتهوّر :

«يقول «ويل ديورانت» : إن الشاب الذي ينطلق في مجتمعه بعد سنين طويلة عاشها في كنف أبويه يشعر في الوهلة الأولى بالحرية ويفرق في نشوتها حتى يخال له أن باستطاعته أن يسيطر على العالم ويعبث به كيفما شاء» .

«الشباب بطبعه متهوّر وشجاع ، يحب المغامرات أكثر من الطعام ، إنه يحب القيام بأفضل الأعمال وأصعبها وأكبرها ، لأنه يمتلك طاقة كبيرة ويسعى بجدية إلى تحرير هذه الطاقة ، لذا فهو يحب كل عمل جديد محفوف بالمخاطر» .

«ويقاس شباب المرء بحجم المخاطر التي يقدم عليها . إن الشاب يرضخ مكرهاً للقوانين والأنظمة ، فهو حينما يجد نفسه مضطراً للصرخ تدعوه القوانين والآداب إلى التزام الهدوء ، وحينما يجد

نفسه مندفعاً للقيام بنشاط ما تدعوه تلك القوانين إلى التعقل وعدم الانفعال ، وعندما يكون غارقاً في نشوته تدعوه إلى الصحوة وعدم الغفلة» .

«إن مرحلة الشباب هي مرحلة الفلتان من القيود والحدود ، وشعار هذه المرحلة «الإسراف سرّ النجاح» فالشباب لا يعرف الكلل أو الملل ، وهو يحنياً ليومه دون أن يتحسّر على أمسه أو يخشى غده ، إنه يتسلق بروح مرحة ونفس مطمئنة مرتفعاً تحجب قمته الطرف الآخر من المرتفع عن نظريه» .

الشباب وحدة المشاعر :

«الشباب مرحلة المشاعر الحادة والرغبات الجامحة . حيث لا يعكّر التكرار الممل واليأس والقنوط صفو الحياة ، وما هو مهم عند الشاب حماسه واندفاعه ، واللذة عند الشاب هي في حرية غرائزه» .

«ويرى غالبية الناس أن المرحلة الحقيقية للحياة هي مرحلة الشباب ، فهم في سنّ الأربعين ليسوا سوى ذكرى وخاطرة ورماد لنار كانت متأججة يوماً ما ، والمؤسف في هذه الحياة أن الإنسان لن يبلغ الحكمة والعقل قبل أن يفقد شبابه (ليت الشاب كان يعلم والشيخ كان يستطيع)»^(١) .

الشباب والرغبة في الحرية اللامحدودة :

إن مرحلة الشباب هي مرحلة عدم الاستقرار والتطرّف ، والتمرد والعصيان . فالشاب يرغب في تجاهل الحدود والضوابط الاجتماعية وضرب كل

(١) مباحث الفلسفة ، ص ٤٩١ .

الآداب والتقاليد بعرض الحائظ والتمتع بالحرية المطلقة إشباعاً لميوله ورغباته . ووصولاً إلى أهدافه الباطنية وأهوائه النفسية ، لأن الحرية القائمة على الضوابط والقوانين الاجتماعية لا تلي أمانيه ، كما أن إرضاء الميول الغريزية ضمن حدود العقل والمصلحة لا يسره ولا يرضيه .

إن أحاسيس الشاب وعواطفه هي حادة وملتهبة بطبيعتها ، لذا فهو يرى أن الحرية ضمن حدود المصلحة والقوانين الاجتماعية ناقصة وغير وافية لأنها تعجز عن إشباع غرائزه ورغباته الجامحة .

الشاب وثورته ضد القيود :

أضف إلى كل ما ذكرناه أن الشاب الذي تخلّص لتوّه من الحقارة التي كان يشعر بها من طفولته ومن التبعية للكبار يريد بأساليبه الحادة والمفرطة أن يبدي ردة فعل قوية إزاء القيود التي كانت تقيدته في طفولته للتعويض عن حقارة الماضي ، وهذا الأمر يصعب تحقيقه في إطار الحريات العقلية والقانونية ، لذا فهو أي الشاب يتخطى في بعض الحالات حدود الحرية العقلانية ليرتكب أعمالاً ضارة وغير مباحة .

الشاب والتنافس الاجتماعي :

تعتبر الحياة ساحة صراع ومنافسة ، وحينما يصطدم الشاب اليافع الذي لم ير من الحياة حلاوتها أو قساوتها بعد بالتنافس والتدافع الاجتماعي وهو خلاف ما كان يتوقعه ، فيفشل تدبّ فيه روح التمرد والعصيان فيتخطى حدود كل التوانين وقد يرتكب ممارسات خطيرة وأعمالاً لا تحمد عقبها للتخفيف من حدة غضبه .

وعندما يختلط الشاب بالمجتمع يدرك مفهوم الشرّ والقبح ، وينتابه الفزع حينما يطّلع على طبيعة الإنسان . فهو عندما كان داخل الأسرة كان هناك مبدأ سائد يقوم على أساس تبادل التعاون

ومساعدة القوي للضعيف وتقسيم المنافع ، أما اليوم فهو يرى
المبدأ السائد في المجتمع يقوم على أساس التنافس والتناحر من
أجل البقاء وإقصاء الضعيف والإبقاء على القوي (بمعنى أن القوي
يأكل الضعيف) ، وحينما يصطدم الشاب بهذا المفهوم يهتز كيانه
ويثور^(١) .

خطر الحرية المطلقة :

بالرغم من أن الشاب يميل بطبعه إلى الحرية المطلقة والتطرف
والافراط ، إلا أن الاستسلام لهذا الميل ليس في مصلحته بتاتاً . فإذا كان
الشاب يحب حياته ويطمح لسعادتها عليه أن يتجنب الافراط في إشباع غرائزه ،
ويقتنع بالحرية ضمن حدود المصلحة خلافاً لرغبته . وينبغي عليه أيضاً أن
يغض الطرف عن تمنياته التي لا حدود لها وأن يقمع نزواته وإلا فإن النفس
الأمارة ستجره إلى واد سحيق حيث لا يعرف طعم السعادة والهناء .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : **إَقْمَعُوا هَذِهِ النَّفْسَ فَإِنَّهَا طَلِقَةٌ إِنْ
تَطِعُوهَا تَنزَعْ بِكُمْ إِلَى شَرِّ غَايَةٍ**^(٢) .

الحرية والتفسخ الخلقي :

«إن الدوافع الموجودة فينا أشبه ما تكون بالرياح التي تكون
ضرورية جداً لحركة السفن الشراعية ، ولكن هل نستطيع أن نُبقي
الأشرعة مرفوعة تتلاعب بها الرياح كيفما كان اتجاهها ؟ ، كلا ،
لأنها في هذه الحالة ستؤدي إلى إحادة السفينة عن مسيرها .
وهكذا الأمر بالنسبة للدوافع ، فإذا ما استسلم لها الإنسان جعلته
عبداً لها ذليلاً . وكل منّا قد صادف في حياته الكثير من الناس

(١) مباهج الفلسفة ، ص ٤٩١ .

(٢) غرر الحكم ، ص ١٣٨ .

ممن هم عبيد للحرص والطمع والشهوات والعدوانية والقمار وما شابه ذلك . إذن فالحرية المطلقة إذا ما منحت لأي من هذه الدوافع والصفات فإنها ستؤدي إلى تفسّخ الخلق والطباع .

«إن غلبة المعرفة على الميل والرغبة هي عين العقل وأساس ضبط النفس وسلاحه ، لأن ضبط النفس يعدّ من أهم عوامل تكوين الخلق والطباع ، فإما أن تؤدّبنا الحياة وتعلّمنا وإما أن نضبط أنفسنا ونمسك بلجامها»^(١) .

ضرورة تعديل الغرائز :

وهنا نرى من المفيد جداً أن نتحدث ولو بشكل مختصر في بحثنا هذا عن حدود الحرية وموانعها علّنا نستطيع أن نفهم الشاب أنه لا يمكن التمتع بالحرية المطلقة مع وجود الموانع الطبيعية ، وأن الإفراط في إشباع الغرائز يحطّم الإنسان ويقضي على سعادته ، وأن تعديل الغرائز وتحديد الحرية يشكلان ضرورة حياتية للفرد والمجتمع لا يمكن تجاهلها أو انكارها .

الحرية والموانع الطبيعية :

إن العامل الأول الذي يحدّ من حرية الإنسان بشكل ملحوظ منذ طفولته حتى نهاية عمره ويضطره إلى التغاضي عن الكثير من رغباته وميوله ، هو الموانع الطبيعية .

فالطفل بطبعه يحب الذهاب إلى حيث يشاء ويحصل على ما يشاء ويتناول كل ما يحلّو له ، ويغتاظ من مراقبة مربّيه له وتدخّله في شؤونه . ولكنه عندما يسقط من مكان مرتفع ويصاب بأذى ، أو عندما يقترب من النار فيلسعه لهيبها ، أو حينما يقع في بركة من الماء فيكاد ينقطع نفسه ، أو حينما يصاب باضطرابات معوية نتيجة تناوله طعاماً فاسداً ، يدرك حينها أنه ليس حرّاً كما يريد

(١) مباهج الفلسفة ، ص ٢٢٨ .

ويشتهي ، ولا يمكنه تحقيق كل ما يبتغيه . وكلما كبر ونما وازدادت قوة إدراكه عرف حدود الحرية التي يجب عليه أن يتحرك ضمنها .

وتنقضي مرحلة الطفولة وبعدها مرحلة الشباب وتحلّ مرحلة الشيخوخة ، ولكن القوانين الطبيعية ما زالت قائمة كسدّ قوي يحول بين الإنسان والكثير من رغباته وميوله .

والإنسان مضطر لاتباع قوانين الخلق والالتزام بمقررات نظام التكوين وتطبيق رغباته وميوله وفق هذه القوانين والمقررات . وكل من تسول له نفسه تخطّي حدود هذه القوانين لاشباع رغباته وأهوائه النفسية والتمرد عليها ضمن إطار الحرية المطلقة ، فإنه سيتلقّى الجزاء لا محالة وسيعاقب بحجم تخلفه وتمردّه .

جزاء الإفراط في إشباع الغريزة :

إن الإفراط في إشباع الغريزة الجنسية يؤدي إلى ضعف في الجسم والأعصاب ، كما أن الإدمان على الكحول يسبب مرضاً في الكبد وأعراضاً أخرى ناجمة عن هذا المرض ، كذلك الأمر بالنسبة للتخمة الناجمة عن الإفراط في تناول الطعام والأرق الليلي الناتج عن انفعالات عصبية تصيب لاعب القمار والإفراط في أية رغبة خلافاً للقوانين الطبيعية ، كلها لها مجازاتها وعقابها .

إلزامات القوانين الطبيعية :

«إن القوانين الطبيعية هي قوانين عالمية ومتشعبة ولا يستطيع أحد في أي بلد كان التمرد عليها دون أن ينال عقابه . والقوانين الطبيعية قوانين ثابتة وقائمة منذ أن قامت الحياة وإلى ما دامت» .
«فلا السرعة الضوئية تتغير ولا حالة الإنسان إزاء قوة الجاذبية . ولم يستطع الإنسان وسوف لا يستطيع أبداً الجري فوق الماء أو التحليق في السماء . وقوانين الوراثة هي لن تتغير ،

فالمجنون لا يمكن أن يولد إلا من أبوين مجنونين . وخلايا الإنسان نُسجت بحيث تتأثر من جرّاء الكحول»^(١) .

«إذن ، فهناك تضاد قائم بين حريتنا في التفكير والعمل وبين إلزامات القوانين الطبيعية . ومن يرغب في العيش عليه أن يتبع أسساً دقيقة ويحترم الطبيعة الحقيقية للأشياء . فالإستمتاع بالحرية المطلقة من شأنه أن يؤدي بالإنسان ومن يحيط به إلى الإنحراف والضلالة والموت»^(٢) .

ونستشف مما ورد ذكره أن قوانين نظام التكوين تشكل المانع الأول الذي يحول دون استمتاع الإنسان بالحرية المطلقة اللامحدودة . وينبغي على الشاب الذي يريد أن يجنّب نفسه عقاب الطبيعة أن يتغاضى عن رغبته في نيل الحرية المطلقة ويعمل على إرضاء رغباته ضمن حدود مقررات الخلقة .

تضادّ الغرائز :

العامل الثاني الذي يحدّ من حرية الإنسان ويصد الشباب عن إشباع بعض من رغباتهم ، هو التضاد والتضارب بين بعض الغرائز والرغبات النفسية ، بحيث لا يمكن إرضاء أي من الرغبات إرضاءً كاملاً إلاّ بقمع غيرها . وعلى سبيل المثال تتناول بالبحث والتحليل وبيجاز الرغبة في تحقيق عزّ اجتماعي والرغبة في جمع ثروة من المال ، وكلا الرغبتين من الرغبات الطبيعية .

إن الإنسان يرغب في اكتساب معرّة الناس واحترامهم ، وهذه الرغبة تعدّ من فروع غريزة حبّ الذات الموجودة بالفطرة في أعماق كل إنسان ، والإنسان يبذل ما بوسعه لتحقيقها .

وإرضاء هذه الرغبة الإنسانية السامية لن يحصل عليها إلاّ من كان ذا همّة

(١ و ٢) سبل الحياة ، ص ٢١ و ٤٠ .

عالية ونفس عزيزة وكريمة ، فالإنسان الضعيف المنحط يعجز عن الحصول على معزة الناس واحترامهم .

الحرص والطمع :

والإنسان من جهة ثانية يحمل في أعماقه غريزة التملك وجمع المال ، وهو يفرح كثيراً ويُسرّ إذا ما استطاع إرضاء هذه الغريزة .

والطريف في الأمر أن الاحساس بحب المال إحساس كبير ومتجدّر في أعماق الإنسان ، بحيث انه لو جمع من المال ما يزيد عن مائة مرة مما يحتاجه طوال حياته فإنه لن يشبع ولا يقنع ويبقى يفكر بدافع من الحرص والطمع بطريقة يزيد بها ثروته .

قال رسول الله ﷺ : لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَإِدْيَانٍ مِنْ ذَهَبٍ لَابْتَغَى وَرَائَهُمَا ثَالِثًا^(١) .

إن المصدر الأساس للحرص والطمع للذين يسيطران على الإنسان ويدفعانه إلى التفكير بجمع ثروة من المال ، هو حالة القلق وعدم الاعتماد التي يعيشها الإنسان إزاء المستقبل المجهول ، فهو يخاف على مستقبله من الفقر والعوز ، لذا يحرص على جمع المال ويخجل بما معه على الآخرين .

قال رسول الله ﷺ : إِنَّ الْجُبْنَ وَالْبُخْلَ وَالْجِرْصَ غَرِيزَةٌ وَاحِدَةٌ يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ^(٢) .

بالعقل نهائي الغرائز :

إذا ما أخذ الإنسان جانب العقل وراعى حدود المصلحة والاعتدال في إشباع غريزة التملك وإرضاء الرغبة في جمع المال ، وسعى إلى تعديل هذه

(١) مجموعة ورّام ١ ، ص ١٦٣ .

(٢) سفينة البحار ١ ، الحرص ، ص ٢٤٤ .

الرغبة في ذاته وجعل الهدف منها جمع المال بمقدار معيشته ، فإن بإمكانه أن يحصل على المال اللازم وأن يحافظ في الوقت ذاته على شرفه وكرامته وعزة نفسه في مجتمعه ، ليعيش بقية عمره مطمئناً مرتاح البال .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : مَنْ أَقْتَصَرَ عَلَى بُلْغَةِ الْكَفَافِ فَقَدْ أَنْتَضَمَ الرَّاحَةَ ^(١) .

وفي مثل هذه الحالة لا يحدث أي تضاد بين الرغبة في تحقيق العز والاجتماعي والرغبة في جمع المال ، كما أن اكتساب المال بمقدار سد احتياجات الحياة دون الحاجة للناس من شأنه أن يحفظ للإنسان كرامته وعزّه الاجتماعي .

قال النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم : عَزُّ الْمُؤْمِنِ اسْتِغْنَاؤُهُ عَنِ النَّاسِ ، وَفِي الْقَنَاعَةِ الْحُرِّيَّةُ وَالْعِزُّ ^(٢) .

الحرص وإماتة العز:

أما الإنسان الذي لا يأخذ جانب العقل ولا يراعي المصلحة والاعتدال في إرضاء رغبته في جمع المال ، ويتبع أهواءه بحرية مطلقة ، ويحرص على جمع المال ، فإنه يكون قد أمات عملياً عزة نفسه وكرامته الاجتماعية ، لأن العز الاجتماعي لا يتوافق والذل أبداً .

قال الإمام الباقر عليه السلام في وصيته لجابر : وَأَطْلُبْ بَقَاءَ الْعِزِّ بِإِمَاتَةِ الطَّمَعِ ^(٣) .

الحرص والذل:

إن الحرص على الدنيا يرضى بالذل والهوان ليحصل على مبتغاه ، ولن

(١) نهج البلاغة ، الكلمة ٣٦٣ .

(٢) مجموعة ورّام ١ ، ص ١٦٩ .

(٣) سفينة البحار ، طمع ، ص ٩٣ .

يأبى التملق والتزلف ، ومثله يعجز عن المحافظة على كرامته وعزة نفسه . سُئِلَ أمير المؤمنين عليه السلام : أيُّ ذلٍّ أذلُّ ؟ قال : الحرصُ على الدنيا ^(١) .

وعنه عليه السلام : الطامعُ في وثاقِ الذلِّ ^(٢) .

إخفاق الحريرى :

إن من سوء حظ الإنسان الحريرى أنه رغم كل ذلّه وخضوعه لن يحقق مبتغاه ، وهكذا يرحل عن الدنيا . ذلك لأنه وعلى سبيل الإفتراض لو جمع كل مال الدنيا لما اقتنع ولا اكتفى لِمَا له من نفس طماعة جشعة .

نزاع نفسي :

عن حمزة بن حمران قال : شكَا رَجُلٌ إِلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ (الصادق) عليه السلام أَنَّهُ يَطْلُبُ فَيُصِيبُ وَلَا يَقْنَعُ وَتَنَازَعُهُ نَفْسُهُ إِلَى مَا هُوَ أَكْثَرُ مِنْهُ ، وَقَالَ عَلَّمَنِي شَيْئاً أَنْتَفِعُ بِهِ . فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام : إِنْ كَانَ مَا يَكْفِيكَ يُغْنِيكَ فَأَذْنِي مَا فِيهَا يُغْنِيكَ ، وَإِنْ كَانَ مَا يَكْفِيكَ لَا يُغْنِيكَ فَكُلُّ مَا فِيهَا لَا يُغْنِيكَ ^(٣) .

ونستشف أن تضاد عدد من الغرائز والرغبات الطبيعية هو من جملة العوامل التي تحدّ من حرية الإنسان وتمنعه من تحقيق بعض أمانيه .

ضرورة تعديل الميول :

ينبغي على الشاب الذي يريد تحقيق كافة رغباته الطبيعية وينشد السعادة في حياته أن يتجاهل الحرية المطلقة ويكفّ عن الإفراط والتفريط . كما يتوجب عليه أن يسعى بحكمة وتعلّل إلى تعديل ميوله النفسية وإشباع كل منها بالمقدار السليم ضمن حدود المصلحة .

أما العامل الثالث الذي يقيّد حريّتنا المطلقة ويمنعنا من تحقيق بعض من

(١) المصدر السابق ، ١ ، حرص ، ص ٢٤٤ .

(٢) نهج البلاعة ، الكلمة ٢١٧ .

(٣) الكافي ، ٢ ، ص ١٣٩ .

رغباتنا وميولنا هو لزوم مراعاة القوانين والضوابط الموضوعة بهدف تأمين سبل حياة اجتماعية سليمة وحفظ أساس الحضارة والتمدّن .

وبعبارة أوضح نقول إن الإنسان أياً كان يرغب في مواصلة الحياة والتلذذ بطبيعتها . والإنسان يحب أن يبرز استعداداته الباطنية إلى الوجود ويبلغ الكمال اللائق به ، وبالتالي فإن الإنسان يبحث عن سعادته المادية والمعنوية ، ولكنه لا يستطيع بلوغ هذا الهدف إلا بتشكيل حياة اجتماعية تكون قائمة على أساس التعاون بين أفراد المجتمع الواحد .

القوانين وتحديد الحرية :

إن تشكيل مجتمع متمدّن يستلزم وضع سلسلة من القوانين والمقررات تُعيّن حدود الأفراد وحقوقهم وتُلزم كل فرد بعدم انتهاك حقوق الآخرين . وما يضمن تنفيذ ونجاح مثل هذه القوانين والمقررات هو الحدّ من الحرّيات وسعي الأفراد لقمع بعض الغرائز والرغبات في أعماقهم .

فالذي يرى أن المدنية هي السبيل لسعادة الإنسان ، وأن الحياة الاجتماعية هي التي تضمن سعادة الإنسان وهنا ، عليه أن يقبل بقوانينها ويسعى إلى تحديد غرائزه وتعديل ميوله لما فيه مصلحة المجتمع .

هدف التمدّن :

«يتم عادة تحديد هدفين لتحقيق المدنية ، مجابهة ما يعارض القوانين الطبيعية وتنظيم الحياة الاجتماعية . ولكن هذين الهدفين ليسا في الحقيقة سوى سبيلين يهدفان إلى تأمين ما يصبو إليه الإنسان ، ألا وهو السعادة في الحياة . وبعبارة أوضح نقول إن أمل الإنسان المنشود هو بلوغ السعادة ، وما الهدفان المذكوران إلا وسيلة تساعد الإنسان في بلوغ مرامه» .

«يجب أن نعلم أن السعادة لا تكمن فقط في إرضاء الجانب

المادي للغرائز ، بل يمكن بلوغها أيضاً من خلال إشباع الميول
المنبثقة من هذه الغرائز . فالتصعيد في الغريزة الجنسية قد يؤدي
إلى ظهور ميول نحو الجمال والفن وغيرهما ، وغيرهما ، وإشباع
هذه الميول من شأنه أن يجلب السعادة للإنسان» .

«والمدينة تجبر الإنسان على إجراء تغيير في الكثير من إثاراته
الغريزية وتعديلها بما يتناسب ومحيطه الاجتماعي ، ومن هنا
تصبح المدينة ملزمة بإرضاء هذه الغرائز والميول»^(١) .

تحديد الحرية دليل على الحرية :

إن قوانين المدينة أشبه ما تكون بالسلاسل والقيود التي كَبَل بها الإنسان
نفسه بملء إرادته ليحدّ عملياً من حرّيته . وهنا قد يتبادر إلى الأذهان هذا
السؤال وهو : ألا تتعارض القوانين التي يضعها الإنسان للحدّ من حرّيته مع
رغبته الفطرية في الحرية ؟ ، أي أن الإنسان الذي يعشق الحرية بفطرته وطبعه
لماذا يضع قوانين من شأنها أن تسلبه حرّيته أو على الأقل تحدّ منها ؟ .

الجواب هو أن هذه الخطوة ليس فقط لا تتعارض ورغبة الإنسان في
الحرية ، وإنما اعتمادها واعتماد كافة قوانين الحياة لهو دليل بارز على حرية
الإنسان .

المريض مثلاً الذي يحتاج إلى عملية جراحية ليشفي من مرضه ، فيذهب
إلى المستشفى بإرادته ويعرض نفسه على طبيب جراح ويحرم نفسه عملياً من
الحرية لعدة أسابيع قد يرقدها في المستشفى ، هذا المريض قد أثبت حرّيته
بحرمانه نفسه الحرية من أجل سلامته .

العامل مثلاً الذي يقضي عدة ساعات يومياً في المعمل أو المصنع أو في
أعماق المناجم لتأمين متطلبات العيش ، هل يكون قد حرم نفسه من

(١) أفكار فرويد ، ص ١١٥ .

الحرية ؟ ، كلا ، إنه يثبت حرّيته من خلال تقييدها بما يوفّر له العيش الكريم .

حدود الإنسان داخل المجتمع :

إن ضرورة قيام المدنية وتشكيل حياة اجتماعية توجب على الإنسان أن يستخدم حرّيته ويسعى ببصيرة إلى سنّ قوانين تحدّ من رغباته وميوله ، حتى يعرف كل فرد من أفراد المجتمع حدوده ويجعل المصلحة العامة أساس تعامله مع الناس واختلاطه بهم .

إن الإنسان إنما حرم نفسه من الحرية المطلقة ووضع قوانين تحدّ من حرّيته ، لكي يضمن الحرية المعقولة التي تضمن سعادته ، ولكي يعيش كل الناس بسلام ضمن أطر الحرية الصحيحة في منأى عن الاعتداءات والتجاوزات ، وهذا ما لا يتعارض ورغبة الإنسان في الحرية ، لأنه بحدّ ذاته دليل على حرّيته .

يقول «ويل ديورانت» : أول شرط للحرية هو تحديدها وتقييدها .
فالحياة قائمة على تعادل مجموعة من القوى شأنها شأن الكرة الأرضية التي تستقر في الفضاء نتيجة تعادل مجموعة من القوى .
«والناس أيضاً متفاوتون من حيث القدرة والشجاعة ، وإن لم تكن هناك قيود وحدود لنشبت الخلافات بينهم وأدت إلى صراعات مبررة لا نهاية لها»^(١) .

بداية الحرية :

يقول «جان ديوي» : إن إدراك ضرورة وضع قوانين خاصة له دور كبير في ضمان الحرية . فالحرية في الحقيقة هي عبارة عن إدراك حقيقة ضرورة ما . وعند ما نستخدم القوانين لتجنّب بعض العواقب المحتملة أو تأمين نتيجة ما تكون حرّيتنا قد بدأت

(١) مباحث الفلسفة ، ص ٣٤٥ .

فعلًا^(١) .

إن تشكيل حياة اجتماعية لتأمين سعادة الإنسان المادية والمعنوية ضرورة ملحة كانت وما زالت وستبقى قائمة . ولا شك أن قيمة المدنيات في كل عصر وزمان تختلف باختلاف القوانين السائدة وتباين أفكار الناس .

الحقوق على أساس العدل :

إن أفضل حياة اجتماعية ومدنية إنسانية هي تلك التي تبني أسسها على مبدأ تعيين حدود وحقوق أفرادها على أساس العدل والإنصاف . ففي الحياة الاجتماعية يستفيد الناس من مبدأ التعاون ويطوون مسيرتهم بكفاءة ولياقة نحو الرقي والتكامل ، والقانون لا يسمح لأحد من الناس بممارسة الظلم بحق الآخرين أو انتهاك حقوقهم .

وفي المدنية الإنسانية يتمتع كل الناس بالحرية الفردية ، ويستطيعون طوي سبيل الفلاح والنجاح بكل حرية ، لكنهم لا يستطيعون بلوغ حد الإفراط في أي عمل يقومون به ، كما لا يحق لهم استغلال حرياتهم الفردية بما يسوء المصلحة العامة .

جزاء الإعتداء على حقوق الآخرين :

إذا راعى الأفراد قوانين المدنية في الحياة الاجتماعية وسعوا إلى تحديد رغباتهم وميولهم ضمن أطرها لاستطاعوا أن يحفظوا حرياتهم مدى الحياة ويستفيدوا من مزايا المدنية . أما من يتمرّد على تلك القوانين وينتهك حقوق الآخرين فإنه يُحرّم من حريته القانونية لمدة معينة أو إلى الأبد ، وقد يُحرّم في بعض الحالات من حقّه في الحياة .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : مَنْ قَامَ بِشَرَايِطِ الْحُرِّيَّةِ أَهْلٌ لِلْعِتْقِ ، وَمَنْ

(١) الأخلاق والشخصية ، ص ٢٧٨ .

قَصَرَ عَنْ أَحْكَامِ الْحُرِّيَّةِ أُعِيدَ إِلَى الرَّقِّ (١) .

تحديد الحرية :

يقال إن ثمة عبارة باتت تتناولها شعوب العالم المتحضرة اليوم وهي [لكل فرد في المجتمع الحق في استخدام حريته بما لا يضر بحرية الآخرين] ، لقد أدركت شعوب العالم من خلال هذه العبارة القصيرة والجامعة في الوقت ذاته أن تحديد الحرية الفردية والتغاضي عن بعض الرغبات والميول النفسية هما الشرط الأساس لدخول الحياة الاجتماعية . فالفرد الذي يود الاستفادة من مزايا المدنية والعيش مع الناس عليه أن يوفق بين حريته وحرية الآخرين ويعمل برغباته بما لا يمس مصلحة المجتمع بسوء ، أما إذا تمرّد على هذا القانون فإنه سيؤاخذ ويعاقب على فعلته .

الإسلام والحرية الفردية :

ليس ما أدركته المدنية اليوم وعملت ضمن إطاره للحفاظ على حقوق الفرد والمجتمع بتصور جديد .

فقد استأثر هذا الموضوع أيام الجاهلية قبل أربعة عشر قرناً باهتمام الرسول الأكرم ﷺ الذي جدّ في محاربة الحريات الفردية التي تتعارض وحقوق الآخرين وحرياتهم .

الإسلام وانتهاك حرية الآخرين :

عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام أن سمرة بن جندب كان له عذق في حائط لرجل من الأنصار ، وكان منزل الأنصاري بباب البستان ، فكان يمرّ به إلى نخلته ولا يستأذن ، فكلّمه الأنصاري أن يستأذن إذا جاء ، فأبى سمرة ، فلما أبى جاء الأنصاري إلى رسول الله ﷺ فشكا إليه وخبره الخبر ، فأرسل إليه

رسول الله ﷺ وخبره بقول الأنصاري وما شكا ، وقال : إذا أردت الدخول فاستأذن ، فأبى ، فلما أبى ساومه حتى بلغ من الثمن ما شاء الله ، فأبى أن يبيع ، فقال ﷺ : لك بها عذق مذلل في الجنة ، فأبى أن يقبل ، فقال رسول الله ﷺ للأنصاري : **إِذْهَبْ فَأَقْلَعُهَا وَأَرْمِ بِهَا إِلَيْهِ فَإِنَّهُ لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ**^(١) .

تحليل القضية :

يتضح لنا من خلال تحليل هذه القضية والوقوف عند تفاصيلها أن القوانين الاجتماعية في الإسلام لا تسمح للفرد بأن يتماذى بحريته الفردية إلى ما يسيء بحرية الآخرين ، وفيما يلي توضيح تفصيلي للقصة :

١ - رجل من الأنصار يمتلك أرضاً في المدينة يقوم داره إلى جوارها ، ولا يمكن الوصول إلى الأرض إلا عبر الدار .

٢ - يملك سمرة بن جندب نخلة مثمرة في تلك الأرض ، وهو يريد أن يسقيها ويرعاها عدة مرات حتى جني المحصول ، وهذا ما يحتم عليه المرور عبر الدار .

٣ - الرجل الأنصاري حسب القانون له حرته الفردية في منزله ولا يحق لأحد مضايقته .

٤ - ولسمرة بن جندب حقه في المرور عبر تلك الدار متى ما شاء .

٥ - ومراعاة لحق سمرة وحق أهل الدار طلب الرجل الأنصاري منه أن يستأذن قبل الدخول ، لكنه أبى .

٦ - الرجل الأنصاري شكا الأمر إلى الرسول ﷺ وخبره بما طلبه من سمرة ، فأيدته الرسول بطلبه معتبراً إياه السبيل الأفضل لضمان حق الطرفين ، وأمر ﷺ سمرة بالاستئذان قبل الدخول ، إلا أنه أبى ثانية .

(١) سفينة البحار ، ١ ، سمر ، ص ٦٥٤ .

٧ - إعتد الرسول ﷺ حلاً آخر يضمن حرية الطرفين عندما اقترح على سمرة استخدام حق ملكيته وبيع النخلة ، ولكي يشجعه على ذلك ويدفعه إلى البيع بملء إرادته أوكل الرسول ﷺ تحديد السعر إلى سمرة حتى وإن طلب أضعاف سعرها الحقيقي ، كما وعده بالأجر المعنوي والعطاء الأخروي ، لكن سمرة العنيد المستبد بقي مصرّاً على موقفه .

٨ - لقد كان موقف سمرة يتعارض والقوانين الاجتماعية الإسلامية ، لأنه أبى أن يأخذ حقوقه ويمنح الرجل الأنصاري حقوقه ، كما أنه امتنع عن تطبيق حريته مع حرية ذلك الرجل ، ومثله يستحق العقاب .

٩ - أراد الرسول الأكرم ﷺ أن يعاقب سمرة ، فقال للأنصاري : إذهب فاقلعها وارم بها إليه ، وأراد الرسول ﷺ أن يثبت بهذه العبارة أن هناك حدوداً لا يستطيع أي فرد أن يتخطاها في مجال استخدام حريته .

١٠ - وبعد أن أمر الرسول ﷺ باقتلاع الشجرة قال : فإنها لا ضرر ولا ضرار ، وبهذه الكلمات القصار أرسى الرسول ﷺ قاعدة مبدأ عام في الإسلام ، أراد من خلاله أن يبين للمسلمين ضرورة الإلتزام بهذا المبدأ .

ومن هنا وانطلاقاً من مبدأ «اللاضرر» أصدر علماؤنا وفقهاؤنا المثات من الأحكام والفتاوى في المسائل العبادية والشؤون الحقوقية على صعيد الفرد والأسرة والمجتمع .

وبخلاصة فإن تنظيم الحياة الاجتماعية والحفاظ على مدنية الإنسان دفعا بالأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وكذلك بالعلماء والمفكرين إلى سنّ القوانين والضوابط المفيدة واللازمة لتحديد حرية الإنسان وحثه على قمع بعض من غرائبه وميوله .

ولا بد من القول هنا ، إن ضرورة تحديد حرية الإنسان لتأمين سعادته يؤكدها العقل والمنطق ، ولأنه فإن الغريزة العمياء تبحث عن الحرية المطلقة

التي لا يحدّها حدود ، والنفس الإنسانية الأمانة لا يمكن أن ترضى بهذه القيود والحدود أبداً

قال تعالى : ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ .

فالإنسان يرغب في مواصلة طريقه دون أية موانع دينية وعقلية وقانونية تعترضه وتحّد من حريته في بلوغ ما يتمناه .

ميل الإنسان إلى الحرية المطلقة :

ثمة ميل فطري إلى الحرية المطلقة غير المحدودة لدى جميع الناس ، وهناك أيضاً نفور عام من القوانين والمقررات التي تحدّ حرية الغرائز ، ولكن هناك الكثير من الناس ممن يعون ضرورة المدنية ويراعون المصلحة الاجتماعية يعتبرون أن سنّ قوانين تهدف إلى الحدّ من الحريات أمر ضروري ومفيد لتأمين سعادة الإنسان يجب تنفيذه .

وهناك من يقول إن أساس المدنية والقوانين المنبثقة عنها التي تسلب الناس حرياتهم وكذلك وجود حكومات أخذت على عاتقها مسؤولية تنفيذ هذه القوانين ، كل ذلك يتعارض وسعادة الإنسان .

فهم يعتقدون أن معيار سعادة الإنسان يكمن في حرية غرائزه وميوله الطبيعية .

معارضو المدنية :

«يقول الأستاذ الفرنسي «ادغاريش» : ثمة مجموعة من المتفكرين في كل عصر وزمان يعتقدون بأن المدنية هي سبب كل الصراعات والنزاعات والمشاكل التي يعاني منها الإنسان ، ويوصي «ؤلاء بضرورة تجريد الإنسان من المدنية وإعادته إلى سابق عهده إنساناً بدائياً كسبيل للخلاص من النزاعات والمشاكل» .

«إن هذه الادعاءات ليس لها من وجهة النظر العلمية أي قاعدة صحيحة ، وهذه الضجة التي يفتعلها مثل هؤلاء تظهر في الحقيقة دوافعهم الغريزية العدوانية الاجتماعية»^(١) .

خطر إلغاء القوانين :

إن أولئك الذين يلغون باللوم على المدنية الإنسانية وقوانينها العادنة ويتصورون أن سعادة الإنسان هي في التحرر الكامل للغرائز والمويل الطبيعية ، هم على خطأ فاضح . لأننا وعلى سبيل الافتراض طبعاً لو ألغينا المدنية وكل ما جاءت به من قوانين وساهمنا في إلغاء النظم والضوابط الاجتماعية وأصبح الإنسان حراً في إشباع غرائزه ونزواته تماماً كالحيوان ، فإن الإنسان سيواجه حتماً مزيداً من المشاكل والحرمان .

فالمدينة قد نجحت إلى حد ما بكل ما جاءت به من قوانين وضوابط اجتماعية في كبح جماح غرائز الإنسان المدمرة وحماية المجتمعات من شرور الانتهاكات والتعديت .

والمدينة فسحت المجال أمام الإنسان طوال قرون متمادية لمكافحة الكثير من الأمراض الفتاكة والسعي في ظل النظم والقوانين إلى حماية الناس من الأخطار المختلفة المتأتية من الطبيعة .

عواقب زوال المدنية :

إذا ما تم إلغاء المدنية الإنسانية وقوانينها العادلة ، ورفعت الحصانة وأزيلت القيود الاجتماعية وأطلقت غرائز الإنسان العدوانية ، فإن الناس سيهاجم بعضهم بعضاً تماماً كالوحوش الكاسرة ، وسيتركبون بكل قسوة أفظع الجرائم بحق بعضهم البعض جالبين لأنفسهم التعاسة والشقاء وربما الفناء أحياناً ، هذا من جهة ، ومن جهة ثانية فإن ما سينجم عن ذلك من فساد وانعدام للأمن

(١) أفكار فرويد ، ص ١١٩ .

وسفك للدماء سيمهد الأرضية لتفشي المرض والجوع والنكبات والمصائب التي سرعان ما ستفتك بالناس .

وفي مثل هذه الظروف يعود أنصار الحرية المطلقة للغرائز إلى رشدهم ويتمنون من أعماقهم عودة المدينة وتحديد غرائزهم وأهوائهم النفسية لما لاقوه من ظلم وقسوة ومصائب ونكبات في ظل انعدام المدينة .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : فَإِنَّ فِي الْعَدْلِ سَعَةً وَمَنْ ضَاقَ عَلَيْهِ الْعَدْلُ فَالْجَوْرُ عَلَيْهِ أَضْيَقُ^(١) .

الإشباع المطلق للغرائز :

«إن الإشباع المطلق للرغبات والميول الغريزية يولد بطبيعة الحال نوعاً من اللذة ، لكنها غالباً ما تكون مصحوبة بالآم سببها العالم الخارجي المعارض . إذن فالعيش كالحيوان لا يوفّر السعادة حتى وإن كان حراً»^(٢) .

«لا يمكن أن ننكر أن المدينة قد أساءت التعامل مع الدوافع الغريزية ، ولكن هل يعتبر هذا سبباً كافياً لأن ندين المدينة ؟ ، يجيب فرويد : إن من يتمنى إلغاء المدينة ليس سوى إنسان ناكر للحق جاهل ، لأن ما يبقى لنا بعد زوال المدينة هو الطبيعة ، وتحمل الطبيعة أصعب بكثير من المدينة» .

«وبديهي أن الطبيعة لا تطالبنا بالحدّ من غرائزنا ، بل تترك لها كامل الحرية ، ولكنها لها أسلوبها الخاص في تحديدنا . فالطبيعة تسهم في فناء الإنسان عن طريق الظلم والقسوة والعنف الذي يمارسه بحق نفسه وبحق الآخرين وأحياناً تكون هذه الممارسات

(١) نهج البلاغة ، الخطبة ١٥ .

(٢) أفكار فرويد ، ص ١٠٨ .

إرضاءً لغرائزه . إذن ، بسبب هذه الأخطار اقتربنا من بعضنا البعض وساهمنا في بناء المدينة» .

العودة إلى الحياة البدائية :

«لقد ساهم الإنسان تدريجياً في إيجاد المدينة وذلك هرباً من مخاطر الطبيعة وويلاتها التي لا تعدّ ولا تحصى ، لكنه غير مقتنع بها ، لأنه يتألم ويقاسي بسببها ، وأحياناً يسأل نفسه ، أليس من الأفضل أن أهجّر المدينة وأعود إلى حياتي البدائية ؟ ، وهنا يرى نفسه عاجزاً عن العودة ، حتى وإن استطاع فإنه من المحتمل لا بل من المؤكد أنه سيفكر يوماً بالهرب ثانية من الطبيعة وقساوتها وسيشتاق إلى تشكيل مجتمع متحضر كالذي شكّله أسلافه قبل آلاف السنين»^(١) .

مناهضو الأنظمة الدينية أو الوضعية :

لم يناهض أنصار الحرية المطلقة أساس المدينة وقوانينها التي تقمع جزءاً من غرائزهم وميولهم الطبيعية فقط ، وإنما يناهضون أيضاً كل نظام ديني أو وضعي يعتمد قوانين المدينة ، ويعتبرونه أساس شقائهم وتعاستهم .

فهؤلاء يعتقدون أن قوانين المدينة إذا ما ألغيت تماماً وتم حلّ الحكومات والأنظمة ، يمكن لطبيعة الإنسان أن تحلّ محلها معتمدة على قوة العقل وتوجيهاته في ضبط الأوضاع وتسيير الأمور ، بيد أن أصحاب النظرة الثاقبة من العلماء يعتبرون أن هذا الاعتقاد ليس سوى سراب ، لأن القوانين الاجتماعية إذا ما ألغيت فإن الغرائز والرغبات الجامحة ستمسك بزمام الأمور سالبة العقل أي قدرة على التفكير . ومن هذا المنطلق تراجع الكثير من أصحاب هذه العقيدة الخاطئة عن تصوراتهم الوهمية وعادوا وأكدوا ضرورة المدينة وقوانينها .

(١) أفكار فرويد ، ص ١٢٠ .

الفضيلة الفطرية محل القوانين :

«يقول «ويل ديورانت» : كان «غودوين» واثقاً من أن طبيعة الإنسان التي تتغلب عليها الفضيلة بالفطرة قادرة على ضبط الأوضاع دون حاجة لمساعدة القانون ، وأن القدرة العقلية والخلقية للإنسان ستتمو وتفتح بشكل مذهل لم يسبق له مثيل إذا ما ألغيت كل القوانين» .

«وبعد مضي فترة على تراجع «غودوين» عن اعتقاده هذا جاء «شيلي» لي طرح هذه الفكرة من جديد ويتزوج من ابنة «غودوين» دون أن يراعي حق الفيلسوف في التراجع عن نظرية آمن بها سنين طويلة»^(١) .

نظام بدون نظام :

«وفي الفترة ما بين عامي ١٨٤٠ و ١٨٤٨ كتب «برودون» يقول : إن حكومة الإنسان على الإنسان ليست سوى استعباد . والمجتمع لا يمكنه أن يبلغ مرحلة متقدمة من الكمال ما لم يستطع أن ينظم أمره دون الحاجة لنظام»^(٢) .

«وفي إنجلترا أعرب «ويليام موريس» عن احترامه للحكومة على طريقته الخاصة حيث قال إنه يأمل أن يرى مبنى البرلمان وقد تحول يوماً إلى مستودع للأسمدة الكيماوية في المدينة الفاضلة»^(٣) .

«لكن المجتمع يقوم على حقيقة الإنسان وطبيعته وليس على تصوراتنا وأوهامنا التي لن تؤثر سوى في إخفاء طبيعة الإنسان عن الإنسان نفسه وعن العالم»^(٤) .

(١ و٢ و٣ و٤) مباهج الفلسفة ، ص ٣٣٩ و ٣٤٠ و ٣٤٤ .

إن الإنسان بطبيعته البدائية أشبه ما يكون بالحيوان مهاجم معتدٍ مستعد للقيام بأي عدوان أو ظلم بحق الآخرين إشباعاً لغرائزه وميوله . فالإنسان ومن أجل بلوغ مبتغاه يرغب في استخدام كل قواه بحرية كاملة ، يهاجم الضعيف ليقتله أو يجعله عبداً ذليلاً مطيعاً له .

مساوىء الحرية المطلقة :

«لنكن واثقين أن فلسفة الحرية لا تخلو من المساوىء ، لأنها على الأقل لا تأخذ بعين الاعتبار عدوان القوي على الضعيف . وهذا الظلم الذي تنهّم الحكومات بارتكابه لبأن لنا أضعافاً مضاعفة لو لم يكن هناك حكومات ، ولزاد الهرج والمرج ، ولتضاعفت الآلام والمعاناة» .

«إن المدنية جاءت على الأقل بنظم وقوانين تحدّد من سلطة القوي على الضعيف . والضعف الذي يسود القوانين الدولية مرده استمرار الاعتداءات والتجاوزات بين البلدان القوية ، أما البلدان الضعيفة فهي من أنصار الفضيلة» .

«قال «سقراط» لـ «أريستيبوس» : إذا كنت تظن وأنت تعيش بين الناس أنه من الأفضل أن لا يكون هناك حاكم أو محكوم في المجتمع ، فإنني أرى أن القوي في مثل هذا المجتمع سرعان ما يتعلّم كيف يستعبد الضعيف»^(١) .

الإسلام والحكومة :

يرى الإسلام أن قيام حكومة تعمل على تطبيق الحق والعدالة بين الناس هو ركن أساس من أركان الحياة البشرية . فالنفس الأمانة للإنسان يجب أن تلجم إما بواسطة قوة الايمان وقدرة نظام إلهي أو بقوة السيف وعلى يد نظام

(١) مباهج الفلسفة ، ص ٣٤٤ .

وضعي ، وسوى ذلك تكون حياة الإنسان أشبه بحياة الوحوش والبهائم .

عن أبي عبد الله الإمام الصادق عليه السلام : لا يَسْتَعْنِي أَهْلُ كُلِّ بَلَدٍ عَنْ ثَلَاثَةٍ يُفْزَعُ إِلَيْهِمْ فِي أَمْرِ دُنْيَاهُمْ وَأَخْرَجَتْهُمْ فَإِنْ عَدِمُوا ذَلِكَ كَانُوا هَمَجًا ، فِقِيَسَهُ عَالِمٌ وَرِعٌ وَأَمِيرٌ خَيْرٌ مُطَاعٌ وَطَبِيبٌ بَصِيرٌ نِقَةٌ (١) .

الإنسان والطبائع الجامعة :

في الحديث الأنف الذكر يرى الإمام الصادق عليه السلام أن وجود أمير خير مطاع أمر ضروري لحياة الناس ، وأن قيام حكومة إلهية كانت أم وضعية يعتبر ركناً مهماً من أركان الحياة .

وعن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام قال : إِنَّ طَبَائِعَ النَّاسِ مُرَكَّبَةٌ عَلَى الشَّهْوَةِ وَالرَّغْبَةِ وَالْحِرْصِ وَالرَّهْبَةِ وَالغَضَبِ وَاللَّذَّةِ ، إِلَّا أَنَّ فِي النَّاسِ مَنْ زَمَ هَذِهِ الْخِلَالَ بِالتَّقْوَى وَالْحَيَاءِ وَالْأَنْفِ ، فَإِذَا دَعَتْكَ نَفْسُكَ إِلَى كَبِيرَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَارْمِ بِبَصْرِكَ إِلَى السَّمَاءِ فَإِنْ لَمْ تَخَفْ مِنْ فِيهَا فَانظُرْ إِلَى مَنْ فِي الْأَرْضِ لَعَلَّكَ تَسْتَحْيِي مِمَّنْ فِيهَا ، فَإِنْ كُنْتَ لَا مِمَّنْ فِي السَّمَاءِ تَخَافُ وَلَا مِمَّنْ فِي الْأَرْضِ تَسْتَحْيِي تَعُدُّ نَفْسَكَ فِي الْبَهَائِمِ (٢) .

وفي هذا الحديث إعتبر الإمام الباقر عليه السلام أن قيام حكومة إلهية أو وضعية وسيلة لتحديد الغرائز ومنع العدوان والرذيلة ، كما اعتبر عليه السلام أولئك الذين لا يراعون القوانين العادلة ويطيعون كالحیوانات غرائزهم ورغباتهم ونزواتهم من البهائم .

ويمكننا أن نستنتج أن المدنية وقوانينها الاجتماعية هي من العوامل التي يمكنها أن تحدّ من الحرية . لذا ينبغي على الشاب الذي يرغب في العيش وسط المجتمع والاستفادة من مزايا المدنية أن يتغاضى عن الحرية المفرطة

(١) تحف العقول ، ص ٣٢١ .

(٢) مستدرک الوسائل ٢ ، ص ٢٨٧ .

ويسعى إلى إرضاء غرائزه وميوله ضمن حدود القوانين والمصلحة العامة ، لأنه إن تخلف عن الضوابط الاجتماعية وتعدي على حرية الآخرين سيواجه الجزاء القانوني .

سمو النفس :

العامل الرابع الذي يحد من حرية الإنسان ويردع الشاب عن تنفيذ بعض غرائزه وميوله ونزواته هو الرغبة في سمو النفس وبلوغ «كارم الأخلاق» .

إن الإنسان الذي يريد أن يتجرد من الصفات الحيوانية ويتحلّى بالصفات الإنسانية ويحي ميوله السامية ويطوي مدارج الكمال ليصبح إنساناً حقيقياً لا حيواناً بهيئة إنسان ، ما عليه إلا أن يسعى إلى تعديل ميوله وشهواته ويتجنب إرضاء غرائزه بحرية مفرطة ، لأن تحرر الغرائز والشهوات بصورة مفرطة يتنافى والسمو النفسي والتكامل الروحي للإنسان .

يقول الدكتور «كارل» : ثمة الكثير من الناس يعيشون حياة أقرب إلى حياة الحيوانات لأنهم يلهثون وراء القيم المادية ، ولهذا أصبحت حياتهم أرذل من حياة الحيوانات ، فالإنسان لا يمكنه أن ينير دربه إلى السعادة والهناء إلا من خلال القيم المعنوية .

«وينبغي على كل فرد أن يختار في لحظة من حياته أحد سبيلين ، إما المادي وإما المعنوي ، بمعنى أنه إما يوافق على احترام قانون السمو النفسي أو يرفضه»^(١) .

الميول الخاصة بالإنسان :

ثمة نوعان من الميول والرغبات لدى الإنسان ، النوع الأول وهو عبارة عن رغبات ودوافع غريزية يشترك فيه الإنسان والحيوان معاً ، أما النوع الثاني فيختص به الإنسان وهو عبارة عن رغبات فطرية كالكرامة وعزة النفس والعدل

(١) سبل الحياة ، ص ٦٤ .

والإنصاف والوفاء بالمهد وحفظ الأمانة والنصر والإحسان وما شابه ذلك .

وإشباع الغرائز والميول الطبيعية بشكل عاملاً من عوامل استمرار الحياة وإصابة اللذات وتأمين السعادة المادية ، أما إحياء الميول الإنسانية فيعتبر من عوامل التكامل الروحي والسمو النفسي والسعادة المعنوية .

تصرفات لا إنسانية :

تستخدم الحيوانات غرائزها بحرية تامة ، وهذه الحرية لا تلحق أدنى ضرر بالمصلحة الفردية للحيوانات . إلا أن الإنسان لا يستطيع أن يكون حراً طليقاً في استخدام غرائزه كالحيوان ، لأن هناك حالات يستلزم فيها إشباع الغريزة الحيوانية قمع الميل المعنوي والكرامة الإنسانية .

فالذي يحاول بمكره وخداعه سلب فتاة طاهرة عفتها وتدنيس كرامتها ، صحيح أنه يكون قد أشبع غريزته الحيوانية جنسياً ، لكنه يكون يتصرفه الشائن هذا قد قتل في نفسه الرغبة في الكرامة الإنسانية .

والذي يرقى منصباً مرموقاً في مجال عمله بسبب تزلفه وتملقه يكون قد أرضى غريزة حب السلطة والتفوق في ذاته ، لكنه يكون قد قمع في أعماقه الرغبة في عزة النفس .

توازن الميول :

إن السعادة الكاملة لن تكون إلا من نصيب ذاك الإنسان الذي يعيش حياته وفق قانون الخلقة ولا يتجاهل أياً من الرغبات المادية والمعنوية ويسعى إلى إيجاد توازن بين الغرائز الطبيعية والميول الإنسانية السامية ، ويشبع كلاً منها في مكانها المناسب وبالمقدار الصحيح ، وهذا لن يتحقق إلا بتعديل الرغبات الغريزية وتحديد الشهوات النفسية ، لأن إطلاق الغرائز من شأنه أن يقضي على الميول الإنسانية السامية ويخفف من نور الفضيلة ومكارم الأخلاق في أعماق الإنسان ، وبالتالي تذهب العواطف الإنسانية النبيلة والسجايا الأخلاقية الفاضلة

ضحية الميول الغريزية الحيوانية ، وهذا ما يتعارض ونظام الخلقة ويتنافى وسعادة الإنسان الحقيقية .

أدّل من مملوك :

كل إنسان يستطيع أن يختار أحد سبيلين ، إما إحياء الميول السامية والحياة الإنسانية أو إطلاق الغرائز الحيوانية ، أي أن الإنسان إما أن يكون عبداً مطيعاً لشهواته منقاداً لها ، وإما أن يسخر شهواته لعقله وإنسانيته .

وأولئك الذين يختارون حرية الغرائز وإطاعة الشهوات دون قيد أو شرط يحرمون أنفسهم من السجايا الإنسانية والسعادة الحقيقية ، فضلاً عن أنهم قد جعلوا من أنفسهم عبيداً أسرى للشهوات .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : عَبْدُ الشَّهْوَةِ أَسِيرٌ لَا يَنْفِكُ أَسْرُهُ^(١) .

وعنه عليه السلام قال : مَغْلُوبُ الشَّهْوَةِ أَدْلُ مِنْ مَمْلُوكِ الرَّقِّ^(٢) .

ونخلص إلى القول إن الشاب رغم طبعه الذي يميل إلى الحرية المفرطة ، عليه أن يعلم أن هناك موانع طبيعية وتضاداً في الغرائز ومقررات اجتماعية ورغبة في السمو النفسي تشكل مجتمعةً عوامل تحدّ من حريته وتقمع جانباً من ميوله ورغباته .

والشاب مكلف عقلياً وديناً بالتغاضي عن الحرية المطلقة وتعديل غرائزه ورغباته النفسية واستخدام كل منها في مكانها المناسب وضمن حدود العقل والمصلحة ، وذلك هو سبيله لتحقيق السعادة والهناء .

(١ و ٢) غرر الحكم ، ص ٤٩٩ ، ٧٦٥ .

المحاضرة الثالثة والعشرون

حول الشاب بين الضمير والغريزة

بسم الله الرَّحْمَن الرَّحِيم

قال الله تعالى في محكم كتابه : ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ قَوْمِهِ﴾^(١) .

الضمير والغرائز :

إن من أكثر اللحظات حساسية في حياة المراهقين والشباب هي تلك التي يجدون أنفسهم فيها أمام مفترق طرق بين الغرائز والضمير الأخلاقي وعليهم أن يختاروا إما سلوك طريق الغرائز وإما سلوك الطريق المعاكس ، وفي مثل هذه الحالة يصاب الشباب بالتردد والحيرة ، فهناك ما يشدّهم باتجاه نقطتين متضادتين .

فمن ناحية يدعوهم نداء الضمير الأخلاقي إلى سلوك درب الفضيلة والشرف والإنسانية ، ومن ناحية أخرى تتجاذبهم القوة الغريزية نحو إشباع ميولهم النفسية ورغباتهم المعادية للضمير .

ومثل هذه اللحظات الخطيرة كثيراً ما يواجهها المراهقون والشباب في حياتهم ، وأدنى غفلة منهم لا قدّر الله من شأنها أن توقعهم في خطأ فادح يكون

(١) سورة يونس ؛ الآية : ٨٣ .

سبباً في تعاستهم وشقائهم مدى الحياة .

ولكي تتضح أوجه التضاد بين الغرائز والضمير الأخلاقي وتأثيراتها العميقة في حياة الإنسان ، سنتناول هذا الموضوع بالبحث والتحليل حتى يعي المراهقون والشباب أهميته ويتبهاوا إلى أنفسهم من الإنحراف عن جادة الطهر والفضيلة في مثل هذه المواقع الحساسة .

الخير والشر :

لقد خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان ووهبه قوة يستطيع من خلالها معرفة الفضائل والرذائل الأخلاقية والتمييز بين الخير والشر دونما حاجة لمربٍّ أو معلم ، وهذه القوة الإدراكية هي ثروة فطرية موجودة بشكل طبيعي في أعماق كل إنسان . وقد جاءت في القرآن الكريم تعابير مختلفة لهذه القوة التي وهبها الله جلّ وعلا للإنسان ، منها الإلهام والهداية .

قال تعالى : ﴿ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾^(١) .

عن أبي عبد الله الإمام الصادق عليه السلام في قول الله عز وجل : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ قال : بَيَّنَّ لَهَا مَا تَأْتِي وَمَا تَتْرُكُ^(٢) .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾^(٣) .

عن حمزة بن محمد عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال : سَأَلْتُهُ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ، قَالَ : نَجْدُ الْخَيْرِ وَنَجْدُ الشَّرِّ^(٤) .

الضمير والعقل :

إن أهم ما يجب الإلتفات إليه في هذا البحث هو أن الضمير الأخلاقي هو

(١) سورة الشمس ؛ الآية : ٧ و ٨ .

(٢) الكافي ١ ، ص ١٦٣ .

(٣) سورة البلد ؛ الآية : ١٠ .

(٤) الكافي ١ ، ص ١٦٣ .

غير العقل ، وثمة فروقات بين الإثنين . فالعقل يحتاج إلى تنظيم مقدمات وإجراء تحليلات دقيقة كي يتمكّن من أن يستنتج من مجموعها حكمه أو موقفه . إزاء أمر ما ، أما الضمير الأخلاقي فهو قادر على التمييز بين الخير والشر وإعلان موقفه حيال أمر معيّن دونما حاجة إلى مقدمات أو تحليلات . كما أن العقل قد يخطئ أحياناً في تنظيم المقدمات والاستنتاجات ويتخذ موقفاً تجاه أمر معيّن يتناقض والواقع ، بينما الضمير الأخلاقي تأتي مواقفه دائماً متطابقة مع الواقع . والعقل يخوض في شتى المجالات السياسية والاقتصادية والعلمية والأخلاقية والاجتماعية والتربوية ، بينما يقتصر حكم الضمير الأخلاقي على المحاسن والمساوىء الأخلاقية . وبخلاصة نقول إن الضمير الأخلاقي والعقل يشكّلان قوتين مستقلتين عن بعضهما البعض ، ولكل منهما دوره في توجيهه وهداية الإنسان .

الضمير أو النور الذاتي :

«يقول «جان ديوي» : «إعتبر رجال وعلماء الأخلاق القدامى الضمير بأنه وحدة مستقلة ، وقد جاءت كافة المدارس الأخلاقية فيما بعد لتشاركهم هذا الرأي ، حيث قالت باستقلالية الضمير ، وأكدت أن الضمير ما هو إلا نور ذاتي يشع على الحقائق ليجسدها كما هي أمام مرأى الإنسان» .

«ثمة اختلافات في وجهات نظر أنصار هذه العقيدة إزاء أهداف نشاط الضمير . فمنهم من يعتقد أن جلّ اهتمامات الضمير ينصبّ على تحديد المبادئ الكلّية للأخلاق ، ومنهم من يعتقد أن الضمير يتحكّم بالإجراءات الآنية ، واعتبرت مجموعة أخرى أن مسؤولية الضمير تنحصر في تحديد قيمة الأهداف الإنسانية ، بينما اعتبرت مجموعة ثانية أن دائرة نشاط الضمير هي الاحساس بالمسؤولية ، وأخيراً جاءت مجموعة أخرى لتؤكد أن العلم

بالحقائق الأخلاقية مصدره إلهام الضمير . ولكن يوجد قاسم مشترك واحد يجمع بين أنصار كل هذه المدارس وهو التأكيد على وجود قوة غير طبيعية ومنفصلة لعلم الأخلاق ، فليس لنشاط الإنسان أي معنى أخلاقي ما لم يكن خاضعاً لإشراف ومراقبة هذه القوة الطبيعية المنفصلة التي اسمها الضمير^(١) .

معيار التمييز بين الخير والشر :

إن الضمير الأخلاقي هو مشعل وهّاج أناره الله سبحانه وتعالى في أعماق الإنسان ليستتير به مسيرة حياته المظلمة ويتبين من خلاله الصفات الحسنة من السيئة . والضمير الأخلاقي دليل صادق يخاطبنا من أعماقنا ليهدينا إلى سبيل الفضيلة . والضمير الأخلاقي هو المعيار الذي يميّز به الشاب والهرم ، القروي والمدني ، المثقف والأمّي بين الخصال الحميدة والذميمة ، وهو ملازمنا في سفرنا وحضرنا ومرضنا وسلامتنا وفي جميع حالاتنا حتى نهاية أعمارنا .

الإنقياد لنداء الذات :

لقد بين أئمتنا سلام الله عليهم أجمعين في مناهجهم التربوية أهمية استثمار قوة الضمير الأخلاقي ، وأكدوا مراراً وتكراراً أن من واجب كل إنسان الانقياد لنداء ذاته في تعامله مع الناس .

في خبر الشيخ الشامي قال أمير المؤمنين عليه السلام : يا شَيْخُ أَرْضِ لِلنَّاسِ مَا تَرْضَى لِنَفْسِكَ وَأَتِ إِلَى النَّاسِ مَا تُحِبُّ أَنْ يُؤْتِيَ إِلَيْكَ^(٢) .

وعن علي بن الحسين عليه السلام : . . . وَكَفَّ الْأَذَى عَنْهُمْ وَأَنْ تُحِبَّ لَهُمْ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ وَتَكْرَهُ لَهُمْ مَا تَكْرَهُ لِنَفْسِكَ^(٣) .

(١) الأخلاق والشخصية ، ص ١٧٧ .

(٢) مستدرک الوسائل ٢ ، ص ٣٠٩ .

(٣) مكارم الأخلاق ، ص ٢٣٤ .

الضمير والصفات الإنسانية :

إذا ما انقاد الناس فعلاً لنداء الضمير وسعوا إلى التنسيق بينه وبين رغباتهم وغرائزهم فإن العلاقات والروابط الاجتماعية ستتوطد وسيشعر كل إنسان بمسؤوليته تجاه أخيه الإنسان وسيسود المجتمعات جوٌّ من التأخي والمودة .
فإحياء الضمير الأخلاقي من شأنه أن يحيي الملكات الإنسانية الفاضلة والصفات النبيلة في كيان الإنسان ضامناً بذلك سعادته الفردية والاجتماعية .
أما إذا تجاهل الناس نداء الضمير وراحوا يلهثون وراء غرائزهم دون رادع أو وازع فإن السجايا الأخلاقية ستَمحي تدريجياً وستزول أسس الفضائل الإنسانية وسيصبح الناس وحوشاً كاسرة ينتهكون حدود بعضهم البعض ويعتدون على حقوق بعضهم بعضاً ويغرقون في الفساد والرذيلة جالبين لأنفسهم التعاسة والشقاء .

السعادة في ظل الضمير :

يقول البروفسور «هنري باروك» : لا بد للضمير الأخلاقي أن يتحرك في جهة معينة وبنحو عادل في خدمة الخير والجمال .
ويوجد في عمل الضمير الأخلاقي نوع من حكم القيم ، وهذا الجانب إذا ما تم إشباعه يحصل السلام الروحي والسعادة الباطنية .

«إن أفضل سبيل يسلكه الإنسان هو السيطرة على أعماله إرضاءً لضميره الأخلاقي ، ومن شأن هذا السبيل أن يعود بالنفع على الفرد والمجتمع في آن واحد ويربطهما معاً بلوغ الاستقرار والسعادة المشتركة» .

الوحشية في ظل انعدام الضمير :

«إن محاولة مسخ الضمير أو تجاهله ليست سوى سراب لا يمكن تحقيقه ، لأن مسخ الضمير هو في الواقع بمثابة القضاء على الحكم الذاتي الذي يعتبر جزءاً لا يتجزأ من الإنسان ، وهذا أمر

مستحيل ، لأننا لو قلنا بإمكانية مسح الضمير الأخلاقي في الإنسان وتجريده من هذا البعد الإنساني فإنه لن يبقى من الإنسان سوى حيوان متوحش ، وتتساقط سبل الحياة الاجتماعية ويسود المجتمع جوراً من الظلم والاستبداد ليتحوّل تدريجياً إلى تجمع للحيوانات والرقيق ، وفي هذه الحالة لا يمكن للفرد أن يشعر بالسعادة بل على العكس سيرى نفسه أسير الذل والعبودية .

«إن الخطأ الذي يقع فيه غالبية الناس هو أنهم يتصورون أن الإشباع اللامحدود للغرائز يمكنه أن يكون مصدراً لسعادتهم وهنائهم ، بينما يؤدي هذا الأمر في الحقيقة إلى القضاء على الغرائز نفسها وبالتالي إلى تدمير وانتحار الفرد والمجتمع»^(١) .

البلوغ وتفتح الضمير :

بالرغم من بروز الضمير الأخلاقي في الإنسان خلال مرحلة الطفولة حيث يبدأ الأطفال بتشخيص الفضائل والرذائل الأخلاقية إلى حد ما ، إلا أنه وخلال أعوام البلوغ حيث تطرأ تطورات شاملة على الأطفال يكمل الضمير الأخلاقي وكذلك كافة الغرائز تفتحها الواحدة تلو الأخرى وسرعان ما تسيطر على جسم المراهق وروحه .

والملفت أن الضمير الأخلاقي يكتمل تفتحاً قبل أي من الغرائز . وهنا نأخذ الغريزة الجنسية كمثال ، هذه الغريزة قبل أن تتجلى في أعماق المراهق وتثبت في نفسه الرغبة في الجماع يكون الضمير الأخلاقي قد طوى مسيرته التكاملية في أعماقه ، وكأن الله سبحانه وتعالى شاء أن يزود الإنسان بقوة الضمير والوجدان قبل أن تجتاحه أعاصير الغرائز وذلك ليمتكن من مواجهتها وتعديلها في الوقت المناسب ليقى نفسه من الإنحرافات الخلقية .

(١) الطب النفسي الاجتماعي ، ص ٩٧ .

الشاب والفضيلة :

إن المراهق يعشق بفطرته وضميره ووجدانه الحق والحقيقة ويميل إلى النبل والنزاهة . ويبدى المراهق حساسية خاصة تجاه الخير والصلاح ويسعد بهما ويلتذ ، فهو لا يفكر إلا بالطهر والفضيلة ويسعى إلى الاستقامة في سلوكه وأقواله ، والمراهق يتألم لما يصدر عن الآخرين من انحرافات ويتمنى لو أنه يكتسب قدرة تمكنه من مكافحة الرذيلة وإقامة عالم جديد أساسه الأخلاق والفضيلة والعدل والانصاف .

الرغبة في بسط العدالة :

يقول «موريس دبس» : يهتز الشباب بين سن الخامسة عشرة والسابعة عشرة لنداء الضمير وروح الشجاعة فيتمنون لو أنهم يبنون العالم من جديد للقضاء على الظلم وبسط العدالة^(١) .

لن يتأثر المراهق فكرياً وعملياً بالضمير الأخلاقي فقط الذي يدفعه إلى التفكير بالطهر والفضيلة ، بل إن نظرتة إلى الآخرين تكون أيضاً من خلف منظار الضمير حيث يرى الجميع صالحين طيبين ويعتبرهم منزّهين عن الخطأ قولاً وفعلاً ، ومن هذا المنطلق يتعامل مع الناس ويخطط لإقامة علاقات صداقة وزمالة مع من هم في سنّه .

«إن علاقات الصداقة بين الشباب تكون أكثر براءة ونزاهة من تلك التي تقوم بين الكبار ، ونادراً ما تقوم مثل هذه العلاقات وفق حسابات مسبقة . إن صرح هذه الصداقة يقوم نتيجة الرغبة في اكتساب المودة والمحبة التي تكمن في أعماق الشباب» .

«إن علاقات الصداقة بين الشباب تكون مصانة من الخيانة واللؤم بفضل عدة قواسم مشتركة تجمع بينهم من مودة ومحبة وتلهف وتضحية وما شابه»^(٢) .

(١) ماذا أعرف؟ ، البلوغ ، ص ١٢٢ ، ٥٤ .

الشباب وبناء الذات :

يحتاج الشاب المراهق من أجل أن يبني شخصيته وأفكاره وسلوكه بما يتناسب والحياة الاجتماعية إلى قدوة يقتدي بها ويجعل منها مثلاً أعلى له في بناء ذاته . هذا من جهة أما من جهة ثانية فإن الشاب المراهق ولما يتمتع به من نقاء ذهن وصفاء قلب يعشق السجايا الأخلاقية والصفات الإنسانية السامية ، وهو يميل إلى اتباع ضميره الأخلاقي وإلهامه الفطري وبناء شخصيته على أساس الخير والفلاح .

الشباب والميل إلى الفضيلة :

من الطبيعي أن يزداد الشاب المراهق تعلقاً بالمربي الكفوء الذي يعمل على هدايته إلى طريق الحق والفضيلة ويسعى إلى إرضاء ضميره الأخلاقي بالطرق والأساليب الصحيحة ، وفي مثل هذه الحالة يستجيب الشاب لدعوات مربيه ويتبع إرشاداته بكل إخلاص .

وما الحركات الإصلاحية والنهضات المثمرة التي قادها الأنبياء والرسل في العصور الغابرة معتمدين على مساعدة وتعاون جيل الشباب في الملل والأقوام السالفة إلا دليل صادق على هذا القول .

استجابة الشباب :

عندما كان المرَبون الإلهيون ينهضون وسط مجتمعات الشرك والضلالة والفساد يدعون الناس إلى عبادة الله والتحلّي بالفضائل الأخلاقية ، كان الشباب أكثر الناس استجابة لهذه الدعوات ، لأنهم كانوا يجدون فيها ما يتلائم وإلهامهم الفطري وندائهم الوجداني ، وأنها أفضل سبيل لتحقيق ميولهم لسطهر والفضيلة ، وكان الشباب باستجابتهم لدعوات الرسل والأنبياء يحققون أسمى الرغبات الفطرية الإنسانية ويضمنون سعادتهم المادية والمعنوية .

قال تعالى : ﴿ نَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةً مِّن قَوْمِهِ ﴾ .

الشباب والفضيلة :

قال رسول الله ﷺ : أوصيكم بالشبان خيراً فإنهم أرق أفئدة ، إن الله بعثني بشيراً ونذيراً ، فخالفتي الشبان وخالفتي الشيوخ ، ثم قرأ فطال عليهم الأمد ففست قلوبهم^(١) .

ففي السنوات الثلاث الأولى من بعثة الرسول الأكرم ﷺ كان النبي يدعو الناس سرّاً إلى الاسلام وذلك لتجنب شرّ المشركين وعبدة الأصنام ، وخلال هذه الفترة آمن بدعوته أربعون رجلاً وامرأة معظمهم من الصغار والمراهقين والشباب الذين تراوحت أعمارهم بين العاشرة والخامسة والعشرين عاماً .

الإيمان الصادق :

وكان هؤلاء من أصحاب الضمائر الحية والفضيلة الطاهرة وأكثر الناس لياقة لقبول الدين الاسلامي ، لأن دعوة الرسول الأكرم ﷺ جاءت متطابقة مع طبيعتهم الباشئة عن الحقيقة والمجبة للخير والفضيلة . فقد آمن هؤلاء بدعوة النبي وتجاذبتهم التعاليم الاسلامية السامية وترسخت الدعوة في أعماقهم حتى ارتضوا بالنبي رسولاً وقائداً لهم ، فتجمعوا حوله ليشكلوا النواة المركزية للاسلام . ويمكن القول إن دعوة الرسول الأكرم ﷺ كان لها أثرها البالغ في صفوف الفتيان والشبان الذين كانوا يحومون حوله كالفراشات وينفذون تعاليمه بكل حب وإخلاص ، ومن هنا جاء تأييد النبي ﷺ للشباب .

وبعد فترة من الدعوة السرية أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بأن يجهر بدعوته بين الناس وينشر تعاليم هذا الدين السماوي أمام الملأ ، فكان الشباب أيضاً يشكلون غالبية من اعتنقوا الدين الاسلامي وآمنوا بدعوة الرسول ﷺ .

(١) كتاب شباب قريش ، ص ١ .

شكوى المشركين من الرسول :

وقد أثار استقبال الشباب المتزايد لدعوة الرسول ﷺ واعتناقهم الدين الاسلامي سخط وغضب الشيوخ الطاعنين في السن الذين كانوا يغرقون في شركهم وضلالهم نتيجة تعصبهم ولجاجتهم ، حتى وصل بهم الأمر إلى اتهام المسلمين بالفساد والضلالة وركزوا على هذا الاتهام في شكاوهم من الرسول الأكرم ﷺ ، وأعربوا بكل صراحة عن قلقهم إزاء ما يجري .

قال عتبة وهو من مشركي مكة لأسعد بن زرارة : خَرَجَ فِينَا رَجُلٌ يَدَّعِي أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ سَفَهُ أَحْلَامَنَا وَسَبَّ آلِهَتَنَا وَأَفْسَدَ شُبَّانَنَا وَفَرَّقَ جَمَاعَتَنَا^(١) .

ولما اجتمع رجال قريش وشيوخ المشركين في دار الندوة لوضع مخطط لمواجهة الرسول الأكرم ﷺ والوقوف بوجه الانتشار السريع للإسلام ومحاربة أتباع الرسول ﷺ ، توالى الخطب العنيفة ومن جملتها خطبة ألقاها أبو جهل ركز فيها على عبارة «أفسد شباننا» وأعرب عن قلقه العميق إزاء التأثير البالغ الذي تتركه دعوة الرسول الأكرم ﷺ في نفوس شباب مكة وفتيانها .

غضب الآباء والأمهات :

لقد بات إيمان الشباب بالدين الاسلامي حديث الساعة ومحط اهتمام الناس في صدر الاسلام ، فكان الآباء والأمهات وعامة كبار السن في مكة غاضبين جداً من استجابة فتيانهم وشبانهم لدعوة النبي ﷺ وتعاونهم معه بكل حب وإخلاص . حتى انهم لجأوا إلى استخدام شتى وسائل التعذيب والضغط بحق أبنائهم لصدهم عن أتباع الرسول وثنيهم عن مسيرتهم وإجبارهم على العودة لعبادة الأصنام آلهة آبائهم وأجدادهم ، إلا أن أساليب الضغط والتعذيب التي استخدمها مشركو مكة لم يكن لها أدنى تأثير في نفوس الشباب المؤمن ، ولم تستطع إرباك إيمانهم وصدّهم عن مسيرتهم في أتباع الرسول الأكرم ﷺ .

(١) بحار الأنوار ، ٦ ، ص ٤٠٥ .

لأن ما جاء به النبي ﷺ هو أقرب إلى عقولهم وفطرتهم وكان بمثابة الضالة التي تبحث عنها ضمائر الشباب الحيّة والطاهرة ، وقد جاء الرسول ﷺ ليخاطبهم بلسان القلب للقلب وينفذ بالإسلام إلى أعماقهم ، وكيف يستطيع التعذيب والتحقير والإهانة تغيير العقيدة التي ترسخت جذورها في الأعماق وتجريد النفس الطاهرة من فطرتها ؟ .

حياة المسلمين :

بالرغم من أن أنصار الرسول ﷺ والمؤمنين بدعوته قد ثبتوا على دينهم وإيمانهم رغم كل المحاولات التي قام بها المشركون ، إلا أن حياتهم قد أصبحت مريرة لا تطاق ، وكان عليهم أن يجدوا حلاً سريعاً لهذا الوضع المأساوي ، لذا تقرر وبموافقة الرسول الأكرم ﷺ أن تغادر مجموعة من الرجال والنساء مكة إلى الحبشة ، وتخرج مجموعة أخرى بمعية الرسول الأكرم ﷺ من مكة متوجهة إلى شعب أبي طالب ، وذلك ليكونوا في مأمن من اعتداءات المشركين ولولو لفترة من الزمن ، وهذا ما حصل ، فقد ارتحل ثلاثة وثمانون رجلاً وثمانية عشر امرأة عن مكة قاصدين الحبشة - حسبما جاء في كتب التاريخ - .

المسلمون في الحبشة :

وصل المهاجرون المسلمون ومعظمهم من الفتیان والشباب إلى الحبشة بسلام وبدأوا حياتهم الطبيعية وأداء فرائضهم الدينية بكل حرية وأمان . وما أن علمت قريش بوصولهم إلى الحبشة حتى بدأت تحيك المؤامرات ، فأوفدت عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد إلى ملك الحبشة يحملان إليه ما استطاعا من الهدايا وذلك لإقناعه بطرد المسلمين من الحبشة ليعودوا إلى مكة ذليلاً حيث موطن قدرة قريش .

وقد تناقلت كتب التاريخ بشكل تفصيلي أخبار سفر ممثلي قريش ودخولهما على الحبشة وما دار بينهم من حديث وكذلك حديث جعفر بن أبي

طالب (الطيار) . لكننا سنستشهد في بحثنا هذا بنقطتين طريفتين من كل ما جرى في الحبشة يومذاك ، الأولى ، المواجهة التي حصلت بين جيل الشباب وجيل الشيوخ ، والثانية ، إنسجام التعاليم الاسلامية مع نداء الفطرة والضمير .
لقد شكوا وفد قريش إلى ملك الحبشة من انحراف فتيانهم وشبابهم عن دينهم واعتناقهم الاسلام ديناً جديداً ، وعرف الوفد نفسه إلى الملك على أنه يمثل آباء الفتيان والشبان وأعمامهم وكبار أقوامهم ، ونطق الوفد فقال :

أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنَّهُ قَدْ صَبَا إِلَى بَلَدِكَ مِنَّا غُلَّامَانِ سَفَهَاءَ فَارْقُوا دِينَ قَوْمِهِمْ وَنَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكَ وَجَاؤَا بِدِينٍ مُّبْتَدَعٍ ، وَقَدْ بَعَثْنَا إِلَيْكَ فِيهِمْ أَشْرَافَ قَوْمِهِمْ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَعْمَامِهِمْ وَعَشَائِرِهِمْ لِيُرَدَّوهُمْ إِلَيْهِمْ^(١) .

ويتضح لنا من خلال هذه العبارة عمق المواجهة التي حصلت بين جيل الشباب وجيل الشيوخ الطاعنين في السن نتيجة الدعوة إلى الاسلام التي جاء بها النبي الأكرم ﷺ . فقد آمن به الفتيان والشبان ورحلوا عن قومهم مهاجرين إلى الحبشة للخلاص من أذى وتعذيب آبائهم وكبار قومهم ، بينما أطلق الشيوخ والكهول صرخة المعارضة فعملوا بكل ما بوسعهم على قمع فتيانهم وشبانهم في مكة ولاحقوهم حتى في الحبشة حيث هاجروا .

المهاجرون في بلاط الملك :

لم يكتف ملك الحبشة الذي كان رجلاً عاقلاً حكيماً بما سمعه من وفد قريش المكوّن من رجلين ، فالتفت إلى من حوله وقال يجب أن أستدعي المهاجرين المسلمين وأتحقق شخصياً من دينهم ، فإذا صح ما جاء به وفد قريش سأسلمهم له وإلا فإنني سأدافع عنهم وأبقهم في بلادي ما رغبوا في ذلك ، ثم أمر بمجيء المسلمين المهاجرين إليه . فبلغ المسلمين ما أمر به الملك ، فتشاوروا فيما بينهم قبل اليوم الموعود ، واتفقوا على أن يكون جعفر الطيار وكان يومذاك في الخامسة والعشرين من العمر المتحدث بلسانهم نظراً لأهمية اللقاء .

(١) السيرة الحلبية ١ ، ص ٣٧٨ .

الإمتناع عن السجود للملك :

وحلّ اليوم الموعود ، وحضر المسلمون إلى بلاط الملك ، بيد أنهم امتنعوا عن السجود له حيث كان السجود للملك آنذاك تقليداً سائداً مفروضاً على كل من يدخل عليه . فسأل بعض من كان في البلاط عن سبب امتناع المسلمين عن السجود للملك ، فأجاب جعفر الطيار إننا لا نسجد إلا لله الواحد الأحد .

وسأل ملك الحبشة : ما هذا الذي فارقتم فيه قومكم ؟ .

جواب جعفر الطيار :

فأجاب جعفر : أَيُّهَا الْمَلِكُ كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ وَنُسِيءُ الْجَوَارِ وَيَأْكُلُ الْقَوِيُّ الضَّعِيفَ ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ لَنَا رَسُولًا كَمَا بَعَثَ الرَّسُلَ إِلَى مَنْ قَبْلَنَا ، وَذَلِكَ الرَّسُولُ مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لِنُوحِدَهُ وَنُخْلَعَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ ، وَأَمَرْنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ تَعَالَى وَحْدَهُ ، وَأَمَرْنَا بِالصَّلَاةِ وَأَمَرْنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ وَحُسْنِ الْجَوَارِ وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالِدَّمَاءِ ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ وَقَوْلِ الزُّورِ وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ وَقَذْفِ الْمُحْصِنَةِ ، فَصَدَّقْنَا وَأَمْنَا بِهِ وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ ، فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمًا لِيُرُدُّونَا إِلَى عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَاسْتِحْلَالِ الْخَبَائِثِ ، فَلَمَّا قَهَرُونَا وَصَيَّقُوا عَلَيْنَا خَرَجْنَا إِلَى بَلَدِكَ وَاخْتَرْنَاكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ (١) .

إن أول ما تحدث عنه جعفر الطيار أمام ملك الحبشة كان عبادة أهل مكة الأوثان والأحجار وهذا ما يتنافى ومنطق العقل والسلوك والضمير ، ثم أشار إلى عبادة الله الواحد الأحد التي تتناغم والقطرة الإنسانية والأخلاقية في الاسلام . ولم يأت جعفر الطيار في حديثه على ذكر العقل والضمير ، إلا أنه طرح في

(١) نفس المصدر ، ص ٣٧٨ .

حديثه القصير الشافي العقيدة البالية التي كان يدين بها أهل مكة والتعاليم الجديدة التي جاء بها الرسول الأكرم ﷺ في مقارنة منه بين العقيدتين بما لا يدع مجالاً لأي مستمع عاقل ومنصف يحكم بعقله وضميره إلا ويعترف ببطلان العقيدة الجاهلية وحقانية العقيدة الإسلامية . ومنطق جعفر الطيار هذا كان له تأثير بالغ على ملك الحبشة الذي أعلن حمايته الكاملة للمسلمين .

والطريف في الأمر أن جعفر الطيار اكتفى بذكر هذه المقارنة البسيطة التي تبلورت في ذهنه بفضل قوة العقل والضمير دليلاً على اعتناقه وسائر المهاجرين للدين الإسلامي ، ولم يذكر أدلة أخرى على حقانية هذا الدين المقدس .

أما شيوخ قريش وكبار رجالها الذين اعتادوا لسنوات طويلة على عبادة الأصنام والظلم وتطبعوا على العادات المنافية للعقل والضمير ، فإنهم لم يستطيعوا إدراك سوء معتقداتهم وقبح أخلاقهم وممارساتهم الظالمة واللاإنسانية ، إلا أن الفتيان والشبان الذين يمتلكون ضمائر طاهرة وحيّة لم يرضهم دين آبائهم وأخلاقهم الرذيلة ، فلذلك اهتزت ضمائرهم لدى سماعهم بما جاء به الرسول ﷺ من عند الله ، لأنهم وجدوا في حديث الرسول ﷺ ما يتطابق ورغباتهم الفطرية ، كما أن الفتيان والشبان قد استقبلوا الإسلام منذ انبعاثه وكانهم عثروا على ضالتهم ، وهذا ما جعل الرسول الأكرم ﷺ يشيد بالشباب ويوصي بهم خيراً .

وما يمكننا أن نستنتجه من خلال هذا البحث أن الضمير الأخلاقي هو عبارة عن قوة امتزجت ببطرة الإنسان يمكنها التمييز بين الصفات الحميدة والذميمة . ورغم أن هذه القوة التي تعتبر أساس سعادة الإنسان موجودة في أعماق كل إنسان ، إلا أنها تبلغ كمالها خلال فترة البلوغ والشباب حيث يتأثر الشباب كثيراً بدوافعها المعنوية السامية .

إن الضمير الأخلاقي دافع مقدس وطاهر يبرز بشدة في الشباب ويأسد يدهم نحو الفضيلة والسعادة محذراً إياهم من الصفات والأخلاق الذميمة .

يقول «لي كونت دونوثي» : إن الخير هو ذلك العامل الذي يساعدنا على تسلق مدارج الكمال ويخلصنا من الحيوانية لهدينا إلى الإنسانية والحرية ، والشر هو ذلك العامل الذي يعارض الكمال ويهوي بالإنسان بشكل رذيل إلى الحيوانية»^(١) .

والضمير الأخلاقي هو من العوامل التي جعلها الله سبحانه وتعالى تدعونا إلى الخير والإنسانية وتهدينا إلى طريق السمو والتكامل . والإنسان الذي يرغب في أن يعيش طوال عمره حياة هائلة نزيهة متحلّياً بالصفات الإنسانية الفاضلة ، عليه أن يحيي الضمير الأخلاقي في نفسه وينشّطه ويجعله مبدأً ثابتاً لسلكه الأخلاقي في جميع شؤون الحياة ومراحلها .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : تَحَلَّوْا بِالْأَخْذِ بِالْفَضْلِ وَالْكَفِّ عَنِ الْبَغْيِ وَالْعَمَلِ بِالْحَقِّ وَالْإِنْصَافِ مِنَ النَّفْسِ^(٢) .

الضمير والغرائز :

ينبغي على الإنسان الذي يريد أن يبقى في مأمّن من الإنزلاق في مستنقع الفساد والرذيلة أن ينسّق بين رغباته الغريزية وضميره الأخلاقي ، ويشبع ميوله النفسية ضمن الحدود التي يرتضيها الضمير ، لأن الإنقياد الأعمى للغرائز والأهواء النفسية يعني السقوط والهلاك .

عن محمد بن علي الجواد عليه السلام : رَاكِبُ الشَّهَوَاتِ لَا تُقَالُ عُثْرَتُهُ^(٣) .

وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام : غَلَبَةُ الشَّهْوَةِ تُبْطِلُ الْعِصْمَةَ وَتُورِدُ الْهَلَكَ^(٤) .

(١) مصير الإنسان ، ص ١٨٥ .

(٢) غرر الحكم ، ص ٣٥٢ .

(٣) بحار الأنوار ، ١٧ ، ص ٢١٤ .

(٤) غرر الحكم ، ص ٥٠٧ .

باروك ينتقد نظرية فرويد :

منذ زمن والكثير من الناس في عصرنا الحاضر لا سيما أنصار مدرسة فرويد يرون في الغرائز والشهوات النفسية معياراً لمعرفة الخير والشر ومبدأً أساسياً للسعادة متناسين عملياً الضمير الأخلاقي والفضائل الإنسانية . وهذه النظرة الخاطئة التي يتضح بطلانها تدريجياً قد أدت حتى الآن إلى مفاسد كبيرة وجرت الكثير من شباب العالم إلى الانحراف الخلقي والفساد .

«يقول البروفسور «باروك» : إن التحليل النفسي الذي يعتمدُ بعدُ الغرائز يتخذ من الغرائز ملاكاً وقاعدةً لتبيان كل ظاهرة للنفس الإنسانية ، وبما أن الظواهر متعددة ومتضادة اضطر فرويد إلى اعتبار كل غريزة منها غريزة قائمة بحد ذاتها منفصلة عن غيرها ، ومن هنا جاء اعتقاده بالغرائز بدل الغريزة الواحدة ، واعترافه بغريزة الحياة وغريزة الموت وغريزة العدوان» .

«يزعم فرويد أن الإنسان شرير كالحَيوان ويميل بطبيعته إلى النفور من بني جنسه وهو مجرد من وسائل وعوامل المحبة والعطف والحنان ، بينما في الواقع توجد مثل هذه الوسائل والعوامل لدى الإنسان ، كما أن دور الضمير الأخلاقي الذي لا يعترف به التحليل النفسي قد تجلّى عملياً في الكثير من الأزمات»^(١) .

دور الغرائز في علم النفس الحديث :

«يعتبر علم النفس الحديث الذي يخضع لسلطة ونفوذ التحليل النفسي ، يعتبر الغرائز بأنها الأصل والأساس حتى انه ذهب في هذا المنحى إلى حد تأليه هذه الغرائز ليظهر سيراً تراجعياً باتجاه الشرك . والغرائز طبعاً كان لها أهميتها في زمن موسى

(١) الطب النفسي الإجتماعي ، ص ٨٩ .

وعيسى عليه السلام ومحمد عليه السلام ، إلا أنها كانت تعتبر خاضعة لسيطرة الضمير الأخلاقي ، وكان هناك تنسيق بينهما ينصب في إطار المفهوم الاجتماعي للبشرية» .

«وجاء علم النفس الحديث ليزيل هذا التنسيق ويفكك الغرائز عن بعضها البعض ويتركها حرة طليقة من قيود العقل والضمير ، وكلما تقدمنا في هذه النظرية وحذفنا مسألة القبح والجمال أو الحسن والسيء ونسبنا كل ما يسعدنا إلى الخير وكل ما يتعسنا إلى الشر بلبغنا منزلة تكون نفسنا الأمانة فيها معياراً للخير والشر وتتضح فيها سيطرة النفس على العقل ، عندها يمكن التكهن بشكل دقيق بما سيحل بالمجتمعات من عواقب وخيمة»^(١) .

«بعد الغريزة الجنسية لـ «فرويد» وعقدة النقص لـ «آدلر» والضمير الباطن أو الوجدان الاجتماعي لـ «يونغ» جاءت نظرية «لوتسك» . وبمقدور هذه النظرية على حد زعم «باروك» أن تعرف الحياة الإنسانية بالكامل وتصبح فصلاً مشتركاً للقضايا الفردية والاجتماعية ، وبمقدورها أن تساهم إلى جانب نظريات «باروك» في علم النفس في ازدهار القضايا الأخلاقية والوجدانية التي كانت ولمدة طويلة تشكل واجباً دينياً وعبادياً ثم أصبحت خلال القرن الأخير ضمن القضايا الإضافية التي لا جدوى منها»^(٢) .

الشاب ودواعي الإنحراف :

لقد اتضح لنا من خلال البحث ما يلي :

أولاً : إن الضمير الأخلاقي الذي يعد بمثابة نور الهداية الإلهية له جذور فطرية تمتد إلى أعماق الإنسان .

(١ و٢) نفس المصدر ، ص ٩٤ و٧٨ .

ثانياً : إن الجذب المعنوي والدفع الروحي للضمير الأخلاقي يكونان خلال مرحلة البلوغ والشباب من القوة بمكان بحيث يميل الشاب بضميره الحي وباطنه المنزه نحو السجايا الإنسانية والفضائل الأخلاقية .

ومع الأخذ بعين الاعتبار هاتين النقطتين يتبادر سؤال إلى الأذهان يقول : لماذا لم يبال بعض المراهقين والشباب لنداء الضمير ؟ ، وما الذي يدفع بهم إلى الانحراف عن فضائل الأخلاق والصفات والقيام بما يتعارض ومنطق الضمير ؟ . ورداً على هذا السؤال بشقيه يمكن القول إن ثمة أسباباً متعددة تؤدي بجيل الشباب إلى الانحراف سنتطرق في بحثنا إلى بعض منها :

أولاً : بشكل سوء التربية التي يتلقاها الإنسان في طفولته أحد أسباب قمع الرغبات الوجدانية في باطنه . فالطفل الذي يترعرع في أسرة فاسدة وفي كف أبوين ومربيين شعارهم الخطيئة والرذيلة ، يراقب أقوالهم وفعالهم اللإنسانية ، لا شك أنه ينحرف تدريجياً عن مسير الفطرة وتخدم في نفسه نار الضمير الأخلاقي ، فيعتاد على السلوك الرذيل لدرجة أنه لا يشعر بمرارة ولا بندم عندما يرتكب في شبابه أفظع الخطايا الأخلاقية .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : **الْمَرْءُ حَيْثُ وَصَعَ نَفْسَهُ بِرِيَاضَتِهِ وَطَاعَتِهِ فَإِنَّ نَزْهَهَا تَزَهَّتْ وَإِنْ دَنَسَهَا تَدَنَسَتْ** (١) .

سوء العادة من سوء التربية :

إن من تطبع على سوء الخلق والصفات والعادات ليس من السهل عليه أن يتخلص منها ويظهر نفسه في مجتمعه بمظهر الفضيلة ، لأن العادات السيئة في باطن الإنسان هي كالنار المتأججة التي مهما حاول الإنسان إخمادها تحت الرماد المصطنع بانت شرارتها وعلا لهيها ، والإنسان مهما حاول التصنع فإنه يعجز عن إخفاء سوء خلقه في العلانية .

(١) فهرست الغرر ، ص ٣٠٥ .

قال الإمام الحسن عليه السلام : العادات قاهراتُ فَمَنْ اعتَادَ شَيْئاً فِي سِرِّهِ وَخَلَوَاتِهِ فَضَحَهُ فِي عَلَانِيَتِهِ وَعِنْدَ الْمَلَأِ^(١) .

الشباب والبيئة الفاسدة :

ثانياً : إن العامل الآخر الذي يؤدي إلى انحراف المراهقين والشباب عن السلوك النبيل والصفات الإنسانية ويدفع بهم إلى طريق الخيانة والرذيلة هو أصدقاء السوء والاعلام السيء والبيئة الفاسدة والمجتمع الرذيل .

فالشباب عندما يقيم علاقة صداقة مع شخص منحرف أو سيء الخلق أو يتأثر بالأفراد الفاسدين ، أو عندما يرى الخيانة تعم مجتمعه خلافاً لتوقعاته الفطرية ، والخداع والظلم أساس تعامل الناس ، أو حينما يلمح حقيقة الوجوه التي تستتر خلف قناع الرياء والتملق والتزلف ، يكون الشباب في مثل هذه الحالات مستعداً كل الاستعداد للانحراف ، ويأخذ نور الحقيقة بالخفوت في ضمير المراهق والشباب ، وتقمع قواه الوجدانية والأخلاقية وميوله نحو الطهر والفضيلة . ويكون الشباب قد اتخذ من بيئته الفاسدة ومجتمعه الرذيل دروساً في الخيانة والرذيلة فيبدأ بتطبيقها .

«يقول «جان جاك روسو» : كنت أتمنى لو أن الناس عملوا على إفهام أبنائهم الشباب بأن كل من يحيط بهم هم أناس طيبون وأن كل ما يحصل داخل المجالس والمحافل ليس سوى عمل سيء يجب أن يعلموا أن الإنسان طيب بطبيعته ، وعليهم أن يلمسوا هذه الحقيقة ويتصوروا أن الناس جميعهم طيبون بالفطرة مثلهم ، ولكن يتوجب عليهم في الوقت ذاته أن يعرفوا كيف يفسد المجتمع الأفراد وكيف أن المعتقدات الباطلة والخاطئة هي مصدر فساد الأفراد . كذلك ينبغي على الشباب أن يعتبر كل إنسان عزيزاً

(١) مجموعة الورام ، ص ١١٣ .

محترماً وكلّ جماعةٍ فاسدةٍ رذيلةً ، وليعلم أن لكل الوجوه قناعاً واحداً تقريباً ولكن بعض الوجوه أجمل من الأتعة التي تسترها»^(١) .

ثمة الكثير من الأفراد ولدوا سالمين ونشأوا منذ طفولتهم وسط أسر تمتاز بالطيبة وفي كنف أبوين كفؤين واكتسبوا خير الصفات والأخلاق . لكنهم انحرفوا خلال بلوغهم وشبابهم نحو طريق الرذيلة والخيانة نتيجة بعض العوامل السبئية والأجواء الفاسدة ، فأودعوا ضمايرهم وصفاتهم الأخلاقية والإنسانية في ملف النسيان وراحوا يرتكبون أبشع الجرائم وأفظع الأعمال اللاإنسانية .

مفاهيم الخير والشر :

«ثمة عوامل تساهم في تغيير مفاهيم الخير والشر لدى الإنسان وتقضي على الروح الإنسانية والطيبة في نفسه ، منها الإنطاف التدريجي نحو الجريمة والرذيلة وتأثيرات الاعلام السيء والخوف الدائم من حقارة الشخصية والاستمرار في تعلم عقيدة شيطانية منحرفة . وهذه العوامل تترك أثراً كبيراً على الكثيرين ممن هم في متوسط العمر ، فيتغير الإنسان الذي كان يعتبر طبيعياً وسليماً إلى حد ما نتيجة هذه العوامل ويصبح مجرماً منحرفاً» .

«وهنا يتضح التأثير القوي والكبير الذي تركه العقائد الباطلة والتربية والتعليم والعوامل الاجتماعية على الإنسان وتدفع به نحو الانحراف والرذيلة»^(٢) .

وقد جاء النبي الأكرم ﷺ والأئمة المعصومون عليهم السلام من بعده ليعزروا موقف المسلمين عامة والشباب خاصة المتمسك بفضائل الأخلاق ويصونوهم من

(١) اميل ، ص ١٧٧

(٢) الطب النفسي الاجتماعي ، ص ١٣٠ .

خطر الإنزلاق والضياع وذلك من خلال أحاديثهم ورواياتهم التي تضمنت إشارات صريحة للإعلام المضلل والسلوك الفاسد وسائر العوامل اللاأخلاقية

عن محمد بن علي الجواد عليه السلام : مَنْ أَصْغَى إِلَى نَاطِقٍ فَقَدْ عَبَدَهُ ، فَإِنْ كَانَ النَّاطِقُ عَنِ اللَّهِ فَقَدْ عَبَدَ اللَّهَ ، وَإِنْ كَانَ النَّاطِقُ يَنْطِقُ عَنْ لِسَانِ إبْلِيسَ فَقَدْ عَبَدَ إبْلِيسَ (١) .

وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام : غَنَّكَ مَنْ أَرْضَاكَ بِالْبَاطِلِ وَأَغْرَاكَ بِالْمَلَاهِي وَالْهَزَلِ (٢) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ (٣) .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام : قَارِنْ أَهْلَ الْخَيْرِ تَكُنْ مِنْهُمْ وَبَاطِنْ أَهْلَ الشَّرِّ تَبِنْ عَنْهُمْ (٤) .

دافع الغرائز والشهوات :

ثالثاً : العامل الآخر الأكثر تأثيراً على الشباب وانتشاراً بينهم من العاملين السابقين ، والذي يستطيع أن يسلب الشباب ضمائرهم ويجردهم من صفاتهم الإنسانية وأخلاقهم النبيلة ويرمي بهم في مستنقع الفساد والرذيلة هو عامل الغرائز الطبيعية والشهوات النفسية .

فعندما يبلغ الإنسان ويفتح ضميره الأخلاقي تبدأ غرائزه الطبيعية بالتفتح الواحدة تلو الأخرى وتبرز ميوله ورغباته النفسية بقوة في أعماقه فالشهوة الجنسية والرغبة في التجميل وحب القدرة والتفوق وحب المال وما إلى ذلك من

(١) تحف العقول ، ص ٤٥٦

(٢) غرر الحكم ، ص ٥٠٨ .

(٣) مستدرك الوسائل ، ٢ ، ص ٦٢ .

(٤) نهج البلاغة ، الرسالة ٣١

رغبات وميول وأحاسيس ملتعبة تعصف بالإنسان خلال مرحلة الشباب ، كلها لها تأثيرات بالغة في مزاجية الشباب وطبائعهم وتغيير أفكارهم وسلوكهم .

البلوغ والتحول الأخلاقي :

«وتحلّ فترة البلوغ ، ويفقد الصبي المبادرة الفردية للقيام بأي عمل دون تفكير بعواقبه ، ويخيّم عليه عامل التفكّر والتدبّر . الفتاة مثلاً تبدأ بتزيين نفسها بدقة أكثر وتصفّف شعرها بذوق أكبر . تقف ساعات أمام خزاناتها لتختار ما ستلبسه من ثياب ، وتنظر بفرور ودهشة عشرات المرات إلى ما ترتديه . والفتى يعتني بشكله وشعره ويهتم بهندامه ومظهره ويزداد اهتمامه بالفتيات .»

«يبدأ الشاب باختبار نفسه والآخرين من حوله ، فيكثر من الأسئلة للحصول على معاني الأشياء ، يفتح ذهنه كالنبع المتدفق ، كل مشكلة وكل فكرة تثير في مخيلته عشرات الأسئلة . فالشاب قد بلغ مرحلة يكثر فيها المزاح بين الصبيان والضحك بين الصبايا . ويؤدي طغيان الميول والرغبات إلى تقوية حسّ معرفة الجمال وتنميته في نفوس الفتيان والفتيات ، ويتفتح في نفوسهم حسّ الإكتساب مما يدفع بهم إلى البحث عن المال والقدرة»^(١) .

تعتبر الميول الغريزية التي أودعها الله سبحانه وتعالى في أعماق الإنسان عنصراً مهماً في استمرارية الحياة وأداة تحرك الإنسان نحو إدارة شؤون حياته المختلفة ، لذا على الإنسان أن يعمل على إرضاء جميع ميوله في المكان المناسب وبالمقدار السليم ، فقمع أو كبت أي منها يخالف قانون الخلقة ونظام التكوين ويعارض سعادة الإنسان وهناءه .

إن أحد المعايير الصحيحة لقياس الغرائز والميول النفسية هو الضمير

(١) مباهج الفلسفة ، ص ٤٩٣ .

الأخلاقي ، فالإنسان الذي يريد أن يكون إنساناً حقيقياً يراعي دائماً حدود الفضائل الأخلاقية عليه أن يعتمد على ضميره الأخلاقي في تعديل ميوله وغرائزه وذلك ليصون نفسه من المفسدات الأخلاقية والسلوك اللإنساني وكذلك ما سينجم عن قمع الغرائز والميول من نتائج سلبية .

الضمير والغرائز :

«يجب أن يكون هناك تنسيق بين الغريزة الجنسية والضمير الأخلاقي . ولكن ثمة حالتان متضادتان يمكن أن تحولا دون تحقيق هذا الأمر ، فقمع الغريزة بسبب ترويض النفس أو الزهد والتقوى المفرطة يؤدي إلى شلّ الغرائز ويدفع بالإنسان أحياناً إلى الانحراف ، كما أن التضحية بالخلق في سبيل الغرائز وإشباع هذه الغرائز دون رادع أو وازع تؤدي إلى الفقر الأخلاقي ، إذ إنها تفصل بين الجسم والروح ، وهذا ما يترتب عليه عواقب وخيمة»^(١) .

هاوية الحياة :

قد يواجه الشاب في بعض الحالات تضاداً بين الغرائز والوجدان ، فيرى نفسه أمام طريقين كل منهما في اتجاه ، طريق التضاد الأخلاقي وطريق الميول النفسية ، حينها يجب أن يعلم أنه بات على شفير هاوية الحياة وهو يدنو من الخطر ، وإن لم يسارع إلى المبادرة ويتجاهل شهواته المنافية للأخلاق فإنه ساقط لا محالة ، عندها ربما عاش بقية حياته في تعاسة وشقاء . وهنا نورد بعض الأمثلة الدالة على بحثنا هذا :

إن الغريزة الجنسية تبرز بشدة عند الشباب وتملك أحاسيسهم وكيانهم . فالشاب إذا ما صادف فتاة جميلة فإنه يتعلّق بها في البداية ثم تتحول هذه العلاقة إلى حب غمشق كبير يسلب منه هدوءه واستقراره فيستمر الشاب بكل

(١) الطب النفسي للطفل ، ص ٣٣ .

الوسائل لوصولها وإشباع رغبته الجنسية مع معشوقته .

هذا الشاب الذي نتحدث عنه إذا استطاع الزواج من معشوقته وإرضاء رغبته الجامحة ضمن إطار الشرع والقانون حفاظاً على مبادئ الأخلاق ، فإنه يكون بهذا العمل الذي يتطابق والتعاليم الدينية والعلمية قد نجح في التنسيق ما بين غريزته الجنسية وضميره الأخلاقي وأشبعهما معاً .

أما إذا لم يستطع أو لم يشأ الزواج منها أو امتنعت الفتاة عن قبوله بعلاً لها لأسباب معينة ، هذا الشاب العاشق الولهان الذي سيتعرض لضغوط الحب والغريزة الجنسية معاً قد يسلك أحد طريقتين .

الشباب عند مفترق طريقتين :

أولاً : إما أن يسعى إلى نسيانها ويجاهد نفسه حتى يخلص ذهنه من التفكير بها .

ثانياً : وإما أن يبحث عن فتاة أخرى ليشبع شهوته الجنسية ، فهو لا يتورع عن القيام بأي عمل كان من أجل بلوغ هدفه الغريزي .

والطريق الثاني تترتب عليه أحداث سلبية لا تحمد عقابها ، فدافع الغريزة الجنسية يحجب كل شيء عن أنظار الشاب ويدفع به إلى ارتكاب جرائم كبيرة وممارسات لا إنسانية .

وما أكثر الأحداث التي راح ضحيتها الكثير من الفتيات الظاهرات العفيفات اللواتي غررَ بهن شباب خدعوهم بالوعد الكاذبة وسلبوا منهن عفتهم إرضاءً وإن كان مؤقتاً لشهواتهم ونزواتهم ، فهتكوا شرفهن وكرامتهن وجعلوهن يعشن بقية أعمارهن بتعاسة وشقاء مما يدفع بهن في بعض الأحيان إلى الانتحار وهن في ريعان شبانهن تسبقه ضغوط نفسية وعصبية حادة نتيجة الخوف من العار والنفضيحة .

وما أكثر الشباب الذين أقدموا على قتل من وقف حائلاً دون وصالهم

بفتيات أحلامهم ، وما أكثر الفتيات اللواتي ارتكبن جرائم بشعة بحق أولئك الذين حالوا دون وصالهن بفارس أحلامهن .

فشل الحب...والانتقام :

وكم من شاب عشق فتاة لم تعره أي اهتمام أو حاولت صدّه، وبالعكس كم من فتاة عشقت شاباً لم يعرها أدنى اهتمام رافضاً علاقتها ، وكانت النتيجة أن فكر الشاب أو الشابة بالانتقام نتيجة فشل الحب ، وحدثت جرائم كبيرة راح ضحيتها شبان وشابات .

وهكذا الأمر بالنسبة لغريزة حب المال والثروة وحب القدرة والتفوق وسائر الميول الغريزية شأنها جميعاً شأن الغريزة الجنسية . والشاب الذي يمثل لنداء ضميره في سبيل إرضاء غرائزه ويعمل على التنسيق بينهما فإنه ينجح في بلوغ السعادة الإنسانية الحقيقية . أما إذا أفرط في إشباع غرائزه وتجاهل نداء ضميره تماماً فإنه قادم على ارتكاب أبشع الجرائم لا محالة وبالتالي سيعاني بقية عمره من التعاسة والشقاء .

إن الإنقياد للميول الغريزية والرغبات النفسية دون تحكيم العقل والضمير ودون الامتثال للأوامر الإلهية هو أساس الفساد والانحراف الذي لا شك أنه سيحول دون بلوغ الإنسان الكمال المطلوب والسعادة المادية والمعنوية .

وقد حذر الأئمة الأطهار عليهم السلام من ركوب الشهوات والإمتهال لهوى النفس .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : **أَهْجُرُوا الشَّهَوَاتِ فَإِنَّهَا تَقُودُكُمْ إِلَى رُكُوبِ الذُّنُوبِ وَالتَّهْجُمِ عَلَى السَّيِّئَاتِ (١)** .

وعنه عليه السلام : **طَاعَةُ دَوَاعِي الشُّرُورِ يُفْسِدُ عَوَاقِبَ الْأُمُورِ (٢)**

وعن عبد الرحمن بن الحجاج قال : **قَالَ لِي أَبُو الْحَسَنِ الْإِمَامُ الرِّضَا**

(١) فهرست الغرر ، ص ١٨٦ .

(٢) غرر الحكم ، ص ٤٧٠ .

عليه السلام : إِتَى الْمُرْتَقَى السَّهْلَ إِذَا كَانَ مُنْحَدِرُهُ وَعَرَاً^(١) .

ينبغي أن تكون هذه المواعظ والحكم منهاج عمل الإنسان في شتى مجالات الحياة بما فيها المجال الغريزي ، لأن الافراط في إشباع الميول النفسية والرغبات الغريزية يتم بكل سهولة لأنه يتطابق وميولنا الفطرية ، إلا أن نتيجته ستكون فساد الإنسان وضياعه ، سيدفع الإنسان سعادته رخيصة ثمناً لطاعة هواه .

قال الإمام الجواد عليه السلام : مَنْ أَطَاعَ هَوَاهُ أُعْطِيَ عَدُوَّهُ مُنَاهُ^(٢) .

الشاب والصراعات النفسية :

ليس من السهولة بمكان أن ينقاد الشاب المحب للنزاهة والفضيلة بالفطرة والذي يمتلك قوة ضمير فائقة نسبياً للغرائز والميول غير المباحة ويتجاهل صرخة الوجدان والضمير . لكن الشاب الذي تتضارب في نفسه قوة الغريزة مع قوة الضمير يجد نفسه مستسلماً لصراعات نفسية حادة . فالضمير يدعوه إلى سلوك طريق الطهر والفضيلة ويحذره من الخطيئة والخيانة ، والدافع الغريزي القوي يدعوه إلى سلوك طريق اللذة والاستمتاع عن طريق إشباع نزواته ، وهذا التضاد الذي يؤدي إلى بروز صراع نفسي حاد في أعماق الشاب قد يبقى مسيطراً على كيان الشاب أسابيع وربما شهوراً طويلة حتى تتغلب إحدى القوتين في النهاية ، إما قوة الضمير فينصرف الشاب عن الرذيلة ، وإما قوة الغريزة فيغرق الشاب في الرذيلة . وهنا يلعب رفاق السوء والبيئة الفاسدة ومشاهدة كل ما هو غير مباح دوراً بارزاً في تفوق قوة الغريزة على قوة الضمير ، وعندها يلجأ الشاب إلى ما يتعارض وميله الفطري والإنساني ، إلى الرذيلة والفساد وارتكاب الجرائم والمحرمات .

وهنا لا بد من القول إن تضاد الميول في أعماق الإنسان لا ينحصر في

(١) الكافي ٢ ، ص ٣٣٦ .

(٢) سفينة البحار ٢ ، «هوى» ٧٢٨ .

تضارب الغريزة والضمير ، إذاً قد يتعرض الإنسان وكذلك الحيوان بمختلف أنواعه في بعض الأحيان إلى صراع بين ميول غريزية متضادة يتسبب في صراع داخلي حاد يعاني منه الإنسان والحيوان، وفي نهاية المطاف يختار الإنسان أو الحيوان أحد الميلين الغريزيين المتضادين وفقاً للظروف المحيطة بهما .

«يقول «راسل» : لو وضعت كمية من فُتات الخبز على شرفة النافذة في أيام الشتاء المثلجة ستلاحظ أن ثمة صراعاً باطنياً تعيشه الطيور بين الخوف والجوع ، وبعد مضي فترة قصيرة من الوقت تبدأ الطيور الأكثر جراءة بالهجوم على فُتات الخبز ليلتقط كل منها نصيبه ويعود أدراجه من حيث أتى ، وهذا العمل سيمتدح بقية الطيور الجرأة والشجاعة ، وستدرك الطيور التي تعيش حواليك بعد مدة أنك إنسان مسالم . لكنك في الوقت نفسه ستلاحظ أيضاً أن الطيور تنظر وتلتفت يميناً ويساراً وهي تلتقط فُتات الخبز تحسباً للخطر»^(١) .

تضاد الغرائز :

لو افتتن شاب له في بلده منصب كبير بفتاة أجنبية ، وكانت قوانين ذلك البلد تنص على تجريد كل إنسان من منصبه إذا ما تزوج بأجنبية ، فإن صراعاً عنيفاً سيبدأ بين ميلين غريزيين متضادين هما الغريزة الجنسية وحب الجاه والمقام ، وهنا لا يرى الشاب مفرأً من التضحية بأحدهما على حساب الآخر ، وأخيراً إما أن يتغلب حب الجاه والمقام على الغريزة الجنسية وإما أن تنتصر الثانية على الأولى .

عذاب الضمير :

ثمة مسألة مهمة يجب أن يلتفت إليها الإنسان بشكل عام والشباب بشكل

(١) الأمانى الجديدة ، ص ٢٤٠ .

خاص ، وهي أن الإنسان إذا لم يهتم لنداء الضمير في إشباع غرائزه وميوله ورغباته ، وراح يخنق هذا النداء في باطنه بارتكابه أبشع الجرائم ، فإنه لن يحصد سوى العذاب والألم وعدم الإستقرار . فالشعور بالذنب يسلب المذنب الراحة والسكينة ، وعذاب الضمير يعكّر على الإنسان صفو حياته ، كما أن توبيخ الذات للذات الذي يشعر به المذنب باستمرار من شأنه أن يشتت أفكاره ويحرمه طعم الراحة والإستقرار ويجعله أحياناً يعاني من أمراض نفسية حادة يصعب علاجها .

«يقول البروفسور «باروك» : إن عدم معرفة الضمير الأخلاقي وإنكاره أو تجاهله يؤدي إلى بروز اضطرابات وآلام رهيبية تكون أكثر حدة من جميع الآلام . فالذي يرى اللذة الآنية فوق كل شيء ويضحى من أجلها بجميع أنواع الحب والعدالة ، لن يبلغ السعادة أبداً ، بل وسيجد أحداثاً مريرة بانتظاره ، عندها سيئن من عذاب الضمير وما يعقبه من آلام . فالإصرار على ارتكاب الخطأ الذي عادة ما يكون مصحوباً بأنانية شديدة وظالمة بحق النفس والآخرين ، يكون نتيجته آلاماً نفسية حادة يشعر بها المذنب تؤدي بالتالي إلى ظهور ردود فعل عدوانية في نفسه»^(١) .

ولكي يستطيع الفتيان والشباب أن يتحكموا بغرائزهم ولا يفلتوا زمام النفس الأتارة طوال حياتهم ولا يؤولوا إلى السقوط والضياع نتيجة تضاد قد يبرز بين غرائزهم وضمائرهم ، عليهم أن يعملوا بما هو آت :

أولاً: أن يكبح الشاب شهواته بقوة إيمانه وعقله وضميره منذ الوهلة الأولى لبروز الميل الجنسي والرغبات الغريزية الأخرى في باطنه . لأنه إن لم يعمل على تحديد شهواته ونزواته منذ البداية وأطلق غرائزه ، فإنه سيصبح أسيراً ذليلاً لها .

(١) الطب النفسي الإجتماعي ، ص ٩٨ .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : غَالِبِ الشُّهُوةَ فَبِلِ قُوَّةِ صِرَاوَتِهَا فَإِنَّهَا إِنْ قَوِيَتْ مَلَكَتْكَ وَاسْتَقَادَتْكَ، وَلَمْ تَقْدِرْ عَلَى مَقَاوِمَتِهَا^(١) .

ثانياً : أن لا يتردد الشاب في اتخاذ القرار المناسب حينما يبرز في نفسه تضاد بين الغريزة والضمير ، وأن لا يفكر بالخطيئة ولا يسمح أن يصبح عقله وتفكيره ساحة صراع بين الغريزة والوجدان ، بل عليه أن يعمل منذ اللحظة الأولى بضميره ووجدانه ويقمع بحزم غرائزه اللامشروعة ، لأن من فكّر بالمعصية دعتة إليها .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : مَنْ كَثُرَ فِكْرُهُ فِي الْمَعَاصِي دَعَتْهُ إِلَيْهَا^(٢) .

(١) غرر الحكم ، ص ٥١٠ .

(٢) نفس المصدر ص ٦٦٤ .

المحاضرة الرابعة والعشرون

حول الشاب وعزة النفس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى في محكم كتابه : ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (١) .

الإنسان ورغبة العزة :

إنَّ الرغبة في عزة النفس والكرامة هي من الميول الفطرية الإنسانية السامية ، فالتناس قاطبة يميلون إلى عزة النفس ويفرحون إذا ما حققوها ، وينفرون من الذل ويتألمون إذا ما أصابهم .

والرغبة في عزة النفس هي كسائر الرغبات الطبيعية الأخرى تولد مع ولادة الإنسان وتنمو تدريجياً مع نموه حتى تفتح وتنضج .

فإذا كان المحيط التربوي للطفل حسناً وكانت البرامج التربوية الخاصة به قائمة على أساس سليم وإذا كان أبواه ومؤدبه ومربيه يتمتعون بكرامة معنوية ، فإن الطفل يربى بشكل سليم وتنمو رغبة العز والكرامة في نفسه بشكل حسن . أما إذا كان المحيط الأسروي فاسداً وكان الأبوان والمؤدب والمربي لا يعرفون لعزة النفس والكرامة معنى بسبب انحطاطهم وخستهم ، فإن الطفل سينشأ ذليلاً

(١) سورة المنافقون ؛ الآية : ٨ .

حقيراً لا يفهم للكرامة معنى وستموت في أعماقه الرغبة في عزة النفس .

التآب وعزة النفس :

إنّ الطفل الذي ينشأ في ظل تربية سليمة من قبل أبويه ومربيه الكفوء ويربى وسط أسرة شريفة ومحيط إجتماعي سالم ويعتاد منذ البداية على عزة النفس والكرامة ، مثل هذا الطفل عندما يصل مرحلة البلوغ والشباب وتتفجر إحساسات الشباب في أعماقه ، يزداد حبه للكرامة وتتضاعف رغبته في عزة النفس بكل وضوح .

ان الفتيان والشبان الذين يميلون إلى عزة النفس ويحبون الكرامة يرون في الذل أكبر بلاء ومصيبة مهما كان صغيراً ، وهم يفتأظون بشدة لو وجّه إليهم أحد إهانة ما وجرح كرامتهم وعزة نفسهم وقد يدفعهم ذلك إلى القيام بأعمال خطيرة وجرائم لا تحمد عقابها بهدف الإنتقام .

ومن هنا يتوجب على الآباء والأمهات والمربين العمل ضمن إطار برامجهم التربوية على تنمية عزة النفس في نفوس أبنائهم والتعامل معهم بشكل يجعلهم من المحبين لعزة النفس والكرامة والمبغضين للذل والضعّة والعبودية .

عزة النفس والحرية :

إنّ خصلة عزة النفس وهي من الخصال الحميدة تعتبر من الأركان الأساسية التي تقوم عليهم شخصية الإنسان ، وهي رمز الحرية . فالإنسان الشريف العزيز النفس لا يمكن أن يرضى بالذل والعبودية ولن يبيع كرامته وعزة نفسه وحرته مهما كان الثمن .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : **أَكْرَمُ نَفْسِكَ عَنْ كُلِّ ذَنْبٍ وَإِنْ سَأَقْتِكَ إِلَى الرُّغَائِبِ فَإِنَّكَ لَنْ تَتَّعَاصَ بِمَا تَبْدُلُ مِنْ نَفْسِكَ عِوَضًا وَلَا تَكُنْ عَبْدَ غَيْرِكَ وَقَدْ جَعَلَكَ اللَّهُ حُرًّا** (١) .

(١) نهج البلاغة ، الرسالة ٣١ .

عزة النفس وتجنب المعصية :

تعتبر عزة النفس ركناً من الأركان الأساسية لسعادة الإنسان في شتى مجالات الحياة الفردية والإجتماعية والمادية والمعنوية وكذلك في جميع مراحل الحياة : الطفولة والشباب والكهولة والشيخوخة .

والأسر التي تطّبع أفرادها على عزة النفس والكرامة الأخلاقية ولم تلوث سمعتها بالذل والضعف والحقارة ، تكون منزهة عن الكثير من الخطايا والمعاصي الأخلاقية التي تؤدي إلى الفساد وبالتالي إلى البؤس والشقاء .

والبلدان التي تتمتع شعوبها بعزة النفس وترى مجتمعاتها وحكوماتها في الكرامة الأخلاقية ضرورة ملحة يجب مراعاتها ، تكون منزهة عن الكذب والتملّق والسرقة والرشوة والخداع والمكر ، وما إلى ذلك من خطايا ومعاصٍ أخلاقية . فعزة النفس والكرامة هما اللتان تجعلان شعوب هذه البلدان تدرك مسؤولياتها تلقائياً وتحذر من الإتيان بالردائل والمعاصي . قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : **مَنْ كَرُمَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ لَمْ يَهْنَأْ بِالْمَعْصِيَةِ (١)** .

وفي هذا البحث سنتحدث باختصار عن مفهوم عزة النفس والكرامة لتوضيح دوره في محيط الأسرة وتربية الطفل والمحيط الإجتماعي وإدارة البلاد ، حتى يدرك جيل الشباب أهمية عزة النفس والكرامة الأخلاقية من الوجهتين الدينية والعلمية .

حق الولد على أبيه :

إن التربية السليمة للطفل وتنمية الصفات والخصال الحميدة في نفسه هي من الواجبات الإسلامية والإجتماعية الملقاة على عاتق الأبوين . فالأبوان مكلفان بتربية أبنائهم تربية سليمة حسنة أساسها الطهر والفضيلة ليصنعوا منهم جيلاً فاضلاً متخلقاً بالصفات والخصال الحميدة .

(١) غرر الحكم ، ص ٦٧٧ .

عن علي بن الحسين عليه السلام : وَأَمَّا حَقُّ وَلَدِكَ فَتَعَلَّمْ أَنَّهُ مِنْكَ وَنُصَافَ إِلَيْكَ فِي عَاجِلِ الدُّنْيَا بَخَيْرِهِ وَشَرِّهِ وَأَنَّكَ مَسْئُولٌ عَمَّا وَلَيْتُهُ ، فَاعْمَلْ فِي أَمْرِهِ عَمَلَ الْمُتَزَيِّنِ بِحُسْنِ أَثَرِهِ عَلَيْهِ فِي عَاجِلِ الدُّنْيَا الْمُعْذِرِ إِلَى رَبِّهِ فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ بِحُسْنِ الْقِيَامِ عَلَيْهِ وَالْأَخْذِ لَهُ مِنْهُ (١) .

عزة النفس الضمان لتطبيق الفضائل :

تأتي عزة النفس بالنسبة لعامة الناس على رأس سائر الفضائل الأخلاقية والسجايا الإنسانية ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى تعتبر المحرك نحو تطبيق سائر البرامج الأخلاقية . وبعبارة أخرى فإن عزة النفس فضلاً عن أنها واحدة من الصفات الحميدة للإنسان في جميع مراحلها ، فهي الضمان لتطبيق الفضائل وسائر الصفات والخصال الحسنة في محيط الأسرة والمدرسة والمجتمع ، كما أنها تدفع بالإنسان إلى مراعاة كافة واجباته ومسؤولياته الأخلاقية والإنسانية .

الأسرة : إذا تمتع الأب والأم وسائر أعضاء الأسرة بعزة النفس والكرامة الأخلاقية ، وراعوا هذه الخصلة الحميدة في العلاقة التي تربط بينهم ، وتجنبوا الأعمال الذميمة والكلام البذيء ، واحترم كل فرد شخصية الفرد الآخر ، فإن الطفل الذي ينشأ ويتربص وسط أسرة كهذه يكون طبعاً عزيز النفس محبباً لكرامته الأخلاقية .

وأسرة كهذه لا تجد صعوبة في تربية أبنائها تربية سليمة وحثهم على أداء واجباتهم الأخلاقية ومسؤولياتهم الدينية والعلمية ، لأن الطفل في كنف هذه الأسرة يدرك جيداً أن انتهاك حقوق الآخرين والتمرد على أداء الواجبات من شأنهما أن يشوها سمعة الأسرة وينالا من عزة نفسها وكرامتها .

قمع عزة النفس :

أما إذا اتصف الأبوان وسائر أعضاء الأسرة بدناثة النفس والذل وليس في

(١) تحف العقول ، ص ٢٦٣ .

مفهومهم للكرامة الأخلاقية أي معنى ، فإن الطفل في هذه الأسرة سيتطبع دون شك على الدنائة وسوء الخلق . كما أن الطفل سيقمع في نفسه ميله الفطري لعزة النفس وسيصبح من العسير جداً تنمية سائر الفضائل الأخلاقية والسجايا الإنسانية في أعماقه ، لأن من تطبع على الدنائة وسوء الخلق لا ينفك عن الدنائات ولا يشعر بالخجل من العار والفضيحة .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : النَّفْسُ الدِّينِيَّةُ لَا تَنْفَكُ عَنِ الدَّنَائَاتِ (١) .

الطفل وعزة النفس :

يرغب الطفل في الإحتفاظ بعزة نفسه وكرامته الشخصية حاله حال الإنسان البالغ ، فهو يتألم ويغتاظ بشدة إذا ما جرح أحد كرامته فإذا أراد الأبوان أو المربون إصدار أوامرههم إلى الأطفال أو إثبات مقدرتهم في محيط الأسرة ، عليهم أن يراعوا كرامة الأطفال ويتصرفوا بشكل لا يجرح عزة النفس لديهم أو يحطّم شخصيتهم ، لأن التحدث إليهم بلهجة آمرة والتعامل معهم بقسوة لا يدفعهم فقط إلى التمرد على الأوامر بل يجعلهم في موقف المعارض والمعادي للإنتقام من أبويهم .

«يقول «ويل ديورانت» : إن إصدار الأوامر للطفل يثير فيه روح المقاومة والعدوان ، وهذه القاعدة تكاد تكون ثابتة كقوانين نيوتن في الحركة ، فنحن حينما نصدر أمراً ما نكون قد أضرنا الأسلحة الدفاعية للطرف المقابل . فإن رجوت بطلبك استجاب وإن أمرت رُفض ، فكن حسن التعامل مع الطفل لتكسب حبه ومودته ، عندها يكون لطلبك وقع أكبر .»

«بعض الآباء والأمهات الذين يفشلون في الحب أو يعانون من شح في المال يحاولون الإنتقام من أبنائهم فيوجهون لهم الإهانات

(١) فهرست الغرر ، ص ١١٧ .

واللوم والعتاب . فالإنسان العاجز يجد في التسلُّط على أبنائه آخر ملجأ له»^(١) .

المدرسة وعزة النفس :

المدرسة : إن اهتمام القيمين على المدارس بعزة نفس التلاميذ وكراماتهم يعدّ من العوامل المهمة التي تحفّز التلاميذ على طلب العلم وتحثّهم على النجاح والتقدم في كافة المراحل الإبتدائية والمتوسطة والثانوية وما فوق ، كما أن عدم الإهتمام بعزة نفس التلميذ وتحطيم كرامته من شأنه أن يحطّ من معنوياته ويجعله ينفر من المدرسة والدراسة .

«ان بإمكان المدرسة أن تجعل الطفل مولعاً بالدراسة وطلب العلم ، كما أن بمقدورها أن تجعل حتى الطفل الذكي ينفر من العلم والمدرسة»^(٢) .

إن إهانة الطالب وتحطيم كرامته وجرح عزة نفسه في المدرسة تتم بصور مختلفة ، فإما أن يكون على المستوى العام حيث يتعرض الطالب في كل ساعة للتحقير والاهانات مما يؤدي إلى جرح كرامته وعزة نفسه ، وإما أن يكون على المستوى الخاص حيث يتعرض بعض الأشخاص أحياناً للإهانات والتريخ بغير حق .

فإذا ما كان مدير المدرسة ومعلموها أشخاصاً مغرورين متكبرين ممن يعتمدون القسوة ضد الطلاب وينظرون لهم بحقارة ويوجهون اليهم الألفاظ البذيئة والإهانات ويستهزؤون بهم ، فإن محيط المدرسة سيكون بالنسبة لجميع الطلاب محيطاً وضيقاً مذللاً ، وفي مثل هذه الظروف المتشنجة والمأساوية لا يمكن أن يشعر الطالب إلا بعلم الرضا والغضب ، فضلاً عن تراجع مستواه

(١) مباهج الفلسفة ، ص ١٩٥ .

(٢) مبادئ علم النفس ، ص ١٥٨ .

الدراسي فقد يفكر بالانتقام ويلجأ إلى القيام بأعمال خطيرة .

أما في المدارس التي يحترم فيها القيّمون عليها كرامات طلابها وعزة النفس لديهم مما يشعرهم بالاطمئنان والأمان ، فإنّ الدراسة فيها تسير على أفضل ما يرام ويبرز فيها الطلاب كل حسب استعداده ومواهبه . فلا خوف في مثل هذه المدارس من الرذائل الأخلاقية ، ولكن قد يوجّه القيّمون عليها أحياناً إما جهلاً أو عمدًا بعض الإهانات إلى أحد الطلاب أو عدد منهم مما يجرح كرامتهم وعزة النفس لديهم ، وهذا الأمر قد يترتب عليه آثار سلبية .

وهنا لا بد من الحديث ولو بشكل مختصر عن عاملي التنويه والتوبيخ الحقّ والباطل لتبيّن نتائجهما على الطلاب والتلاميذ .

التنويه ونتائجه الإيجابية :

التنويه : إن الطالب الذي يبذل مزيداً من الجهد ويحقق أفضل النتائج إذا ما وجه إليه القيّمون على المدرسة تنويهاً خاصاً فإن ذلك سيجمعه يضاعف جهده ويستمر في عطائه وتقدمه . معنى ذلك أن التنويه الحق يزيد من نشاط الطالب ويدفع به إلى المضي قدماً في نجاحاته . والتنويه الحق الذي يعزز من شخصية الطالب يتمناه الطلاب والتلاميذ علّه يكون دافعاً لهم لتحسين مستواهم الدراسي .

«إن عامل المدح والثناء ينشط الخلايا ويقوي الأعضاء ويدلّل أمام الإنسان أصعب الأعمال وأكثرها تعقيداً . إن حب الذات هو الرافعة التي بها نستطيع تحويلك العالم . وبدلاً من مهاجمة العمل الذي لم يحسن صاحبه أداءه وتوجيه اللوم إليه ، فلننظر إلى الأعمال التي أحسن أداءها ونؤثرها بألوان المديح التي ترسخ حلوة في صفحة الذاكرة وتدفع إلى التقدم في العمل .»

«يقول ويل «ديورانت» : إذا جاء تقرير ابنتي منبشاً عن تأخرها في مادة الحساب أبدينا الأسف دون أن نلومها ، ولعلها لن تعرف أبداً

أن درجاتها في الحساب أعلى مما كنا نحصل عليه في مثل
سناها ، أما حين تدخل البيت وتخبرنا عن الدرجات النهائية التي
حصلت عليها فإننا نرقص طرباً ونحتفي بها ونبدل جهدنا في إظهار
فرحتنا من جديد عند كل سبق»^(١) .

التنويه الباطل :

إذا تم توجيه تنويه لتلميذ دون كفاءة أو استحقاق وأعطاه المعلم أعلى
الدرجات ، وإذا لفت تلميذ اهتمام معلميه دون صلاحية علمية أو أخلاقية وذلك
عن طريق التملق أو ما شابه وراح معلموه يصفونه أمام جميع الطلاب بأنه
الطالب النموذجي الأكثر كفاءة بين زملائه ، أو إذا وُجِه الثناء في المدرسة لتلميذ
ليس أهلاً للثناء ، فإن ذلك كله يدخل في إطار جرح كرامة وعزة نفس الطلاب
الكفوئين حقاً والذين يستحقون المدح والثناء بجدارته لكنهم لا يعرفون التملق ،
وهذا العمل السلبي يعدّ ضربة مؤثرة لشخصياتهم وكراماتهم المعنوية ، وهذا
الإحباط من الناحية النفسية لن يمر دون أن يترك آثاره السلبية على الطلاب .

التوبيخ: يعتقد بعض خبراء التربية والتعليم - كما تذكر ذلك بعض
المؤلفات النفسية والتربوية - بأن تنويه الأشخاص الجيدين الذين يشعرون
بالمسؤولية وتوبيخ المتخلفين الذين لا يشعرون بالمسؤولية ، يعتبران عاملين
مهمين في توسع رقعة الخير وتحجيم رقعة الشر ، ولا بد من استخدام هاتين
الوسيلتين في تطبيق المناهج التربوية ، ورأى هؤلاء الخبراء أن عامل التنويه
أكثر تأثيراً من عامل التوبيخ ، وهذا ما دفعهم إلى التركيز عليه .

وهذه العقيدة تحتاج إلى بحث وتحليل من وجهة نظر المنهج التربوي في
الإسلام ، فإذا كان الهدف من التوبيخ في اعتقاد الخبراء التربويين تطبيق
القوانين الجزائية أو إظهار تنفر الناس من الخطيئة والمخطيء ، فهذا ما يؤيده
الدين الإسلامي ، أما إذا كان المراد من التوبيخ توجيه الملامة للمذنب وتعبيره

(١) مباح الفيلسفة ، ص ١٩٩ .

بما ارتكبه أو تويخه بعبارات نابية ، فهذا ما يرفضه المنهاج التربوي في الإسلام .

تجنب التويخ :

تحمل لنا الكثير من الروايات والأحاديث الشريفة تأكيد الأئمة الأطهار عليهم السلام على عدم توجيه اللوم والتويخ للمذنبين المتخلفين ، وفي المقابل أناطوا بالحكومات مسؤولة تطبيق قوانين الجزاء ، هذا من جهة ، ومن جهة ثانية جاءت وصاياهم عليهم السلام للناس بتجنب الآثام والخطايا والإبتعاد عن المذنبين وقطع كل علاقة لهم بالفاسقين والمنافقين ومواجهتهم بوجوه مكفهرة .

عن علي بن الحسين عليهما السلام قال : كَانَ آخِرُ مَا أَوْصَى بِهِ الْخِضْرُ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ عليه السلام أَنْ قَالَ : لَا تُعَيِّرَنَّ أَحَدًا بِذَنْبٍ (١) .

وعن الصادق عليه السلام : إِذَا وَقَعَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ أَحِيكَ هَنَةٌ فَلَا تُعَيِّرْهُ بِذَنْبٍ (٢) .

وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام : لَا تَكُونَنَّ عِيَابًا وَلَا تَطْلُبَنَّ لِكُلِّ زَلَّةٍ عِتَابًا وَلِكُلِّ ذَنْبٍ عِقَابًا (٣) .

تطبيق الجزاء القانوني :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إِذَا زَنْتَ خَادِمًا أَحَدِكُمْ فَلْيَجْلِدْهَا الْحَدَّ وَلَا يُعَيِّرْهَا (٤) .

وعن ابي عبد الله الإمام الصادق عليه السلام قال : قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَمْرَنَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَنْ نَلْقَى أَهْلَ الْمَعَاصِي بِوُجُوهِ مُكْفَهَرَةٍ (٥) .

في وصية أمير المؤمنين عليه السلام لكميل : يَا كَمِيلُ قُلِ الْحَقَّ عَلَيَّ كُلِّ حَالٍ

(١) بحار الأنوار ، ١٦ ، ص ١٦٤ .

(٢) مستدرک الوسائل ، ٢ ، ص ١٠٥ .

(٣) مجرعة الوراثة ، ١ ، ص ٥٧ .

(٤) وسائل الشيعة ، ٤ ، ص ٦٨ .

وَوَادُّ الْمُتَّقِينَ وَاهْجُرِ الْفَاسِقِينَ وَجَانِبِ الْمُنَافِقِينَ. وَلَا تُصَاحِبِ الْخَائِبِينَ^(١) .

إن الطالب المثابر إذا ما حصل على المدح والثناء من قبل معلميه أمام زملائه ، فإن ذلك سترك دون شك أثراً إيجابياً في نفسه ويزيد من طموحه ويرفع من معنوياته ، إن المديح والثناء على ما يبدو يؤهلان الطالب نفسياً للصفوف اللاحقة ويحثانه على الجد والمثابرة . وعلى العكس من ذلك إذا تعرض الطالب الكسول للملامة والتوبيخ أمام زملائه فإن ذلك سيحط من شخصيته ويجرح عزة نفسه وكرامته ، وسياسة اللوم والتوبيخ لا يمكن أن تكون مؤثرة في إصلاح الطالب الكسول ، كما أن التحقير والإهانة لهما أثر معاكس قد يدفع بالكسول والمتخلف إلى إبداء مزيد من العند ويجعله أكثر جراءة على متابعة أسلوبه السيء .

خطأ تربوي :

إن توبيخ الطالب المذنب في المحيط التربوي يعتبر خطأ تربوياً كبيراً يحمل في طياته آثاراً سلبية ، والخطأ الأكبر هو في تكرار اللوم والإفراط في التوبيخ ، لأن ذلك يقضي على الأثر النفسي الذي يتركه التوبيخ في نفس الطالب من جهة ويدفع بالشاب الذي يتعرض للتوبيخ إلى العناد والإنتقام من جهة ثانية .

فالطالب الذي يتعرض على الدوام للتوبيخ أمام زملائه مما يؤدي إلى هدر كرامته وتدمير شخصيته ، وكذلك الشاب الذي تسوء سمعته ويفتضح أمره أمام أصدقائه ، لا يمكنه أن يخشى العار والفضيحة ، ومثل هذا الشاب قد يلجأ إلى ارتكاب آثام كبيرة ويبدى ردة فعل سلبية في محاولة للإنتقام وإثبات الوجود .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : الإفراط في الملامة يشب نار

اللعاجة^(٢) .

(١) مستدرک الوسائل ٢ ، ص ٣٦٢ .

(٢) غرر الحكم ، ص ٧٠ .

وعنه عليه السلام : إِيَّاكَ أَنْ تُكَرَّرَ الْعُتْبَ فَإِنَّ ذَلِكَ يُغَيِّرِي بِالذَّنْبِ وَهُوَ
الْعُتْبُ^(١) .

توبيخ البريء :

وثمة خطأ كبير جداً أشبه ما يكون بالمصيبة الكبرى إن وقع فيه الإنسان ، وهو توبيخ طالب بريء بغير حق أمام زملائه ، فإن لم يبادر المعلم في مثل هذه الحالة إلى تدارك خطئه وإنقاذ كرامة الطالب التي جرحها أمام بقية الطلاب ، يكون قد ارتكب أكبر خيانة تربوية وجعل من طالب كفوء مثابر عضواً خطيراً في المجتمع .

يقول الدكتور «الندي» : طلب مني ذات يوم أن أعالج فتى في السادسة عشرة من العمر اعتاد على السرقة . هذا الفتى عندما كان في السابعة أو الثامنة من العمر سرق قطعة من الحلوى من خزانة أمه ، لكن الأمر لم ينته إلى هذا الحد ، فقد أقدم الخادم ، الذي كان يراقب عن كثب ما جرى ، على سرقة مقدار من المال من الخزانة ذاتها ووجه أصابع الاتهام إلى الفتى الذي تلقى عقاباً شديداً على سرقة لم يرتكبها ، وقرر والد الفتى أن يؤدب ابنه جيداً ، فاتفق مع مدير المدرسة على فضح أمره أمام سائر الطلاب ، ومنذ ذلك اليوم بدأ الفتى بالسرقة الحقيقية حيث كان يسرق حاجيات زملائه .

«فالعامل الذي دفع بالفتى إلى السرقة لم يكن سوى أخطاء تربوية ارتكبها أبواه . وعندما جاء به إلى عيادتي كان قد ارتكب سرقة بعد أن خلع باباً وحطّم زجاجه . وقد نجحت في إصلاح الفتى وهديته إلى الطريق القويم . وإن استمر الوضع على ما كان عليه

(١) فهرست الغرر ، ص ٣٥٩ .

لأصبح الفتى الذي كان يتوقع أن يصبح يوماً رجلاً شجاعاً
ومسؤولاً ، مجرماً خطيراً^(١) .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : رَبُّ مَلُومٍ وَلَا ذَنْبَ لَهُ^(٢) .

النصح بدل التوبيخ :

لو اعتمد القيمون على المدارس والمراكز التربوية أسلوب النصح بدل
التوبيخ والتقريع ، وسعوا إلى تنبيه الطالب الكسول والمهمل بكل أدب
ولطف ، فقد انعكس ذلك إيجابياً على نفس الطالب ، ويحاول الطالب بكل
عزم إصلاح شأنه . ولا شك في أنّ الأثر سيكون أكثر وقعاً فيما لو أقدم الناصح
على إسداء النصح للطالب المهمل الكسول بعيداً عن عيون الآخرين ، لأن
النصح بين الملا يكلف غالباً وقد يؤدي إلى جرح كرامة الفرد وتدمير
شخصيته .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : النُّصْحُ بَيْنَ الْمَلَأِ تَقْرِيعٌ^(٣) .

النصح سرّاً :

عن الإمام العسكري عليه السلام : مَنْ وَعَظَ أَخَاهُ سِرّاً زَانَهُ وَمَنْ وَعَظَهُ عَلَانِيَةً
فَقَدْ شَانَهُ^(٤) .

كان رجل يدعى الشقراني يبرز حبه للإمام جعفر الصادق عليه السلام وكان يعدّ
نفسه من محبي أهل البيت عليهم السلام ، وكان الشقراني مدمناً على الخمرة ، فطلب
من الإمام عليه السلام ، يوماً أن يشفع له عند المنصور الدوانيقي ، فلبى الإمام
طلبه ، وأراد عليه السلام أن ينهاه عن الخمرة فتحدث إليه بكل أدب ولين وبعيداً عن

(١) نحن وأبناؤنا ، ص ٧٢ .

(٢) فهرست الغرر ، ص ٣٥٩ .

(٣) شرح ابن أبي الحديد ، ٢٠ ، الكلمة ٩٠٨ ، ٣٤١ .

(٤) تحف العقول ، ص ٤٨٩ .

التوبيخ والتفريع وأنظار الناس ، فقال ﷺ له : انَّ الحَسَنَ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ حَسَنٌ ، وإِنَّ مِنْكَ أَحْسَنُ لِمَكَانِكَ مِنَّا ، وَإِنَّ القَبِيحَ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ قَبِيحٌ وَإِنَّهُ مِنْكَ أَقْبَحُ^(١) .

ونخلص إلى أن أسلوب التوبيخ والتفريع في المدرسة التربوية الإسلامية أسلوب مذموم ومرفوض ، وعلى المسلمين أن يتجنبوا هذه الطبيعة السيئة . أما إذا كان الهدف من هذا الأسلوب صيانة مصلحة الأمة كتطهيرها من شرور العناصر الضالّة أو إنقاذها من دنس المعتدين الجائرين ، فإنه يصبح جائزاً شرعاً مثله مثل بعض أنواع الكذب والغيبة .

عزة النفس والمحيط الإجتماعي :

المجتمع : إن احترام شخصية الفرد وكرامته في المجتمع الذي يعتبر دليلاً على الوعي العام هو من الأركان الأساسية لسعادة المجتمع ورفقته . كما أن عدم احترام شخصية الفرد وكرامته يعتبر دليلاً على التخلف والانحطاط العام وسبباً في شقاء المجتمع ، وتعاسته .

وبالرغم من أن السلوك الأسروي والتربية المدرسية لهما الأثر الكبير في تنمية أو كبت الميل في العزة والكرامة عند الأبناء ، إلا أن نظام الحكم في أي بلد كان ونهج قاداته ومسؤوليه لهما دور مؤثر أيضاً في إحياء أو كبت عزة النفس والكرامة في المجتمعات .

دور النظام في إحياء الكرامة :

كل بلد يكون له قوانينه العادلة التي تحدد حقوق الناس وحدود وصلاحيات المسؤولين ولا تسمح لأحد بانتهاك حقوق الآخرين أو تجاوز حدوده ، وتحترم كافة طبقات الشعب وتمنحهم الحرية والأمن ضمن حدود

(١) بحار الأنوار ، ١١ ، ص ٢٠٩ .

القانون ، يكون الجوّ العام السائد في ذلك البلد مناسباً جداً لتنمية عزة النفس والكرامة في نفوس الناس ، حيث يعيشون دون قلق أو اضطراب وبعيدين عن الذل والعبودية ويتمتعون بثقة عالية بالنفس وبراحة البال في ظل القوانين التي تحمي حقوقهم .

أما في البلد الذي يحكمه نظام استبدادي وليست فيه قوانين عادلة وثابتة ، فلا يشعر أي فرد من أفراد الشعب بالأمن والاستقرار وراحة البال ، إذ يكون معرضاً في كل الأوقات لانتهاكات تطل حياته وماله ، وفي مثل هذا المحيط الفاسد ليس هناك مفهوم لعزة النفس والكرامة والفضيلة ، بل قد يلجأ الإنسان أحياناً إلى التملق والتزلف والمداهنة أو قد يرتكب أعمالاً رذيلة لا اعتقاده بأنها طريقة إلى الخلاص ولو بشكل مؤقت .

الكرامة والقانون :

«يقول «مونتسكيو» : إن الكرامة ليست أساس الحكومة الإستبدادية ، فالناس في ظل حكومة كهذه عبيد متساوون . إن الكرامة لها قوانينها وقواعدها الخاصة ولا يمكنها أن تخضع لقوانين وضوابط أخرى . ومن هذا المنطلق فإن الكرامة لا مفهوم لها إلا في البلدان التي يكون لها أساس ثابت وقوانين راسخة لا تتغير بتغير الأيام . فكيف يمكن للكرامة أن تخضع للإستبداد ؟ ، فالكرامة لها قوانين ثابتة وأهداف منتظمة ومعينة ، بينما المستبد لا يمكن أن يلتزم بقاعدة ثابتة ، لأن أهواءه فوق كل القواعد والمقررات ، وهو من أجلها يطمح إلى تدمير الآخرين .

إنّ الكرامة التي لا تجد لها في الغالب اسماً حتى في البلدان التي تحكمها أنظمة استبدادية تكون في البلدان التي تحكمها نظم دستورية هي الحاكمة وهي التي تمنح القوة لكل الجماعات السياسية والقوانين فيها .

إنَّ طبيعة الحكم في الأنظمة الإستبدادية تستوجب نوعاً من الطاعة اللامحدودة . وحالما تبرز إرادة المستبد ينبغي أن يبرز أثرها فوراً . وفي مثل هذه الأنظمة تكون إرادة المستبد مطلقة وغير قابلة للتغيير .

وأيضاً في ظل مثل هذه الأنظمة ليس هناك مجال لتغيير الأوامر الصادرة أو تعديلها أو تعديليها أو المساومة عليها أو التفاوض بشأنها ، فالأوامر يجب أن تنفذ دون اقتراح أي بديل . «

الحياة في ظل النظام الإستبدادي :

«يعيش الإنسان في ظل النظام الإستبدادي حياة أشبه ما تكون بحياة الحيوانات ، فهو لا يعرف إلا الغريزة والطاعة والعقاب ، ولا طائل من الحديث أمامه عن بعض الأحاسيس الطبيعية كاحترام الأبوين وحب الزوجة والإبن والكرامة وما شابه ، فهو لا يعرف غير الإمثال للأوامر الصادرة دون جدل أو نقاش»^(١) .

الإسلام وعزة النفس :

لقد أقام النبي الأكرم ﷺ قبل أربعة عشر قرناً وبوحي من الله سبحانه وتعالى قواعد الدولة الإسلامية الفتية على أساس من القوانين العادلة ، وحدد صلاحيات الحكومة وحقوق الناس في شتى مجالات الحياة من خلال سن بعض القوانين الحكيمة .

فمنذ أن أطلق دعوته إلى الاسلام راح النبي ﷺ يعطي المسلمين درساً في عزة النفس والكرامة وعلو الهمة وجلبهم بالكرامة المعنوية والفضائل الروحية . وقد ذكر القرآن الكريم عزة المسلمين في مضاف عزة الله سبحانه وتعالى وعزة رسوله ﷺ حينما قال : وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ، وذلك

(١) روح القوانين ، ص ٣٢ .

لما لهذه المسألة من أهمية بالغة .

محادبة الله :

إن كرامة المسلمين وعزتهم نساء ورجالاً ، فقراء وأغنياء ، ضعفاء وأقوياء محفوظة ومحترمة في الدين الاسلامي ، حتى ان بعض الروايات قد ذكرت أن الله سبحانه وتعالى يعتبر إهانة العبد المسلم بمثابة محاربته .

عن أبي عبد الله الإمام الصادق عليه السلام أنه قال : نَزَلَ جِبْرَائِيلُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ إِنَّ رَبَّكَ يَقُولُ مَنْ أَهَانَ عَبْدِي الْمُؤْمِنَ فَقَدْ اسْتَقْبَلَنِي بِالْمُحَارَبَةِ (١) .

إجتنب الذل :

ينبغي على المسلم أن يصون كرامته ويحفظ عزته ويتجنب الذل والحقارة ، ولا يحق لأي مسلم أن يعمل بما يؤدي إلى إذلاله وحقته . وحول هذا الموضوع هناك الكثير من الأحاديث والروايات التي جاءت على لسان النبي الأكرم صلى الله عليه وسلم والأئمة المعصومين عليهم السلام .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يَجِلُّ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ (٢) .

وقال أبو عبد الله الصادق عليه السلام : إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فَوَّضَ إِلَى الْمُؤْمِنِ أُمُورَهُ كُلَّهَا وَلَمْ يَفُوضْ إِلَيْهِ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ (٣) .

وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام : سَاعَةٌ ذُلٌّ لَا تَقِي بِعِزِّ الدَّهْرِ (٤) .

وقال علي بن الحسين السجاد عليه السلام : مَا أَحْبُّ أَنْ لِي بِذُلِّ نَفْسِي حُمْرَ النَّعَمِ (٥) .

(١) مستدرک الوسائل ٢ ، ص ١٠٣ .

(٢) تاريخ يعقوبي ، ص ٦٧ .

(٣) الكافي ٥ ، ص ٦٣ .

(٤) غرر الحكم ، ص ٤٣٤ .

(٥) مستدرک الوسائل ٢ ، ص ٣٦٤ .

الإسلام ومقارعة الشرك :

لقد اهتم الرسول الأكرم ﷺ أيما اهتمام بموضوع العزّة والكرامة في جميع برامج العبادية والاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية ، وجعل كل تعاليمه منسجمة مع هذه الخصلة الحميدة وذلك ليقندي به المسلمون في الدفاع عن كراماتهم وصون عزّتهم . وهنا لا بد من الإشارة إلى بعض التعاليم التي جاء بها الرسول الأكرم ﷺ والتي تدخل في هذا السياق .

العبادة - قبل بزوغ فجر الاسلام كان الجهل متفشياً في مكة بشكل دفع أهلها إلى عبادة الأصنام والخضوع لجماد من صنع أيديهم . ومن أجل إنقاذ المشركين من ذل الشرك والعبودية والضعف والحقارة ، انطلق رسول الله ﷺ يدعو الناس لعبادة الله الواحد الأحد ومحاربة المعبودات المصطنعة ، وراح يفهم الناس بأن المسلم لا يحق له التذلل والعبودية لغير الله سبحانه وتعالى .

فقد حطم النبي الأكرم ﷺ بدعوته للوحدانية قيود الشرك والضلالة وأنقذ أمته من ذل العبودية لغير الله ، ليضع في أعماق الأمة أسس الشخصية الإنسانية والحرية والعزة والكرامة .

وأصبح أولئك الذين كانوا بالأمس يعبدون الأصنام من حملة رايات الحرية في ظل التوحيد الاسلامي . ولم يكتفوا بالقضاء على جذور الشرك والضلالة في مكة وحدها ، بل راحوا يحاربون عبدة الشمس والقمر ، والحجارة والخشب وأولئك الذين كانوا يخزّون ساجدين أمام السلاطين والأمراء والجبابرة وما أكثرهم في تلك الفترة ، فأنقذوا الكثير من الشعوب والأمم من قيود الذل والأسر والعبودية .

الحكم والكرامة :

الحكم : لقد كان الرسول الأكرم ﷺ إلى جانب كونه قائداً دينياً ومرشداً روحياً للمسلمين يحكم الناس على أساس القوانين الإسلامية . وقد كان

النبي ﷺ وهو في مقام الحاكم كالأب الحنون الرؤوف ، حيث كان يهتم بالحقوق الأخلاقية والكرامة الإنسانية لكل فرد من أفراد المجتمع الاسلامي ، وكان يحترم عزّتهم وكرامتهم .

ففي ظل حكم النبي ﷺ لم يكن يحق لأحد أن يذل نفسه أو يهين الآخرين ويستحقرهم . ولم يكن يسمح لأحد بالتملق والتزلف أمامه ، بل كان ينبه وينصح كل من كان يرى في سلوكه نوعاً من الذل والضعف والحقارة .

أخلاق الرسول (ص) :

رَوِيَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَا يَدْعُ أَحَدًا يَمْشِي مَعَهُ إِذَا كَانَ رَاكِبًا حَتَّى يَحْمِلَهُ مَعَهُ فَإِنَّ أَبِي قَالَ : تَقَدَّمَ أَمَامِي وَأَدْرِكُنِي فِي الْمَكَانِ الَّذِي تُرِيدُ^(١) .

وباختصار فإن الرسول الأكرم ﷺ قد شيد صرح الحكومة الاسلامية على أساس الحرية واحترام شخصية الإنسان وكرامته ، وبقي ﷺ معتمداً هذا المنهج الإنساني في الحكم طوال حياته . وبعد وفاة النبي ﷺ واتساع رقعة الإسلام ، بقي العمل جارياً بهذا المنهج في جميع أرجاء المعمورة ، حيث اندثرت العادات والتقاليد المذلة التي كانت الحكومات قد سنتها الواحدة تلو الأخرى ، وتحررت الشعوب من الذل والعبودية .

وعلى سبيل المثال سنكتفي بالإشارة إلى قصة تاريخية قصيرة . كانت الأنبار من مدن ايران في عهد الساسانيين . وكانت هذه المدينة كما جاء في معجم البلدان تقع على نهر الفرات إلى الغرب من بغداد التي كانت تبعد عنها حوالي العشرة فراسخ . وقد أسسها شاپور ذو الأكتاف ، كما أن أبا العباس السفاح كان أول خليفة عباسي يبني فيها قصوراً ويعيش فيها حتى مماته .

«كان اسم هذه المدينة «فيروز شاپور» ، وقد سميت بالأنبار لأنها كانت مخزناً لامدادات جيوش الساسانيين من طعام ومعدات حربية

(١) بحار الأنوار ، ٦ ، ص ١٥٣ .

وغير ذلك مما يحتاجه العسكر الساساني الذي كان يخوض في
الغالب حروباً مع الروم على الحدود الغربية للدولة الساسانية ،
ومن يومها عرفت المدينة باسم الأنبار (وأنبار كلمة فارسية تعني
مخزن) م (١) .

جزاء سوء التصرف :

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : وَقَدْ لَقِيَهِ عِنْدَ مَسِيرِهِ إِلَى الشَّامِ ذَهَابَيْنُ
الْأَنْبَارِ فَتَرَجَّلُوا لَهُ وَاشْتَدُّوا بَيْنَ يَدَيْهِ : مَا هَذَا الَّذِي صَنَعْتُمُوهُ ؟ ، فَقَالُوا خُلِقْنَا مِنَّا
نُعْظَمُ بِهِ أَمْرَاءَنَا ، فَقَالَ وَاللَّهِ مَا يَنْتَفِعُ بِهَذَا أَمْرَاؤُكُمْ وَإِنَّكُمْ لَتَشْقُونَ عَلَيَّ أَنْفُسِكُمْ
فِي دُنْيَاكُمْ وَتَشْقُونَ بِهِ فِي آخِرَتِكُمْ وَمَا أَخْسَرَ الْمَشَقَّةَ وَرَائِهَا الْعِقَابُ وَأَزِيحَ الدَّعَاةَ
مَعَهَا الْأَمَانُ مِنَ النَّارِ (٢) .

الصحة والإحترام المتبادل :

الصحة : ينص المنهج الأخلاقي في الاسلام على أن تقوم الصحة بين
المسلمين على أساس الفضيلة والعدالة والاحترام المتبادل ، وقد أكدت
الأحاديث والروايات الاسلامية على هذا الموضوع معتبرة هذا المنهج حقاً من
حقوق الصحة ، والإنسان الذي لا يراعي هذه الحقوق الأخلاقية ولا يهتم
بشخصية الآخرين وكرامتهم ليس أهلاً للصحة والصدقة .

قال الإمام علي بن الحسين عليه السلام : وَأَمَّا حَقُّ الصَّاحِبِ فَمَا أَنْ تَصْحَبَهُ
بِالْفَضْلِ مَا وَجَدْتَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَإِلَّا فَلَا أَقْلَ مِنَ الْإِنْصَافِ وَأَنْ تُكْرِمَهُ كَمَا
يُكْرِمُكَ (٣) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لَا خَيْرَ لَكَ فِي صُحْبَةِ مَنْ لَا يَرَى لَكَ مِنَ الْحَقِّ

(١) تاريخ إيران الاجتماعي ، ص ٨٦ .

(٢) نهج البلاغة ، الكلمة ٣٦ .

(٣) تحف العقول ، ص ٢٦٦ .

مِثْلَ مَا تَرَى لَهُ (١) .

ولم يكف الرسول ﷺ والأئمة الأطهار عليهم السلام بتحذير المسلمين من مصاحبة من لا يقيم للحق وزناً ومن هم بعيدون كل البعد عن الفضيلة والأخلاق ، بل وأكدوا على عدم اتخاذ من هم في مستوى يفوق مستواهم المالي والاجتماعي صديقاً وصاحباً ، لأن في ذلك ذلهم ومسكتهم .

عن أبي بصير قال : قُلْتُ لِلصَّادِقِ عليه السلام : يَخْرُجُ الرَّجُلُ مَعَ قَوْمٍ مَيَاسِيرَ وَهُوَ أَقْلُهُمْ شَيْئاً فَيُخْرِجُونَ النِّفْقَةَ وَلَا يَقْدِرُ هُوَ أَنْ يُخْرِجَ مِثْلَ مَا أُخْرِجُوا ، قَالَ عليه السلام : مَا أَحْبُّ أَنْ يُدَلَّ نَفْسُهُ ، لِيُخْرِجَ مَعَ مَنْ هُوَ مِثْلُهُ (٢) .

وقال أبو جعفر الإمام الباقر عليه السلام : إِذَا صَحَبْتَ فَاصْحَبْ نَحْوَكَ وَلَا تَصْحَبَنَّ مَنْ يَكْفِيكَ فَإِنَّ فِي ذَلِكَ مَذَلَّةً لِلْمُؤْمِنِ (٣) .

الثروة : إن من العوامل التي قد تتسبب في جرح كرامة الإنسان وعزة نفسه وتدفعه نحو المذلة والدنائة هو المال . وقد جاء الاسلام ليشجع الناس على الكد والعمل من أجل الحصول على لقمة العيش التي بها يحفظون كرامتهم وعزتهم دونما حاجة إلى مَدِّ يد العوز للآخرين ، كما حذر الاسلام من الطمع والجشع والحرص كي لا يصبح الإنسان عبداً للمال ، ففي كلا الحالتين مذلته وشقاؤه .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : الْمَسْئَلَةُ طَوْقُ الْمَذَلَّةِ تَسْلُبُ الْعَزِيزَ عِزَّهُ وَالْحَسِيبَ حَسْبَهُ (٤) .

وعنه عليه السلام : الْمَذَلَّةُ وَالْمَهَانَةُ وَالشَّقَاءُ فِي الطَّمَعِ وَالْجِرْصِ (٥) .

(١) تاريخ اليعقوبي ، ٦٦ .

(٢) مكارم الأخلاق ص ١٣١ .

(٣) نفس المصدر ، ص ١٣١ .

(٤) غرر الحكم ، ص ٩٩ و ٩٦ .

فإنسان الذي تطبّع على الكرامة النفسية والسجايا الأخلاقية ونشأ عزيز النفس حصين الطبع يعرف قيمته الإنسانية ، يعيش على الدوام كريم النفس عالي الهمة ، لا يمد يد العوز إلى الآخرين ولا يفرط بكرامة نفسه أبداً .

وقد فضّل الاسلام للإنسان أن يعيش كريماً مع الفقر والحاجة على أن يعيش ذليلاً حقيراً مع المال والثروة . والمسلمون الحقيقيون يفضلون تحمل الجوع والفقر على أن يعرضوا عزتهم وكرامتهم للمذلة والمهانة .

قال الله تعالى في كتابه : ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾^(١) .

وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام : الصَّبْرُ عَلَى الْفَقْرِ مَعَ الْعِزِّ أَجْمَلُ مِنَ الْغِنَى مَعَ الدُّلِّ^(٢) .

وعنه عليه السلام : الْجُوعُ خَيْرٌ مِنْ دُلِّ الْخُضُوعِ^(٣) .

وخلاصة القول إن مبدأ احترام عزة الإنسان وكرامته وتجنب الذل والهوان هو مبدأ ثابت في الاسلام ينطبق على كافة شؤون المسلمين المادية والمعنوية . فالمشرع الاسلامي قد وضع كل القوانين الفردية والاجتماعية آخذاً بعين الاعتبار ذلك المبدأ الإنساني الذي منه انطلقت البرامج والتعاليم الدينية .

النظام الاستبدادي والجزاء القاسي :

تحتاج الأنظمة الاستبدادية التي لا تعير أدنى اهتمام لكرامة الإنسان الذي يعيش في ظلها حياة أشبه ما تكون بحياة الحيوانات الحبيسة ، تحتاج إلى قوانين جزائية صارمة وقاسية كي تتمكن من تمرير سياساتها الاستبدادية . فهناك

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢٧٣ .

(٢) غرر الحكم ، ص ٨٩ .

(٣) فهرست الغرر ، ١٢٥ .

يجب أن تخاف الشعوب من أساليب التعذيب المختلفة وممارسات الظلم السائدة لتؤدي المسؤوليات التي تُلقى على عاتقها .

وعلى النقيض من ذلك الأنظمة العادلة التي تحفظ حقوق الشعوب وتحترم كرامتها ويعيش كل فرد في ظلها معززاً مكرماً اجتماعياً ، فهي لا تحتاج إلى سنّ قوانين جزائية ظالمة واللجوء إلى ممارسات التهريب والتعذيب . فهناك ، الخوف من العار والفضيحة الاجتماعية هو الذي يدفع بالناس إلى تأدية واجباتهم على أحسن وجه .

«تكون قسوة القوانين الجزائية في الأنظمة الاستبدادية التي تعتمد سياسة التهريب والتعذيب مناسبة نوعاً ما ، بيد أنها غير مناسبة للأنظمة الدستورية والجمهورية التي تقوم على أساس الكرامة والتقوى . وفي ظل الحكومات المعتدلة يكون حبّ الوطن والحياة والخوف من الملامة والانتقاد عاملاً من العوامل التي تحول دون وقوع جرائم ، وأكبر عقاب يتلقاه المذنب هو ثبوت إدانته وافتضاح أمره ، ومن هنا كان عقاب القوانين المدنية للمذنبين يسيراً ودونما حاجة لمزيد من القسوة والعنف .

وفي مثل هذه البلدان يسعى مشرعو القوانين إلى الحيلولة دون وقوع جرائم من خلال تعليم الناس على الأخلاق الحسنة لا من خلال تعذيبهم وتشديد قوانين الجزاء بحقهم»^(١)

ويقول «مونتسكيو» : كثرت في زمننا حالات الهروب من خدمة العلم أثناء الحروب ، فتقرر أن تكون عقوبة الهارب من خدمة العلم الإعدام ، ومع ذلك لم تنخفض نسبة الهاربين . والسبب واضح وطبيعي جداً ، فالجندي الذي تكون حياته مهددة

(١) روح القوانين ، ص ١٠١ .

بالخطر يوماً لا يبالي لمثل هذه العقوبة أو إنه يستصغرها . ولكن هذا الجندي اعتاد على أن يخشى العار ، إذن كان يجب الاستفادة من هذه النقطة ووضع قانون عقوبة يلحق به وصمة عار يبقى جبينه يندى لها طوال حياته . فوضع عقوبة الإعدام في مثل هذه الحالة يعتبر تخفيفاً جزائياً وليس تشديداً كما كانوا يتصورون»^(١) .

جزاء العار وسوء السمعة :

اعتمد الرسول الأكرم ﷺ قبل أربعة عشر قرناً على مسألة العار وسوء السمعة والسخط الاجتماعي كعقاب للمجرمين والمذنبين ، فجاءت توصياته للمسلمين بتجنب صحبة المذنبين ومقابلتهم بوجوه مكفهرة ، لأن ذلك من شأنه أن يحد من الجرائم والذنوب . وهنا نشير إلى حادثة وقعت في صدر الاسلام لأشخاص فرّوا من القتال في صفوف المسلمين .

حينما أراد الرسول الأكرم ﷺ إعداد الجيش لخوض معركة تبوك أعلن النفير العام ، ونهياً للمسلمون للقتال ، فخرجوا في اليوم المحدد متوجهين نحو جبهة القتال ، إلا أن ثلاثة من الأنصار هم كعب بن مالك وهلال بن أمية وابن ربيع مكثوا في المدينة متخلفين عن المسلمين وما أمر به رسول الله ﷺ دون مبرر .

ولما عاد الرسول بجيشه إلى المدينة دخل عليه هؤلاء الثلاثة طالبين منه الصفح عما بدا منهم ، إلا أن الرسول ﷺ لم يحدثهم ودعا المسلمين إلى مقاطعتهم ، حتى هجرهم جميع المسلمين بصغارهم وكبارهم حتى أسرهم هجرتهم وكانت تقدم إليهم الطعام في مواقعه دون أن تتحدث معهم .

(١) روح القوانين ، ص ١٥٥

عذاب المقاطعة والهجر :

واستمرت المقاطعة حوالي خمسين يوماً حتى ضاقت عليهم الأرض ، فكانوا يغادرون المدينة أحياناً لشدة ما حلّ بهم ويلتجئون إلى التلال والمرتفعات المحيطة بالمدينة ، فيستغفرون الله تعالى نادمين على فعلتهم طالبين منه العفو والصفح بأعين دامعة ، حتى تقبل الله توبتهم وعفا عن خطاياهم .

قال تعالى : ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَّتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (١) .

وذات يوم وعقب صلاة الصبح أعلن الرسول الأكرم ﷺ عن قبول الله سبحانه وتعالى توبة هؤلاء الثلاثة ، وطلب إنهاء المقاطعة ليعود هؤلاء إلى حياتهم الاجتماعية ويستعيدوا عزّتهم وكرامتهم . وقد أثار هذا النبأ موجة من البهجة والسرور عمّت أهالي المدينة .

إن النبي ﷺ لم يجاز المتخلفين الثلاثة بالسجن والتعذيب أو الإعدام ، بل استغل مسألة العزة والكرامة الاجتماعية وعاقبهم بسوء السمعة والعار والفضيحة ، وكان إغراض الناس عنهم ومقاطعتهم لهم أصعب بالنسبة لهم من السجن وأشدّ ألماً من أي عقاب ، وبالرغم من أنهم كانوا أحراراً غير مقيدين إلا أنهم شعروا بأن الأرض قد ضاقت عليهم نتيجة مقاطعة الناس لهم .

إذن فحينما تقوم أركان المجتمع في دولة ما على مبدأ العزة والكرامة ، لن يكون هناك حاجة لسنّ قوانين جزائية صارمة وقاسية من أجل ضبط الأوضاع ، فالعار والفضيحة وسوء السمعة بالنسبة للإنسان الشريف أشدّ عذاباً من التعذيب والسجن أو الإعدام .

إن الكرامة الإنسانية تعتبر دافعاً نحو الاستقامة والصلاح ومحركاً للإنسان

(١) سورة التوبة ؛ الآية : ١١٨ .

نحو الاحساس بمسؤولياته . فالإنسان الذي يربى في أسرة تحترم كرامة النفس وعزتها وينشأ على السجايا الفاضلة ، لا بد وأن تقوده ميوله النفسية ودوافعه الأخلاقية والإنسانية إلى طريق الفضيلة والخير والصلاح .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : الكَرِيمُ يَرَى مَكَارِمَ أَعْمَالِهِ دَيْنًا عَلَيْهِ يَقْضِيهِ^(١) .

الشباب والكرامة :

إن مرحلة الشباب هي مرحلة حب الكرامة وعزة النفس ، والشباب بطبعه متعطش للرفعة والشموخ ومناعة الطبع وهو ينفر من كل ما من شأنه أن يؤدي به إلى الذل والهوان .

إن الميل إلى العزة الذي يتجلى بشكل كامل خلال مرحلة الشباب يعتبر من أركان سعادة الإنسان ، فإذا ما تمكن الشاب من الحفاظ عليه في أعماقه وتنسيق أقواله وأفعاله معه لاستطاع أن يرسى أسس سعادته وهنائه طوال حياته . أما الشاب الذي يتجاهل كرامته وينكر عزته ويستعد لارتداء رداء الذل والمهانة ، فإنه بعمله هذا يكون قد مهد لبؤسه وشقائه وخطا خطوة نحو الانحراف والسقوط .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : الرَّجُلُ حَيْثُ اخْتَارَ لِنَفْسِهِ ، إِنْ صَانَهَا ارْتَفَعَتْ وَإِنْ ابْتَدَلَهَا اتَّصَعَتْ^(٢) .

فالشباب الذي يتحلى بعزة النفس والكرامة ليس فقط لا يستسلم للخطيئة ولا يذل نفسه بانتهاك حقوق الآخرين ، وإنما إذا أسدى خدمة للآخرين فإنه لن يتوقع منهم الشكر والثناء ولن يطلب منهم ذلك لأنه يعلم أن في ذلك ذلّه ومهانته .

(٢١) غرر الحكم ، ص ٩٠ و ٨٠ .

عن الإمام الصادق عليه السلام : **إِعْلَمَ أَنَّ كُلَّ مَكْرَمَةٍ تَأْتِيهَا أَوْ صَنِيعَةٌ صَنَعَتْهَا إِلَى أَحَدٍ مِنَ الْخَلْقِ فَإِنَّمَا أَكْرَمَتْ بِهَا نَفْسَكَ وَزَيَّنَتْ بِهَا عِرْضَكَ فَلَا تَطْلُبَنَّ مِنْ غَيْرِكَ شُكْرًا مَا صَنَعْتَ إِلَى نَفْسِكَ (١) .**

أما الشباب الذي يهدر عزّته وكرامته ولا يأبه إن هو استسلم لذلّ واليهوان ، فإنه معرض للسقوط في الرذيلة ، لأنه لا يخشى العار والفضيحة ، وقد يلجأ إلى كل ما هو غير مباح لبلوغ أمانيه النفسية .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : **مَنْ تَدَلَّلَ لِأَبْنَاءِ الدُّنْيَا تَعَرَّى مِنْ لِيَاسِ النَّفْسِ (٢) .**

الأمانة وعزة النفس :

للكرامة وعزة النفس دور كبير ومؤثر في رفع روح الأمانة والاخلاص والشعور بالمسؤولية في أعماق الشباب لدرجة أن الخونة والمجرمين يفشلون في استغلالهم لصالح نواياهم الشريرة والظالمة ، لذا فتراهم يبحثون عن أولئك الذين نشأوا منذ طفولتهم في أسر شعارها الرذيلة والانحطاط ، لا يعرفون معنى للعزة والكرامة ، أما إذا كانوا مصرّين على استغلال ذوي الكرامة فإنهم يلجأون كخطوة أولى إلى تحطيم شخصيتهم وكرامتهم بالترغيب أو التهريب ومن ثم يحاولون أن يحسوا من أذهانهم كل ما هو مرتبط بالفضائل الأخلاقية والملكات الإنسانية ليستسنى لهم فيما بعد استغلالهم في أكثر الأعمال شراً ورذيلة .

العرب العالمية الثانية والجرائم الأخلاقية :

«إن مما يؤسف له أن النازيين الألمان قد استغلوا اكتشافات علم النفس في إيذاء وتعذيب وتدمير نفسية الإنسان . فكلنا سمع أو قرأ عن معسكرات العمل الاجباري ، إلا أن الحقيقة كانت أظلم من

(١) الجعفيات ، ص ٢٣٦ .

(٢) فهرست الغرر ، ص ١٢٦ .

أن يتناولها قلم أو لسان .

فقد كتب «تابل هايم» وهو عالم نفس معروف قضى مدة عام كامل في سجون النازيين يقول : إن الشرطة السرية كانت ترمي من خلال معسكرات العمل الاجباري إلى تحقيق عدة أمور ، منها سلب الإنسان إرادته وشخصيته وتحويله إلى مجرد آلة صغيرة في جهاز ، وكذلك إرعاب الناس من خلال الممارسات الوحشية والقاسية التي كانت ترتكب ضد المعتقلين بهدف صرفهم عن المعارضة ، والاعتماد على أفراد في الشرطة السرية لا تعرف قلوبهم الرحمة والشفقة ، والسعي إلى تغيير طبيعة الإنسان وغرائزه بما يتناسب وتطلعات الحكومة النازية . بمعنى أنهم بدل أن يُقَوِّمُوا الغريزة المنحرفة في الإنسان كانوا يحاولون بالضغط والكرهية حرف الغريزة الطبيعية السالمة فيه . ومن نوايا النازيين أيضاً إضعاف معنويات السجين وتدمير نفسيته ليصبح كالطفل الصغير عاجزاً عن التفكير بأي شيء ، لا يتذكر شيئاً عن ماضيه ولا يستطيع أن يرسم صورة واضحة لمستقبله ، ولا يفكر سوى بسد احتياجاته المادية ، ولهذا كانت معاملة السجين بمنتهى القسوة والشدة ودون أي مبرر ، كما أن النازيين ليس فقط لم يحددوا وقتاً معيناً لقضاء الحاجة ، بل كانوا يمنعون السجين أحياناً من الخروج لقضاء حاجته حتى يتغوط في ملابسه .

وكان على السجناء أن يخاطبوا بعضهم البعض بالآخر بعبارات صيانية تافهة ، لكنهم كان يتوجب عليهم أن يحترموا السجنانيين ويذكروا جميع ألقابهم حين يخاطبونهم .

والعمل الشاق الآخر الذي كان مفروضاً على السجين بهدف تحطيم شخصيته وتدمير معنوياته هو حمل صخور كبيرة وثقيلة من نقطة إلى أخرى ثم العودة بها إلى حيث كانت» .

القساوة والظلم :

«ونتيجة لهذه الأساليب النفسية كان السجناء يفقدون الاهتمام بالماضي والمستقبل كالأطفال تماماً ، فيتناقلون القصص ويختلفون روايات عن أنفسهم كانت في الغالب من نسج الخيال ، وإن اكتشفت أكاذيبهم ضحكوا مع الآخرين دون خجل أو وجل . وعندما كان السجن يتطّبع على قساوة السجن والتعذيب وتصبح ممارسات الشرطة المخيفة عادية وطبيعية بالنسبة لهم كانوا يُعَيّنون سجنائين على غيرهم من السجناء ، فكانوا يبدون من الظلم والقسوة ما يرضي ويفرح الجلادين المضطلعين بعلم النفس»^(١) .

السعادة في صون الكرامة :

كثيرون هم الفتيان والفتيات الذين نشأوا في أسر أصيلة وشريفة وترعرعوا في ظل الفضائل الأخلاقية والصفات الإنسانية ، إلا أنهم حادوا عن مسيرهم الصحيح نتيجة وسوس الشيطان والفاستدين والخونة ، فاعتادوا حتى الإدمان على المخدرات والكحول هادرين كرامتهم وعزتهم حتى انتهى بهم الأمر إلى السرقة والفسق والفجور والغرق في مستنقع الرذيلة .

والشاب الذي يريد أن يكون إنساناً بكل ما في الكلمة من معنى ، ويهنأ ويسعد في حياته ، ويكون شامخ الرأس عزيز النفس لا يشوّه سمعته وكرامته ، عليه أن يسعى ويجد في الحفاظ على كرامته ويصون هذه الجوهرة الثمينة من عبث العابثين ، وعليه أيضاً أن يبتعد عن الخطيئة التي لن تجلب له سوى الذل والعار ، وأن لا يستسلم لأي عمل لا يتفق وعزة نفسه ومناعة طبعه .

تكتمل سعادة الإنسان بتنفيذ نوعين من البرامج سلبية وإيجابية . فالبرنامج السلبي هو في تجنب المعاصي ، والإيجابي هو في أداء الفرائض

(١) سلامة الروح ، ص ٥٨ .

والسنن . وثمة خطر كبير يتهدد سعادة الإنسان ويؤدي به إلى البؤس والشقاء ، وهذا الخطر يكمن في الخطيئة والمعصية . فإذا ما تمسك الشاب بعزته وكرامته ونجح بقوة وإرادة في تطبيق البرنامج السلبي وهو كما ذكرنا تجنب المعصية ، فإنه سيكون قادراً وبسهولة على تطبيق البرنامج الإيجابي وسيضمن بحسن السلوك والأخلاق سعادته الحقيقية وكماله الإنساني .

قال أمير المؤمنين عليه السلام : **غَالِبُوا أَنْفُسَكُمْ عَلَى تَرْكِ الْمَعَاصِي تَسْهَلُ عَلَيْكُمْ مَقَادَتُهَا إِلَى الطَّاعَاتِ** (١) .

(١) مستدرک الوسائل ٢ ، ص ٣١٣ .

المحاضرة الخامسة والعشرون

حول الشاب والصدقة

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى في محكم كتابه : ﴿ يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴾^(١) .

حاجة الإنسان إلى الصدقة :

عادة ما يكون الإنسان في جميع مراحل حياته من طفولته وحتى شيخوخته بحاجة إلى صدقة الآخرين . فمثلما يشعر المرء بالغبطة والسرور عندما يصاحب رفيقاً مخلصاً ، تجده يتألم من الوحدة ويعاني من افتقاده للصديق المناسب .

إن الصدقة لا تقتصر في أن يأس الإنسان بصديقه ويفضي إليه ما في قلبه من شجون وهموم مستمداً منه نشاطه وحيويته فحسب، بل إن الصديق قادر على النفوذ في شؤون صديقه المادية والمعنوية والتأثير على معتقداته وأخلاقه وسلوكه كل حسب حجم العلاقة التي تربطه بصديقه .

تأثير الصديق :

قال رسول الله ﷺ : المرء على دين خليله وقريبه^(٢) .

(١) سورة الفرقان ، الآية : ٢٨ .

(٢) وسائل الشيعة ٤ ، ص ٢٠٧ .

وروي أن سليمان عليه السلام قال : لا تَحْكُمُوا عَلَيَّ رَجُلٌ بِشَيْءٍ حَتَّى تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ يُصَاحِبُ ، فَإِنَّمَا يُعْرَفُ الرَّجُلُ بِأَشْكَالِهِ وَأَقْرَانِهِ وَيُنْسَبُ إِلَى أَصْحَابِهِ وَأَخْدَانِهِ^(١) .

فالصديق المناسب والفاضل يعدّ ثروة عظيمة يكتسبها الإنسان في حياته وعاملاً من عوامل سعادته . وقد حثّ أولياء الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين المسلمين على اختيار الصديق العاقل المؤمن ، وبينوا فوائد هذا الأمر .

ثروة الحياة :

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : عَلَيْكُمْ بِالْإِخْوَانِ فَإِنَّهُمْ عُدَّةٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، أَلَا تَسْمَعُونَ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ^(٢) .

فالصديق الفاضل الحميم الذي يكون عوناً للإنسان في السراء والضراء له أهميته البالغة في حياة كل إنسان ، وفقده يعدّ من المصائب الكبرى التي تحل به .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : مَنْ فَقَدَ أَخاً فِي اللَّهِ فَكَأَنَّمَا فَقَدَ أَشْرَفَ أَعْضَائِهِ^(٣) .

ورغم أهمية الصديق الناصح الوفي لعامة الناس في مختلف مراحل حياتهم ، إلا أنه أكثر أهمية لجيل الشباب ، لأن الشاب المقبل على حياة اجتماعية يستطيع من خلال الصديق الفاضل المخلص تعزيز شخصيته وإظهار استعداداته الاجتماعية وإعداد نفسه لخوض نشاطات اجتماعية واسعة في المستقبل .

(١) مستدرک الوسائل ٢ ، ص ٦٢ .

(٢) نفس المصدر ، ٦٢ .

(٣) غرر الحكم ، ص ٧٢٣ .

مدرسة التضحية :

«إن لعلاقات الصداقة خلال فترة الشباب ومرحلة البلوغ دوراً مهماً في بناء شخصية الإنسان لما تمنحه من تجارب للطرفين . كما أن هذا النوع من العلاقات يساهم في قيام علاقات صداقة أكثر عقلانية تستند على الود والثقة المتبادلة خلال الكبر . ريعتقد البعض أن لهذا النوع من العلاقات قيمة عظيمة كونها تولد في أعماق الإنسان الشعور بحب الإنسان . وثمة حقيقة لا غبار عليها تقول بأن هذا النوع من العلاقات يدفع بالإنسان إلى تجاهل نفسه قليلاً ، بمعنى أنه يصبح في الحقيقة مدرسة في التضحية»^(١) .

رفيق السوء :

صحيح أن عدم امتلاك صديق مناسب ورفيق مخلص ودود ، يجعل الإنسان يعاني كثيراً من الحرمان في الدنيا ويتحسّر ويندم في الآخرة ، إلا أن الطامة الكبرى هي في مصاحبة رفاق السوء ومعاشرة الفاسدين ، لأن مثل هؤلاء يسعون بإيحاءاتهم الشيطانية إلى تضليل من يصاحبهم وجرّه نحو الرذيلة والمعصية .

وبعبارة أخرى نقول إن من ليس لديه صديق حميم لا يبلغ بعض النعم ويبقى محروماً مما كان سيبلغه في ظل الصديق ، أما ذلك الذي يقيم علاقة مع رفيق السوء ليس فقط يحرم نفسه من بلوغ الكمال بل إنه يفرط بكمالاته الفطرية وفضائله الطبيعية ، وبالتالي سيعرض نفسه لآلام دنيوية وعقاب أخروي ، وحينما يتسّس ويشقى ويفقد دينه ودنياه يعرض على أصابع الندم ويتمنى لو أنه لم يتخذ فلاناً خليلاً .

قال تعالى : ﴿ يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴾ .

(١) ماذا أعرف ؟ ، البلوغ ، ص ٥٧ .

وصايا الأولياء :

لقد حذر أولياء الله ﷺ في الكثير من خطبهم ورواياتهم من مخاطر رفاق السوء والعلاقات الضارة ، وأكدوا على عدم مجالسة الأشرار ومعاشرة الفاسدين .

قال أمير المؤمنين ﷺ : **وَاحْذَرِ صَحَابَةَ مَنْ يَفِيلُ رَأْيَهُ وَيَنْكُرُ عَمَلَهُ ، فَإِنَّ الصَّاحِبَ مُعْتَبَرٌ بِصَاحِبِهِ (١) .**

سرقة لا شعورية :

وعنه ﷺ : **لَا تَصْحَبِ الشَّرِيرَ فَإِنَّ طَبْعَكَ يَسْرُقُ مِنْ طَبْعِهِ شَرًّا وَأَنْتَ لَا تَعْلَمُ (٢) .**

وعن الصادق ﷺ : **مَنْ يَصْحَبِ صَاحِبَ السُّوءِ لَا يَسْلَمُ (٣) .**

وهنا لا بد من تخصيص جانب من بحثنا هذا لموضوع الصحبة واختيار الصاحب أو الصديق لما لهذا الموضوع من أهمية كبيرة من الناحيتين الدينية والعلمية وتأثيره العميق على سعادة الإنسان في مختلف مراحل حياته أو تعاسته لا سيما في مرحلة الشباب .

الشباب واختيار الصديق :

تعد مسألة اختيار الصديق الحميم من أكثر المشاكل تعقيداً لجيل الشباب ماضياً وحاضراً ومستقبلاً ، بحيث انها عادت عليهم في بعض الأحيان بويلات لم يكن بمقدورهم تلافيها .

والمشكلة تكمن في أن الإنسان يندفع في شبابه تلقائياً وبصورة طبيعية

(١) نهج البلاغة ، الرسالة ٦٩ .

(٢) شرح ابن أبي الحديد ، ٢٠ ، الكلمة ١٤٧ ، ص ٢٧٢ .

(٣) مستدرک الوسائل ، ٢ ، ص ٦٥ .

للبحث عن صديق أو أكثر ممن هم في سنّه ليرتبط معهم بعلاقة صداقة قوية ، كما أنه قد يختار أفراداً فاسدين وغير كفؤين أصدقاء له نتيجة حدة أحاسيسه وعدم اهتمامه بجانب العقل والمصلحة ، فتكون هذه العلاقة المشؤومة والخطيرة سبباً في شقائه وتعاسته .

الشاب وحبّ الصّحبة :

لا يحتاج الشاب إلى تشجيع من قبل أبويه أو ترغيب من قبل مرّبه ليتكيّف مع من هم في سنّه أو يرتبط معهم بعلاقة صداقة ، فهو يمتلك جسماً وروحاً سالمين طبيعيين وليس هناك أي نقص عضوي أو عقدة نفسية يعاني منها ، لذا فهو يندفع وبشكل تلقائي نحو البحث عن صديق ليقيم معه علاقة صداقة متينة مههداً لإقامة علاقات اجتماعية في المستقبل .

«إن ولادة الغريزة الجنسية لدى الشاب هي التي تثير اهتمامه بمن هم في سنّه ، فمن جهة تعزز فيه الرغبة في الصّحبة وإيجاد من يحفظ له أسراره ، ومن جهة ثانية تثير فيه روح المنافسة .

ورغم أن تفتح الغريزة الجنسية يشكل مقدمة لإقامة علاقات بين الشاب ومن هم في سنّه إلا أن هذه الحاجة لا تنحصر فقط بهذه المرحلة ، فالشاب ينفصل عن مرحلة ما قبل البلوغ التي تكون فيها غريزته الجنسية خامدة ويتخطّى كل ما له علاقة بهذه المرحلة ، ليدخل مع تفتح هذه الغريزة في أعماقه عالماً جديداً . يستلزم علاقات جديدة .

إن الانفصال عن مرحلة ما قبل البلوغ يصاحبه اضطراب خاص لا يهدأ إلا بإقامة علاقات مع من هم في نفس السن ، وهذه العلاقات تصبح فيما بعد مقدمة لهلّفات تخصّ مرحلة ما بعد البلوغ»^(١) .

(١) تجدد حياة الشباب ، ص ٢٦ .

الشباب والحاجة للتوجيه والإرشاد :

إن ما يحتاجه الشباب في مجال الصحة والصداقة هو التوجيه الصحيح والإرشاد السليم لاختيار الصديق وتحديد أطر الصداقة .

وإذا استطاع الأبوان والمرَبون تبيان مقتضيات مرحلة الشباب النفسية للشباب وتعريفه على حالته النفسية وإطلاعه على مخاطر رفاق السوء وأضرار التطرف والتسرع في مسألة الصداقة وتحذيره بالمنطق والاستدلال من صحبة المنحرفين والضالين ، لو استطاعوا كل ذلك يكونون قد عملوا بمسؤولياتهم تجاه الشباب في هذا المجال وأناروا له طريق السعادة والفلاح .

والآن سنتطرق في بحثنا إلى الحالة النفسية التي يكون عليها الشاب وهو يختار صديقاً له مستندياً في ذلك على مصادر دينية ودراسات علمية ، وذلك بهدف توعية الشباب حول مسألة الصداقة وتوجيهه .

دوافع الصداقة :

١ - إن أول ما يلفت الانتباه في دراسة موضوع الصحة عند الشباب ، ويميّز صداقة مرحلة الشباب عن صداقة مرحلة الطفولة والكبر ، ويمنحها طابعاً خاصاً ، هو الاختلاف بين دوافع الصداقة لكل مرحلة .

فالصداقة بين الأطفال قبل مرحلة البلوغ ليست سوى حب فطري وتجاذب طبيعي وبسيط مصدره غريزة الأنس والألفة ، وهي عادة ما تتحقق عند الالتقاء بالصديقة . أما الصداقة بين الكبار فهي تقوم على أساس المصالح والضرورات الحياتية ، بينما نجد أن الصداقة بين الشباب مهما كان جنسهم تقوم نتيجة اندفاعات عاطفية وشعور قوي بالحب يبرز مع ظهور الغريزة الجنسية ، وقد تتحوّل الصداقة أحياناً إلى عشق جارف يسفر في بعض المواقع عن فساد جنسي وانحراف أخلاقي .

الصدقة بين الطفولة والشباب :

«إن الصداقة التي يقيمها الطفل خارج محيط أسرته تكون عادة غريزية عابرة شأنها شأن الألعاب بالنسبة للطفل . ولن تستمر هذه الصداقة التي تكونت نتيجة الجيرة أو ما شابه ذلك بعد الفراق والانفصال ، وغالباً ما يكون هذا النوع من الصداقة نابعاً من الميل إلى الاجتماع الذي يظهر عند الأطفال خلال المرحلة الثالثة للطفولة ، فيصبح حبّ الطفل للطفل أشبه ما يكون بالصداقة ، وحب الطفل لمن هم أكبر منه سناً أشبه ما يكون بحب الولد لأبيه . أما الصداقة في مرحلة البلوغ فتكون إما اختياراً أو تعصباً وغالباً ما تكون غامضة وغير واضحة»^(١) .

«ثمة علاقة بين ظهور العشق ونمو الغريزة الجنسية خلال فترة البلوغ ، وليس معنى ذلك أن هذه القوة المحركة هي التي تولد العشق ، أو أن أيّاً منهما يبيّن ويثبت وجود الآخر ، لأن العشق الإنساني الطبيعي لا يمكن تصوّره بعيداً عن تفتح الغريزة الجنسية . أما العاطفة وهيّاج الحب الذي يتفتح في الفترة ذاتها فهما قرينة ملازمة أخرى لتكوّن العشق ، ولكن لا يمكن تسمية هذه العاطفة بالعشق ، والعشق في الحقيقة هو نتاج لازمتين وقرينتين وهو نوع من النشاط المميّز الذي يصدر عن عاملي الغريزة الجنسية وهيّجان أو فورة الحب ويتغذّى منهما .

والآن يمكننا أن نقارن من خلال هذه التوضيحات بين الصداقة بين الشباب ، وبين العشق ، فمصدر هذه الصداقة تلك العاطفة وفورة الحب ، ومن هنا فهي تشبه العشق الذي يصدر عن نفس العاطفة

(١) ماذا أعرف ؟ ، البلوغ ، ص ٥٤ .

أيضاً،^(١) . الصدقة في الكبر :

٢ - الفرق الآخر الذي يسترعي الانتباه في الصداقة بين الشباب من الناحيتين المعنوية والنفسية ويفصل هذه الصداقة عن الصداقة بين الكبار الأكثر وعياً وتفكيراً هو التدبر والتفكير بعاقبة الأمور لدى الكبار والعوامل العاطفية التي لا يحسب لها حساب عند الشباب .

فليس من اليسير أن يختار الكبار أصدقاء لهم ، وإذا ما أرادوا إقامة علاقة صداقة مع أحد ما فإنهم يتفكرون ويتدبرون بعيداً عن الأحاسيس المفرطة والخطوات غير المدروسة . فهم يعاشرون الطرف الآخر في البداية ليختبروه ثم يحاولون معرفة كل شيء عن وضعه الأخلاقي وماضيه الحياتي ، وعندما يجدون فيه الكفاءة اللازمة ويطمئنون منه يصادقونه ويصاحبونه . ومن الطبيعي أن تدوم مثل هذه الصلحة القائمة على أساس التعقل والتدبر .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : مَنْ اتَّخَذَ أَخاً بَعْدَ حُسْنِ الْاِخْتِيَارِ دَامَتْ صُحْبَتُهُ وَتَأَكَّدَتْ مَوَدَّتُهُ^(٢) .

الشاب والصدقة الإعتباطية :

أما الشاب فإنه سهل الصلحة وسريع ، لأنه يعتمد في ذلك على أحاسيسه العابرة ودوافعه العاطفية بدل التدبر والتفكير ، ومن هنا فإنه قد ينجذب لشخص من لقاء واحد أو لآخر جمعته به الصدفة ، فيقيم معه علاقة صداقة دون أن يعرف عن ماضيه أو عن أسرته أو حتى عن وضعه الأخلاقي شيئاً .

ومن الطبيعي أن مثل هذه العلاقات غير المدروسة يكون لها نتائج سلبية ، إذ إنها قد تدفع شباب طيب القلب بسيط إلى معايشرة عنصر فاسد

(١) ماذا أعرف ؟ ، البلوغ ، ٥٩ .

(٢) غرر الحكم ، ص ٦٩٥ .

خلافاً لميوله الباطنية فيتحمل ولمدة طويلة أعباء هذه الصحبة الجسيمة .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : **مَنْ اتَّخَذَ أَخاً مِنْ غَيْرِ اخْتِبَارِ الْجَاهِ
الاضْطِرَّارُ إِلَى مُرَافَقَةِ الْأَشْرَارِ** (١) .

صداقة دون تفكير :

و غالباً ما تقام علاقات الصداقة بين الشاب والشاب وبين الشاب والشابة في المدارس الصباحية والمسائية مثلاً . فيتم اختيار الصديق بعد ودّ مفاجيء بواسطة قوة محرّكة خالية من التفكير والتأمل أو نتيجة الصدفة ، وقد تكون هذه الصدفة ناجمة عن عدم الثقة بأحد الأصدقاء فيلجأ الشاب باحثاً عن صديق آخر يأتّمه علي أسراره» (٢) .

٣ - إن الشيخ الكبير العاقل المتدبر لن يكون متشدداً وعنيداً في مسألة الصحبة ولا يبدي أي إصرار تجاه هذه المسألة . فإذا ما أخطأ رجل كبير وعاقل عن طريق الصدفة وارتبط بعلاقة صداقة مع شخص فاسد مغرض نتيجة تعدّد اللقاءات ، وأتاه فاعل خير يخبره بفساد أخلاق ذلك الشخص ، فإنه يقف فوراً عند ذاك الحد من الصداقة ويسارع إلى التحقيق بشأن الشخص ، فإذا ما تبين صحة ما قيل له قطع العلاقة دون أي تردّد أو تأخير .

والطفل أيضاً لا يبدي أي تعصب تجاه مسألة الصداقة ، فهو يبادر إلى قطع علاقته بأي من التلاميذ أو الأصدقاء يحذره منه أبواه أو معلّموه ويأمرونه بعدم التحدّث إليه واللهم معه .

الشاب والتعصب في الصحبة :

علي النقيض من صحبة الشاب التي تكون مصحوبة بنوع من التعصب

(١) نفس المصدر ، ص ٦٩٥ .

(٢) ماذا أعرف ؟ ، البلوغ ، ص ٥٩ .

والتشدد . فالشاب الذي أخطأ في اختيار صديقه وأقام علاقة صداقة مع شاب فاسد لا يسمح للآخرين قط بانتقاد صديقه هذا أو التحدث عن سيئاته . لأنه يعتبر أن قبول انتقادات الآخرين معناه الاعتراف غير المباشر بجهله وسوء تقيمه للأصدقاء ، وهذا ما لا يسمح به غرور الشباب ، وإذا ما صادف أن حذره شخص ما من أحد أصدقائه بداعي الخير والمحبة فإنه يغضب وينفعل ويبادر إلى الدفاع عن صديقه ويحمل هذا الانتقاد أو التحذير محمل الجهل وسوء النية غافلاً عن أن هذا العناد والاستبداد لن يغيّر من الواقع شيئاً ولن يجعل من الصديق السيء صالحاً ، والمتضرر الوحيد من هذه الصداقة لن يكون سواه .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : اللجاج أكثر الأشياء مضرّة في العاجل والأجل^(١) .

الشباب والصداقة المفرطة :

٤ - المسألة الأخرى التي تفصل من الناحيتين الأخلاقية والنفسية بين الصداقة لدى الكبار العقلاء والصداقة لدى الشباب السذج عديمي التجربة ، هي أن الصداقة لدى الفريق الأول لها حدودها ومعاييرها أما عند الفريق الثاني فهي مفرطة .

فالصديقان الفاضلان الحميمان والمخلصان لبعضهما إذا ما كانا عاقلين عليهما أن لا يغفلا عن أن هذه العلاقة التي تربط بينهما لا يمكن أن تستمر أو تثبت على حالها إلى الأبد وفي شتى الظروف ، إذ قد توتر هذه العلاقة وتنتهي وربما تتحول إلى عداء نتيجة بعض المستجدات والحوادث . لذا يتوجب على الصديقين أن يتجنبنا الإفراط في علاقتهما وأن لا يتماديا في الثقة ببعضهما البعض وأن يفكرا بكل ما يودان القيام به وأن يعززا علاقتهما في حدود العقل والمنطق .

(١) فهرست الغرر ، ص ٣٥٦ .

قال الإمام الصادق عليه السلام: لبعض أصحابه : لا تُطْلِعْ صَدِيقَكَ مِنْ سِرِّكَ إِلَّا عَلَى مَا لَوْ أُطْلِعَ عَلَيْهِ عَدُوُّكَ لَمْ يَضُرَّكَ ، فَإِنَّ الصَّدِيقَ قَدْ يَكُونُ عَدُوًّا يَوْمًا^(١) .

الشاب والإفراط في الصحبة :

إن الإنسان العاقل وصاحب التجارب لا يمكن أن يغفل عن احتمالات الخصام والخلاف مع صديقه لاسيما في قمة العلاقة بينهما، ومن هنا فإنه يتجنب الإفراط في الصحبة ويرسم حدود العلاقة مع الصديق بعد تفكير وتأمل ، ولا يتجاوز في ذلك حدود العقل والمصلحة . أما الشاب الساذج البسيط الذي ينقاد لأحاسيسه وعواطفه في اختيار الصديق فإنه لا يفكر قط بمستقبل العلاقة معتقداً أن العلاقة التي تربطه اليوم بالصديق هي علاقة أزلية لا يمكن أن تنتهي بأي شكل من الأشكال ، كما أنه يتمادى في هذه العلاقة إلى الحد الذي يصبح وصديقه وكأنهما روح واحدة في جسدين ، يقلدان بعضهما بالملابس وتسريحة الشعر ، ويتبادلان الأسرار صغيرها وكبيرها . وتتضح سلبيات هذا الإفراط والتماذي في الصداقة حينما يتخاصمان نتيجة حادث عرضي ، وتتحول الصداقة بينهما إلى عداوة ، حينها يلجأ كل منهما إلى كشف أسرار الآخر وفضحه انتقاماً منه .

«إن الشاب اذا ارتبط بعلاقة صداقة مع شخص آخر فإنه يثق به ويحاول مدحه ويسعى لأن يكون صديقاً خاصاً به ، ييدي له مشاعره تجاهه من خلال تقديم الهدايا له ، ويسعد عندما يعلم أنه بات صديقاً مخلصاً حميماً بنظر صاحبه» .

«وغالباً ما يبرز إلى جانب كل ذلك ميل شديد بينهما لأن يصبح لهما اسم واحد وهوية واحدة ، فهما يسعيان لأن يكون لهما ذوق واحد ، يقلدان بعضهما في تصفيف الشعر والخط . وتكشف الرسائل التي يتبادلانها عن وجود حب جارف يشدهما لبعض» .

(١) أمالي الصدوق ، ص ٣٩٧ .

«إن الشاب اليافع يجعل من الشخص الذي يحبه ويعزّه (أنا) مثالياً ، فهو يريد أن يتصور صديقه جزءاً منه لا أن يتصوره شخصاً منفصلاً عنه . ولكن هذا التصوّر يزول فيما بعد ويمحي ، وإذا ما نشب خلاف جزئي بين هذين الصديقين المشالين الحميمين فإنه يبيد العلاقة بينهما»^(١) .

إحترام حقوق الصداقة :

٥ - إن إفراط الشاب لا ينحصر في العلاقة التي يقيمها مع صديقه وفي مشاعر الحب والودّ التي يبديها له ، فهو يفرط حتى في إظهار روح العداة تجاه صديقه عندما تتبدّد هذه العلاقة .

أما إذا قامت أسس العلاقة بين شابين صديقين حميمين على الفضيلة والأخلاق وضمن حدود العقل والمنطق ، فإنهما سيحترمان حقوق بعضهما ولا يمكن أن يفكر كل منهما بانتهاك حقوق الآخر ، ويستحيل أن يعمدا إلى ما من شأنه أن يوتر أجواء الصداقة بينهما .

من وصية لأمير المؤمنين عليه السلام لابنه الحسن عليه السلام : **وَلَا تُضَيِّعَنَّ حَقَّ أَخِيكَ أَتَكَالًا عَلَى مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ فَإِنَّهُ لَيْسَ لَكَ بِأَخٍ مَّنْ أَضَعَّتْ حَقَّهُ**^(٢) .

التعقل بعد القطيعة :

وهذان الصديقان العاقلان الواعيان إذا ما صادف أن انقطعت عُرى الصداقة بينهما يوماً ما ولسبب معين ، وانفصلا عن بعضهما ، فإنهما يأخذان جانب العقل والمصلحة طيلة فترة الانفصال ، ولا يتماذى كل منهما في ملامته وشكواه ضد الطرف الآخر الذي كان بالأمس صديقاً حميماً له ، ولا يمكن أن يقطع كل منهما على نفسه طريق العودة والمصالحة ، لأن كليهما يعلمان أن

(١) ماذا أعرف ؟ ، البلوغ ، ص ٥٥ .

(٢) نهج البلاغة ، الرسالة ٣١ .

سبب التوتر والخصام قد يزول يوماً ما وتعود العلاقة بينهما إلى سابق عهدها .
قال الإمام الصادق عليه السلام : لا تَتَّبِعْ أَخَالَكَ بَعْدَ الْقَطِيعَةِ وَقِيَعَةَ فِيهِ فَتَسُدَّ عَلَيْهِ
طَرِيقَ الرَّجُوعِ إِلَيْكَ ، فَلَعَلَّ التُّجَارِبَ تَرُدُّهُ عَلَيْكَ (١) .

«بشكل عام لا يمكن الاحتفاظ بدرجة الودّ على مستوى واحد ،
حتى إنّنا نتألم لسبب ما من شخص نحبه كثيراً وننفر منه رغم
الصداقة التي تربطنا به ، فكلما توطّدت أواصر الصداقة إزدادت
التوقّعات وكثرت المعاناة» .

«ولعله من المناسب جداً أن نسمّي هذه الحالة الخاصة المركبة من
الحب والبغضاء أو الصداقة والخصام بالموّدة والقطيعة ، وينبغي
أن لا ينخدع الأخوة والأصدقاء بهذه الحالة وأن لا يتجاهلوا أن
هناك حباً وموّدة بعد كل خصام وجفاء ، لأن الموّدة لا بد وأن
تتغلب في نهاية الأمر على القطيعة» (٢) .

الصديق الكفوؤ :

يمكن تحديد ومعرفة قيمة العقل والحكمة لدى الأفراد وكذلك درجة
وعيهم وكمالهم في الحزن والفرح والغضب والخوف والصداقة والعداوة والفقر
والغنّى وفي جميع الحالات الانفعالية وغير الطبيعية .

فالذي يهجر صديقه غاضباً وينفصل عنه معاتباً ثم لا يتعدى حدود الحق
والفضيلة طيلة فترة الانفصال ولا يخرج عن إطار العدل والإنصاف والعقل
والمصلحة يكون إنساناً كفوؤً وأهلاً للصحبة والصداقة .

عن الصادق عليه السلام : مَنْ غَضِبَ عَلَيْكَ ثَلَاثَ مَرَاتٍ فَلَمْ يَقُلْ فِيكَ سُوءً

(١) بحار الأنوار ١٦ ، ص ٤٦ .

(٢) البهجة ، ص ٧٥ .

فَاتَّخِذْهُ لَكَ خِيالًا^(١) .

ومع الأخذ بعين الاعتبار الوضع النفساني الذي يمرّ به الإنسان في شبابه وما تتطلبه هذه المرحلة منه ، يبدو من الصعب عليه مراعاة حدود الصداقة واحترام حقوق الصديق ، لأنه أي الشاب لا يقيس هذه الحقوق بمقياس العقل والمصلحة ، ومعياره في ذلك هو تلك العواطف والأحاسيس الحادة .

الشاب والغرور :

إن الشاب غالباً ما يقع أسير حب الذات وأحياناً عبادتها ، ومن هنا فإن تقييمه للخير والشر والحسن والسيء يكون على أساس ميوله الباطنية . فهو يعتقد أن الصديق الجيد والمخلص هو من يستجيب دون قيد أو شرط لرغبات صديقه ويسعى متفانياً لتحقيقها . أما ذلك الذي لا يهتم لرغباته الناجمة عن غروره ، فهو برأيه ليس حميماً ويستحق الهجر والنفور وسوء الظن .

«إننا أشبه ما نكون أحياناً بالمرضى النفسانيين ، نتصور أن كل الأصدقاء والمحيطين بنا مسخرون لأجلنا ، ندفعهم ما استطعنا لتنفيذ ما ربننا ورغباتنا متجاهلين ما قد يصيبهم من آلام وأضرار . كما أننا نعتبر كل من يعمل لمصلحتنا ويطيعنا صديقاً جيداً ومخلصاً ، أما ذلك الذي لا ينفعنا ولا يطيعنا فإننا نفر منهُ ونحتقره»^(٢) .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : مَنْ لَمْ يَرْضَ مِنْ صَدِيقِهِ إِلَّا بِإِثَارِهِ عَلَيَّ نَفْسِهِ دَامَ سَخَطُهُ^(٣) .

(١) تاريخ اليعقوبي ، ص ٩٧ .

(٢) سلامة الروح ، ص ٣٦ .

(٣) فهرست الغرر ، ص ٢٠٤ .

الشاب والمحيط :

«عندما تستيقظ الغريزة الجنسية لدى الشاب يبدأ اهتمامه ينصبّ على باطنه ، ولا يعود لعالم الأشياء أهمية عنده كالمرحلة السابقة ، فهو يلتحق بعالمه الاجتماعي الجديد . ويفقد الشاب في هذه المرحلة الثقة بالنفس التي كان يتمتع بها من ذي قبل ، وبسبب ذلك تصيح (الأنثى) محور أقواله وفعاله ، وبما أن العالم والمحيط لا يدوران في فلك (الأنثى) للشباب ، فهو ليس على ما يرام مع المحيط ويشكو منه على الدوام ويعترض ويتنقد ، ليس مرتاحاً للأوضاع والأحوال ، فتنهار قواه الفاعلة وتضعف إرادته وكان هناك علاقة بين هاتين الحالتين أي حالة الاعتراض والانتقاد وحالة الضعف والانهيار . إنه يقيّم كل شيء على أساس ميوله ورغباته ، ليس لديه عقيدة ثابتة ، ونتيجة لكل هذه الخصوصيات يصبح وبكل سهولة ألعوبة بيد هذا أو ذاك»^(١) .

الإنقياد للمشاعر الحادة :

يبني الشاب وبدافع عاطفي علاقة صداقة بين ليلة وضحاها دون تريث أو تفكير ، ويتعمق في هذه العلاقة ، إلا أن هذه العلاقة سرعان ما تتحول إلى حقد وعداء بالسرعة التي قامت فيها لسبب قد يكون تافهاً نتيجة شفافية طباعه وحادّة مشاعره .

فهو خلال أيام الصداقة يذهب في إظهار حبه وعلاقته بصديقه إلى حدّ المغالاة وذلك بسبب انقياده لمشاعره الحادة التي لم يُقدّم على تعديلها ، وخلال فترة القطيعة يذهب في إظهار حقه وعدائه لمن كان صديقه يوماً ما إلى أبعد الحدود ، وقد يرتكب جرائم كبيرة لا يمكن تلافي أضرارها .

(١) تجديد حياة الشباب ، ص ٢٦ .

«إن شدّة العواطف المتغيّرة والعابرة خلال فترة البلوغ تؤدي إلى حصول أخطاء كثيرة وتسبب حتى في وقوع جرائم كثيرة . إن أعمال الإنسان في هذه الفترة وسلوكه يكون لها شكل آني ، فإذا استحصل على النتيجة المرجوة فرح وابتهج ، أما إذا لم يحقق نتيجة تذكر فإنه يتألم ويغضب ويبقى مضطرباً . إن من خصوصيات الشاب الطبيعية أنه يكون محتاجاً لفرصة عمل وصبر ووسيلة لتنميتها ، فإذا لم تتوفر الفرصة ولم يكن هناك صبر ووسيلة للبيان ، فإن هذه القوة المستعدة للنمو تسير نحو الانحراف الفردي والاجتماعي»^(١) .

إن خطر طغيان غضب الشاب وروح الانتقام لديه لا يكمن فقط في حالات الصداقة الزائلة والأصدقاء الذين يصبحون فيما بعد أعداءً ، بل إن هذا الخطر يشمل حتى محيط الأسرة في جميع الحالات ، فإذا ما اشتد غضب الشاب وتصاعدت حدّة أحاسيسه فقد يرتكب أعمالاً مهولة وجنونية تنجم عنها خسائر فادحة .

«توفي شاب في الثامنة عشرة من العمر يوم أمس بعد تناوله كمية من مادة الأسيّد . وكان هذا الشاب قد قام قبل انتحاره برش كمية من هذه المادة على أمّه وشقيقته الشابة ، وقد تم نقلهما إلى المستشفى فوراً للمعالجة»^(٢) .

الإعتدال في الصحبة :

إن الشاب الذي ينشد في حياته السعادة والهناء والنصر والفلاح عليه أن يتغلب على أحاسيسه معتمداً على قوة إيمانه وعقله وأن لا يستسلم أبداً لهذه الأحاسيس الحادة وأن لا يرتكب ما قد يضيّع عليه وعلى الآخرين السعادة

(١) تجديد حياة الشباب ، ص ٦٠ .

(٢) صحيفة إطلاعات ، العدد ١٢٥٦٥ .

والهناء .

كما ينبغي أن يكون معتدلاً في صحبته ، لا يغالي إذا أقام علاقة صداقة مع من هم في سنّه ، ولا يبدي لهم كامل ثقته واعتماده ، وإذا ما انفصل عنهم يوماً لسبب ما عليه أن لا يتمادى في غضبه ولا يتجاوز في عدائه حدود العقل والمصلحة ، وليعمل بوصية أمير المؤمنين علي عليه السلام حيث قال : أَحِبَّ حَبِيبَكَ هَوْنًا مَا عَسَى أَنْ يَعْصِيكَ يَوْمًا مَا وَأَبْغَضْ بَغِيضَكَ هَوْنًا مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْمًا مَا (١) .

الشاب والعلاقة المتكافئة :

٦ - إن العلاقة التي تنشأ بين الأطفال خلال سني الطفولة تنحصر في محيط الأسرة ومن ثم المدرسة ، لكن الأمر يتغير كلياً مع حلول مرحلة الشباب ونضوج العواطف والأحاسيس الخاصة بها ، حيث يبدأ الشاب بالتعرف على من هم من خارج محيط الأسرة والمدرسة ، ويقيم معهم علاقات صداقة ليوّسع من علاقاته الاجتماعية .

وعادة ما يختار الشاب أصدقاءه ممن هم في سنّه ليرتبط معهم بعلاقات صداقة حميمة . ونادراً ما يقيم الشاب علاقة صداقة مع طفل يصغره سنّاً أو شخص آخر يكبره في العمر .

فالشاب غير مستعد لإقامة علاقة صداقة مع طفل غير بالغ ، ويعتبر ذلك أنه لا يتناسب وشأنه ، لأنه يعتقد أن مصاحبة من هم أصغر منه سنّاً تعتبر اعترافاً منه بعدم كفايته ، وهو بذلك يهين شخصيته ويحطّ من قدره .

الشاب وصحبة المسن :

إن الشاب ليشعر بالغبطة والفرح إذا ما اختاره رجل مسنّ صديقاً له ومدّ

(١) تحف العقول ، ص ٢٠١ .

إليه يد الصداقة والتعاون ، وذلك لما تمتاز به طبيعة الشاب من حبّ التسامي والتفوق ، وهو يرى في هذه العلاقة دليلاً على نضوج شخصيته ، إلا أنه لن يتجرأ على اقتراح الصحبة على من هو أكبر منه ، لأنه يشعر أن المسنّ ليس على استعداد لأن يتخذة صديقاً ويحطّ من شخصيته وقدره ، شأنه شأن الشاب نفسه الذي لا يرغب في مصاحبة الأصغر منه سناً لكي لا يحطّ من قدره ويحقّر شخصيته . إضافة إلى ذلك يعتبر الشاب نفسه ساذجاً وقليل التجربة ، وهو ليس مطمئناً لجهة عقله وتفكيره ، لذا فهو يخشى أن يصدر منه خلال فترة صحبته للمسّن كلام أو يرتكب عملاً من شأنه أن يثير سخرية المسنّ منه واستهزاءه به ، هذا من جهة أما من جهة ثانية فهو يعتقد أن عامة الناس ينظرون إلى صداقة الشاب بالشاب على أنها علاقة الأب بالابن أو المعلم بالتلميذ ، أو يتصورون أن الشاب متطفل على المسنّ أو عالة عليه ، وفي كل الأحوال والتصورات تحطيم لعزّة نفس الشاب وشخصيته .

وحينما نأخذ بعين الاعتبار العلاقة المتكافئة بين الشباب وعمقها واعتمادها على الدوافع العاطفية دون الاعتماد على جانب العقل والمصلحة ، فإننا نستطيع أن نتوقع إلى أي مدى ستسفر صحبة الشبان السذج عن أخطاء ، وما هي الأحداث التي ستنتج عن تحريك غرائزه وطغيان أحاسيسه .

وقد يتصور البعض أن على الأبوين والمربين الأكفأ المتدبّرين أن يتدخلوا في مسألة صداقة الشباب ويتخبوا لهم أصدقاء جيدين ليجنبوهم مخاطر العلاقات الضارة والسيئة .

ومما لا شك فيه أن القيام بمثل هذه الخطوة الحكيمة لا يخلو من فائدة للشباب ، ولكن هذه الخطوة لا يمكن القيام بها إلا بعد أن يكون الشاب نفسه راغباً في ذلك ويصارع من هم أكبر منه سناً وأكثر منه تجربة بما يدور في ذهنه ويستشيرهم ويعمل بتوجيهاتهم ، لكن الشاب ولشديد الأسف ليس فقط لا

يرغب في ذلك بل ويرفضه رفضاً قاطعاً .

الشاب والكفاءة :

إن الشاب بطبيعته يرغب في إظهار شخصيته وإثبات وجوده . فهو يرغب في أن يكون مستقلاً في قراره حول أي عمل يود القيام به ، ويحب أن يعمل بإرادته ليثبت كفاءته . فالشاب لا يحب أن يستشير الكبار في مسألة اختيار الصديق ، لأنه يتصور أنه يكون بذلك قد اعترف بشكل غير مباشر بعدم نضوجه فكرياً وعقلياً .

كذلك يعتقد الشاب أن الكبار لا يدركون أساساً لغته النفسية وعواطفه وأحاسيسه الجياشة ، فكيف به أن يستشيرهم بما يدور في خلداه وهم لا يعرفون عن ذلك شيئاً ؟ .

الشاب وكتم السر :

ولو افترضنا أن ينجح بعض الآباء والمرشدين المثقفين من ذوي الشخصية الفذة في إقناع الشباب بوجهات نظرهم واقتراحاتهم الحكيمة بالمنطق والإستدلال ، فإن النتيجة لن تكون إيجابية مائة في المائة ، لأن الشاب ومن الناحية النفسية يمتلك قدرة عجيبة على الكتم والتستر وإذا ما أراد فإنه يستطيع أن يقيم علاقة خفية وفقاً لرغباته الباطنية وخلافاً لمنطق العقل والمصلحة دون أن يعلم بها أكثر الآباء والأمهات والمرشدين ذكاءً وفطنة .

«يقول موريس دبس : نستطيع من خلال التحليل النفسية التي أجريناها على نفسية الشاب أن نتوصل إلى ما يفرح الشاب وما يغيظه وذلك بالمقارنة بينه وبين الطفل» .

«إن ما يغيظ الشاب يبقى دفيناً مستتراً ، وما يفرحه لا يظهر على وجهه في الحال كما هو الحال عند الأطفال . فثمة نشاط ذهني ما بين الانفعال وردة الفعل الناجمة عنه ، وهذا النشاط الذهني يكون

أكثر تعقيداً كلما كانت أعضاء جسم الإنسان أكثر تكاملاً ، في حين تبدو الانفعالات بشكل سريع على الطفل الصغير وتتضح نتیجتها بحركة جسمية واحدة . إن حبّ الشاب أكثر عمقاً وغموضاً واستتاراً ، فهو قادر على إخفاء حبه تجاه الآخرين تماماً أو إبرازه بحرارة . وهذا التناقض الذي يبدو واضحاً خلال فترة البلوغ اعتبره شخصياً من المميزات الأساسية لمعرفة نفسية الشاب من البلوغ وما فوق^(١) .

العلاقات الجريئة :

ما أكثر الشباب الذين يتمتعون بمواهب واستعدادات طبيعية يستطيعون من خلال استثمارها استثماراً جيداً وسليماً طي مدارج الرقي والكمال يسر ، إلا أنهم وبطبيعة الجراءة والعند الموجودة فيهم يلجأون إلى إقامة علاقات مع أشخاص فاسدين ويندفعون برغبة لتوطيد عرى هذه العلاقات خلافاً للعقل والمصلحة وذلك بسبب سذاجتهم وجهلهم للأمر ، فيقضون أجمل أيام حياتهم وأكثرها قيمة في مجالس الفساد والرذيلة ، ويلوثون سمعتهم ولا يعون أخطأهم إلا وقد فاتت الفرصة وانقضى العمر ولم يحصلوا من رفاق السوء والرذيلة سوى التعاسة والشقاء وسوء السمعة .

الصديق وأسس الأخلاق :

لا شك في أن مسألة الصحبة واختيار الصديق هي من أهم المسائل لجبل الشباب . وينبغي على الشباب أن يلتفتوا إلى أن أصدقاء رحلة الشباب لهم دورهم المؤثر في بناء شخصية الإنسان وتكوين طباعه وأخلاقه .

فالصديق الجيد يستطيع أن يهدي الإنسان إلى درب الفضيلة والكمال ويجعله يتصف بخير الصفات ويضمن له سعادته وهناءه طوال حياته . أما

(١) ماذا أعرف ؟ ، البلوغ ، ص ٥٢ .

الصديق السيء فهو قادر على جرّ الشاب البسيط الساذج إلى طريق الإثم والريذيلة لتسوء سمعته ويشقى طوال حياته .

الصحة على أساس العقل :

فإذا كان الشاب ينشد سعادته عليه أن يراعي في مسألة اختيار الصديق جانب العقل والمصلحة وأن لا ينقاد بعناده وغروره لأحاسيسه الحادة ، وعليه أيضاً أن يتجنّب الكبر الذي يبلغ - وللأسف - ذروته خلال مرحلة الشباب وأن لا يغترّ بقوة شبابه وقدرته بدنه ، وعليه أن يسعى إلى الاستفادة من أفكار من هم أكبر منه سناً وأكثر منه تجربة في مسألة اختيار الصديق ، وليكن مطمئناً أن رأي الكبار العقلاء أكثر تأثيراً في بناء سعادته من قوة شبابه .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : رَأَى الشَّيْخَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ جَلْدِ الْغُلَامِ^(١) .

وقد وردت العشرات من الروايات عن أئمتنا الأطهار عليهم السلام التي تحدّد شروط الصحة وصفات الرفيق الجيد والسيء ، وها نحن نورد بعضاً منها عسى أن يتفجع بها جيل الشباب .

تجنّب الأحق :

إن من الشروط الأساسية للصحة والتي وردت في الكثير من الروايات الدينية هو أن يكون الصديق عاقلاً . فقد أوصى أولياء الله عليهم السلام بتجنّب مصاحبة الأحق وعدم اختياره صديقاً ، لأنه يتعب الإنسان ويؤذيه وقد يلحق به الضرر أحياناً .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : صَدِيقُ الْأَحْمَقِ فِي تَعَبٍ^(٢) .

وعن الإمام الصادق عليه السلام : مَنْ لَمْ يَجْتَنِبْ مُصَاحَبَةَ الْأَحْمَقِ يُوشِكُ أَنْ

(١) غرر الحكم ، ص ٤٢٢ .

(٢) فهرست الغرر ، ص ٨٣ .

يَتَخَلَّقُ بِأَخْلَاقِهِ (١) .

وقال الإمام علي بن الحسين السجاد عليه السلام : يَا بُنَيَّ إِنَّا كَ وَمُصَاحِبَةَ
الْأَحْمَقِ فَإِنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَنْفَعَكَ فَيُضُرُّكَ (٢) .

الصديق المخطيء :

إن رجلاً من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام لسعته حية فقال له أمير المؤمنين
عليه السلام : أتدري لما أصابك ما أصابك؟ ، قال : لا ، قال : أما تذكر حيث أقبل
قبر خادمي وأنت بحضرة فلان العاتي فقلت إجلالاً له لإجلالك لي ؟ ، فقال
لك : أتقوم لهذا بحضرتي ؟ ، فقلت له : وما بالي لا أقوم وملائكة الله تضع له
أجنحتها في طريقه فعليها يمشي . فلما قلت هذا له قام إلى قبر وضربه وشتمه
وآذاه وتهددني وألزمني الأعضاء على قذى . . فإن أردت أن يعافيك الله تعالى
من هذا فاعقد أن لا تفعل بنا ولا بأحد من موالينا بحضرة أعدائنا ما يخاف علينا
وعليهم (٣) .

الصديق الجاهل :

فلو كان ذلك الرجل المخطيء في تصرفه فرداً عاقلاً حكيماً لما قام بذلك
العمل الساذج ولما أدى إلى إهانة قبر وأذيته ، ومن هنا نقول إن الصديق
الجاهل يؤذي صديقه ويتعبه ، فهو يحاول أن ينفعه فيضره لجهله .

قال الإمام العسكري عليه السلام : صَدِيقُ الْجَاهِلِ تَعِبٌ (٤) .

ولا يخفى أن للجهل والقصور الفكري مستويات ودرجات ، فكما كان
الإنسان جاهلاً كانت صحبته متعبة ومملة ، كما أن للعقل والدراية مستويات

(١) مستدرک الوسائل ٢ ، ص ٦٤ .

(٢) وسائل الشيعة ٣ ، ص ٢٠٥ .

(٣) سفينة البحار ، (سبب) ، ص ٥٩٢ .

(٤) بحار الأنوار ١٧ ، ص ٢١٧ .

ودرجات ، وكلما كان الصديق عاقلاً كلما ازدادت أهمية صحبته .

عن الإمام الصادق عليه السلام : الإخوانُ ثلاثةٌ فواحدٌ كالغذاء الذي يُحتاجُ إليه كُلُّ وَقْتٍ فَهُوَ العاقِلُ ، وَالثَّانِي فِي مَعْنَى الدَّاءِ وَهُوَ الأَحْمَقُ ، وَالثَّالِثُ فِي مَعْنَى الدَّوَاءِ فَهُوَ اللَّيِّبُ^(١) .

الصديق اللبيب :

إن كلمة عاقل هي أصغر من أن تستخدم بحق بعض الأفراد لفرط ذكائهم وحسن عقلهم وبعد نظرهم . وقد أشار الإمام الصادق عليه السلام في الحديث الأنف الذكر إلى الإنسان الكفوء والممتاز معبراً عنه بكلمة لبيب .

ويمكن القول إن من يصاحب صديقاً لبيباً يكون في نعمة كبيرة عليه أن يعرف قدرها ويستفيد منها خير استفادة . فالصديق اللبيب هو بمنزلة الدواء لجميع آلام الحياة وهو الوسيلة المثلى لحلّ المشاكل الاجتماعية . فهو يستطيع في الظروف الحرجة والخطيرة أن يسدي أكبر الخدمات وأجلّها لصديقه وينقذه بنور عقله وفكره من الضياع والشقاء .

المعتصم في ضيافة الوزير :

كان للمعتصم العباسي وزير يسمّى الفضل بن مروان قد فاق أقرانه وأضحى موضع اهتمام الخليفة لكفائته وجدارته ، وذات يوم دعا الوزير الخليفة للنزول عليه ضيفاً من أجل أن يكشف للعامة منزلته عند الخليفة الذي لبي بدوره دعوة وزيره المقرب .

وكان الوزير قد أعدّ قصره وزيّنه بأفخم الأشياء وفرشه بأثمن الفرش وجلب أوامٍ من الذهب وأخرى من الفضة وهياً أفخر الطعام ورّتب مجلساً من أبهى ما يكون .

(١) تحف العقول ، ص ٣٢٣ .

ولما دخل الخليفة المجلس بهت لكل هذه الثروة وهذا الجلال وأخذته الغيرة والحسد من وزيره ، فجلس للحظات والحسد يعترضه ، ثم قام وخرج من المجلس بحجة أنه يعاني من آلام في بطنه . فاستبد بالوزير القلق مما حصل ، وقاده التفكير إلى أن هذا المجلس المشؤوم لا يمكن أن يرفع منزلته عند الخليفة وقد يطيح به ، فأخذ يفكر بما عليه فعله ، إلا أن اضطرابه قد شل من قدرته على التفكير .

ذكاء ابراهيم الموصللي :

عند ذاك قرر أن يسر صا حبه الليب ابراهيم الموصللي الذي كان حاضراً المجلس بحقيقة الأمر ليستنير بعقله ، فتقدم منه وتحذت إليه بما جرى . ففكر ابراهيم قليلاً ثم قال للوزير أن اذهب مع الخليفة ولا تنفصل عنه واتبعه إلى البلاط لتوديعه والاطمئنان على حاله وامكث هناك حتى تأتيك رسالتي ، فإذا وصلتك فافتحها وقرأها بحضور المعتصم ، وإذا سألك عما في الرسالة أجه .

نفذ الوزير أمر صاحبه العاقل ، وبلغته الرسالة وكان قد كتب فيها ابراهيم يقول : إن أصحاب الفرش والصحون الذهبية والفضية قد جاؤوا يسألون عما إذا كان مجلس ضيافة الخليفة قد انتهى لكي يأخذوا حاجياتهم وأموالهم .

وحصل ما توقعه ابراهيم ، فقد سأل المعتصم عما تضمنته الرسالة ، فقرأ عليه الوزير فحواها ، فضحك الخليفة دون إرادة وزالت عقده الباطنية لما عرف أن كل هذه الفخامة والأبهة والثروة ليست ملك الوزير بل هو استقرضها من أصحابها ، ثم شكر الخليفة وزيره على حسن الضيافة . وقد استطاع الصديق الذكي الليب بتدبيره وحكمته إنقاذ صاحبه من خطر حقيقي .

إن المدرسة التربوية الاسلامية تولي اهتماماً كبيراً لمسألة الصحبة وضرورة أن يكون الصديق عاقلاً وحكيماً ، بحيث انها تجيز مصاحبة الإنسان العاقل والمتفكر حتى وإن افتقد لبعض مكارم الأخلاق .

عن أبي عبد الله الإمام الصادق عليه السلام قال : قال أمير المؤمنين عليه السلام : لا عَلَيْكَ أَنْ تَصْحَبَ ذَا الْعَقْلِ وَإِنْ لَمْ تَحْمِدْ كَرَمَهُ وَلَكِنْ أَنْتَفِعَ بِعَقْلِهِ (١) .

قرين السوء :

ومن الشروط الأخرى للصحة طهارة الصديق من كل خطيئة وانحراف . فقد أوصى الأئمة المعصومون عليهم السلام أتباعهم بعدم مصاحبة الفاسدين والامتناع عن مجالسهم ، لأن رفيق السوء يحاول أن يغرر بصاحبه ويجره إلى المعصية . في وصية أمير المؤمنين لولده الحسن عليه السلام إنه قال فيها : . . . وَإِيَّاكَ وَمَوَاطِنَ التُّهْمَةِ وَالْمَجْلِسَ الْمَظْنُونِ بِهِ السُّوءِ ، فَإِنَّ قَرِينَ السُّوءِ يَغُرُّ جَلِيسَهُ (٢) .

فكم من شاب ساذج قليل التجربة قد صاحبوا أفراداً من جيلهم فاسدين ، يتعاطون المخدرات ويحتسون الخمرة ويلعبون الميسر وما إلى ذلك من أنواع الرذائل ، فتعلموا منهم الرذيلة وارتكبوا المنكرات ، فضيعوا سعادتهم وهدروا سلامتهم وجلبوا لأنفسهم التعاسة والشقاء .

«في الثاني عشر من شهر كانون الثاني فقد سته من طلبة إحدى الجامعات في ولاية بنسلفانيا الأمريكية أبصارهم نتيجة تعاطيهم مادة إل - أس - دي المخدرة .

وقد شرح السيد «نورمان يادر» مفوض شؤون المكفوفين في قسم الرفاه الاجتماعي بولاية بنسلفانيا هذه الحادثة في مؤتمر صحفي وقال : إن هؤلاء الستة وهم طلاب السنة الثالثة بالجامعة قد اجتمعوا في مكان خال خارج الجامعة وتعاطوا مادة إل - أس - دي المخدرة ثم استلقوا على ظهورهم تحت أشعة الشمس ، وبعد ست ساعات تقريباً عشر بعض الطلبة على هؤلاء الستة وهم في حالة يرثى لها وقد فقدوا أبصارهم .

(٢١) وسائل الشيعة ٣ ، ص ٢٠٣ و ٢٠٦ .

وأضاف السيد «يادر» : إنهم وبسبب تعاطيهم هذه المادة لم يكونوا يعلموا أنهم قد تعرضوا لأشعة الشمس المحرقة ، وبعد زوال أثر هذه المادة عادوا إلى رشدهم ليجدوا أنفسهم وقد أصيبوا بالعمى»^(١) .

رفيق السوء وسوء السمعة :

إن الشاب الذي يقيم علاقات مع رفاق السوء ويعاشرهم ويتردد بين أوساطهم في المجتمع ، لا يمكنه أن يصون نفسه من سوء السمعة حتى وإن كان قادراً على ضبط إرادته ووقاية نفسه من الغرق في الذنوب والمعاصي ، لأن سوء السمعة أمر واقع لا يمكن أن يتجنبه كل من يصاحب أشخاصاً فاسدين عاصين .

قال رسول الله ﷺ : **أَوْلَى النَّاسِ بِالتُّهْمَةِ مَنْ جَالَسَ أَهْلَ التُّهْمَةِ** ^(٢) .

الصديق النمام :

إن مصاحبة رفيق السوء والمعتدي والنامم والخائن لن تؤدي إلى فساد الأخلاق وسوء السمعة خلال فترة الصداقة فقط ، بل إن تأثيراتها السلبية تبقى قائمة حتى في فترة القطيعة ، بمعنى أن الشاب لا يمكن أن يبقى في مأمن من شر رفيق السوء حتى وإن انفصل عنه .

فالذي ينم إليك خلال فترة الصداقة تحت شعار الحب والاخلاص ويتهم الآخرين زوراً لما فيه مصلحتك ، لا بد وأنه سينم عليك خلال فترة القطيعة تحت شعار الحقد والانتقام وسيرتكب جرائم ربما للاحق الأذى بك .

عن الإمام الصادق عليه السلام : **إِحْذَرُ مِنَ النَّاسِ ثَلَاثَةً ، الخَائِنَ وَالظَّالِمَ وَالنَّمَامَ ، لَأَنَّ مَنْ خَانَ لَكَ خَانَكَ وَمَنْ ظَلَمَ لَكَ سَيَظْلِمُكَ وَمَنْ نَمَّ إِلَيْكَ سَيَنَمُّ**

(١) صحيفة إطلاعات ، العدد ١٢٥٧٩ .

(٢) مستدرک الوسائل ، ٢ ، ص ٦٥ .

عَلَيْكَ^(١) .

وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام : مَنْ مَدَحَكَ بِمَا لَيْسَ فِيكَ فَهُوَ خَلِيقٌ أَنْ يَدْمَكَ بِمَا لَيْسَ فِيكَ^(٢) .

وخلاصة القول إن الذي عُرف بخطاياہ وذنوبه وسوء خلقه وخيانتہ ليس أهلاً للصحة ولا يمكن الوثوق به ، لأن مثل هذا الإنسان سرعان ما يفسد صديقه ويلطخ سمعته بين الناس ، وإذا ما كان هذا الإنسان في فترة الصداقة يستفيد من أعماله الرذيلة وأساليبه الماكرة لصالح صديقه ، فإنه سيلجأ يوماً عند القطيعة إلى تصعيد ممارساته ضد صديقه بهدف إيذائه .

الصديق المتملق :

وثمة نوع آخر من الصداقة رفضته التعاليم الإسلامية ، وحذّر الأئمة الأطهار عليهم السلام المسلمين منها ، وهو مصاحبة المتملق . فالمتملق هو ذلك الإنسان الذي يطلق لسان التمجيد والتبجيل بدافع الخوف والطمع وخلافاً لمعتقدہ الباطني ورأيه الحقيقي ، وهذا ما يفقده شخصيته المعنوية وقيمتہ الإنسانية .

ويحاول المتملق أن يظهر عمله الخاطيء على أنه عمل صحيح وسليم ، ويصرّ على إقناع الآخرين بذلك ليثقوا به ، وذلك في محاولة منه للتخفيف من شدة العار والفضيحة التي لحقت به وستر دنائته وعبوبه إلى حدّ ما .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : لَا تَصْحَبِ الْمَالِقَ فَيَزِينَنَّ لَكَ فِعْلَهُ وَيَوَدُّ أَنَّكَ مِثْلُهُ^(٣) .

ومن هنا يتوجب على الشاب الابتعاد عن مجالسة المتعلمين ومعاشرتهم

(١) تحف العقول ، ص ٣١٦ .

(٢) غرر الحكم ، ص ٦٧١ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٨١١ .

ومصاحبهم ، ولا ينسى أنه مصاب بطبع التملق لا محالة لو أنه عاشر المتملق وصاحبه .

وينبغي على الشاب أن يعلم أن التملق هو بمثابة الانتحار المعنوي وفناء الشخصية الاجتماعية . فالذي تهمة سعادته لا يمكن أن يتطبع على هذا الخلق الذميم ، لأنه يعلم أن في ذلك زوال شخصيته .

صفات الصديق المثالي :

لقد ورد الكثير من الروايات عن أئمتنا عليهم السلام التي تناول مسألة الصحبة وشروطها ، وهنا سنختم بحثنا حول الصحبة بنقل رواية عن الإمام الصادق عليه السلام تتضمن شروط الصديق المثالي وصفاته .

عن الإمام الصادق عليه السلام : الصَّدَاقَةُ مَحْدُودَةٌ ، فَمَنْ لَمْ تَكُنْ فِيهِ تِلْكَ الْحُدُودُ فَلَا تَنْسِبْهُ إِلَى كَمَالِ الصَّدَاقَةِ ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ تِلْكَ الْحُدُودِ فَلَا تَنْسِبْهُ إِلَى شَيْءٍ مِنَ الصَّدَاقَةِ . أُولَئِكَ أَنْ يَكُونَ سَرِيرَتُهُ وَعَلَانِيَتُهُ لَكَ وَاحِدَةً ، وَالثَّانِيَةُ أَنْ يَرَى زَيْنَكَ زَيْنَهُ وَشَيْنَكَ شَيْنَهُ ، وَالثَّالِثَةُ لَا يُغَيِّرُهُ عَنْكَ مَالٌ وَلَا وِلَايَةٌ ، وَالرَّابِعَةُ أَنْ لَا يَمْنَعَكَ شَيْئًا مِمَّا تَصِلُ إِلَيْهِ مَقْدِرَتُهُ ، وَالخَامِسَةُ لَا يُسَلِّمُكَ عِنْدَ النَّكَبَاتِ (١) .

(١) أمالي النضوق ، ص ٣٩٧

المحاضرة السادسة والعشرون

حول الشاب والعمل

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى في محكم كتابه : ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾^(١) .

الشاب واختيار العمل :

تعتبر مسألة اختيار العمل والحصول عليه من المسائل المهمة لجيل الشباب . فالإنسان الذي يطوي أيام الطفولة والصبا ويبدأ أيام الشباب تشده الرغبة للبحث عن عمل يستطيع من خلاله أن يجد لنفسه مكانة في المجتمع . فهو يحب أن يؤمن متطلباته من عرق جبينه ليلبغ بذلك حرّيته واستقلاله ويثبت كفاءته ويكرّس موقعه في المجتمع .

ويُعتبر العمل وتحمل المسؤولية من ضروريات الحياة الحرّة الكريمة في كل المجتمعات . ومن يريد أن يتمتع بمزايا المدنية ويأكل لقمة عيشه بعزّ وكرامة عليه أن يكون عضواً نافعاً في مجتمعه ويأخذ على عاتقه عملاً ضمن حدود كفاءته وليافته ليستفيد الآخرون من نتائج عمله كما يستفيد هو من نتائج عمل الآخرين .

(١) سورة الأعراف ؛ الآية : ١٠ .

أما الإنسان العاجز الوضع الذي يتهرب من المسؤولية ولا يقوم بأي عدل يرتزق منه ويعيش كلاً على الآخرين ويقنات من عرق جبينهم ، فهو ملعون في الاسلام ومذموم في المجتمعات ، لأن البطالة لا بد وأن تؤدي به في النهاية إلى الفساد الأخلاقي والضياع .

قال رسول الله ﷺ : **مَلْعُونٌ مَنْ أَلْقَى كَلَّهُ عَلَى النَّاسِ** (١) .

البطالة وفساد الأخلاق :

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : **إِنْ يَكُنِ الشُّغْلُ مَجْهَدَةً فَاتَّصَالَ الْفَرَاغُ مَفْسَدَةً** (٢) .

لقد خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان ووهبه قوة العقل ومواهب واستعدادات أخرى غير محدودة ، ودعاه إلى العمل والمشاركة من أجل بلوغ معاش الأرض وتأمين مستلزمات الحياة من مأكّل وملبس وغيرهما ، لتكون له حياة هانئة يشكر فيها خالقه على ما وهبه من نعم .

قال تعالى : **﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾** .

السلامة في ظل العمل :

يعتبر العمل والسعي والكّد أساس سعادة الإنسان وحامي عزته وكرامته وعاملاً من العوامل المؤثرة في سعادته المادية والمعنوية . وقد حثّ الرسول الأكرم ﷺ والأئمة عليهم السلام من بعده المسلمين على العمل والسعي المشروع ، واعتروا أن الساعي لتأمين لقمة العيش لنفسه وعياله كالهجاء في سبيل الله . وكانوا صلوات الله عليهم وسلامه يعملون ويكّدون ويدعون الناس إلى الكّد والعمل .

(١) تحف العقول ، ص ٣٧ .

(٢) إنباد المفيد ، ص ١٤١ .

عن أبي عبد الله الإمام الصادق عليه السلام : الكادُ على عياله كالمجاهد في سبيل الله ^(١) .

أهمية العمل في الإسلام :

وعن الإمام الرضا عليه السلام : إن الذي يطلب من فضل يكف به عياله أعظم أجراً من المجاهد في سبيل الله ^(٢) .

وعن أبي عمرو الشيباني قال : رأيت أبا عبد الله عليه السلام وبجانبه مسحةٌ وعليه إزارٌ غليظٌ يعمل في حائطٍ له والعرق يتصبأ عن ظهره ، فقلت : جعلت فداك أعطني أكفك ، فقال لي : إني أحب أن يتأذى الرجل بحر الشمس في طلب المعيشة ^(٣) .

وعن علي بن أبي حمزة قال : رأيت أبا الحسن عليه السلام يعمل في أرض له قد استنقعت قدماء في العرق ، قلت : جعلت فداك أين الرجال ؟ ، فقال : يا علي عمل باليد من هو خير مني ومن أبي في أرضه ، فقلت له : ومن هو ؟ ، فقال : رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأمير المؤمنين وآبائي كلهم قد عملوا بأيديهم ، وهو من عمل النبيين والمرسلين والصالحين ^(٤) .

الرسول (ص) وتشجيع العامل :

لقد كان الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم يحترم العامل الكادح ويشجعه بشئ الطرق ، ويحترق العاقل عن العمل ويبيد استياءه منه ، وكل ذلك كان بهدف حث المسلمين على العمل والمثابرة وتحذيرهم من الكسل والبطالة .

رَوَى أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم لَمَّا أَقْبَلَ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ اسْتَقْبَلَهُ

(١) الكافي ٥ ، ص ٨٨ .

(٢) نحف العقول ، ص ٤٤٥ .

(٣) الكافي ٥ ، ص ٧٦ .

(٤) المحجة البيضاء ٣ ، ص ١٤٧ .

سَعَدُ الْأَنْصَارِيُّ فَصَافَحَهُ النَّبِيُّ ﷺ ثُمَّ قَالَ لَهُ : مَا هَذَا الَّذِي أَكْتَبَ يَدَيْكَ ؟ ،
 قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَضْرِبُ بِالْمَرِّ وَالْمِسْحَاةِ فَأَنْفِقُهُ عَلَى عِيَالِي ، فَقَبَّلَ يَدَهُ رَسُولُ
 اللَّهِ ﷺ وَقَالَ : هَذِهِ يَدٌ لَا تَمْسُهَا النَّارُ (١) .

وكان رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إذا نَظَرَ إِلَى الرَّجُلِ فَأَعْجَبَهُ قَالَ هَلْ لَهُ حِرْفَةٌ فَإِنْ
 قَالُوا لَا ، قَالَ سَقَطَ مِنْ عَيْنِي (٢) .

إن النبي ﷺ الذي كان من الناحية المعنوية مبعوثاً إلهياً وقائداً دينياً ،
 ومن الناحية الظاهرية قائداً لأمة وزعيماً لبلد ، حينما قبل يد سعد الأنصاري أمام
 الناس إنما أراد أن يظهر احترامه وتقديره لكده وعمله وتشجيعه للعامل وحثه
 على العمل ، وعندما قال بشأن الرجل الذي لا حرفة له إنه سقط من عينه إنما
 أراد أن يظهر سخطه واستياءه من البطالة والعاطل عن العمل .

مسؤولية الآباء :

إن من حقوق الولد على والده في الدين الاسلامي المبين أن يعينه في
 اختيار العمل ويضعه موضعاً صالحاً .

قال رسول الله ﷺ : يا عَلِيُّ حَقُّ الْوَالِدِ عَلَى الْوَالِدِ أَنْ يُحَسِّنَ اسْمَهُ وَأَدَبَهُ
 وَيَضَعَهُ مَوْضِعاً صَالِحاً (٣) .

العمل والافتخار :

ليس العمل وتحمل المسؤولية مجرد وسيلة لتأمين لقمة العيش ومواصلة
 الحياة فقط ، بل هو أساس العزة والكرامة الإجتماعية وعامل مؤثر في تعزيز
 الثقة بالنفس وتوكيد الشخصية . فالشباب الذي يعمل ويستحصل على رزقه
 بنفسه يجد نفسه حراً مستقلاً ويشعر بالفخر والشموخ ، ويعطي لنفسه الحق في

(١) اسد الغابة ٢ ، ص ٢٦٩ .

(٢) بحار الأنوار ٢٣ ، ص ٦ .

(٣) نفس المصدر ١٧ ، ص ١٨ .

إثبات وجوده في المجتمع ، ويعتبر نفسه عضواً مفيداً وفاعلاً في مجتمعه .

«يقول «موريس دبس» : إن العمل واختيار العمل لهما دور مباشر في إثبات شخصية الشاب ، لأنهما يدلان على تحرر الشاب واستقلاله ومقدرته على مواصلة حياته معتمداً على نفسه . والشاب يسعد ويستمتع بأول مال يستحصل عليه من عرق جبينه ، وهذا ما يزيد ثقته بنفسه ويدفعه لبذل المزيد من السعي والمثابرة» .

«كتب أعرف شباباً كانوا مستعدين لتقديم كل ما يحصلون عليه من أجور لأسرهم ، لكنهم كانوا ينزعجون عندما ينظر الأهل إلى خطوتهم هذه على أنها مسألة طبيعية وعادية» .

«إن الطالب الجامعي الذي لم يكسب المال بعد ولا يزال بحاجة إلى مساعدة مالية من الآخرين ، غالباً ما يشعر بشيء من الضعة والذل ، وهو يرضى على الأقل بهذه اللذة والسعادة عندما يتفق ما في جيبه حسب مرامه»^(١) .

العمل وقوة الشخصية :

لم يقف اهتمام أولياء الله الصالحين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين عند الجانب المادي للعمل من أجل الإسترزاق وإدارة الحياة بكل متطلباتها ، بل تخطى ذلك إلى الجانب المعنوي عندما اعتبروا العمل وسيلة لتحقيق الإستقلال الذاتي وتعزيز الشخصية ، وعاملاً مهماً يُغني الإنسان عن الناس ويحقق له عزته الاجتماعية .

عن زُرارة عن الإمام الصادق عليه السلام : أَنَّ رَجُلًا أَتَاهُ فَقَالَ : إِنَّنِي لَا أَحْسِنُ أَنْ أَعْمَلَ عَمَلًا بِيَدِي وَلَا أَحْسِنُ أَنْ أَتَجَرَ وَأَنَا مُحَارَفٌ مُحْتَاجٌ ، فَقَالَ عليه السلام :

(١) ماذا أعرف ؟ ، البلوغ ، ص ٧٨ .

إِعْمَلْ وَاحْمِلْ عَلَى رَأْسِكَ وَاسْتَعْنِ عَنِ النَّاسِ (١) .

وَرُوِيَ عَنِ الْعَالِمِ الْإِمَامِ مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ : الْيَأْسُ مِمَّا فِي
أَيْدِي النَّاسِ عِزُّ الْمُؤْمِنِ فِي دِينِهِ وَرُؤُوتُهُ فِي نَفْسِهِ ، وَشَرَفُهُ فِي دُنْيَاهُ ، وَعَظَمَتُهُ
فِي أَعْيُنِ النَّاسِ ، وَجَلَالَتُهُ فِي عَشِيرَتِهِ ، وَمَهَابَتُهُ عِنْدَ عِيَالِهِ ، وَهُوَ أَعْنَى النَّاسِ
عِنْدَ نَفْسِهِ وَعِنْدَ جَمِيعِ النَّاسِ (٢) .

الأعمال المشروعة :

وهنا لا بد من القول إن تشجيع الأئمة الأطهار عليهم السلام على العمل والكد
والمثابرة ، ينحصر طبعاً بالأعمال المشروعة والمفيدة التي يُراعى فيها خير الأمة
وصلاحها . لأن الأعمال التي تضرُّ أرواح الناس وكرامتهم وتهتدّد الأخلاق
العامة وتتنافى والعزّة والكرامة الإنسانية ، لا يمكنها أبداً أن تبعث على الفخر
والاعتزاز .

فالذي يحصل على قوته من الرشوة أو عن طريق التملق أو عن طريق الزنا
واللواط أو إنشاء مراكز للفساد والدعارة أو عن طريق مراكز القمار والمشروبات
الكحولية التي هي سبب بؤس وتعاسة الكثير من الناس ، أو عن طريق تحقيق
أرباح ومكاسب غير مشروعة ، مثل هذا الإنسان لا يمكن أن يكون ذا شخصية
شريفة ، لأن أعماله الرذيلة تحطّ من مكانته وتحطّم شخصيته وتمنحه شرّاً
الصفات .

العمل والأخلاق :

«يقول «ديموستن» الأديب اليوناني الشهير في حديث له حول كيفية
مقاومة فيليب : اعتقد أن الإنسان الذي يعمل عملاً رذيلًا لا يمكنه
أن يكون نجيباً أو أن يحظى بمعنويات عالية . فمهما كان نوع

(١) المحجة البيضاء ، ٣ ، ص ١٤٣ .

(٢) سفينة البحار ، «غنى» ، ص ٣٢٧ .

عمل الإنسان فإن أخلاقه تصبح متناسقة معه . إن هذه النظرية النفسية صحيحة تماماً وتبين لنا بوضوح ما هي الاجراءات التي يجب أن تتخذ بشأن النظم الاقتصادي الحالي» .

«إن نشاط الفرد له نفوذه القوي وتأثيراته المختلفة على مبادئه الأخلاقية ، وتولد أعماله عادات منتخبة وخاصة ، وتبين بوضوح الأشياء التي سيتجاهلها . إن عمل الإنسان وتكرار بعض الأعمال المحددة والاختبارات الواضحة ، كل ذلك يشكل عادات ذلك الإنسان وسلوكه ويقود طموحاته ويبيّن أي الأشخاص يتخذهم أصدقاء له وأيّهم أعداء» .

ولهذا فإن «ديموستن» عندما قال : إن الإنسان الذي يعمل عملاً رذيلاً لا يمكنه أن يكون نجيباً أو أن يحظى بمعنويات عالية ، لم يقلها اعتباطاً لترطيب أسماع أنصاره فقط ، بل إنه تحدّث عن كيفية تأثير عمل الإنسان على أخلاقه ، لأن خزانة أموالك أينما تكون يكون قلبك ويكون فكرك ونشاطك وإرادتك . ولما كان نشاط الفرد وعمله يبعث على غروره ، فإنه وبطبيعة الحال لا يستطيع مواسة الآخرين . وإذا كان علم التحليل النفسي يحتوي على قوانين عامة فهذا واحد من تلك القوانين»^(١) .

وباختصار فإن عمل كل امرئ يعتبر من جهة مصدر رزقه وتأمين متطلبات حياته ، ومن جهة أخرى باني شخصيته الاجتماعية وصفاته الأخلاقية . ومع الأخذ بعين الاعتبار اختلاف المشاغل والأعمال من ناحية القيمة المعنوية والاجتماعية ، وأن كل عمل يستلزم بالضرورة الارتباط بفتة معينة من الناس والتحلي بصفات خاصة ، ما علينا إلا أن نقول إن عمل أي إنسان يترك أثره العميق على شخصيته ، ويبني صفاته الأخلاقية حسبما يقتضيه عمله .

(١) العقل الكامل ، ص ١٦٨

وإن تأثير الطبقة الاجتماعية واسع جداً ، وهو يعكس على الحياة الاجتماعية من مختلف الجهات ، ويترك بصماته على شخصية الإنسان . فالعمل الذي يختاره الإنسان لا بد وأن يحدث عاجلاً أم آجلاً بعض التغييرات في شخصيته . فالمعلم أو القاضي أو رجل الدين تتكون شخصيتهم بمقتضى عملهم وتصبح مختلفة تماماً عن شخصية الممثل أو الضابط أو الجِرْفِي . وهكذا فإن الشخص ينتسب إلى الحزب أو الجمعية التي تتناسب ووضع الطَّبَقِي ، وهذا الحزب أو الجمعية من شأنهما أن يتركاً أثراً على شخصية المنتسب . ومن المسلم به أن شروط الإنتساب إلى الحزب الشيوعي تختلف عن شروط الإنتساب إلى المنظمة الماسونية السياسية أو مجموعة «كوكلاكس كلان» الرجعية^(١) .

العمل ولقمة العيش :

ثمة مسألة مهمة حول العمل من أجل اكتساب المال أشارت إليها الروايات الاسلامية واستأثرت باهتمام علماء عصرنا هذا ، وهي إن كان الدافع للعمل وكسب المال هو تأمين لقمة العيش والنهوض بالمستوى المعيشي للأسرة والعيال ، فإن هذا العمل يكون مقدساً ، والمال الذي يحصل عليه الإنسان من ورائته يكون مالاً حلالاً طيباً ، وصاحبه مكرماً معززاً .

أما إذا كان الدافع اكتناز المال من أجل منافسة الآخرين والتباهي بضخامة الثروة ، فإن مثل هذا العمل يفقد قدسيته ، والمال المتأتي منه يفقد طيبه ولذته ، وصاحبه ينحرف عن صراط الفضيلة والأخلاق باتجاه الحرص والطمع .

دوافع العمل :

كان الرسول الأكرم ﷺ جالساً مع أصحابه ذات يوم فنظر إلى شاب

(١) مبادئ علم الاجتماع ، ص ١٩٠ .

ذِي جَلَدٍ وَقُوَّةٍ وَقَدْ بَكَرَ يَسْعَى ، فَقَالُوا : وَبِحَ هَذَا لَوْ كَانَ شَبَابُهُ وَجَلَدُهُ فِي سَبِيلِ
 اللَّهِ ، فَقَالَ ﷺ : لَا تَقُولُوا هَذَا ، فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ يَسْعَى عَلَى نَفْسِهِ لِيَكْفِهَا عَنِ
 الْمَسْئَلَةِ وَيُغْنِيهَا عَنِ النَّاسِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَإِنْ كَانَ يَسْعَى عَلَى ابْتَوَيْنِ
 ضَعِيفَيْنِ أَوْ ذُرِّيَّةٍ ضِعَافاً لِيُغْنِيَهُمْ وَيَكْفِيَهُمْ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَإِنْ كَانَ يَسْعَى
 تَفَاخُراً وَتَكَاثُراً فَهُوَ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ (١) .

وقال رجل لأبي عبد الله الإمام الصادق عليه السلام : وَاللَّهِ إِنَّا لَنَطْلُبُ الدُّنْيَا
 وَنُحِبُّ أَنْ نُؤْتَاهَا ، فَقَالَ عليه السلام : نُحِبُّ أَنْ تَصْنَعَ بِهَا مَاذَا ؟ ، قَالَ : أَعُودُ بِهَا
 عَلَى نَفْسِي وَعِيَالِي وَأَجِلُّ بِهَا وَأَتَصَدَّقُ بِهَا وَأَحْجُ وَأَعْتِمِرُ ، فَقَالَ عليه السلام : لَيْسَ
 هَذَا طَلَبَ الدُّنْيَا ، هَذَا طَلَبُ الْآخِرَةِ (٢) .

وعن عمرو بن جميع قال : سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ الْإِمَامَ الصَّادِقَ عليه السلام يَقُولُ :
 لَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يُحِبُّ جَمْعَ الْمَالِ مِنْ حَلَالٍ يَكْفُ بِهِ وَجْهَهُ وَيَقْضِي بِهِ
 دَيْنَهُ وَيَصِلُ بِهِ رَجْمَهُ (٣) .

من خلال الأحاديث والروايات الأنفة الذكر نستشف أن سعي كل إنسان إذا
 كان بهدف تأمين لقمة عيشه وتحسين وضع أسرته المعيشي ومساعدة الآخرين
 بما زاد عن ذلك ، فهو سعي مقدس يرضي الله ورسوله . أما إذا كان الهدف
 منه اكتناز المال وجمع ثروة يتباهى بها أمام الآخرين ويفتخر بمنافستهم ، فإنه
 سعي مذموم ، وهو كما وصفه الرسول الأكرم ﷺ سعي في سبيل الشيطان لا
 يرضي الله . وهذا الموضوع بات بعد أربعة عشر قرناً يستأثر باهتمام العلماء
 والمفكرين كأساس للاقتصاد السليم .

«يقول «اور استريت» وهو أستاذ في الجامعات الأمريكية : أينما
 يجري الحديث عن النظم الاقتصادي يقول انصاره إن النظم

(١) المحجة البيضاء ٣ ، ص ١٤٠ .

(٢ و ٣) الكافي ٥ ، ص ٧٢ .

المذكور يساهم في رفع المستوى المادي للحياة في كل البلدان التي تم فيها تطبيق هذا النظم . إن ذكر هذه المسألة يولد في ذهننا فكرة مفادها أن الهدف الأساس من وراء سعي الإنسان في الدول الرأسمالية الصناعية هو الارتقاء بمستوى المعيشة» .

«لو كان الأمر كذلك حقاً لكان بمقدورنا أن نقول إن الرأسمالية تستطيع أن تعتبر نفسها عنصراً مهماً في طريق التكامل النفسي الإنساني ، وتدعو البشرية إلى تحمّل مسؤولياتها الخلّاقة ، وتستخدم قوة تصورها لفهم احتياجات الشعوب الأخرى ، وتعتبر الإنسان عنصراً متكاملأً أو جزءاً في كلِّ متكامل - والكّل هنا معناه البشرية - . ولكن الحقيقة شيء آخر ، فرفع المستوى المعيشي لم يكن في الحقيقة أساس العمل ، بل كان يعتبر أمراً ثانوياً ليس إلاً ، والهدف الرئيسي من العمل الأساسي لم يكن سوى الحصول على المال ، وأينما برزتناقض بين هدف الحصول على المال وهدف رفع المستوى المعيشي ، وحصلت منافسة بينهما تغلب الأول على الثاني» .

«يمكننا أن نتطرق إلى مسألة المنازل السكنية كدليل ونموذج في الوقت ذاته عمّا أشرنا إليه أعلاه ، فلو كان الهدف الأساس لسماسة المنازل السكنية وشركات المقاولات إعداد وبناء أفضل وأجود المنازل والمباني في أقصر مدة ممكنة بحيث يستطيع الرجل الانتفاع منها وتأمين منزل يأويه وأسرته بتسهيلات مغرية ، هل كانت تسعى شركات المقاولات الهندسية إلى استئجار عدد من المحامين بمبالغ طائلة ليعلنوها حرباً ضد المشاريع السكنية الرخيصة الثمن» ؟ .

«ويعتبر ساذجاً من يتصور أن هدف رؤساء الاتحادات الحرفية وأعضاء مجالس إدارة نقابات الصلب والفحم والنيسيج والمحامين أو السماسرة حتى ، هو رفع المستوى المعيشي للناس ، ومسألة الحصول على المال ليست سوى مسألة ثانوية بالنسبة لهم» .

«وثمة وثائق كثيرة يمكن جمعها بسهولة تثبت أن الهدف الأساس للرأسمالية الصناعية هو الحصول على المال . ويمكننا أن نشير على سبيل المثال إلى مسألة استغلال النساء والأطفال في المصانع والمعامل التي يسعى أصحابها إلى إفشال وإلغاء كل القوانين التي تضمن حقوق العاملين لديهم ، ولا بد أن نذكر هنا أن أصحاب هذه المصانع والمعامل قد عملوا ما بوسعهم للحيلولة دون المصادقة على قوانين تصب في مصلحة العامل»^(١) .

«لقد جلب النظام الرأسمالي لا سيما في عصرنا الحاضر الكثير من المشاكل والويلات للناس . فغالبية المشاكل التي تعاني منها الشعوب من فقر وبطالة وانتحار وطلاق وبيع الهوى والاتجار بالبشر والاستغلال وحتى الاستعمار والحروب العالمية ، هي من مخلفات النظام الرأسمالي» .

«وفي عصرنا الحاضر ثمة أخطار محدقة واجهت الرأسمالية أهمها اتساع الهوة بين الطبقات الاجتماعية وتساعد أزمة التجارة أو الأزمة الاقتصادية»^(٢) .

وفي عالمنا اليوم باتت مسألة البحث عن عمل وتأمين لقمة العيش وتكيف وانسجام الفرد مع الحياة الصناعية الآلية تشكل أهم القضايا الاجتماعية . وهنا

(١) العقل الكامل ، ص ١٦٩ .

(٢) مبادئ علم الاجتماع ، ص ٢٨٨ .

ستحدث باختصار عن بعض المشاكل التي تعترض الشاب في بحثه عن عمل وشروط تكيفه مع الوضع الحالي .

تقسيم العمل :

منذ قرون عديدة والعلماء والفلاسفة يشبهون المجتمع بالإنسان ويذكرون العشرات من أوجه الشبه بينهما ، منها أن الأعمال مقسمة في جسم الإنسان ، ولكل عضو يتألف من مجموعة خلايا معينة عمله الخاص به . وفي المجتمع يجب أن يتم تقسيم العمل ، وكل فئة تتحمل مسؤولية عمل معين . ونعود ثانية إلى جسم الإنسان ، فمجموعة الخلايا الخاصة بكل عضو تليق بطبيعة تركيبها بالعمل الموكل إليها .

والفئة الاجتماعية ينبغي أيضاً أن تليق بطبيعة استعداداتها وتركيبها العقلية والجسمانية بالعمل الموكل إليها .

فكلمة عضو تطلق بالتساوي على كافة أعضاء جسم الإنسان ، رغم الاختلاف القائم بين مجموعة الخلايا الخاصة بكل عضو وسائر المجموعات الخلية الأخرى .

«عندما تخضع أنواع مختلفة من الخلايا لتربية داخل المختبرات ، تظهر مميزاتها بوضوح كسائر الفضائل الميكروبية والجرثومية . فلكل مجموعة من الخلايا صفات خاصة تحتفظ بها لسنين طويلة حتى وإن تم فصلها عن جسم الإنسان . وتتميز أنواع الخلايا بطريقتها في الحركة وكيفية اتحادها ودرجة نموها والمواد التي ترشح عنها والغذاء الذي تحتاجه وكذلك بشكلها الظاهري»^(١) .

الناس والخصائص الموروثة :

وكلمة عضو تطلق أيضاً على أفراد مختلف طبقات المجتمع ، وكلمة

(١) الإنسان ذلك المجهول ، ص ٦٩ .

إنسان تطلق على كافة أفراد المجتمع الذين يمثلون مجموعة خلوية في جسم المجتمع ، ولكل منهم احترامه وحقوقه الإجتماعية ، إلا أنهم لا يتساوون في تركيبته الطبيعية وصفاتهم الذاتية وخصائصهم الموروثة .

عن أبي عبد الله الإمام الصادق عليه السلام : النَّاسُ مَعَادِنٌ كَمَعَادِنِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ^(١) .

لقد بيّن الإمام الصادق عليه السلام في هذا الحديث أوجه الشبه والاختلاف بين البشر بكلمة «معدن» .

فالكل يعلم أن ثمة اختلاف بين صفات وخصائص مختلف أنواع المعادن كالذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص وغيرها من المعادن ، ولكنها جميعها تسمى بالمعادن ، ولكل منها لزمه وضرورته .

«يختلف الأفراد باختلاف أعمارهم وجنسهم وعاداتهم الجسمية والنفسية . فالبعض يستطيع أداء نوع من الأعمال يعجز الآخرون عن أدائه إما لأنهم أقل ذكاءً أو لجهلهم وضعفهم . فالبعض مخلوق ليقوم بأعمال فكرية والبعض الآخر مخلوق ليقوم بأعمال عادية ، كما أن هناك فئة تتمتع بموهبة فطرية وهي موهبة القيادة ، بينما تعجز فئة أخرى عن إدارة نفسها» .

الحقوق والمجتمع :

«إن المجموعة العضوية في المجتمع لا تكون مفيدة ونافعة إلا إذا تعاونت مع مجموعة عضوية أخرى على إيجاد مجتمع متعادل متكافئ . وكل مجموعة عضوية تنمو على الغرور والأنانية يكون فعلها بالمجتمع كفعل داء السرطان في جسم الإنسان» .

«إن أفراد المجموعات العضوية يتساوون من حيث إنسانيتهم ، إلا أنهم يختلفون فيما بينهم من حيث الامكانيات الوراثية والعادات والسّن والجنس والقيمة الفيزيولوجية والأخلاقية والفكرية . مع هذا لا يعتبر الاختلاف في الاستيعاب على المستوى الفردي والإجتماعي دليلاً على اختلاف الكرامة . فالمعدة والمخرج كلاهما ضروريان للجسم تماماً كضرورة المخ والعين وكل الأعضاء مرتبط بالقلب ، والقلب بدوره مرتبط بها جميعاً . فالعامل يخدم رب العمل ، ورب العمل يخدم العامل ، ولا يحظى عمل بسيط في مجموعة متكاملة بأهمية أقل من العمل الشاق والخطير ، فنجاح أية رحلة جوية يكون للمهندس والكادر الفني نصيب فيه ليس أقل من نصيب الطيار»^(١) .

التفاوت بين الناس :

إن الاختلاف والتفاوت في التركيبة الطبيعية لخلايا جسم الإنسان إنما هو قائم بحكمة إلهية للقيام بأعمال مختلفة حفاظاً على حياة الفرد .

والتفاوت القائم في التركيبة الطبيعية للأفراد جاء بحكمة ومصلحة لتسيير مختلف الأعمال حفاظاً على الحياة الاجتماعية . فالمجتمع الذي يريد أن يبقى حياً ويحيا حياة تليق به ، عليه أن يتقاد لقانون الخلقة ويقف إلى جانب التفاوت بين تركيبة الأفراد ويستفاد من هذا التفاوت في شتى الأعمال الاجتماعية .

قال أمير المؤمنين عليه السلام : لا يزال الناس بخير ما تفاوتوا ، فإذا استوتوا هلكوا^(٢) .

«يقول الدكتور «كارل» : إذا اهتم المجتمع بشخصية الأفراد فإنه

(١) سبل الحياة ، ص ١٤٩ ، ١٥٠ .

(٢) بحار الأنوار ، ١٧ ، ص ١٠١ .

سيقتنع بالإجبار بعدم المساواة بينهم . فكل فرد ينبغي أن يُستخدم وفقاً لمميزاته الفردية ، لأن سعادة الفرد تكمن في الانسجام فيما بينه ونوع العمل المناط به . ونحن بسعينا للمساواة بين الأفراد نكون قد قضينا على هذه المميزات التي لها أهمية بالغة . وفي مجتمعاتنا اليوم يمكن الحصول على أعمال متفاوتة كثيرة ، لذا علينا أن نقنع أنفسنا بأن هناك تفاوتاً بين أبناء البشر بدل أن نسعى لتحقيق المساواة بينهم ، وأن نسعى إلى تنمية هذه القناعة عن طريق التربية والتعليم»^(١) .

العمل على أساس الإستعداد الفطري :

مع الأخذ بنظر الاعتبار التفاوت في التركيب الطبيعي والاستعدادات الفطرية للبشر في حسن أداء الأعمال ، فإن أول ما ينبغي على الشاب أن يلتفت إليه في اختياره لنوع العمل الذي ينوي الشروع فيه ، التعرف قدر استطاعته على استعداده الفطري وتركيبته الطبيعية ، ليعرف نوع العمل الذي بمقدوره أن يؤديه بكفاءة ، ويختار العمل الذي يتوافق ولياقته الطبيعية .

«الكل يجمع على الاعتقاد القائل بأن الاستعدادات والكفاءات تظهر وتتميز بسرعة بعد مرحلة البلوغ . وهناك استعدادات تظهر قبل أوانها . ففي البداية تبرز الكفاءة الميكانيكية التي تظهر بواسطة المهارة الفنية ، ثم يتضح الاستعداد للرسم وبعده الاستعداد للرياضيات ، أما الاستعداد الأدبي والعلمي فلن يبرز قبل سن السادسة عشرة أو السابعة عشرة» .

(١) الإنسان ذلك المجهول ، ص ٣٠٥ .

تشخيص الاستعدادات :

«لكي يتمكن الشباب من اختيار أعمال تنسجم واستعداداتهم الحقيقية ، لا بد من توجيههم نحو أعمال معينة . وهذه المسألة مفيدة جداً لا سيما لأولئك الذين يرغبون في اختيار عمل بأقصى سرعة . ونتيجة هذه التوجيهات نحو الأعمال اليدوية واضحة تماماً ، لأن الاختبارات التي تسبقها والتي تكون دافعاً نحو الأعمال لها دورها الهام في هذا المجال . أما في الحالات الممتازة فإن هذه الاختبارات ليست كافية ، لأن تحديد الاستعداد الذي يتم بهذه الطريقة لن يكون قطعياً ، بل يأتي على شكل احتمالات معينة . ومن هنا يتوجب الاعتماد على أمور أخرى في توجيه الشباب نحو العمل ، مثل الفحص الطبي والنتائج الدراسية وتمنياتهم وأمنيات ذويهم ، كما يجب عدم الخلط بين ذوق العمال واستعداداتهم ، ذلك أن الإنسان غالباً ما يحب عملاً معيناً في البداية ، لكن استعداده في ذلك العمل لن يتعدى الحد المتوسط» .

«إن موجّهات الاستعداد التي اخترعها الأمريكيون تعمل بشكل دقيق وفعال ، فهي تنصح ابن رئيس أحد المصارف أو أحد المسؤولين البارزين في الحكومة الذي يكون قليل الاستعداد لكنه فالح في الأعمال اليدوية ، تنصحه بأن يختار مهنة الطهي أو الزراعة ، لكنها في الوقت ذاته تؤكد أن الأسر لا يسرها ذلك ولا تبدي أي استعداد للتعاون في هذا المجال»^(١) .

رغم أن الإنسان لم يستطع حتى الآن تقييم استعداد الأفراد الحقيقي

(١) ماذا أعرف ؟ ، البلوغ ، ص ١٠٢ و ١٠٤ .

وتوجيههم نحو الأعمال والمهن التي يتألقون فيها ويبرزون كفاءتهم من خلالها ، رغم كل الوسائل المخبرية والعلمية التي استخدمها ، إلا أن هذا الأمر ليس صعباً ، لا سيما وأن هناك في كل مجتمع الكثير من العلماء والمربين الأكفاء الذين يستطيعون من خلال طرح مجموعة من الأسئلة العلمية وإجراء اختبارات محدّدة ، تحديد قدرات الأفراد واستعداداتهم . فإذا ما رجع إليهم الشباب لمعرفة درجة استعداداتهم وأجابوا على أسئلتهم إجابات صحيحة ، فإنهم يستطيعون بمساعدتهم إختيار المهنة أو الحقل الدراسي المناسب الذي يتمكّنون من الابداع فيه وبالتالي تحقيق النجاح المطلوب .

تحديد الإستعداد الخاص :

«يستطيع كل كائن أداء آلاف الأعمال والأشغال ، لكنه يبدو في بعضها ضعيفاً ، وفي بعضها الآخر معتدلاً ، ويكون في عدد منها مقتدراً ومستعداً . ولكن لا يتساوى اثنان في القدرة والاستعداد . فإذا ما لاحظت أن الطالب الفلاحي أكثر منك ذكاءً ولا يمكنك اللحاق به مهما درست وجهدت ، لا تتصوّر أنه أفضل منك في أداء جميع الأعمال ، واعلم أنه لا بد أن يكون في أعماقك استعداد خاص يفقده زميلك هذا . عليك أن تبحث وتفتش لتجد وتكتشف ما في أعماقك من استعداد ، لأن مستقبلك وسعادتك مرتبطان بنجاحك في اكتشاف موهبتك واستعدادك ، ومدى سعيك لتنميتها أو احباطها»^(١) .

قال رسول الله ﷺ : **إِعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ**^(٢) .

إن مسألة العلاقة والرغبة في العمل تعتبر ركناً من أركان النجاح ، شأنها

(١) البهجة ، ص ٩١ .

(٢) سفينة البحار ، ديسره ، ص ٧٣٢ .

شأن الكفاءة والاستعداد الطبيعي . فالشاب الذي يكون بطبيعته كفوؤً في عمل معين لكنه يفتقد لأي رغبة تجاه هذا العمل نتيجة تأثره ببيئته الحياتية وظروفه الأسرية أو أي سبب آخر ، إذا ما أقدم على ذلك العمل لن يكون بمقدوره تحقيق تقدّم ونجاح يذكر .

الرغبة واختيار العمل :

«لا بد من الأخذ بعين الاعتبار عامل الذوق العاطفي في اختيار المهنة أو العمل ، لأن الاستعداد وحده لا يمكن أن يؤدي إلى نتيجة كاملة من دون الرغبة الطبيعية ، فقد يترك شخص ما عمله لأنه لا يحبه ، ويصبح ضعيف الرأي والإرادة»^(١) .

«قبل اختيار العمل لا بد من النظر إلى الرغبة في ذلك العمل ، لأن العمل غير المرغوب فيه لا يُنفذ جيداً ولن يجلب للإنسان النجاح والسعادة . أما الإنسان الذي يحب عمله فإنه يبدع فيه وينجح ، ويستطيع أن ينسجم مع زملائه ومسؤوليه انسجاماً كاملاً ، كما أن بمقدوره تذليل العقبات التي قد تعترضه في عمله مهما كانت قوية»^(٢) .

وبخلاصة فإن التقدّم والنجاح في أي عمل يتطلبان اللياقة والكفاءة الطبيعية والاندفاع العاطفي نحوه ، وهذان الشرطان مكملان لبعضهما البعض ، ويفقدان أي منهما لن يستطيع الإنسان بلوغ النتيجة المرجوة مهما جهد وسعى .

البعض من الشباب يصاب بالأوهام في اختيار العمل أو الحقل الدراسي ، ويقدم على عمل معين أو مجال دراسي محدّد لمجرد رغبة يشعر بها في نفسه دون أن يتطلّع إلى كفاءته واستعداده الطبيعي ، ويكون مثل هؤلاء

(١) ماذا أعرف ؟ ، البلوغ ، ص ١٠٥ .

(٢) البهجة ، ص ١٧٧ .

الشباب قد ساهموا في هدر سنين طويلة من أعمارهم دون فائدة تذكر ، أما إذا انتبهوا لأخطائهم وحاولوا أن يتداركوها ويعودوا ليعملوا في المجال الذي يرون أنفسهم جديرين به ، فقد يتمكنون من تعويض الأضرار التي لحقت بهم نتيجة تسرعهم في اختيار العمل أو الحقل الدراسي ، وبالتالي يحققون النجاح المطلوب . أما إذا استمروا على أخطائهم فإنهم سيجبرون بعد فترة وجيزة على ترك أعمالهم وتقبل الهزيمة والفشل .

العمل ومعيار النوق والإستعداد :

«إذا كانت فينا رغبة تجاه عمل معين نفتقر إلى الإبداع والمهارة فيه ، علينا أن نطفيء نار هذه الرغبة في نفوسنا ، لأننا لن نبلغ النتيجة التي نريد مهما كرّسنا طاقاتنا وجهودنا لهذا العمل . والإنسان السعيد هو ذاك الذي يجعل استعداده وموهبته أساس عمله ومهنته»^(١) .

«إن الإنسان الذي يصمّم بحرية وبعد تشخيص عقلائي على ترك عمله لأنه لا يتطابق واستعداده وذوقه ، هو إنسان بالغ ناضج فكرياً وله قدرة على التمييز . أما ذاك الذي يترك عمله نتيجة الفشل دون أن يلتفت إلى الحقيقة ، فهو إنسان يفتقر إلى النضج الفكري»^(٢) .

وبغض النظر عن الاستعداد الطبيعي والرغبة العاطفية ، ثمة فئة من الشباب لها وضع استثنائي ، وهذه الفئة تتمتع بصفات خاصة من حيث الميول النفسية أو النبوغ الفطري أو التكوين الجسماني ، وهذه الصفات لها بالغ الأثر في سعادتها أو تعاستها وتبديل أوضاع حياتها .

(١) نفس المصدر ، ص ١٧٨ .

(٢) سلامة الروح ، ص ٢٨ .

وينبغي على مربِّي وموجهي هؤلاء الشباب أن يلتفتوا إلى هذه الصفات المميزة والخاصة لدى دراسة الاستعداد الفطري والرغبة العاطفية لديهم ، ويحدّدوا المهن المناسبة لهم على أساس تلك الصفات الاستثنائية .

«مثلاً يستطيع إنسان يميل إلى إلحاق الأذى بالناس (سادي) إشباع هذا الميل بطرق مختلفة حسب مستواه الثقافي وظروف حياته . بمعنى أنه يختار مهنة الجزارة إذا كان مستواه العلمي متدنياً ، ويعمل في حقل الجراحة إذا كان مستواه العلمي عالياً ، وعبر كلا المهنتين يستطيع إلحاق الأذى بالناس إرضاءً لميوله ورغباته»^(١) .

وبالرغم من أن قضية الكفاءة والصلاحية لتحمل المسؤولية كانت وما تزال موضع اهتمام علماء البشر وحكماهم ، إلا أن هذا المبدأ بات يحظى في دنيا العلم والصناعة اليوم بأهمية أكبر من ذي قبل ، بحيث أصبح شرطاً من شروط الموفّقة والنجاح في أكثر الأعمال تعقيداً في عالمنا المتطوّر .

ففي الماضي القريب والبعيد حيث كان الاقتصاد يعتمد على الزراعة ، لم يكن هناك ضرورة قصوى لتحديد الاستعدادات الطبيعية لدى الشباب لاختيار العمل أو المهنة التي تناسبهم ، لأن غالبية الأعمال في تلك الأزمنة كانت بسيطة جداً بحيث لم يكن من الصعب على الشباب مهما اختلفت درجات ذكائهم واستعداداتهم تعلّمها واتقانها ، باستثناء بعض الأعمال التي كانت تحتاج إلى استعداد طبيعي وكفاءة فطرية .

أما في عالمنا الحاضر حيث تدور العجلة الاقتصادية على تقدم الصناعة وتطوّر التكنولوجيا ، وحيث توصل فيه الإنسان بقدرة العقل والذكاء وفي ظل العلوم والتكنولوجيا إلى المثات من الاكتشافات والاختراعات الصناعية ، التي

(١) أفكار فرويد ، ص ٥٨ .

أصبح كلُّ منها مورد رزق لآلاف من شعوب العالم ، فإن قضية تحديد الاستعداد الطبيعي والصلاحية الفطرية لدى الشباب ، باتت على قدر كبير من الأهمية ، وذات دور مؤثر في مجال اختيار العمل والمهنة .

وينبغي على الشاب الذي يرغب في الحصول على موطىء قدم له في العالم الصناعي الآلي للتكيف مع الحياة الآلية ، أن يعلم قبل كل شيء في أي من الحقول يستطيع أن يبرز جدارته ، وأي عمل بمقدوره أن يقوم به على أفضل وجه ، ومن ثم يجب عليه أن يجمع المعلومات الكافية حول العمل الذي يريد أن ينجح فيه ، ثم يقدم على ذلك العمل بسلاح قويٍّ يضمن له الموفقية والنجاح في العمل والسعادة في الحياة .

العمل وشروط النجاح :

ولا يخفى على أحد أن مجرد جمع المعلومات حول العمل المنشود أو الحقل الدراسي المراد الخوض فيه لا يكفي لتحقيق النجاح ، بل يلزم إلى جانب ذلك توفر الكفاءة الأخلاقية وحسن التوافق الاجتماعي .

عن أبي عبد الله الإمام الصادق عليه السلام : كُلُّ ذِي صِنَاعَةٍ مُضْطَرٌّ إِلَى ثَلَاثٍ خِلَالَ يَجْتَلِبُ بِهَا الْكَسْبَ وَهُوَ أَنْ يَكُونَ حَاذِقًا يَعْلَمُ مُؤَدِّيًّا لِأَمَانَةٍ فِيهِ مُسْتَمِيلًا لِمَنْ اسْتَعْمَلَهُ (١) .

وفي عالم الزراعة بالأمس سرعان ما كان يحصل الشاب على استقلاله الاقتصادي وعلى عمل يؤمن من خلاله لقمة العيش ، لأن التقاليد والعادات التي كانت سائدة آنذاك كانت تقتضي بأن يلازم الفنّي قبل بلوغه أباه ويذهب معه إلى الحقل ليعمل في الزراعة ، كما أن الشاب في تلك الدورة كان يعرف الكثير من فنون الزراعة ، ولم يكن يكلفه تعلّم ما لم يكن يعرفه في هذا المجال درهماً واحداً .

(١) بحار الأنوار ١٧ ، ص ١٨٢ .

«إن الإنسان في المزرعة كان ينضج من حيث الجسم والعقل أسرع من غيره ، وكان يدرك مسؤوليات الحياة وهو في العشرين من عمره مثلما يدركها الإنسان العادي في الأربعين من العمر ، وكان كل ما يحتاج إليه في عمله محراثاً وساعداً قوياً وعيناً يراقب بها تقلبات الطقس»^(١) .

الزراعة والإقتصاد :

كانت مسألة التجارة والصناعة خلال الفترة الزراعية بدائية وسطحية ، لأن التجارة آنذاك لم تشهد سوى تبادل لكميات محدودة من البضائع والصناعات اليدوية كان يقوم به عدد من التجار والكسبة في حدود مناطق عملهم ، ولم تكن المنتجات الصناعية تزيد عن بضغ آلات زراعية بدائية ومواد بناء وأسلحة وأدوات منزلية بسيطة .

وطبيعي أن تعلم فنون الصناعة وأسرار التجارة في تلك الفترة لم يكن بحاجة إلى استعداد جيد ودراسة متقدمة ، وهذا ما جعل أبناء التجار والصناعيين قادرين على مواكبة آباؤهم في العمل والحصول على الاستقلال الذاتي سريعاً ، كما هو الحال بالنسبة لأبناء القرويين المزارعين .

وفي عصرنا الحاضر حيث يقوم أهم أركان اقتصاده على الصناعات الثقيلة ، لا يمكن المقارنة بين الوضع الحالي والوضع السابق للتغير الجذري الذي طرأ على ظروف الحياة . فالظاهرة الصناعية التي تمثل أساس عمل الإنسان اليوم جاءت نتيجة الإبداع الفكري والحسابات الدقيقة لعدد من علماء أمس واليوم ، فقد نجح هؤلاء العلماء بشروطهم العلمية وتجاربيهم المستمرة ، في تحقيق اكتشافات واختراعات عظيمة ساهمت في تغيير وجه الحياة على الكرة الأرضية ، ولا تزال هذه النشاطات والدراسات والأبحاث العلمية مستمرة

على قدم وساق ، لتقدم إلى العالم كل يوم اكتشافات واختراعات جديدة .

العمل في ظل العالم الصناعي :

ينبغي على الشاب الذي يرغب في التكيف مع العالم الصناعي ويتمتع بمزاياه الحياتية أن يطوي مراحل عديدة للحصول على العمل وبلوغ الاستقلال الاقتصادي ، وأن يواجه كل العقبات التي تعترضه في هذا المجال ، كما يتوجب عليه أن يرفع من مستواه العلمي وينمي قوة إدراكه عن طريق تلقي الدروس العلمية والتمارين العملية ، وأن يختار حقلاً مناسباً يتلائم واستعداده الطبيعي ليتخصص فيه ويصبح عضواً فاعلاً ومفيداً في مجتمعه ، وبحيا حياة شريفة كريمة . وليعلم أن القيام بأعمال علمية كبيرة إلى جانب استعداده الطبيعي يحتاج إلى الكثير من الوقت والسعي والمثابرة .

مشاكل العمل في الإقتصاد الصناعي :

«يقول «ويل ديورانت» : كان لانتقال الإنسان من الزراعة إلى الصناعة أثره على الحياة العامة للإنسان ، وجاء الإستقلال الاقتصادي للفرد متأخراً تماماً كبلوغه وتفتح ذهنه . ففي طبقة عمال الصناعات اليدوية لم يستطع غير الشبان الذين تبلغ أعمارهم الواحد والعشرين عاماً تأمين لقمة العيش والزواج - أماسن العمل والاكفاء الذاتي في الطبقات الراقية فيرتفع بارتفاع شأن هذه الطبقات ورفاهيتها . وبات تأخر النمو الاقتصادي في المشاغل والأعمال الأكثر أهمية في ازدياد مضطرد . وأصبحت الآلاف من العوامل الجديدة تشكل عقبة في تسلط الفرد على الصناعة والاقتصاد»^(١) .

يحتاج الإنسان للقيام ببعض الأعمال إلى دراسات عليا ومعلومات جمّة ،

وتتمة أعمال يستطيع الإنسان القيام بها وهو في المستوى الدراسي المتوسط ، بينما هناك أعمال وحرف يدوية لا يحتاج الإنسان إلى أي دراسة علمية للقيام بها ، وجميع هذه الأعمال لا تتساوى طبعاً من حيث القيمة العلمية والوزن الاجتماعي والمردود المادي ، ولكنها جميعها لها دور مؤثر في إدارة المجتمع ، ولا بد من احترامها حسب موقعها .

وإذا نظر الشاب القليل الاستعداد إلى واقعه وتعلّم مهنة متوسطة أو حرفة يدوية ثلاث سنوات استعداده وبدأ خدمته للمجتمع من خلال حسن أداء مهنته أو حرفته ، فإنه يحتل مكانة تليق به في مجتمعه وينجح في بلوغ استقلاله الاقتصادي .

العمل حسب المقدرة :

«حاول أن تختار عملاً دون تردد يكون بحجم مقدرتك واستعدادك ، فلو وجدت مهنة رديئة في العالم ، فهي تلك التي لا يقدر عليها صاحبها ، وإلا فإن أي عمل يتم بإبداع ومهارة من شأنه أن يبعث على الفخر والاعتزاز»^(١) .

ولشديد الأسف ، هناك الكثير من الشباب الذين يتمتعون باستعدادات ضعيفة ، ليسوا مستعدين للاعتراف بعجزهم الطبيعي ، وهم يأملون في الحصول على مراكز علمية كبيرة وأعمال اجتماعية مهمة لا يستطيعون أبداً القيام بها ، فيهدرون بذلك أعمارهم .

وللبعض من هؤلاء الشباب آباء أجلاء كبار ، فيحاولون التفاخر بمقام آبائهم دون أن يلتفتوا إلى ضعف استعداداتهم ، فيتوقعون الحصول على أعمال تضاهي أعمال آبائهم أو في مستواها على أقل تقدير ، ويرفضون كل عمل يتلائم واستعداداتهم .

والبعض منهم يصرّ على منافسة شباب العائلة والجيران والمدرسة ، ويتسائلون عمّا إذا كان ينقصهم عن هؤلاء شيء ؟ ، متغافلين عن أن هؤلاء لديهم استعداد طبيعي وذكاء فطري يدفعهم إلى الأمام عاماً بعد عام ، بينما هم يفتقرون إلى كل ذلك ، وهذا ما يجعلهم يراوحن مكانهم دون أي تقدم يذكر ، ومهما حاولوا لن يحصلوا على شيء ، لأن عليهم أن يبحثوا عن عمل يتناسب وطاقاتهم واستعداداتهم .

التصوّر الخاطيء :

لقد انبهر بعض الشباب بالتقدم العلمي والصناعي الحاصل في عالمنا اليوم ، وباتوا يتمنون لو أنهم يشاركون في عجلة هذا التقدم دون أدنى استعداد يمكنهم من القيام بذلك ، وهم يتصورون أن قبول أي من الأعمال الضرورية الأخرى المفيدة للمجتمع يؤدي بهم إلى الحطّة والحقارة .

وقد بلغ بهم الانهزام النفسي أمام التطور الصناعي العالمي والظواهر العلمية العظيمة حدّاً جعلهم يعتبرون أي فرد من أفراد أسرهم يعمل في مجال الزراعة وتربية المواشي والدواجن متخلّفاً وضيعاً ، ويشعرون في قرارة أنفسهم بالحقارة لصلتهم بهم ، وينكرون هذه الصّلة أمام أصدقائهم وزملائهم ، ويقدمون آباءهم أو أعمامهم إلى زملائهم أحياناً على أنهم ، طهاة أو فلاحون يعملون في منازلهم .

وهذه الفئة البائسة من الشباب لا يمكنها بلوغ مستويات علمية متقدمة وتحقّق أمانها لأنها تفترق للإستعداد المطلوب ، فهي غير مستعدة لقبول الأعمال التي تتطابق واستعدادها ، فتهدر عمرها وتعس نفسها ولا يبقى لها طريق للخلاص إلّا إذا عادت إلى صوابها وحاولت تدارك الأخطاء التي ارتكبتها بأسرع ما يمكن .

دليل النضج :

«إن دليل النضج والتمييز يكمن في أن يعرف الإنسان نفسه حقّ المعرفة ، وقيس استعداده وذوقه وقدرته بمقياس العقل ، ولا يجعل من إحياءات الآخرين حاكماً مطلقاً على نفسه دون تدقيق ، بمعنى أن يكون هادي نفسه ومرشدها» .

«لكن الكثير منهم لا يمتلك إرادة العودة عن إحياءات الآخرين ، فيعيش بخبطه عمراً من المصاعب والويلات ، ومثلما هو صعب على الطفل أن يفقد شيئاً ما ، كذلك الأمر بالنسبة للشخص البالغ ، إذ يصعب عليه أن يفقد عقيدة نفذت إلى ضميره وأعماقه حتى وإن كانت تلك العقيدة قد تسببت له في الكثير من المشاكل والصعاب» .

«فأولئك الذين يتصوّرون خطأ أنهم جديرون لعمل معين لا يتناسب وطاقاتهم ، يعتبرون أن الحياة بمن فيها وراء فشلهم ، فيبدأون صراعاً علنياً وخفياً ضد الجميع ، ويشعرون على الدوام بعذاب وألم في أعماقهم ، ما لم يشعّ نور يضيء لهم الحقيقة نتيجة تعقلهم أو سماع كلام مؤثر أو معالجة نفسية»^(١) .

إحترام العمل :

لقد بلغت الأناية والغرور لدى بعض الشباب في مجتمعاتنا حداً جعلتهم غير مستعدين لتحمل مسؤولية شراء بعض ما تحتاجه منازلهم من حاجيات ومواد استهلاكية ولو بشكل مؤقت ، أو أن يشتروا خبزاً من مال حصل عليه آباؤهم بمشقة وعناء ليحملوه معهم إلى بيوتهم ، فكيف بمثل هؤلاء أن يتقبلوا أعمالاً متوسطة المستوى أو يدوية لتكون مهنتهم بشكل دائم يؤمنون منها لقمة العيش ؟ .

وإذا ما أردنا أن نرغب الشباب بالأعمال المتوسطة المستوى التي تتطابق واستعداداتهم دون أن يشعروا لدى تقبلهم إياها بأدنى حطة وحقارة ، ينبغي على عامة الناس بما فيهم أصحاب القدرة والمسؤولية أن يحترموا تلك المشاغل والأعمال ويقدرها قولاً وعملاً كل إنسان يتحمل مسؤولية أي عمل مفيد للمجتمع ، فمهما يكن مستوى ذلك العمل يبق أفضل من البطالة وأشرف من أن يكون الشاب عالمة على مجتمعه أو أن يلجأ إلى الخيانة والسطر اللامشروعة .

وقد أعطى الرسول الأكرم ﷺ والأئمة الأطهار ﷺ درساً عظيماً للمسلمين في هذا المضمار ، فقد كانوا يحثون الأرض ويزرعونها شأنهم شأن سائر المزارعين ، وكانوا أحياناً ينزلون الأسواق ويتبضعون ما يحتاجون رغم وجود الخدم والحشم والصحابة المخلصين من حولهم ، وكان هدفهم من كل ذلك إفهام المسلمين بأن لا خجل ولا خوف من القيام بالأعمال المفيدة مهما كانت كبيرة أو صغيرة ، وعدم الانفعال من مواقف الناس تجاههم .

كَانَ سَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ يَشْتَرِي الشَّيْءَ فَيَحْمِلُهُ إِلَى بَيْتِهِ بِنَفْسِهِ ، فَيَقُولُ لَهُ صَاحِبُهُ : أَعْطِنِي أَحْمِلُهُ ، فَيَقُولُ ﷺ : صَاحِبُ الْمَتَاعِ أَحَقُّ بِحَمْلِهِ (١) .

وَيَقُولُ الرَّاوي : رَأَيْتُ عَلِيّاً ﷺ اشْتَرَى تَمْرًا بِدِرْهَمٍ فَحَمَلَهُ ، فَقِيلَ لَهُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَلَا نَحْمِلُهُ عَنْكَ ، فَقَالَ ﷺ : أَبُو الْعِيَالِ أَحَقُّ بِحَمْلِهِ (٢) .

موانع العمل بعد انتهاء الدراسة :

ولا يخفى أن مشكلة الشباب في اختيار العمل ليست تحديد ومعرفة الاستعداد الطبيعي ودراسة الأسس العلمية وتعلم الفنون العملية فحسب ، بل إنهم قد يواجهون بعد تخرجهم من الجامعات أو الثانويات موانع ومشاكل جمّة

(١) المحجة البيضاء ٤ ، ص ٣٣ .

(٢) مجموعة الورام ١ ، ص ٢٣ .

جديدة في طريق العمل قد تسدّ عليهم سبل الرقيّ والنجاح .

فلو افترضنا أن شاباً قد أعدّ نفسه دراسياً ليعمل في أحد المجالات الاجتماعية ، وتوفّرت فيه جميع الشروط اللازمة ، ودخل المجتمع وإذا به يجد أن لا أماكن شاغرة له ليعمل في مجال تخصصه ، طبعي أن مثل هذا الشاب يتألم ويتأثر كثيراً ، ويغضب أحياناً ، ويبقى مستمراً في محاولته للعثور على عمل يدخل ضمن اختصاصه ، وهذه المشكلة تعتبر من المشاكل الرئيسية التي يعاني منها جيل الشباب في الغرب .

مشكلة العثور على عمل :

«يقول «موريس دبس» : إن الشاب الذي تعلّم مهنة ما أو تخصص بعد سنتين طويلة من الجدّ والمثابرة في حقل ما ، عندما يدخل إلى المجتمع بحثاً عن عمل ، يجد أن الجيل الذي سبقه قد احتلّ كل مجال للعمل ، من هنا تنشأ خلافات قوية بين جيل الشباب وجيل الشيوخ وتستمر طوال فترة الكمال الأولى»^(١) .

ظاهرة الصناعات الآلية :

وثمة عامل آخر يقف سدّاً بوجه الشباب في بحثهم عن فرص للعمل ويحدّ من توفير فرص العمل لهم ، ويجعل أحياناً حتى العاملين يفقدون أعمالهم ، وهذا العامل هو التحوّل الكبير في عالم التكنولوجيا والتطوّر السريع الذي تشهده صناعة المعدات الآلية .

فقد شهدت كافة الحقول الصناعية منذ بداية هذا القرن تحولات كبيرة أدت إلى اختراع وصناعة وترويج معدات غاية في الدقة والمهارة ، وهذا ما جعل كبريات المؤسسات الصناعية في العالم تستغني عن خدمات الكثير من الخبراء والمتخصصين لتعتمد في عملها على المعدات الآلية المتطورة .

(١) ماذا أعرف ؟ ، البلوغ ، ص ٨٣ .

إشراف الآلة على الآلة :

«ليس المقصود من الصناعة الآلية أن تقوم الآلة أو الماكينة بأداء جميع الأعمال أو الجزء الأكبر منها . ويمكن اعتبار تحقق هذا التطور الكبير مرحلة من مراحل الثورة الصناعية حيث حلت الآلة محل الأيدي العاملة ، وما يميّز الصناعة الآلية عن الصناعة العادية (الكلاسيكية) ، ليس فقط قيام هذه الآلة بكافة الأعمال الصناعية ، بل وإشرافها على عمل الآلات الأخرى دون الحاجة إلى أيدي عاملة . ومن هنا قيل إن مفهوم الصناعات الآلية هو إشراف الآلة على الآلة وبالتالي حذف الإنسان بشكل كامل أو شبه كامل من عملية الانتاج الصناعي» .

«لقد ساهمت الثورة الصناعية في إحلال الآلة محل اليد العاملة ، وتطوّر الصناعات الآلية الذي يعتبره الكثير من المعنيين بأنه الثورة الصناعية الثالثة قد أدّى إلى إحلال الآلة محل الذوق الفكري والمهارة اليدوية»^(١) .

لقد شكّلت ظاهرة الصناعات الآلية طرفاً أفضل وأسرع في عملية الانتاج ، وهذا ما رَحّب به أصحاب المؤسسات الصناعية الكبيرة ، وقد أدّى استخدام الآلات المتطورة والمعدات الآلية والتطوّر الذي طرأ على مسار الانتاج الصناعي إلى حرمان عدد هائل من المتخصصين والعمال المهرة من ذوي الخبرات الطويلة من أعمالهم ، وبذلك يكون فصل جيد قد فتح أبوابه في الدول الصناعية ، وظهرت مشكلة جديدة باسم البطالة التكنولوجية لتعمّ أرجاء العالم بعد توسّع الصناعات الآلية .

البطالة التكنولوجية :

«إن التقدم التكنولوجي يؤدي عادة إلى انخفاض نسبة فرص العمل في كل وحدة إنتاجية ، والآن وبعد حصول هذا التقدم في مجال التكنولوجيا والصناعات الآلية وتساعد ظاهرة البطالة بين العمال ، علينا أن نراقب لنرى نسبة العمال الذين ستجذبهم الصناعات الأخرى ومتى سيتم ذلك وأين» ؟ .

«لقد تم التوصل إلى نتيجة مفادها أن الحصول على إجابات للأسئلة الأنفة الذكر لا يمكن أن يتم عبر استفتاء عام ، لأن نتيجة الاستفتاء تكون محصورة بالفترة ذاتها ولا يمكن اعتبارها شاملة لكل الفترات لما لكل منها من خصوصيات ، وهذا ما دفع بمؤسسات الدراسات والأبحاث العالمية إلى استخدام طرق أخرى للتحقيق . وقد أعلنت إحدى المؤسسات التي أجرت تحقيقات حول تأثير التكنولوجيا على العمل عن نتيجة تحقيقاتها بشأن أحد أنواع الصناعات ، وكانت النتيجة على الشكل التالي :

خلال فترة التحقيق عشر ٤٥٪ من العمال الذين كانوا يعانون من البطالة التكنولوجية على أعمال ومشاغل جديدة وثابتة ، بينما لا يزال ٥٥٪ منهم عاطلين عن العمل»^(١) .

ففي عالم يتم فيه إقالة وطرود أعداد كبيرة من العمال من المؤسسات الصناعية الكبرى على أثر تشغيل المعدات الآلية ، لا شك أن المتخصصين والعمال الجدد الذين ينوون البحث عن عمل من أجل تأمين لقمة العيش سيواجهون مشاكل جمة وعقبات كبيرة ومتعددة .

وينبغي على الشاب الكفوء والنشيط أن لا يخشى تلك المشاكل

(١) نفس المصدر ، ص ١٣١ .

والعقبات ، وأن يسعى بكل عزم وإرادة في أشد الظروف قساوة للحصول على عمل يتناسب واستعداده الطبيعي ، وأداء عمله على أفضل وجه من أجل تأمين لقمة عيش هنيئة .

ضرورة السعي لطلب الرزق :

لقد أكد الرسول الأكرم ﷺ والأئمة المعصومون عليهم السلام في الكثير من الأحاديث الشريفة والروايات أن طلب الرزق وتأمين اللقمة الحلال واجب على كل مسلم ومسلمة ، وأوصوا بعدم ترك طلب الرزق حتى في أشد الظروف قساوة .

قال رسول الله ﷺ : **طَلَبُ الْحَلَالِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ** (١) .

وعن الإمام العسكري عليه السلام قال : **لَا يَشْغَلُكَ رِزْقٌ مَضْمُونٌ عَنْ عَمَلٍ مَقْرُوضٍ** (٢) .

وقال الإمام الصادق عليه السلام : **يَا هِشَامُ إِنَّ رَأَيْتَ الصَّفِينِ قَدِ اتَّقَبَا فَلَا تَدَعْ طَلَبَ الرُّزْقِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ** (٣) .

(١) بحار الأنوار ٢٣ ، ص ٦ .

(٢) تحف العقول ، ص ٤٨٩ .

(٣) وسائل الشيعة ٤ ، ص ١٠١ .

المحاضرة السابعة والعشرون

حول الشاب ودنيا الآلة

بسم الله الرَّحْمَن الرَّحِيم

قال الله تعالى في محكم كتابه : ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾^(١) .

الإنسان والعقل :

مثل الإنسان كمثل سائر الموجودات الحيّة ظاهرة أوجدها الله سبحانه وتعالى بحكمته وإرادته في الطبيعة ، وما يمتاز به الإنسان عن غيره من الكائنات الحيّة ويجعله يوسّع من نطاق نشاطه ويرفع مستواه المعيشي عن غيره من المخلوقات ، هو قوة العقل وعامل الذكاء .

فكل المخلوقات على وجه الكرة الأرضية تعيش كالإنسان في ظل السنن الإلهية الثابتة وقوانين نظام التكوين الراسخة ، مستفيدة من أجل استمراريتها في الحياة من الثروات الطبيعية التي أنعم بها الله سبحانه وتعالى علينا ، مع فارق انعدام الحساب العقلي في تطابق النبات والحيوان مع قوانين الخلق ، فليس للنبات والحيوان أية حرية أو وعي في كل ما يصدر عنهما خلال مسيرتهما الحياتية ، وما يقوم به النبات أو الحيوان إنما هو ناجم عن إلهام فطري وهداية

(١) سورة هود ، الآية : ٦١ .

الله سبحانه وتعالى التكوينية ، وقَدَّرَ لهما أن يعيشا على الدوافع الطبيعية والمويل الغريزية ، كذلك استخدام هذين الكائنين للثروات الطبيعية يتم أيضاً على أساس الهداية التكوينية ضمن حدود معينة .

الحرية في ظل العقل :

أما الإنسان الذي يمتاز بعقله وذكائه عن سائر المخلوقات فله حرية العمل في ميدان الحياة الواسع ، فهو قادر على تكييف نفسه مع قوانين الخلقه وتطوير حياته نحو الرقي والكمال من خلال الاستفادة من الثروات الطبيعية الهائلة ، وذلك في ظل العقل الذي يعتبر أعظم ما وهبه الله سبحانه وتعالى للإنسان ، وكل ما وهبه عظيم . بمعنى أن النبات والحيوان مسخَّران للطبيعة ، ولا يستطيعان تجاوز حدود حياتهما المحدودة ، أما الإنسان فوضعه يختلف تماماً عن سائر المخلوقات ، حيث سَخَّرَ له الله جل وعلا الطبيعة بكاملها ، وجعله سيداً على الماء والتراب والنبات والحيوان وما إلى ذلك من كائنات حيّة ودعاه إلى استغلال عقله وفكره في السعي لاستثمار الثروات الطبيعية للأرض وإعمار الأرض وتوفير مقومات حياة أفضل عليها .

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ ﴾^(١) .

الإنسان وعمارة الأرض :

وقال عزّ من قائل : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ .

يقول الشيخ الطوسي (رحمه الله) في تفسير التبيان : واستعمركم فيها أي جعلكم قادرين على عمارة الأرض ومكّنكم من عمارتها .

وفي موضوع أن الله سبحانه وتعالى قد سَخَّرَ الكرة الأرضية وما فيها وما عليها للإنسان ، ووهبه القدرة على الاستفادة من كل ثرواتها . هناك نقطتان مهمتان لا بد من تبيانها :

(١) سورة الحج ، الآية : ٦٥ .

النقطة الأولى هي أن المقصود من تسخير ما في الأرض للإنسان ليس بمعنى أن يكون الإنسان منطلقاً في حريته متسلطاً على ما في الأرض دون قيد أو شرط يحقق كل رغباته وميوله ، بل المقصود هو أن يستطيع الإنسان بعقله وذكاؤه استيعاب مقررات الخلقة واكتشاف أسرار نظام التكوين ، ويسعى جاداً لتطبيق نفسه مع أسباب عالم الطبيعة ومسبباته ، ويوفر لنفسه ظروفاً يتمكن من خلالها استثمار ما في الأرض لصالحه وتأمين مقومات عمارتها .

وبعبارة أوضح نقول إن الإنسان بمقدوره اكتشاف سرّ الكهرباء والعمل على تأمين ظروف مؤاتية لإنتاج الطاقة الكهربائية ، والاستفادة من هذه الطاقة في تحسين الوضع المعيشي وإعمار الأرض ، كما يستطيع الإنسان أن يكتشف تأثيرات بعض المواد الطبيعية ليستخدمها في صنع دواء يساعده في مكافحة الكثير من الأمراض ، والإنسان بإمكانه أيضاً أن يتعرف على ظروف حياة النبات والحيوان وكيفية نموها ليستفيد من ذلك في وضع مشاريع مفيدة ترمي إلى تحسين الوضع الزراعي والحيواني وتمكّنه من الحصول على نوعية غذاء جيدة ووفيرة ، إلا أن الإنسان لا يستطيع أبداً تغيير نظام الطبيعة أو تبديل قوانين الخلقة ، كما أنه عاجز عن إيقاف دوران الكرة الأرضية أو إرباك نظم المجموعة أو المنظومة الشمسية ، والإنسان ليس بقادر على تجريد الأرض من قوّة جاذبيتها أو إجراء تعديل على قانون الحياة والموت .

«يقول «راسل» : إن الإنسان مهما بلغ في مجال العلم لا يمكن أن يكون ذا قدرة مطلقة ، فقدوته محدودة بحدود الطبيعة ، لكنه يستطيع من خلال العلم والمعرفة توسيع نطاق هذه الحدود ، إلا أنه ليس بقادر على التحرر منها نهائياً» .

«في الوقت الذي نستطيع فيه إقناع الطبيعة بتحقيق الكثير من أمانينا وطموحاتنا ، لا يمكننا أن نحكم عليها أو أن نفعل شيئاً ما يؤدي إلى انحراف الطبيعة عن مجراها قيد أنملة»^(١) .

(١) الآمال الجديدة ، ص ٤١ .

الإنسان والإستعداد اللامحدود :

النقطة الثانية هي أن فطرة تسخير الأرض واستثمار ثرواتها إنما هي عطية إلهية منحها الله سبحانه وتعالى للإنسان على شكل استعدادات غير محدودة ، ويستطيع الإنسان أن يتحكم بالأرض بكل ما فيها من ثروات بمقدار ما يبرز من استعدادات عن طريق العلم والعمل ويفجر من طاقات .

والإنسان يجتد ويسعى منذ أمد بعيد لإبراز استعداداته الطبيعية وإثبات كفاءته ، وقد اكتشف الكثير من أسرار الطبيعة وخطا نحو تسخير ثروات الأرض وبسط سيادته كإنسان على الكرة الأرضية معتمداً بذلك على قوة العقل وعامل الذكاء والذاكرة وسائر القوى الأخرى ، وأخذت المعلومات التي استحصل عليها الإنسان والتجارب التي أجراها تنتقل من جيل لآخر عبر القلم والبيان .

ورغم أن إنسان اليوم الذي ورث عن إنسان الأُمس علومه وتجاربه قد استثمر كل طاقاته واستعداداته وحقق نجاحات باهرة في مجال تسخير الأرض وثرواتها العظيمة ، إلا أن كثر الاستعداد البشري والقدرة الإنسانية لم ينته عند هذا الحد ، وما زال طريق الرقي والتكامل مفتوحاً أمام الإنسان ، وبمقدور الأجيال القادمة أن ترتقي مدارج أسمى وتحقق تقدماً أكبر وأفضل من خلال التفكر والتدبر والسعي والعمل .

تسخير الأجرام السماوية :

لقد فكّر إنسان اليوم بعد أن سخر الكرة الأرضية وبسط سيادته على الصحاري والبحار ، بغزو الفضاء ، وهذا ما حصل ، فقد شق طريقه بواسطة سفينة اخترعها بنفسه إلى الفضاء ونزل على سطح القمر ، وهو مصمم على توسيع نطاق حكومته من خلال اكتشاف سائر الأجرام السماوية واستثمار ثرواتها .

ويرى المسلمون أن الإنسان مؤهل لتحقيق هدف كبير كهذا ، لأن الله سبحانه وتعالى قد وهبه منذ أنشأ استعداداً يمكنه من تسخير الأجرام السماوية ،

وقد جاء القرآن الكريم ليؤكد في العديد من آياته الشريفة إمكانية استثمار ثروات الأجرام السماوية .

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ (١) .

وقال عز من قائل : ﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لَتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ * وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُتَفَكَّرُونَ ﴾ (٢) .

الإنسان وسيادته على الأرض :

لقد بدأت سيادة الإنسان على الأرض منذ أن بدأ بالعمل في مجال الزراعة ، ثم راح يفكر بعقله ويجد ويسعى حتى اكتشف تأثيرات العوامل الجوية والأرضية على الزراعة ، وساعده ذلك في تسخير جزء من الثروات الطبيعية للأرض لصالحه ، وراح يحصل على كميات كبيرة من الطعام خلال أقل ما يمكن من الوقت ، وقد ساهم ذلك في تطوير حياة الإنسان وتحسين ظروفه المعيشية .

قال النبي ﷺ : أكرموا الخبز فإنه قد عمل فيه ما بين العرش إلى الأرض وما فيها من كثير من خلقه (٣) .

الإنسان الأول والغذاء :

يقال إن الإنسان الأول كان قبل المرحلة الزراعية والحيوانية يتغذى على النباتات والأعشاب الطبيعية ، ثم أخذ يؤمن غذاءه من الصيد البري والبحري . فالإنسان في تلك الفترة كان يكرس كل وقته واهتمامه لتأمين غذائه ، فكان يضطر إلى السعي وراء لقمة العيش من الصباح وحتى المساء ، يبحث كالحيوان

(١) سورة لقمان ؛ الآية : ٢٠ .

(٢) سورة الجاثية ؛ الآيتان : ١٢ و ١٣ .

(٣) الكافي ٦ ، ص ٣٠٢ .

في الصحاري والسهول والجبال والوديان عن فريسة يشبع بها بطنه ، وكان هذا البرنامج يتكرر كل يوم . ومن الطبيعي أن لا يكون لمثل هذا الإنسان مجال للتفكير والتفكير والاستفادة من استعداداته الباطنية لتحسين أوضاعه المعيشية .

«إن الإنسان البدائي كان إنساناً نباتياً يعيش بين أغصان الأشجار وأوراقها ، ويتغذى على الأعشاب والنباتات ، تارة يضيف إلى غذائه جذوراً نباتية ، وتارة أخرى يضيف حيوانات صغيرة ، فلم يكن إنسان تلك الفترة قد عرف بعد الزراعة أو التربية الحيوانية ، فكان يعيش من خلال قطف أو سرقة ما يجده حواليه من طعام . ولهذا سميت تلك الفترة بفترة جمع الطعام ، وهذه الفترة كانت تشمل مرحلتين ، مرحلة الغذاء النباتي ومرحلة الغذاء الحيواني أو الصيد»^(١) .

إنعدام الأمن الإقتصادي :

«لقد كان الإنسان الأول يعتمد إلى تقطيع فريسته بعد اصطيادها قطعة قطعة وتناولها نيئة بما يملأ به معدته ، ذلك أن الحضارة بمعناها الاقتصادي من التموين والأمن لم تكن قد ظهرت بعد ، وكان الحرص ضرورياً للبقاء وحفظ الذات . كان الإنسان الأول أشبه ما يكون في تناوله للطعام بكلاب اليوم ، لأنه لم يكن يعرف متى سيتناول وجبته التالية»^(٢) .

«إن نشاط الإنسان الخاص الذي يميزه عن سائر الحيوانات هو في سعيه للتخلص من القيود التي تفرضها عليه الطبيعة ، وطالما كان الإنسان مضطراً لتكريس كل وقته من أجل الحصول على طعام يسد به جوعه ، فإنه لم يكن باستطاعته استخدام جانب كبير من قدرته في خوض غمار الحرب أو السياسة أو الإلهيات أو العلوم .

(١) مبادئ علم الاجتماع ، ص ٢٧٧ .

(٢) مباهج الفلسفة ، ص ٨٦ .

فهذه الأمور هي ثمرة طاقة العمل الانتاجية ، وهي ناجمة عن ترجيح كفة إنتاج الفرد على كفة طعامه المستهلك ، وكلما ازدادت نسبة ترجيح الكفة الأولى تضاعفت إمكانية تفرغ الإنسان للثقافة أو غيرها من المجالات»^(١) .

بداية التكامل في ظل الزراعة :

جاءت ظاهرة الزراعة لتغير حياة الإنسان ، وفتحت أمامه آفاق الرقي والتكامل ، وتمهد له طريق تسخير الثروة الطبيعية .

فقد استطاع الإنسان عن طريق الزراعة وخزن المحاصيل تأمين احتياجاته المستقبلية من الغذاء وإنقاذ نفسه من كابوس المجاعة الذي كان يخيم على عقله وفكره ، وبالتالي فإنه حصل على مناسبة للتفكير بما من شأنه أن يحسن أوضاعه ، فبدأ بإطلاق استعداداته الواحد تلو الآخر ، ليتسلق من خلال ما توصل إليه في مجال العلم والعمل مدارج الرقي والتكامل ، ويبسط سيادته على الكرة الأرضية .

إرساء أسس الحضارة :

لقد استطاع الإنسان من خلال الزراعة وخزن المحاصيل كغذاء سنوي له إرساء أسس الحضارة الإنسانية ، وفتح باب التعامل والتجارة ، وتشغيل جانب من قوى الأفراد في مختلف ميادين الحياة ، فجاب الفيافي والبحار ، وروّض الحيوانات الوحشية ، وضاعف تدريجياً من استثمار الثروات الطبيعية ، ليوفّر مقومات راحته وسعادته ومستلزمات عمارة الأرض التي أرادها الله سبحانه وتعالى .

«في بداية المرحلة الزراعية ، كان الإنسان مضطراً إلى عدم السفر والترحال ، والسكن في مزرعته أو قريباً منها وذلك لمراقبة

(١) الآمال الجديدة ، ص ٣٥ .

محاصيله الزراعية . ومثل هذه الضرورة دفعت بالإنسان إلى التفكير في بناء بيت يأويه . وبناء بيت ثابت وقوي إستوجب على الإنسان البحث عن وسائل البناء ، فكان أن ابتكر صناعة الخزف والنسيج وغير ذلك من صناعات يدوية . وعلى أثر ازدياد المواد الغذائية إزداد العرض والطلب في الأسواق ، وأقيمت في كل ناحية أسواق أسبوعية كان يسدّ الناس منها احتياجاتهم عن طريق المقايضة . وأخذت التجارة الخارجية تزدهر شيئاً فشيئاً ، وساهمت عملية تقسيم العمل والاختصاصات في تسهيل الكشف عن المعادن وترويض الخيل وصنع العجلة وتهيئة وسائل الملاحة إلى جانب دفع الانتاج وتوسيع التجارة ، وتوطّدت العلاقات بين شعوب مختلف المناطق القريبة والبعيدة ، وهذا ما ساهم في قيام المدن التجارية^(١) .

أهمية الزراعة في حياة الإنسان :

لا أحد منّا يعلم متى وكيف انتقل الإنسان من حياة الأعشاب والصيد إلى حياة الزراعة التي راح يؤمن منها غذاءه ؟ ، ولكن ما هو معلوم هو أنه كلما مضى وقت على عمر الزراعة كلما ازدادت معرفة الإنسان بأهميتها وراح يبذل مزيداً من الجهد في سبيل تحسينها وتطويرها .

ففي ظل الزراعة البدائية لم يكن الإنسان يحصل إلا على مقادير قليلة جداً من المحاصيل وذلك نتيجة قصور فكرة وقلة تجربته وفقدان وسائل العمل اللازمة ، ولكن الإنسان بدأ تدريجياً باكتشاف أسرار الزراعة وإعداد ما تتطلبه من معدات ، وكانت النتيجة إزداد مساحة الأراضي الزراعية وإحياء الأراضي البوار وارتفاع نسبة المحاصيل .

(١) مبادئ علم الاجتماع ، ص ٢٨ .

وفي دنيا العلم والصناعة المعاصرة تغيّر الوضع الزراعي كلياً ، حيث ساهم الإنسان بعلومه ومعرفته وبفضل المعدات الآلية في رفع الانتاج إلى الحدّ الذي لا يمكن مقارنته بحجم الانتاج السابق بأي شكل من الأشكال .

«يقول «راسل» : كان الإنسان في الأزمنة الغابرة بحاجة إلى ميلين مربعين من الأرض الخصبة ليحني من زرعها ما يكفيه لمدة عام واحد من طعام . أما اليوم فزراعة ميل واحد في انجلترا مثلاً تكفي لإعاشة ٧٥٠ شخصاً ، أي بما يعادل ألفاً وخمسمائة مرة عن تلك الفترة التي لم يكن فيها الاستعداد البشري قد توصل إلى اختراعات في مجال الصناعة طبعاً»^(١) .

قدسية الزراعة لدى الأديان السماوية :

تعتبر الزراعة لدى كافة الأديان السماوية عملاً مقدساً . وقد كان الأنبياء والأوصياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين يعملون عن طيب خاطر ورغبة في الزراعة ويحثون الناس على هذا العمل الشريف ، وقد أكدت الروايات الإسلامية على ضرورة عمارة الأرض وأهمية الزراعة التي جعلها الله سبحانه وتعالى معاشاً للخلق .

عمارة الأرض :

عن علي عليه السلام : ... فَقَوْلُهُ تَعَالَى : هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ، فَأَعَلَمْنَا سُبْحَانَهُ أَنَّهُ قَدْ أَمَرَهُمْ بِالْعِمَارَةِ لِيَكُونَ ذَلِكَ سَبَباً لِمَعَايِشِهِمْ بِمَا يَخْرُجُ مِنَ الْأَرْضِ مِنَ الْحَبِّ وَالثَّمَرَاتِ وَمَا شَاكَلَ ذَلِكَ مِمَّا جَعَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى مَعَايِشَ لِلْخَلْقِ^(٢) .

خير الأعمال :

وعن أبي جعفر الإمام الباقر عليه السلام : خَيْرُ الْأَعْمَالِ زَرْعُ يَزْرَعُهُ فَيَأْكُلُ مِنْهُ

(١) الآمال الجديدة ، ص ٣٦ .

(٢) مستدرک الوسائل ٢ ، ص ٤٢٦ .

الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ^(١) .

وعن الإمام الصادق عليه السلام : كُنُوزُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ وَمَا فِي الْأَعْمَالِ شَيْءٌ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ اللَّهِ مِنَ الزَّرَاعَةِ ، وَمَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا زَارِعًا إِلَّا إِذْرِيْسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَإِنَّهُ كَانَ خَيَّطًا^(٢) .

وعنه عليه السلام أيضاً : إِزْرَعُوا وَاغْرِسُوا وَاللَّهُ مَا عَمِلَ النَّاسُ عَمَلًا أَحَلَّ وَلَا أَطْيَبَ مِنْهُ ، وَاللَّهُ لَيَزْرَعَنَّ الزَّرْعَ وَلَيَغْرِسَنَّ الْغَرْسَ بَعْدَ خُرُوجِ الدَّجَالِ^(٣) .

إدخار القوت وراحة البال :

لم تكن مسألة الزراعة وإدخار القوت السنوي عاملاً لراحة بال الإنسان وتقدمه نحو الرقي والتكامل في العهود الماضية فقط ، بل إن المدنية الحاضرة وحركات التطور العلمي والصناعي تقوم على أساس الزراعة وإدخار المواد الغذائية .

إحراز القوت وتكامل الإنسان :

إن العلماء والمفكرين لا يقدرّون على تخصيص جلّ اهتمامهم للبحث والتحقيق والدراسة وهم قلقون إزاء مسألة المجاعة ، لا يعرفون إن كان لدى المجتمع فائض غذائي أم لا ؟ ، كذلك الأمر بالنسبة لكبار المخترعين والمبتكرين الذين لا يستطيعون الإبداع في مجال عملهم وإفادة الناس باختراعاتهم وابتكاراتهم ومسألة الجوع وسبل تأمين المواد الغذائية تطغى على عقولهم وأفكارهم ، والأمر نفسه يتكرّر لدى الأستاذ في مجال التدريس ، والطبيب في مجال معالجة المرضى ، والعامل في مجال تسيير عجلة المؤسسات الصناعية ، وبخلاصة فإن صاحب كل مهنة مؤثرة أو عمل مهم في عالمنا

(١) بحار الأنوار ٢٣ ، ص ٢٠ .

(٢) وسائل الشيعة ٤ ، ص ١٠٣ .

(٣) بحار الأنوار ٢٣ ، ص ٢٠ .

المتطوّر لا يمكنه أن يبدع في مهنته وعمله ويكون مرتاح البال ما لم يحرز قوته .

قال رسول الله ﷺ : إِنَّ النَّفْسَ إِذَا أَحْرَزَتْ قُوَّتَهَا اسْتَقْرَّتْ (١) .

وعن الإمام الرضا عليه السلام : إِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أَدْخَلَ طَعَامَ سَنَّتِهِ خَفَّ ظَهْرُهُ وَاسْتَرَاحَ ، وَكَانَ أَبُو جَعْفَرٍ وَأَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ لَا يَسْتَتِرَانِ عُقْدَةً حَتَّى يُحْرَزَا طَعَامَ سَنَّتَيْهِمَا (٢) .

الإنسان والحاجة الأهم :

إن الحاجة إلى الغذاء وإشباع المعدة تعتبر على رأس الاحتياجات الطبيعية التي ترافق الإنسان منذ ولادته مروراً بطفولته وشبابه وشيخوخته وكهولته وحتى مماته ، ولا بد من إشباع هذه الحاجة قبل غيرها .

عن أبي جعفر الإمام الباقر عليه السلام : إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ ابْنَ آدَمَ أَجُوفًا (٣) .

وعن أبي عبد الله الإمام الصادق عليه السلام : إِنَّمَا بُنِيَ الْجَسَدُ عَلَى الْخُبْزِ (٤) .

فكل القوى العقلية والمعنوية وسائر الميول الغريزية لدى الإنسان تكتسب قوتها ونشاطها من الغذاء ، وهذه القوى والميول لا تبدأ نشاطها وفعاليتها الطبيعية إلا حينما تُرفع الحاجة للغذاء وتشبع البطن .

الجوع وخفوت العقل والإحساس :

الإنسان الجائع لا يفكر بالمسائل العقلية والعلمية ، ولا يأبه للحسن والجمال ، ولا يميل للمنصب والجاه ، لا يعرف معنى للحب والشهوة ، ولا

(١) الكافي ٥ ، ص ٨٩ .

(٢) نفس المصدر ٥ ، ص ٨٩ .

(٣) نفس المصدر ٦ ، ص ٢٨٦ .

للإنتقام والغضب . والإنسان الجائع ينسى كل مبادئه المعنوية والدينية ، ويتناسى العدل والإنصاف والرحمة والرأفة والودّ والصحة وصلّة الرحم وما إلى ذلك من أحاسيس ومشاعر إنسانية ، وبخلاصة فإن الإنسان الجائع لا يجد شيئاً أجمل وأحب إليه من الغذاء، فهو لن يفكر سوى بإشباع معدته، وأمنيته الوحيدة الحصول على الغذاء .

«إنَّ طبقاً من الطعام يُقدّم لرجل شارف على الموت من شدّة الجوع ، قد يبدو في نظره أجمل والأدّ بكثير من امرأة في العقد الثالث من العمر في نظر شاب نهم ، ولكن هذا الشاب إذا ما جاع فإنه لن يعير أهمية لأجمل الغادات وربما بدت في نظره مجرد أكلة دسمة»^(١) .

ثورة صاحب الزنج :

في القرن الثالث الهجري ثار في البصرة رجل يدعى علي بن محمد عُرف فيما بعد بـ(صاحب الزنج) ، وجمع حوله العبيد الذين كان تعدادهم كبيراً في البصرة يومذاك رافعاً راية التمرد وداعياً إلى تحريرهم . فأشعل نار الفتنة وأشاع الفوضى والاضطراب في مدينة البصرة . واستمرت تلك الفتنة المرعبة والدامية حوالي خمسة عشر عاماً ساد خلالها الخوف وانعدم الأمن في تلك المنطقة ، وقتل عشرات الألوف من الناس صغاراً وكباراً ، وانتهكت أعراض الكثير من الناس وسلبت أموالهم ، وتوقفت الزراعة وشحّت المواد الغذائية شيئاً فشيئاً ، وبلغت المجاعة بالناس حدّاً جعلتهم يتناولون لحم الكلاب والقطط ويتقاسمون لحم من يموت منهم ، ولم يسلم جنود صاحب الزنج من القحط والمجاعة ، فكانوا يسدّون جوعهم بتناول لحوم أجساد قتلى جيش الخليفة الذي كانوا يخوضون حرباً ضده^(٢) .

(١) مباحث الفلسفة ، ص ٢٣٦ .

(٢) موسوعة دهمخدا ، «صاحب الزنج» ، ص ٣١ .

زوال عاطفة الأخوة :

وقيل إنه وخلال الأيام العصيبة التي شهدتها مدينة البصرة قحطاً ومجاعة شوهدت امرأة تحمل بيدها رأس إنسان وهي تبكي ، فسئلت عن سبب بكائها ، فقالت : إن الناس تجتمعوا حول أختي التي كانت تحتضر بانتظار أن تموت ليحصل كل منهم على قطعة من لحم جسدها ، لكنهم قطعوها إرباً إرباً قبل أن تموت واقتسموا لحمها ولم يصلني من لحمها شيء سوى رأسها ، وهي قسمة ظالمة^(١) .

الأم الجائعة تلتهم ابنها :

إن عاطفة الأمومة وحنانها أهم بكثير من عاطفة الأخوة وحنانها ، لكن تلك العاطفة أيضاً تمحي من القلوب إذا ما ساد القحط وعمت المجاعة . وإليك عزيزي القارئ حادثة وقعت لقوم النبي دانيال عليه السلام ، عندما نزل عليهم البلاء نتيجة كفرانهم بالنعم :

قَالَتْ امْرَأَةٌ لِأُخْرَىٰ وَلَهُمَا وُلْدَانٍ : يَا فُلَانَةُ تَعَالَىٰ حَتَّىٰ نَأْكُلَ أَنَا وَأَنْتِ الْيَوْمَ وُلْدِي وَإِذَا كَانَ عَدَا أَكَلْنَا وَلَدَكَ ، قَالَتْ لَهَا نَعَمْ . فَأَكَلْتَاهُ ، فَلَمَّا أَنْ جَاعَتْ مِنْ بَعْدِ رَاوَدَتْ الْأُخْرَىٰ عَلَيَّ أَكْلِ وُلْدِهَا ، فَأَمْتَنَعْتُ عَلَيْهَا ، فَقَالَتْ لَهَا : بَيْنِي وَبَيْنَكَ نَبِيُّ اللَّهِ ، فَأَخْتَصِمَا إِلَىٰ دَانِيَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَقَالَ لَهُمَا : وَقَدْ بَلَغَ الْأَمْرُ إِلَىٰ مَا أَرَىٰ ؟ ، قَالَتَا لَهُ : نَعَمْ يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَأَشَدُّ ، فَرَفَعَ يَدَهُ إِلَى السَّمَاءِ فَقَالَ : اللَّهُمَّ عُدْ عَلَيْنَا بِفَضْلِكَ^(٢) .

وفي الخبر : وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُوعِ فَإِنَّهُ يَشَس الضُّجِيعَ^(٣) .

أثر الزراعة والصناعة :

ثمة عاملان كبيران في تاريخ الحياة البشرية ساهما في حصول تحوّل

(١) تمة المتهوى ، ص ٣٨٠ .

(٢) الكافي ٦ ، ص ٣٠٢ ،

(٣) سفينة البحار ، «جوع» ، ص ١٩٦ .

عظيم وثورة شاملة في حياة الإنسان ، وكان لكل منهما أثره البالغ على كافة الصعد المادية والمعنوية والأخلاقية والاجتماعية لشعوب العالم ، وكانا السبب في وقوع الكثير من الأحداث وبالتالي تغيير وجهة حياة الإنسان ، وهذان العاملان هما الزراعة والصناعة .

فقد جاءت ظاهرة الزراعة لتقل الإنسان عن عصر النباتات والأعشاب والصيد إلى عصر الزراعة ، فعمرت الأرض وحلّت الحضارات البشرية ، وشيدت على مدى قرون عديدة الكثير من المدن العظيمة ، وسنت القوانين ، وتشكلت الحكومات والأنظمة الادارية ، وبرز الكثير من العلماء في شتى العلوم ، فدرّسوا وألّفوا الكتب وساهموا تدريجياً في رقي الإنسان .

أما ظاهرة الصناعة فجاءت لتقل الإنسان من عصر الزراعة إلى عصر الصناعة الآلية ، وساهمت في حدوث تحولات عظيمة على صعيد مظاهر حياة الإنسان ، فحلّت المعدات الزراعية الآلية المتطورة محل الآلات البدائية ، كما حلّت المعدات الآلية الضخمة محل الوسائل اليدوية البدائية في المصانع والمعامل .

وقد جاء التطور الحاصل في المجالين العلمي والصناعي ليعزّز من سيادة الإنسان على الطبيعة ، ويضاعف من قدرته على استغلال الثروات الطبيعية للأرض إلى الحد الذي لا يمكن قياسه بالمرحلة الزراعية .

نتائج الثورة الصناعية :

«حصلت الثورة الصناعية خلال القرن الثامن عشر . ونتيجة لهذه الثورة التي امتدت إلى الكثير من المجتمعات خلال القرنين التاسع عشر والعشرين ، توسّعت الصناعات الآلية بسرعة وغطّت على الصناعات اليدوية ودخل نتاجها مختلف شؤون حياة الإنسان .

«ويحل العمل الآلي محل العمل اليدوي . ويفقد الاقتصاد القديم

ومركزه الأسرة أهميته . ولم تدخل الآلة فقط إلى الحقول والمزارع لترفع من مستوى الإنتاج وجودته ، بل وأصبحت الوسيلة التي يؤمن الإنسان بواسطتها احتياجاته . وقد أعطى نمو وازدهار الإنتاج الآلي التجارة رونقاً خاصاً ، وحلّ التعامل المالي المعقّد محلّ التعامل البدائي القديم ، حيث أصبح المصنع خلال هذه المرحلة محور الحياة الاقتصادية للمجتمعات ، ويمكن تسمية هذه المرحلة بمرحلة الاقتصاد المصنعي» .

«وفي الاقتصاد المصنعي أخذت القوة الآلية تتوسع وتزداد حيث حلّت محلّ قوة الإنسان والحيوان . ففي أواسط القرن التاسع عشر بلغت نسبة الإنتاج الصناعي من الآلة في الولايات المتحدة الأمريكية ٢٥٪ فقط ، بينما ارتفعت هذه النسبة خلال القرن العشرين إلى ٩٨,٦٪»^(١) .

إن غالبية الطاقات البشرية كانت تستهلك خلال المرحلة الزراعية في الزراعة وتربية المواشي والدواجن واعداد القوات وتأمين متطلبات الحياة الضرورية ، ذلك أن معلومات الإنسان حول العلوم الطبيعية كانت ضئيلة جداً بحيث لم يكن يستطيع استغلال الثروات الطبيعية كما يجب ، هذا من جهة ، ومن جهة ثانية كان الإنسان يعتمد في الغالب في أعماله الزراعية وإدارة شؤونه الحياتية على الحيوان وقوته المحدودة ، وطبيعي أن في مثل هذه الظروف لا يستطيع سوى عدد يسير من الناس الانصراف لكسب العلم وطوي مدارجه ، كما أن تلك الظروف لم تكن تسمح للإنسان بخوض ما ليس له ارتباط مباشر بحياته .

(١) مبادئ علم الاجتماع ، ص ١٩٦ .

أما خلال المرحلة الصناعية فقد وجد الإنسان بفضل تقدّم العلوم واستخدام القوة الآلية ، الفرصة لصرف القليل من الوقت من أجل المزيد من الانتفاع من المياه والتربة ، ومن هنا كان عدد الذين عملوا بالزراعة وتأمين احتياجات المجتمعات من المحاصيل الزراعية قليلاً جداً ، بحيث اتجهت غالبية الأيدي العاملة الزراعية نحو المؤسسات العلمية والثقافية والاجتماعية .

«قبل أن يُعرف الانتاج الآلي ويسود العالم ، كان يمكن لعدد ضئيل من الناس التخصص بأعمال أخرى غير انتاج المواد الغذائية ، ومن هنا كان بروز الأعيان ورجال الدين ورجالات القوة البرية والبحرية والفلاسفة والفنانين ، فظهور سقراط وأفلاطون وبوذا وأمثالهم لم يكن ميسراً إلا بعد أن استطاع منتجو المواد الغذائية زيادة إنتاجهم بما يفوق احتياجاتهم» .

«عندما ينظر المرء إلى مجتمع كمجتمع الولايات المتحدة الأمريكية يرى فيه تجلياً اجتماعياً جديداً ، حيث يجد أن غالبية الناس يتمتعون بأشياء كثيرة تفوق احتياجاتهم الضرورية ، ومع ذلك فإن عدداً كبيراً من الناس لا ينتجون شيئاً إن على الصعيد الزراعي أو الصناعي ، ومن هؤلاء الشبان الذين يواصلون دراساتهم بعد نمو أظفارهم والقوات المسلحة والكتاب والمؤلفون والصحفيون ورجال الدين والسياسيون والموظفون الحكوميون ، وكل هذه الأعمال كانت تعتبر في رأي الإنسان الأول من الكماليات والتجملات ، بينما لا تستطيع المجتمعات الحديثة الاستغناء عنها أو حتى عن بعضها»^(١) .

الصناعة وتسخير الطبيعة :

لقد تركت الثورة الصناعية أثراً عميقاً في كافة مظاهر الإنسان المادية

(١) الآمال الجديدة ، ص ٣٦ .

والمعنوية ، وغيّرت أسس حياته ومنهاج عمله ونشاطه . وقد ساهمت الثورة الصناعية وتطور العلوم الطبيعية في اكتشاف الكثير من أسرار الخلقة وتحريك وتشيط الاستعدادات الكامنة في أعماق الإنسان ودفعه نحو الأمام خطوة خطوة ، كما ساهمت في تعريف الإنسان على الكثير من أسباب ومسببات نظام التكوين ، وجعلت الطبيعة مسخرة له ، وزادت من رقعة سيادته على الأرض . وكان للتحوّلات الناجمة عن الاقتصاد الصناعي نتائج إيجابية وسلبية كثيرة على علاقات الأسرة والأخلاق العامة والروابط الاجتماعية والمعتقدات الدينية .

«دخل الإنسان في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي مرحلة جديدة تتضمّن تغييراً جذرياً نظير التغيّر الذي حصل في مجال العمل بالزراعة ، وأعني بهذه المرحلة كما هو معلوم مرحلة الانتاج الآلي وتطبيق العلوم في مجاله الصناعة . ويمكن القول إن العلوم الطبيعية باتت واحداً من العناصر المؤثرة في مجال الزراعة منذ ثلاثمائة وخمسين عاماً ، وقد حلّ الانتاج الآلي في منتصف هذه الفترة تقريباً . إذ أثبت خلال فترة اختراعه على أنه قوة ثورية ضاربة ومحيرة للعقول . وهذه القوة لم تؤثر إلى يومنا هذا إلا على علاقات الإنسان بالطبيعة ، لكنها قد أربكت بالثورة التي أوجدتها المعادلة القديمة في علاقة الإنسان بالإنسان وعلاقته بنفسه»^(١) .

إنتشار المدارس والجامعات :

إن التحوّل الأهم الذي برز نتيجة الثورة الصناعية في الدول الكبرى ، هو تطبيق التعليم العام وانتشار المدارس والجامعات والمؤسسات التعليمية . وظاهرة الصناعة الآلية التي تعدّ من أسباب تطوّر العلوم الطبيعية ووليدة العقول

النيرة لكبار العلماء والمخترعين، قد ساهمت في تشجيع الشباب على
تحصيل العلم ودخول المدارس بكل شوق ورغبة . وقد زادت الحكومات
بدورها من عمليات بناء المدارس والجامعات بنسبة ازيداد الملتحقين بالمدارس
من الشباب ، ووفرت بتوسيع المؤسسات التعليمية سبل الدراسة .

«لقد أصبح للرجبة العامة في التربية والتعليم بُعداً عالمياً ، ولم
يعد التعليم العام محصوراً في المراكز التعليمية والمدارس
والجامعات ، بل اتسع ليشمل مؤسسات أخرى كمراكز التمريض
والمراكز الخاصة بالمعاقين جسمياً والمتخلفين عقلياً والمراكز
المهنية وصفوف الأشراف ، وهذا التوسع المذهل للتربية والتعليم
إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على أنهما باتا من ضروريات الحياة
بالنسبة للإنسان الذي بات يطلبهما من المهد إلى اللحد» .

«إن أفضل دليل على الاهتمام المتزايد للبلدان المتحضرة بمسألة
التربية والتعليم هو الميزانيات الضخمة التي تنفق في هذا
المجال ، والعدد المتزايد للتلاميذ والطلبة الذين يتهافون على
المؤسسات والمراكز التعليمية والجامعات» .

«فقد شهدت الميزانية المخصصة للتربية والتعليم في أمريكا منذ
عام ١٩٠٠ وحتى عام ١٩٣٠ إرتفاعاً بنسبة ألف بالمائة ، وقد
أنفق الشعب الأمريكي في عام ١٩٥٠ نحو ستين مليار دولار على
المراكز التعليمية» .

«يدرس حوالي ٨٠٪ من الشباب الذين بلغوا سن الدخول إلى
الثانويات المرحلة المتوسطة ، ولم تعد هذه المرحلة حكراً على
عدد محدود من الطلبة . كذلك شهدت الجامعات شأنها شأن
الثانويات تزايداً كبيراً في عدد المتسبين لمختلف فروعها ، بحيث

بلغ عدد طلاب الجامعات في عام ١٩٤١ مليوناً وأربعمائة ألف طالب ، في حين لم يتجاوز هذا العدد في عام ١٨٩٠ المائتين وخمسة وثمانين ألف طالب ، أي بزيادة قدرها خمسمائة بالمائة^(١) .

أهمية التعليم في العالم الصناعي :

لقد نفذت الثورة الصناعية وآثارها إلى جميع بلدان العالم بنسب متفاوتة ، وأخذت تمدّ ظلّاتها بسرعة كبيرة حاملة معها آثارها السلبية والإيجابية . ومن آثارها الإيجابية قيمة الدراسات العلمية وانتشار المؤسسات التعليمية والثقافية والتحرّك العام نحو اكتساب العلم .

كان العلم في الماضي عاملاً من العوامل التي تبعث على الفخر والاعتزاز ، وقد فضّل الدين الاسلامي قبل أربعة عشر قرناً العالم على غير المتعلم من الناس بدرجات لما له من مكانة رفيعة ، رغم ذلك فإنّ العلم في الثورة الصناعية لم يبق مجرد عامل يبعث على الاجلال والتقدير ، بل أصبح اكتساب العلم في عصرنا الحاضر ضرورة حتمية لا بد منها .

العلم والتقدّم الإجتماعي :

يتوجب على الشاب استغلال فرصة شبابه إلى أقصى حد والسعي في طريق اكتساب العلم وجمع المعلومات من أجل التخصص في أحد الحقول العلمية أو العملية التي تليق به وتتوافق واستعداداته ليضمن لكبره عملاً شريفاً يؤمن له احترامه وتقديره في المجتمع .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ صِغَاراً تُسَوِّدُوا بِهِ كِبَاراً^(٢) .

وعنه عليه السلام : مَنْ لَمْ يَتَعَلَّمْ فِي الصَّغَرِ لَمْ يَتَقَدَّمْ فِي الْكِبَرِ^(٣) .

(١) علم الإجتماع ، ص ٢٨٠ و ٢٨٣ .

(٢) شرح ابن أبي الحديد ، ٢٠ ، الكلمة ٩٨ ، ص ٢٦٧ .

(٣) غرر الحكم ، ص ٦٩٧ .

ثمة مسألة يجب أن يلتفت إليها الشاب أثناء دراسته وهي أن يحدّد منذ البداية الفرع الذي ينوي الدخول إليه ويرسم هدفه ، ثم يكرّس كل قواه الجسمية والمعنوية في سبيل تحقيق نواياه وبلوغ هدفه ليجني ثماراً طيبة .

أما الشاب الذي يعاني من عدم استقرار فكري ، ولا ينفك يغيّر رأيه ويتقلّب من حقل دراسي إلى آخر ، أو أنه يهدر معظم أوقاته خلال الفصل الدراسي في مطالعة بعض الكتب غير المفيدة ، أو أنه يحفظ قصصاً وروايات لا تمتّ لمنهجه الدراسي بصلة لا من قريب ولا من بعيد ، وكل ذلك نتيجة تردّده وضياعه ، فإنه من المستبعد أن يفلح في دراسته أو أن يتمكّن من تحقيق تقدّم ملحوظ في المجال ذاته .

الشاب والعلم :

ثمة موضوعات علمية ومعارف طريفة ولطيفة كثيرة تضمّنتها مختلف الحقول العلمية في الماضي والحاضر . وكل امرئ يرغب في معرفة كل شيء والأطلاع على كافة المسائل العلمية ، ولكن هذه الرغبة لا يمكن تحقيقها واشباعها بالكامل خلال عمر الإنسان القصير وبالاستناد إلى طاقته المحدودة . والشاب الواعي هو ذلك الذي يغرف من بحر العلوم الزاخر وعاء ماء يستلذّ بشربه دون أن يفض ، فيختار حقلاً علمياً يتناسب واستعداداته ويسعى إلى الابداع فيه ليجني فوائده .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : العِلْمُ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحَاطَ بِهِ ، فَخُذُوا مِنْ كُلِّ عِلْمٍ أَحْسَنَهُ (١) .

وعنه عليه السلام : أَوَّلَى الْأَشْيَاءِ أَنْ يَتَعَلَّمَ الْأَحْدَاثَ الْأَشْيَاءَ الَّتِي إِذَا صَارُوا رِجَالًا احْتَجُّوا إِلَيْهَا (٢) .

(١) فهرست الفرر ، ص ٢٦٥ .

(٢) شرح ابن أبي الحديد ٢٠ ، الكلمة ٨١٧ ، ص ٣٣٣ .

تفوق العلم على العوامل الطبيعية :

لقد حقق المستوى العلمي للإنسان في ظل الثورة الصناعية ارتفاعاً سريعاً ، وساهمت الظروف في بروز علماء ومفكرين وفلاسفة كبار في مختلف العلوم خلال فترة قصيرة ، ساهموا في توسيع رقعة سيادة الإنسان ، وحققوا انجازات عظيمة على الأرض وفي الفضاء ، وسجلوا نجاحات باهرة في مختلف المجالات التي لم يكن يتصورها حتى الإنسان الأول ، وما زال العلماء والمفكرون والفلاسفة يجدون في مسيرتهم نحو تحقيق مزيد من النجاحات .

«هناك الكثير من العوامل الطبيعية التي كان يُعتقد في وقت من الأوقات باستحالة مواجهتها ، باتت اليوم حقولاً لتجارب الإنسان . فالإنسان بدأ يهتم بالصحارى القاحلة ويعالجها ، وهو قادر على تغيير مجرى الأنهر في استراليا من الشرق إلى الغرب على عكس ما هو قائم حالياً من الغرب إلى الشرق ، ولا شك أنه سيعالج عن قريب الأجزاء غير المناسبة للسلاسل الجبلية ، وأستطيع أن أجزم أنه أي الإنسان سيتمكن من إذابة الجليد القطبي بواسطة مواد مشعة ، ولن يمر وقت طويل حتى يصبح بمقدور الإنسان السفر إلى القمر»^(١) .

إن الإنسان في الماضي السحيق حيث كان يجهل أسباب ومسببات عالم الخلقه ومصدر الكوارث الطبيعية وتقلبات الطقس ، كان يعبد الأجرام السماوية والكائنات الأرضية بكل خشوع وخضوع ، وكان يطلب منها العون والمساعدة إما خوفاً أو طمعاً .

وقد حمل الرسل والأنبياء عليهم السلام كل في عصره على هذه المعتقدات الخرافية ، ودعوا الناس إلى عبادة الله الواحد الأحد بعد إفهامهم أن الله سبحانه

(١) الآمال الجديدة ، ص ٣٩ .

وتعالى خالق كل الموجودات في السموات والأرض ، ولا يستحق أن يعبد
سواه .

الإنسان والغرور العلمي :

وفي عالمنا اليوم حيث التطور العلمي ، اندثرت العبادات الجاهلية ، ولم
يبق مجال لعبادة الكواكب والأصنام من الناحية العلمية ، ولكن ما يؤسف له أن
الاكتشافات العلمية ومعرفة الكثير عن أسرار الكون قد أثارت في الإنسان روح
الغرور إلى الحد الذي جعله يدعي الألوهية ، فهو لا يفكر سوى بالأسباب
الطبيعية والقدرة الصناعية ، وقد ذهلته الصناعة وحجبت عنه رؤية صانع الكون
وأنته خالق الطبيعة وموجد العلل والأسباب وواهب العقل للإنسان ومسخر
الأرض وما عليها له ، وهذا بحد ذاته يعتبر من سلبيات العالم الصناعي .

الإنسان والطبيعة :

«يقول «راسل» : لم يعد هناك سبب لخضوع وخشوع الرعاة الذين
كانوا يعتقدون أنهم واقعون تحت تأثير كوكب الثريا ، لما بلغه
الإنسان من علم ومعرفة ، ولكن يخشى أن يحل العجب والتكبر
والوقاحة أمام الطبيعة محلّ الخضوع والخشوع ، ويؤدي إلى وقوع
مصائب وويلات عظيمة» .

«علينا أن لا ننسى أن الإنسان ليس الله ، وقد تغضب وتصرخ
وتقول إني لم أفكر بمثل هذا التفكير بشأن الإنسان . ولكن لا
شك في أنك أيها القارئ العزيز لست ممن أصابهم جنون
الزمان ، لأنك لو كنت منهم لما قرأت كتابي ، ولكنك إذا نظرت
إلى التكنوقراطيين الأمريكيين للاحظت أنهم يفرون من هذا
السيبل لعدم ايمانهم بالله ، ليضيفوا عليه وبالحداد صبغة
إلهية»^(١) .

(١) نفس المصدر ، ص ٤١ .

الغرور وعدم الإيمان :

كلما تطوّرت العلوم وتكشّفت أسرار الخلق كلما تخلّص الإنسان بالنسبة ذاتها من القيود التي تفرضها عليه الطبيعة ، وأصبح أكثر تحرراً في إشباع ميوله . وفي هذه الحالة يستطيع الإنسان الذي يوجّه وجهه لله سبحانه وتعالى ويرى نفسه ملزماً بإطاعة أوامره ، أن يضع علمه وحرّيته في إطارهما الصحيح ويستغلّهما لصالح سعادته ومجتمعه .

أما إذا أنكر وجود الله وعصى أوامره ولم يشعر في قرارة نفسه بالمسؤولية تجاه الله ، فإن حرّيته ستودي به إلى الغرور ، وعلمه إلى خدمة غرائزه ، وسيسوقه غروره العلمي إلى عبادة الذات وبالتالي إلى البؤس والشقاء .
قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : شَرُّ الْعِلْمِ مَا أَفْسَدَتْ بِهِ رَشَادَكَ (١) .

العلم في خدمة الغرائز :

إن الحربين العالميتين اللتين وقعتا في فترة قصيرة من عمر الثورة الصناعية هما أكبر دليل على ما ذهبنا إليه في بحثنا هذا ، ففي كلتا الحربين تجرّد الإنسان من الإيمان بالله والشعور بالمسؤولية تجاهه سبحانه وتعالى ، وسحقت الفضائل الأخلاقية والسجايا الإنسانية ، وزال العدل والإنصاف ، ووقعت قوة العلم أسيرة الغرائز والشهوات النفسية ، واستخدمت قدرة الآلة في فناء البشر ، فشاعت الهمجية والوحشية والجريمة والعدوان وعبادة الذات وحب التفوق وما إلى ذلك من خصال رذيلة ، حتى بلغت ما بلغت من الذروة ، فأحلّت الدمار والبؤس والشقاء .

ويمكن القول إن الإنسان اليوم في وضع أشد صعوبة وأكثر خطراً من الحربين العالميتين الماضيتين ، لأن قوة العلم قد ازدادت وقدرة الآلة قد تضاعفت بشكل ملحوظ ، هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية ، فإن عدم الإيمان

(١) غرر الحكم ، ص ٤٤٤ .

وسوء الأخلاق والغرور والأنانية وعبادة الشهوة وحب السلطة والتفوق وما شاكل ذلك ليست بأقل من السابق إن لم تكن أكثر منه .

العلم والإيمان :

إن القدرة المتزايدة للصناعة والآلة وضعف الأخلاق والفضيلة ، أو بتعبير أدق إنعدام التوازن بين القدرة العلمية والقوة الإيمانية قد سلب من الإنسان راحته واستقراره ، وجعل شعوب العالم في حيرة من أمرها تعيش حالة من الاضطراب والقلق . ويخشى في حال اندلاع حرب عالمية أخرى من فناء البشرية أو على الأقل القسم الأكبر منها ، وهذا الوضع المضطرب والقلق هو واحد آخر من سلبات الثورة الصناعية .

حرية الغرائز العدوانية :

«تُنقذ اليوم ميزانيات عسكرية ضخمة في العالم تُشكّل أضعاف ما ينفق على رفاه الشعوب واستقرارها ، وتكرّس الحكومات اهتمامها إما بتعبئة قواتها لقتل الناس أو بإعداد وتحضير وسائل القتل أو بدفع اجور أولئك الذين استأجرتهم لقتل الناس» .

«ففي الولايات المتحدة الأمريكية يُخصّص حوالي خمس مجموع دخل الانتاج القومي لتحديث وتطوير الأسلحة . وعلى هذا لا يمكن اعتبار التحرّر من قيد أسر الطبيعة نعمة من النعم أبداً ، إنما النعمة هي عندما نكون متحررين في أعمالنا ، ممسكين بزمام أمورنا ، متمكّنين من زيادة مساعينا وجهودنا في سبيل خدمة البشر ، ولكن عندما تُعطى الغرائز العدوانية دون غيرها حرّيتها ، فإن الفوائد تنعدم والأضرار تزداد» .

«يروى بعض الأشخاص قصصاً طريفة عن استخدام القبيلة الذرية في الصناعة وما يوقّره ذلك اقتصادياً ، وإذا ما استمر الوضع

السياسي في العالم على ما هو عليه اليوم فإن هذا التوفير لن يعود على الإنسان إلا بالضرر والخسران . وهذا المثال يوضح لنا كيف أن السيطرة على الطبيعة تضع على عاتق الإنسان واجبات ومسؤوليات جديدة . وإذا لم يثبت الإنسان لياقته في الانسجام مع الوضع فإن كل النهضات العلمية وجميع الحركات العلمية الصناعية سوف لا تنفعه بشيء ، وقد توصله إلى طريق مسدود^(١) .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : رَبُّ عَالِمٍ قَتَلَهُ عِلْمُهُ^(٢) .

ارتفاع نسبة الجرائم :

من القضايا المهمة التي باتت تثير قلق الشعوب واضطرابها في عالمنا اليوم ، هو ما تؤكد الإحصائيات الدقيقة حول ارتفاع نسبة الجرائم في المجتمعات الصناعية المتطورة ، وتساعد روح التمرد والعصيان بين شباب تلك المجتمعات ، تماماً كتفشي الأمراض السارية .

علاج الأمراض الإجتماعية :

لقد توصل بعض رجال العلم والتجربة بدراساتهم وتحقيقاتهم إلى نتيجة مفادها أن علاج هذا المرض الإجتماعي والحفاظ على قواعد الحضارة والمدنية ، يكمن في استخدام القوى المعنوية وتعزيز قوة الإيمان والأخلاق ، وتنمية الفضائل الروحية والسجايا الإنسانية إلى جانب التطور العلمي والصناعي ، لكي يتسنى بذلك مكافحة الجرائم المتزايدة في العالم الصناعي وإنقاذ البشرية من خطى الفساد والتفكك .

(١) الآمال الجديدة ، ص ٣٨ .

(٢) فهرست الفرر ، ص ٢٦٩ .

الأخلاق والمعنويات :

«يقول «نهرو» : سواء أردنا التطرّق إلى المسائل المتعلقة بالقنبلة الذرية أو الصواريخ العابرة للقارات والسفن الفضائية ، أو أردنا التفكير حول تركيبتنا الاجتماعية أو قضايا أخرى ، فإن وجهة واحدة تحظى بأهمية بالغة وهي الوجهة الأخلاقية» .

«فلو كنّا نمتلك قنبلة ذرية أو صواريخ عابرة للقارات ، لكانت المسألة الأهم هي في كيفية استخدامها . وكل هذه الإختراعات التي تمت مؤخرأً تفوق حدود الإقتصاد الطبيعي ، ولا يمكن البحث في هذه الأمور بالمعايير الإقتصادية .»

«لا بد من العثور على أساليب جديدة وأساليب أخلاقية ومعنوية ، ولا أدري كيف أوضح ذلك ، ولكن على أي حال يبدو أن أحد هذه الحلول ضروري جداً ، وإلا فلا حلّ لهذه المشاكل» .

«وإن لم نعثر على حلول كهذه ، فإن كل شيء سيكون له طابع التنافس بين القوى من شأنه أن يقضي على ما بلغناه في المجالين العلمي والتقني ، وهذا الموضوع يبدو في نظري من أكثر المشاكل تعقيداً في زمننا الحاضر ويجعل من كل شيء لغزاً»^(١) .

إذاً فالشاب الذي يسعى لتأمين سعادته عليه أن يستفيد من علوم الغرب ، يتعلّمها ويتقنها ليعود على مجتمعه بفوائد الثورة الصناعية ، ولكن في الوقت نفسه عليه أن يحذر الخطايا والآثام ويتعد عن المعاصي .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : **أذْكُرُوا عِنْدَ الْمَعَاصِي ذَهَابَ اللَّذَاتِ وَبَقَاءُ التَّعَاتِ**^(٢) .

(١) أفكار نهرو ، ص ٢٢٤ .

(٢) فهرست الفرر ، ص ١٢٦ .

عمل بلا إبداع :

تفقد قوة العقل لدى معظم العمال في ظل الثورة الصناعية بريقها ،
وتُسحق قدرتهم الطبيعية على الإبداع . ففي المصانع الكبرى في العالم يتم
التخطيط لوضع برنامج عمل يسلب العامل أثناء عمله أية فرصة للتفكير أو إظهار
استعداداته وإبداعاته ، ولهذا فإن عقل العامل يخفت نوره تدريجياً وذكاءه يخف
وذوقه ينطفئ وإبداعه يموت . وبخلاصة فإن الشخصية الإنسانية للعامل في
المؤسسات الصناعية الكبرى تتحطم شيئاً فشيئاً ، ويتحول الإنسان العاقل
الذكي المبدع إلى مجرد آلة من آلات المصانع ، وهذه أيضاً من سلبات الثورة
الصناعية .

يقول «جان ديوي» : يبرز اليوم القسم الأعظم من النشاطات
والفعاليات الإقتصادية التي تتم بواسطة الآلة ، وعموماً فإن هذه
الآلات ليست تحت سيطرة ومراقبة الأفراد الذين يعملون عليها ،
فهم لا يفهمون منها شيئاً ولا يأبهون لأهدافها . وحسبما يقول
«أمرسون» فإن النشاط الآلي يجعل من الفرد والآلة تدريجياً كإبرة
وخيط .

«وعندما يعرف الفرد دوره في أداء عمل ما ، ويطلع على كافة
مراحل العمل الذي يُعتبر نشاطه جزءاً منها ، ويبيدي علاقته
واهتمامه بالعمل وتفصيله الدقيقة ، يفقد العمل أثره الآلي ، أما
إذا أصبح العامل كجزء لا يتجزأ من الآلة ، فإنه لا يمكن أن يبدي
أي اهتمام بعمله ، ولا يمكن اعتبار عمله إبداعاً بأي شكل من
الأشكال»^(١) .

(١) الأخلاق والشخصية ، ص ١٣٩ .

العمل والذوق :

قبل الثورة الصناعية واستخدام الآلة في مجال الصناعة ، كانت كافة اللوازم المنزلية وغيرها تصنع باليد أو بواسطة آلات يدوية بدائية ، فصناعة النسيج والنجارة والخزفيات والبلاط وغيرها من الصناعات كانت تتم بواسطة اليد أو الآلات البدائية ، وكان لكل عامل فيها إشراف على جميع مراحل عمله واهتمام بها ، وكان يسعى بشوق ورغبة إلى تحسين صناعته وتطويرها والإبداع بها ، وكان يبرهن من خلال طرح نقوش جديدة وجميلة للغاية تستخدم في صناعة القماش والبلاط على ذوقه ومهارته ، وكان يتباهى بذلك أمام الآخرين ، وبإيجاز فإن العامل آنذاك كان محباً لعمله وحرصته اليدوية التي كان يؤمن منها لقمة عيشه وينمي ذكائه واستعداده ومهارته وذوقه .

«إن قضية العامل والمصنع ليست كذلك ، فتعدّد قطعات الآلة أو الماكينة وتقسيم العمل على وحدات متعدّدة كل حسب اختصاصها ، يثير الملل لدى العامل . فسيارة عادية تتألف من حوالي خمسة آلاف قطعة مختلفة ، وصناعة كل قطعة تحتاج إلى تخصص ويقوم بها عامل أو مجموعة من العمال ، ولا شك في أن العامل الذي يصنع قطعة صغيرة لسيارة تتألف من خمسة آلاف قطعة لا يرى لعمله قيمة ولن يستمتع به كما يستمتع الحرفي الذي يصنع بيديه مثلاً منضدة كاملة أو قطعة من الفخار . والأهم من كل ذلك فإن محيط المصنع لن يروق للعامل ، لأن أصحاب المصانع لا يفكرون بمصالح العمال وسعادتهم . ويعتبرونهم مجرد يدٍ من الأيدي العاملة . وعامل المصنع الذي لا يعمل لنفسه كالحرفيين القدامى المستقلين ، ليس فقط لا يندفع بشوق ولهفة نحو عمله ، بل وينظر باشمئزاز وحقد إلى صاحب المصنع والآلة والإنتاج المصنعي»^(١) .

(١) مبادئ علم الاجتماع ، ص ٢٨٨ .

التكامل والحرية :

لكل عضو في جسم الإنسان مهمته الخاصة حسب نظام التكوين ، يقوم بعمله بكل حرية ويؤدي ما عليه من وظائف طبيعية ، وإذا ما تم توقيف أحد الأعضاء عن عمله ومنعه من أداء وظائفه الطبيعية ، فإنه سيصبح تدريجياً عضواً عاطلاً وغير مجد .

والعقل شأنه شأن سائر الأعضاء ، فإذا ما كان حراً في أداء نشاطه وعمله القيادي ، فإنه سيكون مثمراً وفعالاً ، أما لو تم تجاهله وسد الطريق أمامه ، فإنه سيضعف ويخفت نوره .

وقد أكد الدين الإسلامي المبين أهمية العقل والعلم والذكاء والفهم بالنسبة للإنسان ، وتم في الأحاديث والروايات الواردة تقييم عقائد الناس وأخلاقهم وأعمالهم على مستوى عقولهم ، وأعقل الناس هو من يستخدم فطنته وعقله في حرفته وعمله ودراسته ومعاشرته للناس ومجالسته لهم وفي كافة شؤونه المادية والمعنوية ، ولا يُقدم على عمل إلا معتمداً على عقله .

العمل والحكمة :

إن العمل الذي يدرّ على الإنسان أرباحاً قليلة لكنه ينمي من ذكائه وقدرته العقلية ويزيد من معلوماته وتجاربه أفضل بكثير من ذاك العمل الذي يعود عليه بأرباح طائلة لكنه يجمّد عقله ويحدّ من ذكائه .

قال الإمام موسى بن جعفر عليه السلام لهشام بن الحكم : يا هشام إن العاقل رَضِيَ بالدُّونِ مِنَ الدُّنْيَا مَعَ الحِكْمَةِ وَلَمْ يَرْضَ بالدُّونِ مِنَ الحِكْمَةِ مَعَ الدُّنْيَا^(١) .

ثمة أعمال كثيرة في عالمنا الصناعي والآلي الحاضر ينشط فيها العقل

(١) تحف العقول ، ص ٣٨٧ .

والذكاء والذوق والإبداع . وإذا ما اختار الشاب ضمن حدود لياقته وكفائته أحد هذه الأعمال ، فإنه يستطيع من جهة تأمين لقمة عيشه ، وتنمية عقله وذكائه من جهة أخرى .

العامل والصناعات الثقيلة :

إن الشاب الذي يعمل في إحدى المؤسسات الصناعية الكبرى ، وعمله اليومي ليس سوى عمل بسيط وسطحي لا يحتاج لأي مجهود فكري لأدائه ، عليه أن يخصص ساعات من أوقات فراغه لمطالعة الكتب والمقالات العلمية ، ويشارك في مجالس أهل العلم والفضيلة وبحث معهم في شتى المسائل ، وذلك لكي لا يخفت نور عقله ولا يضعف ذكاؤه ولا يزول ذوقه وإبداعه ، وليحرك قواه المعنوية والعقلية .

كان أمير المؤمنين علي عليه السلام يقول : رَوَّحُوا أَنْفُسَكُمْ بِبَدِيعِ الْحِكْمَةِ ، فَإِنَّهَا تَكِلُ كَمَا تَكِلُ الْأَبْدَانُ ^(١) .

الترفيه والترويح عن النفس :

«تتوقف قوة الفكر والذكاء عن العمل تدريجياً لدى الإنسان الذي يؤدي عملاً روتينياً مكرراً لا يحتاج إلى جهد فكري أو ذكاء معين ، أما إذا عمل هذا الإنسان خارج نطاق عمله على تنشيط فكره واختبار ذكائه عن طريق المطالعة أو تعلم فن معين أو التسلية الهادفة ، فإنه يسهم في تنمية قواه الفكرية .»

«ولو اعتدتم على اللهو ببعض أنواع التسلية التي لا تحتاج إلى قوة جسمية أو فكرية معينة ، فإن نتيجة ذلك ستكون ضعف قوة التفكير لديكم شيئاً فشيئاً حتى تزول بالنهاية . إن الشخص الذي تستقطب السينما كل اهتماماته ، ولا عمل له غير الجلوس على المقاعد

(١) الكافي ١ ، ص ٤٨ .

المريحة لدور السينما ومشاهدة قصص الحب والخيال التي هي من نتاج الآخرين وثمرة أفكارهم ، أشبه ما يكون بالطفل الذي يلقمه الآخرون طعامه ، ومثل هذا الشخص يفقد تدريجياً قدرته على مواجهة الحياة الواقعية (التي تختلف تماماً عن الأحداث الخيالية التي تعرضها دور السينما) ، ولا يعود بمقدوره التفكير بشؤون الحياة ، لأنه يدور دائماً في فلك أحلامه التي تكوّنت لديه من خلال مشاهدة الأفلام السينمائية»^(١) .

مسؤولية التلميذ :

ينبغي على التلميذ أن لا يعتمد على قوة ذاكرته فقط ، ويقتنع بحفظ دروسه عن ظهر قلب ، لأن دراسة مثل هذا التلميذ أشبه ما تكون بعمل العامل في شركة لصناعة السيارات ، حيث لا حركة للعقل والذكاء ولا أثر للذوق والإبتكار والإبداع . فدراسة ذاك التلميذ وعمل هذا العامل لا يختلفان عن عمل آلة صناعية تدور على الدوام لكنها لا تعلم عن عملها شيئاً ولا تدري ماذا تفعل .

ومن هنا ينبغي على التلميذ الذي يريد أن يدرس لينجح ويصبح عالماً حقيقياً أن يستثمر عقله وذكاءه في دراسته ، وأن يفهم ما يتعلم ويعي ما لم يكن يفهمه ، حينذاك يستطيع أن ينجح في الوصول إلى مستويات عالية من التعليم ، ويتفوق في دروسه .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : مَنْ أَكْثَرَ الْفِكْرَ فِيمَا تَعَلَّمَ اتَّقَنَ عِلْمَهُ وَفَهِمَ مَا لَمْ يَكُنْ يَفْهَمُ^(٢) .

(١) النمو والحياة ، ص ٢٧٢ .

(٢) فهرست الغرر ، ص ٣١٦ .

المحاضرة الثامنة والعشرون

حول : الشاب وأوقات الفراغ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله تبارك وتعالى في محكم كتابه : ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾^(١) .

ضرورة الترفيه في الحياة :

إن الترفيه عن النفس في حياة الإنسان ضرورة لا بد منها يقوم بها الطفل عن طريق اللعب بالألعاب والدمى ، وتتحقق في الكبر بصورة مختلفة حسب التربية الأسرية وظروف البيئة الاجتماعية .

وتعتبر الرغبة في الترفيه عن النفس من الرغبات الطبيعية التي تكمن في أعماق الإنسان منذ نشأته وحتى آخر عمره ، وإرضاء هذه الرغبة يولد نوعاً من السرور والنشاط لدى جميع الناس مهما اختلفت أعمارهم .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : السُّرُورُ يَبْسُطُ النَّفْسَ وَيُثِيرُ النَّشَاطَ^(٢) .

الترفيه وراحة البال :

ليس للأعمال الترفيهية أية قيمة اقتصادية ، لكنها ذات تأثير كبير ومفيد

(١) سورة محمد ؛ الآية : ١٤

(٢) فهرست الغرر ، ص ١٥٧

على النشاطات الاقتصادية والوظائف الإجتماعية . فمن طريق الترفيه يحصل الجسم والروح على حاجتهما ، وبه يسر الإنسان ويرتاح به . والترفيه يمنح الإنسان مزيداً من النشاط والإندفاع نحو السعي والعمل ، ويُعدّه خير إعداد لخوض المجالين الإقتصادي والإجتماعي .

عن الإمام الرضا عليه السلام : **إَجْعَلُوا لَأَنْفُسِكُمْ حَظًّا مِّنَ الدُّنْيَا بِإِعْطَائِهَا مَا تَشْتَهِي مِنَ الْحَلَالِ وَمَا لَا تَتَلَمُّ الْمَرْوَةَ وَلَا سَرَفَ فِيهِ ، وَاسْتَعِينُوا بِذَلِكَ عَلَى أُمُورِ الدُّنْيَا** ^(١) .

الترفيه وزوال التعب :

يساهم الترفيه في إنقاذ الإنسان من ملل الأعمال الروتينية والمتعبة ، ويخفف لفترة قصيرة ثقل المسؤولية عن كاهله ، ويخلصه مؤقتاً من قيود وأعباء الواجبات اليومية ، وبالتالي فإن الترفيه حاجة ملحة لا بديل عنها لإراحة البدن وإزالة التعب الناجم عن العمل .

عن أمير المؤمنين علي عليه السلام : **لِكُلِّ عَضْوٍ مِّنَ الْبَدَنِ اسْتِرَاحَةٌ** ^(٢) .

فرصة ثمينة :

إن ساعة من الترفيه تعتبر إحدى أفضل الفرص الثمينة في حياة الإنسان . فعند الترفيه ينشط ذوق الإنسان وإبداعه ، وتدبّ فيه روح النشاط ، وتفتح عواطفه وأحاسيسه ، فيشعر المرء في قرارة نفسه بالحرية والإنطلاق .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : **أَوْقَاتُ السُّرُورِ خُلُسَةٌ** ^(٣) .

(ان العقلاء يفتنمون الفرص ويستثمرونها لصالح سعادتهم) .

(١) بحار الأنوار ١٧ ، ص ٢٠٨ .

(٢) غرر الحكم ، ص ٢٤٥ .

(٣) فهرست الفرر ، ص ١٥٧ .

«تعتبر وسائل اللهو والترفيه بمختلف أنواعها أداة لتحرير العواطف للمكبوتة والمشاعر الحبيسة ، والفرار من الواقع المرّ الذي عادة ما نواجهه في حياتنا . يقول «كيمبال يانغ» في كتابه حول علم الاجتماع : إن وسائل الترفيه تسمح للأفراد بالتحرّر ولو لساعات من مسؤولياتهم كآباء أوقادة مجتمعات ، والتخلص من القلق والإضطراب ، ومن هنا نجد الغالبية من الناس يلجأون إلى التمتع بالمشاهد المضحكة والتجمهر في مناطق الترفيه والتسلية»^(١) .

الإسلام والترفيه :

لم يهمل الإسلام الرغبة في الترفيه عن النفس لدى الإنسان كغيرها من الرغبات الطبيعية ، وإرضاءها ضمن حدود العقل والمصلحة . وقد أوردت بعض الروايات الإسلامية مسألة إرضاء ما تشتهي النفس ضمن المشروع إلى جانب مسألة إمرار المعاش والمعاد ، وأكدت على أن المسلم الكفو يخصّص جانباً من أوقاته لنيل اللذائذ المباحة التي تدخل عليه السرور والبهجة ، وتعدّه نفسياً لأداء واجباته الدينية والدنيوية .

تقسيم ساعات النهار :

روي عن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال : **وَأَجْتَهِدُوا أَنْ يَكُونَ زَمَانُكُمْ أَرْبَعِ سَاعَاتٍ . سَاعَةٌ لِلَّهِ لِمُنَاجَاتِهِ وَسَاعَةٌ لِأَمْرِ الْمَعَاشِ ، وَسَاعَةٌ لِمُعَاشَرَةِ الْإِخْوَانِ الثَّقَاتِ وَالَّذِينَ يُعَرِّفُونَكُمْ عُيُوبَكُمْ وَيُخْلِصُونَ لَكُمْ فِي الْبَاطِنِ ، وَسَاعَةٌ تُخْلُونَ فِيهَا لِلذَّائِبَاتِكُمْ ، وَبِهَذِهِ السَّاعَةِ تَقْدِرُونَ عَلَى الثَّلَاثِ السَّاعَاتِ**^(٢) .

لا تبرز الحاجة إلى الترفيه والرغبة في اللهو والتساية إلا عندما يفرغ الإنسان من التنكيس بأمر معاشه ويهيء مقومات حياته . فالإنسان الذي يكذب ويشقى طوال أيام الأسبوع من أجل تأمين لقمة العيش لنفسه وعياله لا يمكن أن

(١) علم الاجتماع ، ص ٢٩١ .

(٢) بحار الأنوار ، ١٧ ، ص ٢٠٨ .

يفكر بالترفيه والتسلية ، لأن ما يفكر به هو السعي لإتمام عمله واستلام أجوره. ليؤمن بها قوت يومه . لكنه عندما يحلّ مشاكله ويؤمن على غده ، يطمئن ويرتاح ، ويجد في نفسه الرغبة في الترفيه ، تدفعه لإرضاء أمانيه ، حينذاك فقط ينطلق في طريق اللهو والترفيه بحثاً عن اللذة والإستمتاع .

الترفيه بعد تأمين المعاش :

«يحظى الترفيه بأهمية خاصة ويستأثر بكامل الإهتمام عندما يبلغ المجتمع درجة التكامل المطلوبة ، ولا يعود هناك استمرارية للصراع من أجل البقاء ، ويستطيع الإنسان الإنصراف إلى الترفيه والتسلية في أوقات معينة . وكلما نجح الإنسان في تأمين احتياجاته الأساسية للحياة ، برزت في أعماقه الرغبة في الترفيه وأحرزت مكانة مهمة لديه . وتشير التقارير العائدة للثقافات الغابرة إلى وجود علاقة كبيرة بين الزمان الذي يخصّص للترفيه ومستوى وسائل الترفيه والتسلية وتطورها وبين رفاهية المجتمع على الصعيد المادّي»^(١) .

وتجدر الإشارة إلى أن سلاعات الفراغ قد ازدادت بشكل ملحوظ لدى الإنسان نتيجة الثورة الصناعية وانتشار الصناعة الآلية ، وباتت مسألة الترفيه والتسلية مسألة عامة وشاملة .

مرحلة الصناعات اليدوية :

خلال المرحلة الزراعية والمراحل التي سبقت الثورة الصناعية حيث كانت الأعمال تنجز إما باليد أو بواسطة آلات بدائية ، كان الجزء الأكبر من وقت الفرد وقواه يُستهلك في طريق تأمين لقمة العيش ومتطلبات الحياة ، فعندما كان ينهي عمله لم يكن يمتلك قوة إضافية ليصرفها في الترفيه والتسلية ، إذ كان يستلقي

(١) علم الإجتماع ، ص ٢٨٦ .

في فراشه ويخلد إلى الراحة ليزيل عنه تعب اليوم ويستعيد نشاطه لعمل الغد .
ولم يذق طعم الترفيه غير المترفين والأغنياء الذين لا حاجة لهم للكّد من أجل
لقمة العيش .

الآلة محل اليد العاملة :

لقد حلّت الآلة في عالم الصناعة اليوم محل اليد العاملة ، وباتت تنجز
كل الأعمال التي كانت تنجز بالأمس باليد العاملة وقوة سواعدها وطاقاتها ،
وأخذ الإنتاج يزداد ويتضاعف بشكل كبير وبوقت أقل وجهد أيسر .

فالحائك كان بالأمس يعمل إثنتي عشرة ساعة يومياً مستخدماً فيها يديه
وقدميه وعينيه وفكره وسائر قواه الجسمية ، لينتج عدة أمتار من القماش ذي
الجودة المتوسطة ، يؤمّن له بيعها دخلاً محدوداً يستعين به على أمره
الحياتية ، ولا يكاد ينهي عمله اليومي إلّا وهو متعب خائر القوى لا رغبة له في
الترفيه ولا قدرة عليه .

وفي عصرنا الحاضر حيث حلّت الماكينات الآلية المتطورة محل الآلات
البدائية والأيدي العاملة في صناعة النسيج ، فقد تغيّرت أوضاع عمال هذه
الصناعة كلياً ، فمن جهة حلّت الطاقة الكهربائية والقدرة الآلية محل الأيدي
العاملة التي أصبح عملها يقتصر على الإشراف على عمل الماكينات والقيام
ببعض الأعمال الخفيفة أحياناً ، ومن جهة أخرى ساهمت سرعة عمل الماكينات
وقدرتها الإنتاجية في تقليص ساعات العمل ، بمعنى أن عامل النسيج عندما
ينتهي من عمله يكون لديه متسع من الوقت واحتياطي كبير من الطاقة يدفعانه
على عجل إلى الإستفادة من وقت فراغه وصرف باقي طاقته في الترفيه
والإستمتاع .

الإنسان ووقت الفراغ :

«يقول «جورج لوندبرغ» في كتابه «البطالة» :

إن أيام البطالة هي عبارة عن أيام نكون فيها أحراراً من أهم الواجبات التي نتقاضى عليها أجراً أو تلك المفروضة علينا ، وجاءت البطالة نتيجة تطوّر الإختراعات التي قلّلت من عمل الإنسان .

«في العام ١٨٤٠ بلغت ساعات العمل الاسبوعي للفرد حوالي ٨٤ ساعة ، وتم في العام ١٩٣٠ تقليصها إلى ٥٠ ساعة وأقل ، وها هي ساعات العمل الاسبوعي تخفّض في الكثير من بلدان العالم إلى ٤٠ ساعة ، ويُحتمل أن يتم تخفيضها إلى أقل من ذلك»^(١) .

لقد كان الناس في العصور الماضية يعتبرون أن العمل هو المحور الأساسي والهدف الرئيسي للحياة الإجتماعية ، أما الترفيه فكان أمراً ثانوياً برأيهم ليس بالضرورة القيام به ، ذلك أن الأعمال يومذاك كانت تنجز باليد وبطاقه الإنسان المحدودة ، وبالنتيجة لم يكن مستوى الإنتاج وثيراً ممّا يحتم على الإنسان بذل المزيد من العطاء للحصول على مزيد من الإنتاج .

الآلة وزيادة الإنتاج :

وقد انعكس الأمر تماماً في عصرنا الحاضر ، حيث أصبح الترفيه والتسلية والسياحة محوراً أساسياً وهدفاً رئيسياً للحياة ، وباتت ساعات العمل مجرد فترة بسيطة تفصل العامل عن وقت فراغه وترفيهه وتسليته . فالأعمال باتت تنجز بواسطة الآلات والماكنات ، وهذا ما ساهم في رفع مستوى الإنتاج إلى الحدّ الذي بات فيه إنتاج بعض الحاجيات يفوق الطلب بأضعاف مضاعفة .

«لقد كان الإنسان في الماضي مضطراً للقيام بأكثر الأعمال صعبة ومشقة من أجل تأمين متطلبات الحياة ، وكان يعمل على الدوام ، وبالتالي كان ينظر إلى العمل نظرة احترام وإلى البطالة نظرة

(١) علم الاجتماع ، ص ٢٩٩ .

اشتمزاز ، إلا أن الأوضاع قد تغيرت اليوم كلياً ، حيث لم يعد الإنسان ينظر باحترام كما في السابق إلى العمل نتيجة ارتفاع سقف إنتاجه إلى ما يفوق استهلاكه وذلك بوقت أقل من السابق وجهد أيسر . ومن هنا فإنه بات على إله العمل أن يهبط من عرش جلاله وجبروته ويتخلّى عن العرش لإله الترفيه . وعلينا نحن أن ندرك أن أيام البطالة أي الأيام التي يجب أن تُقضى بالترفيه والراحة والاستجمام هي تلك الفترة التي تجعل الحياة تستحق العيش فيها ، وما طاقتنا وتحملنا للأيام الأخرى إلا لأنها تؤثر في قيمة أيام البطالة وأهميتها»^(١) .

زيادة ساعات الفراغ :

لقد ساهم المهندسون منذ أمد بعيد في إيجاد تحوّل كبير في مجال الصناعات الآلية كان له أثره على حياة شعوب الدول الصناعية ، فمن ناحية أصبحت الآلات والماكينات بمعظمها تعمل بشكل آلي ولم يعد هناك مجال لعمل الأيدي العاملة ، وبتيجة هذا التحوّل أصبح العامل لا يستنفد خلال ساعات عمله من قواه شيئاً ، وعندما يحين وقت الإنصراف من العمل ، يترك العامل محيط عمله بشغف باحثاً عما يسلي به نفسه ، ويحرر قواه التي لم ينقص منها شيء فيما يجلب له اللذة والاستمتاع . ومن ناحية ثانية ، فإن التغييرات التي خضعت لها الصناعات قد ساهمت في سرعة عمل الآلة وارتفاع مستوى إنتاجها ، وكانت نتيجة ذلك أن تقلّصت ساعات عمل الأيدي العاملة وازدادت ساعات فراغها .

وكان لمكنة الآلة وازدياد ساعات الفراغ والبطالة دورهما في ارتفاع نسبة الجرائم وبروز عقبات ومشاكل كثيرة جداً بوجه البلدان الصناعية المتطورة . وما زال علماء الاجتماع يبحثون ويفكرون بما يمكن أن يملأ ساعات الفراغ عند

(١) نفس المصدر ، ص ٣٠١ .

الناس ، وكيف يقضون أوقات بطالتهم ، وما هي السبل الكفيلة بعدم انحراف الناس وفسادهم وبالتالي بؤسهم وشقائهم نتيجة أوقات الفراغ .

الجرائم فيما يسمى بالبلدان المتطورة :

«يقول رئيس وزراء الهند الراحل «نهر» : إن من أهم المسائل التي نواجهها اليوم وستواجهها الولايات المتحدة الأمريكية وسائر البلدان المتطورة اقتصادياً خلال السنوات القليلة القادمة ، هي مسألة ساعات الفراغ والبطالة . وهذه المسألة تبدو في البلدان النامية كالهند مثلاً من الأهمية أقل منها في الولايات المتحدة وأوروبا لا سيما في الدول الاسكندنافية ، وهي في أمريكا أشد من أي بلد آخر ، ويبدو أنها متجهة نحو مزيد من التفاقم في المستقبل . كلنا نقرأ في الصحف العالمية مقالات وموضوعات حول الفساد والجرائم في جيل الشباب وتدهور مبادئ الأخلاق في الدول الغنية والمجتمعات المترفة ، ولكي نواجه هذه الحالة الناجمة عن ازدياد ساعات الفراغ لدى الإنسان ، ماذا علينا أن نفعل ؟ . والجواب على مثل هذا السؤال يحظى بأهمية بالغة ، ذلك أننا إن لم نعالجها بشكل دقيق وسليم ، فإن نوعاً من التفسخ الخلقي سيسود المدنية بحدّ ذاتها»^(١) .

«عندما تجدون مخرجاً لقضية البطالة سترون أنفسكم أمام قضية أصعب وهي كيفية استغلال أوقات الفراغ . فما دام الإنسان يعمل ويسعى من أجل البقاء سواء كان هذا العمل شاقاً كما هو عليه في بلداننا أو سيراً كما هو في بعض البلدان المتطورة ، فإنه مشغول . ولكن عندما تحلّ قضايا الاجتماعية والاقتصادية ويساهم تطور الصناعات في رفع أعباء كبيرة عن كاهله ، فإننا سنواجه دون شك

(١) أفكار نهر ، ص ٢١٩ ، ٢٢٣ .

مشاكل جديدة لم يسبق لنا أن واجهناها ، مثل جرائم الشباب
وعمليات الاغتصاب وازدياد القتل وتفشي الادمان على تعاطي
المسكرات وتمرد القوى الهدامة والفوضى ومئات الجرائم
والميكروبات الأخرى التي تسبب كل منها أمراضاً نفسية وانحطاطاً
خلقياً»^(١) .

قضية حياتية :

يقول «صامويل كينغ» : جعل انخفاض ساعات عمل الإنسان
خلال السنوات الأخيرة ، من مسألة الترفيه أو ما يقوم به
الإنسان خلال ساعات فراغه من نشاط ، قضية اجتماعية حياتية
استأثرت باهتمام معظم الباحثين والمحققين الاجتماعيين . وتفيد
الدراسات التي أجراها هؤلاء الباحثون والمحققون أن اختلالات
ستطراً على حياة الإنسان وشخصيته طالما أنه لم يستطع استغلال
وقت فراغه المتزايد بشكل عقلائي . فالإنسان كان بطبعه يميل لأن
يكون له وقت فراغ أطول ، لكنه اليوم شعر بالخطر الناجم عن
عدم استيعابه لأوقات فراغه المتزايدة ، وهو يخشى من أن يؤدي
عدم قدرته على استغلال هذه الأوقات بشكل سليم إلى بروز
أخطار تهدده ومجتمعه ، ومن هنا أصبحت مسألة إملء ساعات
الفراغ والبطالة أكثر المسائل تعقيداً بالنسبة لمعظم دول العالم لا
سيما الغربية منها»^(١) .

الثروة في الإقتصاد الصناعي :

لقد عزز توسيع الاقتصاد الصناعي من القدرة المالية للدول المتطورة
ودعم من البنية المالية لشعوب هذه الدول ، وساهم في إفساح المجال لهذه
الشعوب لإرضاء غرائزها وميولها النفسية . فقد اتجهت الصناعات في البلدان

(١) علم الاجتماع ، ص ٢٩٩ .

المذكورة نحو الاعتماد على الآلات والماكينات المتطورة وذلك لزيادة الإنتاج وتيسير حياة الشعوب ، مما ساهم في استقرار تلك الشعوب ورفاهيتها . وفي المقابل راحت الشعوب تهدر طاقاتها المختزنة في تيار الملذات والشهوات والبدخ والفساد بدل السعي والعمل ، وبخلاصة ، فإن الثروة الهائلة والحياة المترفة والسعي القليل والفراغ الكبير والطاقة والنشاط ، كلها تعتبر ظروفًا مناسبة لفلتان الغرائز وطغيان الإنسان المغرور والمستبد .

قال تعالى : ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ * أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى﴾ (١) .

قال رسول الله ﷺ : فَوَاللَّهِ مَا الْفَقْرَ أَحْسَى عَلَيْكُمْ ، وَلَكِنِّي أَحْسَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ لَكُمْ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَيَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا وَتُهْلِكُكُمْ كَمَا أَهْلَكْتَهُمْ (٢) .

إنهيار مبادئ الأخلاق :

«يقول «ويل ديورانت» : إن ثروة بلادنا في عصرنا الحاضر قد بدلت المبادئ الأخلاقية الثابتة والقاسية للذين هاجروا إلى أمريكا سابقاً أكثر من أية ثورة أو نهضة أدبية ، وجعلتها متحررة من القيود . فعطلة الاسبوع التي كانت مخصصة للراحة والعبادة قد تحولت إلى فرصة يبحث فيها الإنسان عن لذائذ الدنيا غير المحددة ، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على تغيير أخلاقنا وتحررنا من كل القيود» .

«عندما يكون الإنسان فقيراً يكون من السهل عليه أن يصبح ثقيلاً فاضلاً ، ويكون قادراً على ترك الملذات إن كانت ستكلفه ضالماً . أما الإنسان الذي يكون جيبه مليئاً بالمال ويستطيع أن يخفي نفسه

(١) سورة العلق ، الآيتان : ٦ و ٧ .

(٢) مجموعة ورّام ، ١ ، ص ١٣٢ .

عن عيون جيرانه ، فإنه يصعب عليه أن يكون تقياً فاضلاً . وعشاً يحاول علماء الأخلاق أن يشتكوا ويتذمروا مما بلغه الإنسان من حب الراحة والرفاهية ، فهذا الحب قائم في أعماقنا منذ نشئنا وقد وجدنا اليوم الفرصة لإظهاره ، وسيبقى الوضع على هذا المنوال ما لم يتغير الوضع الاقتصادي . فما دام تطوّر الآلة والصناعة يزيد من أوقات فراغ الإنسان ويستبدل العمل اليدوي بالعمل الآلي والعقلي ، فإن الطاقة التي ينبغي أن تستغل في الأعمال التي تتطلب جهداً جسمياً معيناً ستظل مختزنة في أجسامنا وستزيد يوماً بعد آخر من تحسّسنا إزاء الشهوات»^(١) .

ضرورة تعديل الرغبة في الترفيه عن النفس :

تعتبر الرغبة في الترفيه عن النفس من الرغبات الفطرية التي أوجدها الله سبحانه وتعالى في أعماق الإنسان ، وينبغي أن يُقدم الإنسان على تعديل هذه الرغبة كسائر الغرائز والرغبات الطبيعية الأخرى ، ويسعى إلى إرضائها في الوقت المناسب وبالمقدار الصحيح بعيداً عن الإفراط والتفريط .

وقد استأثر هذا الموضوع باهتمام الرسول الأكرم ﷺ والأئمة الأطهار عليهم السلام الذين أكدوا في الكثير من أحاديثهم ورواياتهم على أهمية هذا الموضوع .

أما في العالم الصناعي المتطور اليوم حيث ازدادت ساعات فراغ الإنسان وتضاعف اهتمامه بمسألة الترفيه والاستمتاع ، فإن العلماء والمفكرين وللأسف لم يفكروا بهذا الموضوع ولم يأتوا بمنهج شامل وكامل يتوافق وسعادة الإنسان ومصطلحته ، وهذا ما شجّع الكثير من الشباب في الدول الصناعية على الإنفراد بأرائهم دون أدنى اهتمام بالتوجيهات والارشادات الصحيحة ، واستغلال أوقات

(١) مباهج الفلسفة ، ص ٩٦ .

فراغهم في ارتكاب الرذائل والمحرمات ، جالبين لأنفسهم وتحت شعار الترفيه
التعاسة والشقاء .

عدم الإهتمام بأوقات الفراغ :

«إن نشاط أوقات الفراغ الذي كان في الماضي ينحصر ضمن نطاق البيت قد شهد تغييرات مذهلة نتيجة تهافت القرويين على المدن والاختراعات العظيمة التي توصل إليها الإنسان ، كاختراع السيارة والسينما والراديو والتلفاز . وللأسف فإن ما نجم عن ازدياد وقت الفراغ لدى الإنسان - كما يقول «لوند برغ» في كتابه لم يحظ بأهمية كبيرة من جانب علماء الاجتماع الذين لا زالوا يعيشون تحت وقع النظرية القديمة القائلة بأن الإنتاج أهم من الاستهلاك والتي تهتم بالعمل أكثر من البطالة . ويبدو أن البطالة باتت تكتسب مزيداً من الأهمية يوماً بعد آخر» .

«حتى ان بعض علماء الاجتماع يرون في موضوع البطالة بأنه موضوع عاطفي ويضعونه خارج أطر أبحاثهم العلمية ، بينما القضية هي عكس ذلك تماماً وينبغي أن تحظى بكامل اهتمامهم ، لأن من شأن الأبحاث العلمية وحدها أن تحدّد ما يتوجب على الإنسان أن يقوم به أثناء وقت فراغه بما يؤمن له الحد الأقصى من الفائدة ، حتى اننا يمكننا القول بأن طريقة إملاء أوقات الفراغ من شأنها أن تجسّد حضارة الشعوب ومدنيّتها»^(١) .

الإسلام واللذات :

يرغب الشاب بطبعه إلى استغلال أوقات فراغه فيما يجلب له المتعة والنشاط ، ليسرّ نفسه ويطيّب خاطره ويحصل على منافع له ، لكنه بحاجة أكيدة

(١) علم الاجتماع ، ص ٣٠١ .

إلى من يهديه ويرشده إلى الطريق القويم كي لا يتمادى في إرضاء هذه الرغبة إلى حد الإفراط .

وقد حرص الأئمة الأطهار عليهم السلام في وصاياهم ومناهجهم التربوية على تعديل الرغبة في الإلتذاذ وتحديده وفق ما يتطابق مع حدود المصلحة والسلامة العامة ، فأجازوا الاستمتاع باللذات التي تبعث السرور في النفس ولا تلحق ضرراً بسعادة الإنسان ، كما أكدوا صلوات الله وسلامه عليهم على أن اللذات المباحة من شأنها أن تعين الإنسان في أداء واجباته الروحية والمعنوية .

عن أبي عبد الله الإمام الصادق عليه السلام : يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ الْعَاقِلِ أَنْ يَكُونَ لَهُ سَاعَةٌ يُفْضِي بِهَا إِلَى عَمَلِهِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَسَاعَةٌ يُلَاقِي إِخْوَانَهُ الَّذِينَ يُفَاوِضُهُمْ وَيُفَاوِضُونَهُ فِي أَمْرِ آخِرَتِهِ وَسَاعَةٌ يُحَلِّي بَيْنَ نَفْسِهِ وَلَذَائِهَا فِي غَيْرِ مُحَرَّمٍ فَإِنَّهَا عَوْنٌ عَلَى تِلْكَ السَّاعَتَيْنِ (١) .

أما اللذات التي تضرّ بجسم الإنسان ونفسه ولا تتوافق وسعادته وسلامته وتودي به إلى التعاسة والشقاء فإنها محرّمة في الإسلام ، وقد حدّر أئمتنا عليهم السلام من أتباعها .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : نَزَّهُوا أَنْفُسَكُمْ عَنْ دَنَسِ اللَّذَاتِ وَتَبِعَاتِ الشَّهَوَاتِ (٢) .

وعنه عليه السلام : لَا خَيْرَ فِي لَذَّةٍ تُوجِبُ نَدَمًا وَشَهْوَةً تُعْقِبُ أَلَمًا (٣) .

الإفراط في اللذات

لقد ساهم تطور العلوم الطبيعية والصناعات الآلية في إيجاد ظواهر ممتعة جديدة للإنسان . وقد شكّل ازدياد ساعات الفراغ والحريات المفرطة أرضية

(١) الكافي ٥ ، ص ٨٧ .

(٢) غرر الحكم ، ص ٧٧٥ .

(٣) فهرست الغرر ، ص ٣٥٨ .

مناسبة للإنسان لاستغلال هذه اللذات والمتع . فتم تكريس الطاقات المالية والإنسانية لإنشاء مراكز اللهو والفساد ، وقد ازدادت هذه المراكز باطراد يوماً بعد يوم . ووجد الشباب المهووس الفرصة مؤاتية لإصابة المزيد من اللذات متجاهلين أن بعض تلك اللذات يتعارض ومصالحهم ويتنافى وسعادة الإنسان وسلامته ، ويجلب له بالتالي تعاسة لا يمكنه التخلص منها .

« أصبح للرجبة في اللهو والترفيه بعداً عالمياً ، فجميع أفراد البشر يبدون تعلقاً كبيراً بأيام البطالة - أي العطل - ويعتبرون اللهو والترفيه من حقوقهم الطبيعية ، وفي أمريكا راحت مراكز اللهو والفساد تزداد بشكل كبير ، وتُصرف من أجلها ميزانيات طائلة»^(١) .

«يقول «جان ديوي» : لا تتعارض الرغبة في الترفيه مع الأخلاق ، فالرغبة في النشاط والاختلاط بالمجتمع من أكثر قواعد الأخلاق والسلوك المطلوب رسوخاً ، ولكن الأمر قد اختلط على الإنسان بين الترفيه والنشاط وبين الإنفعالات الخاصة والإثارات القوية ودغدغة الحواس والمشاعر وإثارة الشهوة لإصابة لذة آنية دون الإلتفات للعواقب الوخيمة المترتبة على ذلك . وهذا النوع من الترفيه والإلتذاذ للدليل على اضمحلال الإنسان وذوبانه ، فالنشاط الذي يفقد دافعاً طبيعياً أو إثارة عادية يجد لنفسه مجرى منحرفاً منفصلاً تماماً عن سلوكية الإنسان وأخلاقه ومودياً به إلى الانحراف والفناء»^(٢) .

المعصية تحت شعار الترفيه :

ما أكثر الشباب الذين أساءوا فهم معنى اللهو والترفيه فغرقوا في المعاصي

(١) علم الاجتماع ، ص ٣٠٣ .

(٢) الأخلاق والشخصية ، ص ١٥٢ .

من إدمان على الخمر وتعاطي المخدرات ولعب القمار والقيام بما يتنافى والعفة والأخلاق ، ففسدوا شخصيتهم لدنائتهم وجلبوا لأنفسهم عار الفضيحة وسوء السمعة .

وما أكثر شباب اليوم الذين لم يتعظوا ويعتبروا من ذل أولئك وهوانهم ومن يؤسهم وشقائهم ، فراحوا يسيرون على نهج من سبقهم وراء اللذات ، معرضين أنفسهم لخطر الإنحراف والسقوط .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : **عَجِبْتُ لِمَنْ عَرَفَ سُوءَ عَوَاقِبِ اللَّذَاتِ كَيْفَ لَا يَعِفُّ^(١)** .

وهنا لا بد من أن نوضح للشباب أن عمر الإنسان هو أغلى ما في حياته ، وهذا العمر يجب أن يكرس جزء منه لساعات العمل والقسم الآخر للترفيه عن النفس والسياحة والاستجمام ، والإنسان العاقل هو ذاك الذي يقضي ساعات ترفيهه بما يعود عليه بالنفع والفائدة ، ويستفيد من أوقات فراغه لصالح جوانبه المادية والمعنوية . وبعبارة أوضح نقول ليس معنى الترفيه واللهو اللامبالاة والإباحية والإنحلال ، ولا هو بمعنى البطالة وهدر الوقت ، ولا يعني الترفيه أيضاً اللجوء إلى المعاصي والآثام ، ولا هو بمعنى البؤس والشقاء ، بل الترفيه عبارة عن نشاط مريح ولذيذ يقوم به الإنسان خارج نطاق عمله اليومي وبالتحديد ضمن ساعات فراغه مما يبعث على راحة باله وسروره ويترك على جسمه وروحه آثاره المفيدة .

الترفيه وتنمية القوى :

«إن الترفيه وسيلة مؤثرة لتنمية القوى الجسمانية والفكرية والأخلاقية للأفراد وعامل مناسب لمنعه عن الإنحراف والجريمة . فالرياضة والترفيه لا يمكن اعتبارهما مجرد لهو ولعب ، بل هما عاملان مهمان لتأمين سلامة الإنسان الفردية والاجتماعية . ويعتبر دعم

(١) غرر الحكم ، ص ٤٩٤ .

وتعزيز الوسائل الترفيهية اليوم من الواجبات الأساسية الملقاة على عاتق الشعوب»^(١) .

«يقول الدكتور «كارل» : إن إرضاء الشهوات بشكل وحشي قد يثير نوعاً من الأهمية ، ولكن لا شيء أبعد منطقاً عن تلك الحياة ، فما هي فائدة الحياة لو كانت تقتصر على الرقص والتجوال حول المدينة بواسطة السيارة والذهاب إلى السينما وسماع الراديو؟ ، فإذا لم يتضمن الترفيه منافع معينة للإنسان ، فإن الفرص التي حصل عليها العمال نتيجة تطور الآلة وجودة الإنتاج ستذهب أدراج الرياح» .

«إن الجهود المبذولة تضيف ما لا يقل عن أربع ساعات يومياً لفترة الحياة ، بمعنى أن الإنسان العاقل إذا ما استثمر الوقت الثمين بحكمة ودراية ، فإن باستطاعته تعلم الكثير وتعزيز قدرته الجسمية والروحية واكتساب الشخصية المناسبة وأداء مسؤولياته كإنسان» .

«يقضي الكثير من العمّال الشباب ثلاث أو أربع ليال اسبوعياً في دور السينما وصلالات الموسيقى ونوادي الرقص ، ويملاؤن بقية أوقاتهم في النهار بمطالعة الروايات والقصص القليلة الفائدة ، كما أنهم يهدرون بعضاً من أعمارهم في الاستماع إلى أكاذيب الراديوهات»^(٢) .

وحرصاً منا على أن يتنفع الشاب من ساعات فراغه بالنحو الذي يليق به ويقضيها في النشاطات المفيدة ، نشير فيما يلي إلى بعض أنواع الترفيه السليم والتسلية الممتعة التي نصح بها الإسلام واهتم بها العالم المعاصر أيضاً ، عسى

(١) علم الاجتماع ، ص ٣٠٣ .

(٢) سنن الحياة ، ص ١٧ .

أن يعتمدوا الشباب في أوقات فراغهم لما في نتائجها من فوائد لأجسامهم وأرواحهم .

السفر والسياحة :

إن من أنواع الترفيه المريح الذي يبعث على نشاط الإنسان وحيويته ويترك آثاراً إيجابية على تحسين وضعه النفسي وصحته الجسمية ، هو السفر . والسفر من وجهة نظر الإسلام واحد من أنواع الترفيه التي تعود على الإنسان باللذة والإستمتاع ، وقد أكدت الأحاديث الشريفة والروايات على أهمية السفر ، شرط أن لا يكون بهدف الإتيان بمعصية أو القيام بما هو غير مباح لكسب اللذات .

في وصية النبي ﷺ لأمير المؤمنين عليه السلام : يا علي لا ينبغي للرجل العاقل أن يكون ظاعناً إلا في ثلاث ، مرمّة لمعاشٍ أو تزود لمعادٍ أو لذة في غير محرّم (١) .

ثمة ثلاثة أنواع من السفر في هذا الحديث الشريف ، النوعان الأول والثاني لا يدخلان في صلب بحثنا لأنهما ليسا سفر سياحة وترفيه ، فالنوع الأول يقوم به الإنسان لكسب معاش وتأمين لقمة العيش ، وهو في الحقيقة سفر لأداء الواجب ضمن ساعات العمل ، والنوع الثاني يقوم به الإنسان لأداء واجب ديني أو تكليف معنوي ، وهو ليس للراحة والإستجمام ، أما النوع الثالث فهو للترفيه عن النفس ، وهذا النوع من السفر يقوم به الإنسان في أوقات فراغه للإستجمام وإصابة المباح من اللذات .

السفر والسلامة :

إن أول أثر مفيد يتركه السفر على الإنسان ويضفي جواً ملائماً على حياته ، هو سلامة الجسم واكتساب الحيوية والنشاط . فالذين يسافرون في أيام عطلهم لإزالة تعب أشهر من العمل المستمر وتجديد القوى ، إنما يساهمون في

(١) وسائل الشيعة ٣ ، ص ١٧٧ .

استعادة سلامتهم وقواهم إلى جانب ترفيهم واستجمامهم .

قال رسول الله ﷺ : سافروا تصحوا^(١) .

وكانت مسألة تغيير الماء والهواء - أي السفر - سائدةً ومتبعةً بشكل طبيعي في العصور الماضية ، وكان يتم عن هذا الطريق معالجة المرضى المصابين بأمراض مزمنة لا علاج لها ، واليوم أيضاً يُعتبر السفر جزءاً من البرامج الضرورية في حياة الناس ، وواحداً من أهم عوامل السلامة . وبشكل عام فقد ثبت طبيّاً أن رتابة الحياة والعمل والغذاء تضرّ بالإنسان وتلف أعضائه بصورة أسرع ، ومن هنا ينبغي أن تصبح مسألة تغيير الحياة وتنوعها جزءاً من البرامج الصحية .

«سافروا وحاولوا أن تتجولوا مشياً على الأقدام واعلموا أن السير يعتبر جزءاً من أفضل أنواع الرياضة ، فسيروا عدة ساعات يومياً على الأقل ، لينشط جريان الدم في أجسامكم وتقوم الغدد الإفرازية وسائر أعضائكم بأداء واجباتها على أفضل وجه ، فتلف أجسامكم السموم وتستعيدون حيويتم ونشاطكم ، وتهذا أعصابكم ، وتغطون في نوم عميق دون الحاجة إلى أقراص منومة . فسفرة مريحة واحدة تترك عليكم أثراً أقوى من مئات الزجاجات من الأقراص والشراب المسكّن والمقويات والحقن»^(٢) .

السفر واكتساب المعلومات :

ثمة أثر مفيد ثان للسفر هو تعزيز قدرة الإدراك واكتساب المزيد من المعلومات وتقوية الشخصية . فالإنسان الذي يسافر في عطلة بهدف السياحة

(١) مستدرك الوسائل ٢ ، ص ٢٢ .

(٢) مجلة سلامة الجسم ، العدد ٦ ، السنة ٢٢ .

والإستجمام ، ويجول في المدن والبلدان ، بجند أسامه فرصة مناسبة للتعرف على مختلف الأوضاع الطبيعية والاجتماعية في تلك البلدان ويلمس عن كتب ما بلغته من رقي وحضارة أو تراجع وتخلف ، ويشاهد تطور الحالة العمرانية أو تأخرها فيها ، ويتعرف على شعوب مختلفة عادات وتقاليد متفاوتة تستأثر باهتمامه وتشغل عليه تفكيره ، ويحاول الإستفادة منها علمياً وعملياً لرفع قيمته الشخصية .

قال النبي ﷺ : سافروا فإنكم إن لم تغنموا مالاً أفدتم عقلاً^(١) .

فوائد السفر :

وفي ديوان نسب إلى أمير المؤمنين علي عليه السلام :

تَغَرَّبَ عَنِ الْأَوْطَانِ فِي طَلَبِ الْعُلَى فَسَافِرٌ فِي الْأَسْفَارِ خَمْسُ فَوَائِدٍ
تَفْرُجُ هَمَّ وَأَكْتِسَابُ مَعِيشَةٍ وَعِلْمٌ وَأَدَابٌ وَصُحْبَةٌ مَاجِدٌ^(٢)

وبخلاصة فإن السفر يعتبر من أنواع الترفيه السليم والحيوي ، وبمقدور الشباب أن يستفيدوا من التسهيلات التي وفرتها الصناعات الآلية في مجال المواصلات ، ويسافروا في إجازاتهم السنوية ليستمتعوا بفوائد هذا النوع من الترفيه .

الرياضة في عالمنا اليوم :

إن من أنواع التسلية والترفيه التي استأثرت باهتمام بالغ في عالمنا اليوم وأخذت تنتشر بسرعة كبيرة ، الرياضة . وقوبلت هذه الظاهرة بترحيب واسع من قبل جيل الشباب في شرق العالم وغربه ، وأخذوا يقضون جانب من أوقات فراغهم في إجراء مختلف التمارين الرياضية أو مشاهدة مختلف الرياضات ،

(١) مكارم الأخلاق ، ص ١٢٤ .

(٢) مستدرک الوسائل ، ص ٢٢ .

ويعتقد أصحاب الرأي أن الرياضة إلى جانب كونها نوعاً من التسلية ، تعتبر مسؤولية صحية الهدف منها ضمان سلامة الأفراد .

نشاط العضلات وسلامة الجسم :

في العهود الغابرة وخاصة تلك التي سبقت الثورة الصناعية كان الناس يقومون بنشاط عضوي وحركات بدنية ، ويستخدمون في أعمالهم اليومية أيديهم وأرجلهم وعضلاتهم وأعصابهم ، ساعين وراء لقمة العيش ، فكانت أجسامهم سالمة قوية .

أما في عالمنا المعاصر حيث اندثرت الأعمال اليدوية وتلك التي تتطلب جهداً جسماً معيناً ، وحلت الآلة لتقوم بأكثر الأعمال صعوبة ومشقة بسرعة أكبر وإنتاج أكثر ، وبنتيجة ذلك توقف نشاط العضلات والأعصاب وسائر القوى الجسمية إلى حد ما ، واختلّ التوازن الداخلي للجسم ، وهذا أمر من شأنه أن يعود بالضرر على سلامة الإنسان ونشاطه .

خمول الأجهزة العضوية :

«إن الجهد العضلي بالرغم من أنه لم يتوقف نهائياً في الحياة العصرية ، إلا أنه خفّ عن ذي قبل بشكل ملحوظ حيث حلت الآلة في الكثير من الأعمال محل الأيدي العاملة . وتوقف الجهد العضلي نكون ودون انتباه قد حررنا السلسلة العصبية الداخلية من التمارين الضرورية لحفظ التوازن الداخلي . إننا نعلم أن العضلات تستهلك أثناء عملها كميات كبيرة من الأوكسجين والسكر ، وتولّد الحرارة وتصبّ كمية من حامض اللبنيك في مجرى الدم ، وينبغي على الجسم أن يجاري هذه التغييرات من خلال تشغيل القلب والجهاز التنفسي والكبد والبنكرياس والكليتين والغدد العرقية والجهاز العصبي المركزي والجهاز السمبثاوي . إننا نشغل اليوم أعضاءنا بعض الوقت ولأيام معدودة ، وفيما عدا

ذلك فإن أجهزتنا العضوية هي في حالة خمود^(١) .

«إن سبب انعدام التوازن الداخلي يعود لوقوف الجهد الإرادي ، ويجرّ إلى مغالة الإنسان في الكسل وطلب الراحة في حياته ، ويؤدي بالتالي إلى خمود الأجهزة العضوية وهدر الجهود المتواصلة التي تقوم بها العروق والأعضاء والجهاز العصبي المعروف بجهاز المناعة ضد الجوع والنعاس والتعب والتغيرات الجوية . فالجهد هو الشرط الأساس لنمو الخلايا والأنسجة والأعصاب»^(٢) .

الرياضة وتوازن القوى :

تسهم الرياضة بشكل ملحوظ في تنشيط أعضاء جسم الإنسان ، وتساعد في حفظ توازن القوى الجسمية . فالحركات الرياضية تستطيع أن تعوّض للإنسان عن الجهود العضلية الخاملة وتنظّم إلى حدّ ما عمل الأجهزة العضوية للجسم . وقد حلّت الرياضة في حياتنا المعاصرة إلى حدّ ما محل الأعمال العضلية والحرثة والمشي وحمل الأجسام الثقيلة وغير ذلك من الأعمال العضلية التي كان يقوم بها الناس بجهد عضلي مضمّن . والرياضة تعتبر ممارسة ترفيهية منشّطة ومسليّة للإنسان في ساعات فراغه من جهة ، ووسيلة مؤثرة في حفظ سلامة جسم الإنسان وقوّته من جهة أخرى .

الإسلام والقوة الجسمية :

بالرغم من أن الرياضة وما اصطلح عليه اليوم بالمباريات الرياضية قد استأثرت باهتمام العالم ، وباتت تجرى بأشكالها المختلفة ، ورغم أن الإسلام لم يبحث في هذه المسألة ، إلّا أنه لا مانع قط من وجهة نظر المبادئ الإسلامية من أن يؤدي الإنسان اليوم الرياضة بشكل عقلائي دون أن يلحق

(١) الإنسان ذلك المجهول ، ص ٢٢٠ .

(٢) سنن الحياة ، ص ٣٦ .

الضرر بنفسه وبالأخرين فيكون مجرمًا بحق نفسه وحق الغير ، وأن تتخذ الرياضة كترفيه سليم يهدف إلى سلامة الجسم وتنشيط القوى . ويمكن القول إن الرسول الأكرم ﷺ والأئمة الأطهار عليهم السلام كانوا يحرصون على سلامة المسلمين وقوة أبدانهم ، وهذا معناه أنهم كانوا يشجعون على الرياضة الهادفة .

قال رسول الله ﷺ : طُوبَى لِمَنْ أَسْلَمَ وَكَانَ عَيْشُهُ كَفَافاً وَقَوَاهُ شِدَاداً^(١) .

نعمة السلامة :

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : الصَّحَّةُ أَفْضَلُ النَّعَمِ^(٢) .

لم تكن الرياضة قبل أربعة عشر قرناً أي في زمن رسول الله ﷺ أمراً ضرورياً للسلامة في الحياة الاجتماعية آنذاك ، لأن الناس يومذاك كانوا يقومون بنشاطات جسمانية وجهود عضلية بما فيه الكفاية لتأمين لقمة العيش ، وكان عمل الأجهزة العضوية للجسم يتم بصورة متوازنة وتلقائية ، ولم تكن أوقات فراغهم بالشكل الذي يسمح لهم بالتفكير في الترفيه والتسلية ، وذلك لكثرة أعمالهم التي كانت تنجز باليد .

وبالرغم من كل ذلك فإن الرسول الأكرم ﷺ سعى لأن يستفيد الناس من أوقات فراغهم رغم قصرها ، فشجّع على بعض النشاطات الرياضية والترفيهية لأهداف خاصة أراد من خلالها تأمين بعض المنافع الاجتماعية وصون المسلمين من الانحرافات التي كان من الممكن أن تجرهم في حالات البطالة .

الفروسية والرماية :

لقد اعتبر الإسلام الفروسية والرماية بأنهما عملا ممدوحان ومرغوبان ،

(١) بحار الأنوار ، ١٥ ، ص ٢٣٦ .

(٢) فهرست الفرر ، ص ١٩٩ .

وقد جاء الكثير من الروايات الإسلامية التي شجعت الناس عليهما . وبالرغم من أن الرسول ﷺ قد حرّم على المسلمين لعب القمار وحذرهم من الخسارة والريخ عن هذا الطريق غير المشروع ، إلا أنه أجاز الرهان في مسابقات الفروسية والرماية ليحرّك الرغبة في التفوّق لدى الناس ويحثّهم على التنافس من أجل الفوز وبالتالي تعلّم فنون الفروسية والرماية .

وقد كان الرسول إلى جانب تشجيعه الناس على هاتين الرياضتين يشارك في المسابقات التي كانت تجرى مراراً وتكراراً ويحقّق الفوز فيها .

عن أبي لبيد قال : سئل ابن مالك هل كنتم تتراهنون على عهد رسول الله ﷺ ؟ ، فقال : نعم . راهن رسول الله ﷺ على فارس له فسبق فسرّ بذلك وأعجبه^(١) .

إشتراك الرسول (ص) في السباق :

ذات مرة أغار عدد من المشركين على أطراف المدينة لسرقة ماشية سكان تلك المنطقة ، فخرج إليهم الرسول ﷺ وعدد من المسلمين ممتطين صهوات جيادهم ، ففر المشركون لما عرفوا بالخطر الذي يتهدّدهم ، وابتعدوا عن متناول أيدي المسلمين . . .

فقال أبو قتادة : يا رسول الله إن العدو قد انصرف ، فإن رأيت أن نستبق ، فقال : نعم ، فاستبقوا ، فخرج رسول الله ﷺ سابقاً عليهم^(٢) .

الرسول (ص) والرماية :

روى أن النبي ﷺ مرّ بقوم من الأنصار يترامون ، فقال رسول الله ﷺ : أنا مع الحزب الذي فيه ابن الأردع ، فأمسك الحزب الآخر

(١) مستدرک الوسائل ٢ ، ص ٥١٧ .

(٢) وسائل الشيعة ٤ ، ص ٢٣١ .

وَقَالُوا : لَنْ يُغْلَبَ جِزْبٌ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ، فَقَالَ : ارْمُوا فَأَنِّي أُرْمِي مَعَكُمْ ، فَرَمَى مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ رَشْقاً^(١) .

وعن أبي عبد الله الإمام الصادق عليه السلام : إِنَّهُ كَانَ يَخْضُرُ الرَّمِيَّ وَالرَّهَانَ^(٢) .

الإمام الباقر (ع) والرماية :

قال الإمام الصادق عليه السلام : دخلنا (مع أبيه عليه السلام) على هشام في الشام ، وإذا قد قعد على سرير الملك ، وجنده وخاصته وقوف على أرجلهم سماطين متسلحين وقد انصب الغرض حذاه وأشياخ قومه يرمون ، فلما دخلنا وأبي أمامي وأنا خلفه ، نادى أبي وقال : يا محمد ارم مع أشياخ قومك الغرض ، فقال له : إني قد كبرت عن الرمي ، فهل رأيت أن تعفيني ؟ ، فقال : وحق من أعزنا بدينه ونبيه محمد عليه السلام لا أعفيك ، ثم أومى إلى شيخ من بني أمية أن أعطه قوسك ، فتناول أبي عند ذلك القوس من الشيخ ثم تناول منه سهماً فوضعه في كبد القوس ثم انتزع ورمى وسط الفرض ، فنصب فيه ، ثم رمى فيه الثانية فشق فوق سهمه إلى نصله ، ثم تابع الرمي فشق تسعة أسهم بعضاً في جوف بعض وهشام يضطرب في مجلسه ، فلم يتمالك إلى أن قال : أجدت يا أبا جعفر وأنت أرمي العرب والعجم ، هلا زعمت أنك كبرت عن الرمي ؟ ، ثم أدركته الندامة على ما قال . . .

ثم أقبل على أبي بوجهه فقال له : يا محمد لا يزال العرب والعجم يسودها قريش ما دام مثلك فيهم لله درك من علمك هذا الرمي وفي كم تعلمته ؟ ، فقال : قد علمت أن أهل المدينة يتعاطونه فتعاطيته أيام حدثي ثم تركته^(٣) .

(١) المبسوط ، «السبق والرماية» .

(٢) وسائل الشيعة ٤ ، ص ٢٣١ .

(٣) مستدرک الوسائل ٢ ، ص ٥١٦ .

فبالرغم من أن سباق الفروسية والرماية يعتبر نوعاً من أنواع الرياضة كونه ينشط العضلات وينمي قدرة الجسم ، ووسيلة من وسائل الترفيه والتسلية في أوقات الفراغ كونه يبعث على الإرتياح والسرور ، إلا أن الهدف الأساس من تشجيع الرسول الأكرم ﷺ على هذا النوع من السباقات هو أسمى من الرياضة والترفيه ، فالرسول ﷺ أراد بذلك أن يتعلم الناس آنذاك الفنون القتالية ليكونوا مستعدين لمواجهة العدو في ساحة القتال والذود عن حقوق الإسلام والمسلمين والدفاع عن أرضهم إزاء أي هجوم خارجي .

وإذا ما مارس بعض الشباب في عالمنا الحالي حيث تغيرت التمارين والتدريبات العسكرية سباق الفروسية والرماية في أوقات فراغهم ، فإن بمقدورهم أن يستفيدوا من البعدين الرياضي والترفيهي لهذا السباق ، فيساهموا من جهة في تأمين سلامة أبدانهم وتعزيز قواهم ، ويرفّحوا عن أنفسهم من جهة ثانية بنشاط سليم ومشروع .

السباحة :

تعتبر السباحة رياضة أخرى من الرياضات المفيدة لجيل الشباب ومن وسائل الترفيه السليمة والمنشطة التي أولاها الرسول الأكرم ﷺ أهمية بالغة وشجع المسلمين على تعلمها .

قال رسول الله ﷺ : **عَلِّمُوا أَبْنَاءَكُمْ الرَّمِيَّ والسَّبَّاحَةَ** (١) .

فالسباحة تحرك العضلات وتنشط الجسم وتزيد من قدرته وتمنح الإنسان مزيداً من الحيوية والسباحة خلال أوقات الفراغ تعتبر من وسائل الترفيه والتسلية التي تبعث على سرور الإنسان وارتياحه . فضلاً عن ذلك فإن الإنسان الذي يتقن السباحة يكون قادراً على إنقاذ نفسه من الغرق أو إنقاذ غريق آخر في الحالات الطارئة .

(١) الجعفریات ، ص ٩٨ .

وثمة أنواع أُخرى من الرياضات المفيدة التي يستطيع الشباب اللجوء إليها في أوقات فراغهم ، كالمشي وتسلق الجبال وتمارين رياضية مختلفة - أو ما يسمّى بالألعاب السويدية - أو غير ذلك من النشاطات التي لا تلحق الضرر بالإنسان بل تفيده وتؤمن سلامة بدنه .

فسلامة البدن وحيويته شرط أساس لتحقيق الإنسان الموفقية والنجاح في حياته ، والإنسان المريض أو العاجز لا يستطيع الإنصراف إلى الشؤون العلمية والدينية ، ولا هو بقادر أيضاً على إدارة شؤونه المادية والمعنوية بشكل صحيح .

والإنسان في حياتنا اليوم حيث فقد المقدار اللازم من الحركة العضلية والنشاط الجسماني ، وتعرضت سلامته للخطر واضطراب توازنه الداخلي نتيجة التطور الصناعي في العالم ، مثل هذا الإنسان مضطر للقيام بحركات رياضية من شأنها أن تحرك سائر أعضائه وتنشطها .

إنتشار الرياضة :

لقد أخذ الاهتمام بالرياضة والبرامج الرياضية في عالمنا المعاصر يزداد يوماً بعد يوم ، حيث ازدادت المراكز الرياضية العامة ، وأخذت وسائل الإعلام دورها في تشجيع الناس على ممارسة الرياضة بشتى صنوفها ، وباتت الرياضة درساً إلزامياً من الدروس والمناهج المتبعة في المدارس والجامعات . كما تم توفير وسائل رياضية خاصة لكبار السن ، وكل ذلك في سبيل تشجيع الناس على اعتماد الرياضة لتقوية أنفسهم وسلامة أبدانهم .

«يقول «ويل ديورانت» : قال طالب جامعي صيني يعاني من ضعف في نظره : لقد تحوّلت الجامعات الأمريكية إلى مجتمعات رياضية توفّر الامكانيات اللازمة لدراسة أصحاب الأجسام الضعيفة أيضاً . فكل فيلسوف ينبغي أن يكون رياضياً كافلا طون ، وإن نم

يكن رياضياً ففلسفته مشكوك فيها . ويقول «نيتشه» : إن الشرط الأول لكل إنسان شريف هو أن يكون حيواناً كاملاً ، وينبغي أن تُرسى قواعد التربية والتعليم على هذا الأساس ، والتربية البدنية يجب أن تُعتمد إلى جانب التربية الفكرية»^(١) .

الملاكمة :

مما يؤسف له أن هناك بعضاً من الممارسات الوحشية والأخلاقية تُعتمد في عالمنا المتحضّر اليوم تحت شعار الرياضة والتسلية والترفيه ، وقد استطاعت أن تجذب نحوها البعض من الشباب السذج .

ومن الممارسات العنيفة والقاسية التي شجّع عليها عالمنا اليوم ونظّم لها مباريات مهمة وخصّص للفائزين فيها جوائز ثمينة هي الملاكمة التي تثير في الإنسان روح التوحّش والهمجية .

«تأثر معلق صحيفة نيويورك تايمز بشدة لدى مشاهدته لمباراة في الملاكمة ، ممّا دفع به إلى مناقشة سلطات مدينة نيويورك إلغاء مباريات الملاكمة . وقد كتبت هذه الصحيفة الأمريكية الكثيرة الانتشار مقالاً تحت عنوان «الإنحطاط» أوردت فيه : إن ما شوهد من وحشية في تلك المباراة يعتبر فضيحة لرياضة الملاكمة لما أثارته في نفوس المتفرّجين من اشمئزاز ، هل يمكن لشخص يدعي بطولة العالم أن ينزل إلى هذا المستوى من الإنحطاط» ؟ .

«ثم أشارت الصحيفة في مقالتها الافتتاحية إلى أن المعلومات المتوفرة لديها تشير إلى وفاة ٥٩ ملاكماً في الفترة ما بين عامي ١٩٥٩ و١٩٦٥ . فأية رياضة هذه ؟ ، إنها مجزرة . وينبغي على سلطات ولاية نيويورك أن تكون السّبّاقة بين سائر الولايات

(١) مباهج الفلسفة ، ص ٤٩٢ .

الأميركية الأخرى في شجب واستنكار الملاكمة المحترفة»^(١) .

إن الدين الإسلامي الذي يحرص على مصلحة الإنسان وسعادته يرفض رفضاً باتاً مثل هذه الممارسات الضارة والخطيرة التي تسبب في إصابة الإنسان بعاهاث أو تودي به إلى التهلكة أحياناً ، ولم يجز للمسلمين المشاركة في مثل هذه الأعمال الوحشية تحت شعار الرياضة .

الصيد :

تفيد بعض الكتب الغربية أن تطوّر الصناعة وتوفّر وسائل النقل وسهولة السفر ، كل ذلك ساهم في جعل مسألة الصيد من وسائل الترفيه والتسلية واللهو ، وراح الكثير من الناس يقضون أوقات فراغهم في صيد الحيوانات . ولكن العجيب في الأمر أن الغرب يدّعي من جهة حمايته للحيوانات ، ويعتبر من جهة أخرى الصيد وسيلة من وسائل التسلية واللهو .

«لقد جاء انتشار الرياضة وعموميتها حينما أدت الاختراعات الجديدة إلى ظهور أنواع أخرى من وسائل التسلية والترفيه للإنسان . فانخفاض أسعار وسائل النقل وامتلاكها من قبل غالبية الناس كان لهما الدور الكبير في ظهور مسليات جديدة . فأصبحت قيادة الدراجات النارية والسياحة والاستجمام في البلدان الكبيرة من أنواع الترفيه الأساسية . وساهم اختراع السيارة في مضاعفة إمكانية ممارسة أنواع أخرى من التسلية والترفيه كإقامة المخيمات والصيد»^(٢) .

صيد اللهو :

إن اصطياد الحيوانات للضرورة وبداعي الحاجة الحياتية يعتبر مجازاً من

(١) صحيفة كيهان الإيرانية ، العدد ٧٠٦٠ .

(٢) علم الإجتماع ، ص ٢٩٧ .

وجهة نظر الإسلام . إلا أن الإسلام قد حظر صيد اللهو وقتل الحيوانات بداعي الترفيه عن النفس والتسلية ، وقد اعتبر فقهاء الإسلام السفر لصيد اللهو بأنه سفر معصية ولا يحق للقائم به الاستفادة من التسهيلات التي وضعها الإسلام للمسافر كالإفطار في شهر رمضان المبارك وأداء الصلاة قصراً .

إن الشاب المسلم بمقدوره وضمن إطار التعاليم الإلهية استغلال ساعات فراغه في جميع أنواع الترفيه المباحة والتسلية المفيدة التي تضمن سلامته وتوفّر له الراحة .

أما الشاب الذي ينقاد لميوله النفسية وأهوائه. فإن المحرمات تبدو في نظره جميلة وجذّابة ، فيرتكب أعمالاً رذيلة ويغالي في سوء عمله تحت شعار الترفيه والتسلية مما يؤول به إلى السقوط والضياع .

قال تعالى : ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ .

المحاضرة التاسعة والعشرون

حول الشاب وحبّ الغير

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تبارك وتعالى في محكم كتابه : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾^(١) .

غريزة حبّ الذات :

يعتبر حبّ الذات وحبّ الغير رغبتين فطريتين أوجدهما الله سبحانه وتعالى في أعماق الإنسان ، ولكل من هاتين الرغبتين دورها المؤثر في تأمين سعادة الإنسان ، ولا بد من إشباعها في الموقع المناسب .

إن حب الذات وهو من الغرائز المشتركة بين الإنسان والحيوان يعتبر عاملاً مهماً لصون الذات وحفظ الإنسان وخصوصياته . وهذه الرغبة تجعل الإنسان يلتفت إلى نفسه ويهتم بها ويتقبل كل ما يراه مفيداً له ويرفض كل ما يراه مضرّاً به .

غريزة حب الغير :

أما غريزة حب الغير وهي من الغرائز الإنسانية السامية فيمتاز بها الإنسان

(١) سورة التوبة ؛ الآية : ١٢٨ .

على الحيوان . وهذه الغريزة التي تجعل الإنسان يلتفت إلى الغير ويهتم بهم تثير فيه المحبة للآخرين والتواد لهم مما يجعل الحياة نقيّة وجميلة . وإحياء هذا الدافع النفسي يربط الإنسان بمجتمعه برباط العطف والحنان والود والتعاون والمواساة ، ويدفعه نحو مشاركة أبناء مجتمعه أفراحهم وأتراحهم .

إن غريزة حب الذات لها جذور منحدرّة في أعماق الإنسان شأنها شأن سائر الغرائز الحيوانية ، وهذه الغريزة تفتح تلقائياً وتنمو بسرعة ، وهي ليست بحاجة إلى تربية وحماية لكي تقوى وتشتد .

أما غريزة حب الغير فهي ضعيفة وباهتة شأنها شأن الرغبات الإنسانية السامية ، وهذه الغريزة لا يمكن أن تنمو وتقوى دون تربية ورعاية . والآباء والمربون قادرون على تربية ورعاية هذه الغريزة في أبنائهم تدريجياً وجعلهم أناساً يحبون الغير ويضمرون الخير لهم فيما لو اهتموا بهذه الغريزة في أبنائهم منذ نعومة أظفارهم وأدوا مسؤولياتهم حقّ تادية .

إن غريزة حب الذات إذا ما عمد الإنسان إلى تقويتها متخطياً بذلك حدود المصلحة فإنها ستحوّل إلى عبادة الذات وسيصبح الإنسان أنانياً يتصف بالسيئات الأخلاقية ويعتدي على حقوق الآخرين ويرتكب ممارسات لا إنسانية .

إضعاف غريزة العدوان :

إن غريزة حب الغير إذا ما تم رعايتها وتقويتها فإنها ستتغلب على الصفات الحيوانية وتضعف من الغريزة العدوانية لدى الإنسان وتزبل عنه طابع الهمجية والوحشية وتجعله متصفاً بأسمى الصفات الإنسانية .

وتجدر الإشارة إلى أن المقصود من حب الغير هو التحاب والتواد القائم على الفضيلة الأخلاقية والكرامة الإنسانية ، لا أن يكون الدافع له تحقيق الرغبات الغريزية والأهداف المادية .

إن الإنسان المريض عادة ما يبدي نوعاً من العلاقة والتروّد لبيبه المصالح

وممرضه المراقب ، لكن مصدر هذه العلاقة ليس حب الغير أو ما شابه من الرغبات الإنسانية السامية ، وذلك من وجهة نظر علم النفس ، إنما مصدره غريزة حب الذات والتعلق بالحياة . فعلاقة المريض بطيبه وممرضه ناتجة من كونهما يعالجانها ويشرفان عليه حتى تتحسن حاله ويستعيد سلامته ، ومن هنا يكون قد عمل لإرضاء غريزة حب الذات في نفسه ، ومثل هذه العلاقة موجودة في عالم الحيوان وليس الإنسان وحده هو الذي يمتاز بها .

الإخلاص في حب الغير :

إن الإنسان الذي يحب الغير حقيقة هو ذاك الذي يتوَدَّد إلى الناس لإنسانيتهم وبدافع العواطف الإنسانية النبيلة بعيداً عن الخيانة والأنانية والمصلحة المادية . وهذا النوع من الحب الذي يمتاز به الإنسان يعبر عن سمو النفس وصفاء الذات لدى الإنسان . وهذا النوع من التحاب والتواد يميِّز الحياة الإنسانية عن الحياة الحيوانية ، ويوصل بين المجتمعات البشرية ، ويربط بين قلوب الناس برباط الحب والأخوة والالفة والتعاون . وهكذا حب يجرد الإنسان من كل طبع حيواني ويمنحه الثقة وراحة البال ويجعل حياته هائلة وجميلة .

وقد اهتم الإسلام بمسألة حب الغير والتودد إلى الآخرين ، واعتبر هذه الخصلة الحميدة عاملاً من عوامل سعادة الإنسان ونزول الرحمة الإلهية .

عن أبي الحسن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام قال : **إِنَّ أَهْلَ الْأَرْضِ لَمَرْحُومُونَ مَا تَحَابُّوا وَأَدَّوْا الْأَمَانَةَ وَعَمِلُوا الْحَقَّ** (١) .

وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام : **أَبْلَغُ مَا تَسْتَدِيرُ بِهِ الرَّحْمَةَ أَنْ تُضْمِرَ لِجَمِيعِ النَّاسِ الرَّحْمَةَ** (٢) .

وعنه عليه السلام : **إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يُحِبُّ أَنْ يَخُونَ نِيَّةُ الْإِنْسَانِ لِلنَّاسِ جَمِيلَةٌ** (٣) .

(١) مجموعة ورّام ١ ، ص ١٢ .
(٢) غرر الحكم ، ص ٢١٢ و ٢٧١ .

الأنبياء وحب الناس :

من الصفات البارزة لأنبياء الله وأوليائه صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، حب الناس وإضمار الخير لهم . فهم يريدون للإنسان سعادته ويؤلمهم جهله وضلاله . لقد كان أنبياء الله كالآباء في حنانهم يجاهدون ليل نهار ويواجهون شتى المتاعب والصعاب في سبيل إنقاذ الضالين وهدايتهم إلى الصراط المستقيم وتحريرهم من قيود الجهل والعبودية .

الصفات السامية للرسول (ص) :

لقد بينت الآية الشريفة ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ حرص الرسول ﷺ على هداية الناس من أجل سعادتهم ، كما أكدت على الصفات الإنسانية السامية التي يتحلّى بها النبي ﷺ .

ويعتبر الإسلام أن الحياة الصالحة النافعة هي من نصيب أولئك الذين يشبعون غريزة حب الذات وغريزة حب الغير معاً وفق مقاييس صحيحة ، يلتفتون إلى أنفسهم ويهتمون بها ويسعون في طريق السمو المعنوي وتأمين الحاجة المادية ويعملون الصالحات من جهة ، ويهتمون بالغير ويأخذون بأيديهم إلى طريق الطهر والفضيلة ليؤمنوا سعادتهم من جهة ثانية .

قال تعالى : ﴿وَالْعَصْرُ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (١) .

المسلم والواجب الإنساني :

تؤكد الروايات الإسلامية أن المسلم الحقيقي هو الذي يضع في لائحة برنامجه اليومي حب الناس وإسداء الخدمة لهم ، ويعمل بهذا الواجب الإنساني والأخلاقي ضمن حدود قدرته .

قال رسول الله ﷺ : مَنْ سَمِعَ رَجُلًا يُنَادِي يَا لَلْمُسْلِمِينَ فَلَمْ يُجِبْهُ فَلَيْسَ بِمُسْلِمٍ (١) .

وقال ﷺ أيضاً : لَيْسَ بِمُؤْمِنٍ مَنْ بَاتَ شَبَعَانًا وَجَارُهُ طَاوِيًا (٢) .

وقال ﷺ أيضاً : مَنْ أَصْبَحَ لَا يَهْتَمُّ بِأُمُورِ الْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ بِمُسْلِمٍ (٣) .

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام : الْمُؤْمِنُ مِنْ نَفْسِهِ فِي تَعَبِ وَالنَّاسِ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ (٤) .

وقال الإمام علي بن الحسين عليه السلام : يَا بُنَيَّ أَفْعَلِ الْخَيْرَ إِلَى كُلِّ مَنْ طَلَبَهُ مِنْكَ ، فَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِهِ فَقَدْ أَصَبْتَ مَوْضِعَهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِهِ كُنْتَ أَنْتَ مِنْ أَهْلِهِ (٥) .

حب الغير والتعاش:

إن حب الغير والتودد لهم الذي يعتبر رمزاً للسمو النفسي والنضج الأخلاقي كان موضع اهتمام الأنبياء والرسل والعقلاء من الناس في جميع العصور ، حيث كان يعتبر شرطاً ضرورياً في حياة الإنسان . ولكن وجود هذه الخصلة الحميدة في نفس الإنسان بات أكثر ضرورة اليوم من أجل استتباب الأمن والسلام والتعاش بين الناس في عصرنا الحالي .

لقد بات الإنسان في هذا العصر يملك قدرة كبيرة وطاقة عظيمة نتيجة التقدم العلمي والتطور الصناعي ، وفي مثل هذه الظروف إذا سعى الإنسان إلى دعم خصلة حب الغير في نفسه فإنه لا شك سيستفيد من القدرة والطاقة التي

(١) الكافي ٢ ، ص ١٦٤ .

(٢) معارج الأئمة ، ص ٧١ .

(٣) الكافي ٢ ، ص ١٦٣ .

(٤) إرشاد المهدي ، ص ١٤٣ .

(٥) روضة الناظر ، ص ١٥٣ .

تحدثنا عنها في مجراها الصحيح من أجل تحسين أوضاعه الحياتية ، ويستثمرها لصالح الإنسانية ويحقق للناس راحتهم ورفاهيتهم ، وبذلك تنعم المجتمعات بالسلام ويسودها جو من المودة والألفة والأخوة والتعاون والمواساة .

وعلى النقيض من ذلك إذا ركز الإنسان في ظل التقدم العلمي والتطور الصناعي على حب الذات وإشباع الشهوات وعمل على تقوية هذه الغريزة في نفسه ولم يهتم بحب الغير ولم يبذل للخصال الإنسانية ، فإنه سيعود على البشرية بالويلات ، حيث ستصحو في أعماقه غريزة حب السلطة وعبادة الذات ، وتتمرد أهواؤه النفسية ، وتصبح الطاقة التي اكتسبها من العلم والصناعة وسيلة لإشباع غرائزه وشهواته فيظلم ويعتدي ويدمر ويسفك الدماء ويُفسد في الأرض ، فيكتسب صفة الوحشية ، ويبدأ القوي بالإجهاز على الضعيف ، وتسود المجتمع حالة من العداة والحقد والفساد والضياع .

أوضاع العالم اليوم :

«إن العلم غلام مطيع . فهو كقائد عسكري بإمكانه أن يقضي على العالم ، وكطبيب بإمكانه أن يعالج المرضى وينقذهم من الموت ، إن بمقدوره أن يطلق حمم المدافع أو أن يخفض من حرارة الحمى ، يبنى جسوراً عظيمة أو يدمر جسوراً قائمة . والإنسان في ظل العلم قادر على تأمين راحته وسعادته أو أن يحرم منهما . وهذا الغلام المطيع يستطيع حتى القضاء على سيده . ومن المؤسف جداً أن هذا الإحتمال يبدو منطقياً من جميع جهاته ، ولكن متى ما شاء السيد فإن بإمكان غلامه إنقاذه من كل عذاب ونشأ» .

«من المسلم به أن الأوضاع السائدة في العالم ليست عمل مرام الناس أو حسب تمنياتهم ، فهي تعيَج بالعداء والحقد وإنما يجازر والفشل والمجاعة والدمار واليأس والخوف والحزن ، ونحن

نستصرخ غلامنا أن يزيد من هذه البلياء يوماً بعد يوم» .

«حقاً إنه لأمر يبعث على الحيرة والسخرية أن يصنع العلم من الناس وحوشاً بعد أن كان قد حولهم من وحوش إلى بشر . أي يؤس هذا الذي يحيط بالمدنية ؟ ، هل المدنية مريضة ؟ ، هل إن قواعدها هشة من الأساس ؟ ، هل هي المعبود الذي يهلك مريديه . أم إنها عاجزة عن المقاومة إزاء الخصال الرذيلة للإنسان» ؟ .

«هل إن هذه الخصال هي مصدر كل هذه الهزائم والأمراض العالمية ؟ ، هل من الممكن أن يكون كل ما يتعرض له الإنسان هو نتيجة عمله ؟ ، العلم يجيب على هذه الأسئلة ، ولكنه ليس سوى غلام . ماذا كان يحصل لو أننا استفدنا من هذا الغلام المطيع أي العلم خير استفادة ؟ ، ماذا كان يحدث لو أننا استعنا به وفي ظل نوره وهديهِ لراحة المجتمعات وسعادة البشر بدل أن نستغله في صنع المدفع والبندقية»^(١) ؟ .

شقاء الناس :

يؤكد الإسلام أن شقاء الناس على مرّ العصور مرده فساد أخلاقهم ورذائل أعمالهم ، ويعتبر أن صلاح أمرهم مرهون بصلاح أفكارهم وأعمالهم . وقد وردت آيات قرآنية متعددة بهذا الشأن .

قال تعالى : ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾^(٢) .

وقال عزّ من قائل : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾^(٣) .

(١) إعجاز التحليل النفسي ، ص ١ .

(٢) سورة الروم ؛ الآية : ٤١ .

(٣) سورة الرعد ؛ الآية : ١١ .

إن الذي يريد بالآخرين سوءاً ويضممر لهم الحقد والبغضاء ويفني عمره في الجدل والنزاع بسبب أنانيته وإفراطه في حب ذاته ، لا يقر له قرار ويفضي حياته بمرارة وألم وإحباط .

ومثل هذا الإنسان إذا كان ينشد السعادة ينبغي أن تكون خطوته الأولى على طريق إصلاح الذات وتغيير أسلوب التفكير وتعديل الرغبة في حب الذات وتنمية حب الغير في نفسه حتى تتغير أوضاعه الحياتية وتسودها الالفة والمحبة بدل الجدل والنزاع .

علاج المعاناة الإجتماعية :

«ثمة نزاع اليوم بين قانونين متناقضين ، الأول قانون سفك الدماء أو الموت الذي يبحث على الدوام عن وسائل تدميرية جديدة ، والآخر قانون السلام والعمل والصحة الذي يبحث باستمرار عن سبل جديدة لإنقاذ الإنسان من شرّ البلايا والأخطار التي تهدّد العالم» .

«إن هدف الحياة والحب يعتبر مصدراً كبيراً للقوة والسعادة في مقابل الغريزة العدوانية ، ومتى ما استطعنا أن نحب نكون سعداء في حياتنا . وعلاج الحب والصدقة هذا الناجع في شفاء الإنسان من كل الآلام والهموم وصفه أنبياء الله منذ قرون عديدة . ربما يمكن توضيح البعد العملي لهذه النظرية على الشكل التالي : ما هي المصادر التي نمتلكها والتي في ظلها نستطيع تقوية غريزة الحياة لتتمكن من المقاومة أمام غريزة الموت ؟ ، كيف يمكن أن نشجع على الحب والصدقة والأخوة لنخفف من نسبة الحقد والعداء ؟ ، وكيف يمكننا أن نجتمع بينهما بشكل عقلائي» ؟ .

«ترى ألا نستطيع أن نستفيد من غريزة الشجاعة والتفوق بشكل أكثر عقلائية وحنكة ونحول دون الإستفادة منها في عمليات القتل

والذبح والدمار ؟ ، أليس بمقدورنا أن نعزّز من هذه القدرة المعجزة - الحب - التي تسهم في تجاذب الرجل والمرأة لبعضهما البعض وتوادّ البشر فيما بينهم ؟ ، ألا يمكن ترويح هذا العلاج الناجع الذي يشفي أمراض التشتت والنفاق والفرقة ؟ ، إن العقل والمنطق يدفعاننا لأن نردّ بالإيجاب على كل هذه الأسئلة ، وما يؤيد هذا المنطق تجارب علماء النفس ، لأن المعجزات التي يسطّرها الحب باتت تتكشّف معالمها في جميع المجالات أمام أنظار الباحثين والعلماء يوماً بعد آخر^(١) .

العقل والتودّد :

قال رسول الله ﷺ : رَأْسُ الْعَقْلِ بَعْدَ الدِّينِ التَّوَدُّدُ إِلَى النَّاسِ وَأَصْطِنَاعُ الْخَيْرِ إِلَى كُلِّ بَرٍّ وَفَاجِرٍ^(٢) .

وعن أبي الحسن الإمام الرضا عليه السلام : التَّوَدُّدُ إِلَى النَّاسِ نِصْفُ الْعَقْلِ^(٣) .

وقال رسول الله ﷺ : الْخَلْقُ عِيَالُ اللَّهِ ، فَأَحَبُّ الْخَلْقِ إِلَى اللَّهِ مَنْ نَفَعَ عِيَالَ اللَّهِ وَأَدْخَلَ عَلَى أَهْلِ بَيْتِ سُرُوراً^(٤) .

الشاب وحب الغير :

ينبغي على الشاب الذي يقضي أجمل أيام حياته ويدخل أولى مراحل الحياة الاجتماعية أن ينمي في نفسه رغبة حب الغير ، وأن يتصف بهذه الخصلة الإنسانية النبيلة ، وأن يستفيد من كل الفرص المناسبة في التودد إلى الناس ،

(١) إعجاز التحليل النفسي ، ص ٤ .

(٢) مستدرك الوسائل ٢ ، ص ٦٧ .

(٣) وسائل الشيعة ٢ ، ص ٢٠٧ .

(٤) الكافي ٢ ، ص ١٦٤ .

وأن يشارك بشهامة في أتراحهم وأفراحهم ، لكي يكون إنساناً ناجحاً في حياته ، ويقضي بقية عمره بطمأنينة وراحة بال .

تقسيم ساعات الفراغ :

إن إحدى الفرص المناسبة جداً لإشباع رغبة حب الغير وإظهار الشوق والتودد للآخرين هي ساعات الفراغ والبطالة . والشاب الفاضل بمقدوره تقسيم ساعات فراغه بين إصابة اللذات المشروعة وإشباع غريزة حب الذات بما يبعث على ارتياحه وسروره من جهة وبين إصابة اللذات المعنوية وإرضاء غريزة حب الغير والتقدم في طريق الكمال الأخلاقي والسمو النفسي وإحياء البعد الإنساني في أعماقه من جهة ثانية .

ولتوضيح هذه المسألة المهمة والضرورية ينبغي علينا أن نتمم في بحثنا قليلاً حتى يدرك الشباب قيمة أوقات فراغهم ويستطيعون من خلالها العمل على إرضاء غريزتي حب الذات وحب الغير اللتين لهما جذور فطرية في أعماقهم في آن واحد مع مراعاة إرضاء كل منهما في مكانها المناسب وفق المقاييس الصحيحة .

يقضي المرء جزءاً من نهاره في العمل والقيام بما يترتب عليه من مسؤوليات لتأمين لقمة العيش ومتطلبات الحياة ، ويقضي جزءاً آخر من النهار أو بالأحرى من اليوم في النوم والراحة من تعب النهار لاستعادة قواه ، وثمة جزء ثالث من الوقت في حياة كل إنسان هو وقت الفراغ والبطالة حيث لا يقوم الإنسان فيه بأي عمل ولا يكون بحاجة للنوم والراحة .

إن العامل الذي يدفع المرء للعمل وأداء المسؤولية هو غريزة حب الذات والرغبة في الحياة . فالإنسان يقوم في ساعات عمله بنشاطات اقتصادية وجهود مضيئة ويبدل كل ما يوسع في سبيل تأمين لقمة العيش ومتطلبات الحياة متفادياً بذلك خطر المجاعة والفقر والمرض والموت ليواصل حياته الفردية .

كما أن العامل الذي يدفع المرء للاستراحة هو الضرورة الطبيعية وغريزة حب الذات . فالإنسان إنما يخلد إلى النوم ليحفظ حياته وسلامته ويطرد من جسمه متاعب العمل ويستعيد قواه ليتسلح بما يمكنه من العمل في اليوم التالي .

كيف يستفاد من الوقت الحر :

إن المرء يلتفت إلى نفسه ويهتم بها في القسمين الأول والثاني من ساعات يومه ، فهو يعمل وينتج ، وهو في الحقيقة يُرضي بعمله وراحته غريزة حب الذات في نفسه ، وهذا الأمر كما ذكرنا سابقاً لا يختص بالإنسان وحده ، فالحيوان أيضاً يكّد ويسعى من أجل تأمين لقمة العيش ومواصلة الحياة ، ومن ثم يخلد إلى الراحة بما فيه الكفاية .

أما القسم الثالث من ساعات اليوم أي ساعات البطالة والفراغ فهو وقت حرّ للإنسان . والإنسان يستطيع أن يخصص ساعات فراغه لتنفيذ غرائزه وإصابة اللذات المادية وإرضاء غريزة حب الذات في نفسه ، كما أنه قادر على تحرير نفسه لساعات من قيد الغرائز والشهوات الحيوانية والدخول في عالم الفضائل الأخلاقية والملكات الإنسانية ، وبإمكانه أيضاً إشباع غريزة حب الغير ليكون إنساناً بكل ما في الكلمة من معنى .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : لا يَكُونَنَّ أَفْضَلُ مَا نَبَلْتَ مِنْ دُنْيَاكَ بُلُوغَ لَذَّةٍ وَإِشْفَاءَ غَيْظٍ وَلَيْكُنْ إِحْيَاءَ حَقٍّ وَإِمَانَةً بَاطِلٍ (١) .

ولا يخفى أن بلوغ المنزلّة الإنسانية السامية والإستمتاع بالمعنويات دون مجاهدة وسعي علمي وعملي ليس بالأمر اليسير . فالذي يريد أن يتحرّر من قيود الغرائز الحيوانية والشهوات النفسية ويتحلّى بالصفات الإنسانية الحميدة ، ينبغي عليه أن يبرز استعداداته المعنوية ويعتمد عليها ويوظف في نفسه حسّ حب

(١) غرر الحكم ، ص ٨١٦ .

الغير والفضيلة حتى يستطيع بلوغ اللذات المعنوية والروحية ويشعر بالراحة والسرور عند أداء واجباته الإنسانية .

تنمية الصفات الإنسانية :

وبعبارة أخرى لا يحتاج الإنسان إلى معلم أو مربٍ ليدرك اللذات والشهوات الحيوانية ، فهو كسائر الحيوانات ينجذب تلقائياً نحو المأكل والمشرب وإشباع الشهوة والغضب وسائر أمنياته المادية ، لكنه ومن أجل بلوغ المنزلة الإنسانية والتحلّي بصفات السامية عليه أن يعتمد على مربٍ كفوء وبرامج تربوية هادفة يسعى إلى تطبيق نفسه معها .

إن تنفيذ غريزة حب الذات التي تعتبر قاسماً مشتركاً ما بين الإنسان والحيوان لا يتطلب رعاية أو تربية معينة بينما يحتاج الخلق الإنساني وحب الغير إلى رعاية وتربية كبيرة . إن إشباع الغريزة الجنسية بشكل عشوائي وهو من الصفات الحيوانية لا يحتاج إلى مربٍ أو مرشد ، إلا أن التحلّي بخصلة العفاف الإنسانية يتطلب سعياً وتربية أكيدة . كما أن استخدام قوة الغضب ومحاولة الإنتقام لا يحتاج إلى تربية ، بينما التحلّي بروح العفو والمسامحة يتطلب بالضرورة تعليماً وتربية . وإشباع غريزة الحرص على جمع الثروة التي تعتبر من العوامل التي تبعث على النجس الاجتماعي واللذة المادية لا يحتاج إلى محرّك خارجي ، لأن الإنسان يسير تلقائياً نحو ذلك ، أما أن يصبح الإنسان الشري مجباً للغير وينفق بعض أمواله على الأيتام أو أن يساعد المرضى الفقراء والمحتاجين ، فذلك يتطلب محرّكاً خارجياً .

إن الإنسان بطبعه يحب ما يسره ويعشق اللذات ، وما يحركه في إشباع غرائزه ونزواته الحيوانية وشهواته هو رغبته في إصابة اللذات لما يعثه ذلك من سرور وبهجة في نفسه . فإذا ما أراد المربون أن يأخذوا بيد الناس نحو طريق الإنسانية ليكتسبوا صفاتها السامية ، عليهم أن يعملوا أولاً على إيقاظ إدراكاتهم المعنوية كي يتفهموا أن طريق السعادة وبلوغ اللذات لا تنحصر في إشباع

الشهوات الحيوانية فقط ، لأن إرضاء الميول الإنسانية النبيلة وتحقيق الرغبات الروحية شأنها شأن الغرائز الحيوانية تبعث على الإلتذاذ والمسرة مع فارق أن اللذات الحيوانية سطحية وعابرة أما اللذات الروحية فثابتة وعميقة .

وإذا ما عرف الإنسان لذة العفو والتسامح نتيجة سمو نفسه وأدرك أن في العفو لذة غير موجودة في الإنتقام ، فإنه سيتقبل بكل رغبة هذه الخصلة الإنسانية وسيتحذر من خصلة الإنتقام الوحشية ، وإذا ما عرف أن لذة تهدئة آلام الناس وإدخال السرور على قلوب اليتامى تفوق لذة جمع المال ، فإنه سيتبنى هذه الخصلة ويعتمد هذا الأسلوب ويهب جزءاً من ثروته في طريق حب الغير وإصابة اللذات المعنوية .

الأنبياء وبناء الإنسان :

لقد بدأ الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم مناهجهم التربوية بهدف بناء الإنسان بإحياء فطرة التوحيد في أعماق الناس ، وراحوا في ظل الإيمان بالله يحثون الناس على أداء واجباتهم الإنسانية والتحلّي بمكارم الأخلاق ، مؤكدين لهم أن عبادة الله والرفاة بعباده فيها مرضاة الله ، وفي الحصول على مرضاة الله لذة للإنسان المؤمن تفوق كل اللذات .

قال الإمام الصادق عليه السلام : أَوْحَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى دَاوُدَ ، يَا دَاوُدُ بِي فَافْرَحْ وَيَذْكُرِي فَتَلَذَّذْ وَيَمُنَّاجَاتِي فَتَنَعَمْ^(١) .

فالمؤمنون الحقيقيون بالله سبحانه وتعالى يمدون يد العون إلى البؤساء ويطعمون المساكين من منطلق حب الغير وأداء الواجب الإنساني ، وليس هدفهم من وراء هذه الخدمة الصادقة الحصول على مدح الناس وثنائهم ، إنما لذتهم في هذه العبادة هي نيل رضی الله سبحانه وتعالى .

(١) امالي الصدوق ، ص ١١٨ .

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ﴾^(١) .

اللذة في ظل الإيمان :

لقد ضاعف أنبياء الله بتعاليمهم السماوية من سبل الملذات للإنسان وجعلوها خارج نطاق الشهوات الحيوانية ، فزادوا من قوة إدراكه الباطني وأفهموه أن الإنسان المؤمن قادر على إصابة اللذات المادية والمعنوية إلى جانب بعضها البعض الآخر .

عن أبي جعفر الإمام الباقر عليه السلام : قال : لَهْوَ الْمُؤْمِنِ فِي ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ ، التَّمَتُّعُ بِالنِّسَاءِ وَمَفَاكِهِةُ الْإِخْوَانِ وَالصَّلَاةُ بِاللَّيْلِ^(٢) .

في هذا الحديث نجد أن الإمام الباقر عليه السلام قد ذكر ثلاثة سبل لتمتع الإنسان المؤمن بموازاة بعضها البعض . فما من أحد إلا ويدرك لذة التمتع بالنساء والمزاح مع الإخوان لما لهما من طابع مادي ، بيد أن اللذة المعنوية لصلاة الليل لا يمكن أن يدركها إلا من كان قلبه مفعماً بحب الله وآمن به حق إيمانه ، وإلا فإن الحديث عن لذة صلاة الليل لغير المؤمن أشبه ما يكون بالحديث مع الطفل عن اللذة الجنسية ومع المكفوف منذ ولادته عن لذة الجمال .

قمع الميول الروحية :

إن من يركز اهتمامه في حياته على البعد الحيواني ويتجاهل الأبعاد المعنوية والإنسانية ، فإنه يبحث عن سعادته في إشباع غرائزه الحيوانية وشهواته النفسية ، وليس له نصيب من اللذات المعنوية والروحية .

قال المسيح عليه السلام : في إحدى مواعظه الحكيمة : بَحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ إِنَّهُ كَمَا

(١) سورة الإنسان ؛ الآية : ٩ .

(٢) سفينة البحار ، ٢ ، «لها» ، ص ٥١٩ .

يَنْظُرُ الْمَرِيضُ إِلَى طَيِّبِ الطَّعَامِ فَلَا يَلْتَذُّهُ مَعَ مَا يَجِدُهُ مِنْ شِدَّةِ الرَّجْعِ ، كَذَلِكَ صَاحِبُ الدُّنْيَا لَا يَلْتَذُّ بِالْعِبَادَةِ وَلَا يَجِدُ حَلَاوَتَهَا مَعَ مَا يَجِدُ مِنْ حُبِّ الْمَالِ (١) .

فالذي ينمي البعد المعنوي في نفسه ويصبح إنساناً حقيقياً لا يمكن أن يكون أسير لذاته المادية وغرائزه الحيوانية ، لأن اهتمامه ينصب على اللذات الروحية والإنسانية ، ويستفيد من اللذات المادية بما يرضي الله سبحانه وتعالى ويحفظ له إنسانيته .

الامرة وإقامة الحق :

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ دَخَلْتُ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام بِذِي قَارٍ وَهُوَ يَخْصِفُ نَعْلَهُ فَقَالَ لِي : مَا قِيمَةُ هَذَا النَّعْلِ ؟ ، فَقُلْتُ : لَا قِيمَةَ لَهَا ، فَقَالَ عليه السلام : وَاللَّهِ لَهِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ إِمْرَتِكُمْ إِلَّا أَنْ أُقِيمَ حَقًّا أَوْ أُذْفَعَ بَاطِلًا (٢) .

إن الرئاسة والحكومة ما هي إلا وسيلة لإشباع غريزة حب السلطة والتفوق وواحدة من اللذات المادية . أما إقامة العدل وإزهاق الباطل فهما دليلان على الإنسانية يحققان للإنسان لذة روحية ومعنوية . فالذي لا يهدف إلا إلى بلوغ لذة مادية فإنه يسر ويتلذذ بمجرد وصوله إلى كرسي الرئاسة والسلطة ، أما ذلك الإنسان الواقعي فإن لذته من الحكم والسلطة هي في إقامة العدل ، وإن لم يتمكن من ذلك فإنه لا يجد أي قيمة للسلطة وإشباع غريزة حب السلطة .

وبخلاصة فإن لذة الإنسان في الأديان السماوية ولا تنحصر بالبعد المادي وإشباع الغريزة الحيوانية بل تتعدى ذلك إلى حب الغير وإشباع الميول الإنسانية التي يتلذذ بها الإنسان المؤمن ويشعر بالفرح والسرور .

إن الشباب المؤمن بالله سبحانه وتعالى وبالتعاليم الإسلامية والمناهج

(١) بحار الأنوار ، ١٧ ، ص ٢٥٦ .

(٢) نهج البلاغة ، الخطبة ٣٣ .

الدينية قادر على الاستفادة من ساعات فراغه في إشباع غريزتي حب الذات وحب الغير لديه ، فهو من جهة يستجيب لغرائزه الحيوانية وأمانية المادية من خلال إصابة اللذات المشروعة ، ومن جهة أخرى يستمتع باللذات الإنسانية والمعنوية من خلال عبادة الله تبارك وتعالى وخدمة خلقه .

ضرورة الأخلاق في عصرنا :

رغم أن إحياء الميول المعنوية والتحلي بمكارم الأخلاق كان على مَرِّ العصور ولا يزال معياراً للكمال الحقيقي ومصدراً لسعادة البشر ، بيد أن الضرورة للبعد الإيماني والأخلاقي قد ازدادت في عصرنا حيث التطور المستمر في عالم الصناعة والآله وازدياد ساعات الفراغ والبطالة ومختلف أنواع اللذات والشهوات ، ومن دون الإيمان والأخلاق تصبح الحياة الإجتماعية مشحونة بشتى المصائب والويلات وقد تطرأ ظروف على الإنسان لا تطاق ، لأن طبيعة الإنسان العدوانية ستؤول إلى التمرد والعصيان إذا لم ينصب الإهتمام على الأمور المعنوية والأخلاقية ولم يكن هناك توازن بين الأبعاد المادية والمعنوية للإنسان في عصرنا الحاضر حيث الإهتمام منصب على الأبعاد الحيوانية ؛ والوسائل الخاصة لإشباع الغرائز والشهوات ، التي تؤول بالإنسان إلى ارتكاب شتى أنواع الجرائم وتسلب المجتمع أمنه واستقراره ، متوفرة بشكل كبير .

المدنية في ظل الإيمان :

لم يكن رئيس وزراء الهند الأسبق نهرو يهتم في حياته بمسألة الإيمان والدين وشؤونه ، إلا أن تطور الصناعات وبروز مشكلة ساعات الفراغ ومشاهدة الجرائم وازديادها في البلدان المتطورة ، كل ذلك قد أثر بشدة على أفكار نهرو ، الأمر الذي جعله في أواخر حياته يغير من أفكاره ومعتقداته ، حيث أدرك قيمة المعنويات وشعر بضرورة الدين في الحياة ، وهذا ما دفعه إلى الاعتراف في حديث صحفي بتغيير أفكاره وأكد أن السبيل الوحيد لإنقاذ المدنية وحل مشكلة ساعات الفراغ والحد من ازدياد الجرائم هو الإيمان والدين ، فهما

تساق المجتمعات إلى الأخلاق والوجدانيات . وفيما يلي عزيزي القارئ نضع بين يديك جانباً مما دار بينه وبين الصحافي «كارانجيا» من حديث :

«كارانجيا» : قرأت أن السوفيات يسعون إلى الاستفادة من ساعات الفراغ والبطالة معتمدين في ذلك أساليب علمية ؟ .

«نهرو» : نعم نعم إنهم يسعون في هذا المجال ، ولكن ثمة مشاكل برزت حتى في الإتحاد السوفياتي - سابقاً - بالرغم من أنها أقل من المشاكل التي تعانيها سائر البلدان ، وأنا لا أدري من حيث المبدأ هل يمكن حلّ هذه المشكلة عن طرق اللجوء إلى الأساليب العلمية وتجاهل باقي القيم ؟ .

«أعتقد أن هناك شيئاً نشعر بفقدانه ، ولا أعرف كيف أُعبر عنه سوى أن أقول إنه ربما كانت الأبعاد الأخلاقية هي ما نحتاج إليه اليوم ، وربما كان ينبغي إيجاد حل (روحي) لهذه المشكلة .

«كارانجيا» : السيد نهرو أليس هناك تناقض بين ما تحدثت به اليوم عن مفهوم الحلول الأخلاقية والروحية وبين أفكار «جواهرلال» التي كان يطرحها بالأمس ؟ ، إن ما تقوله يثير التصوّر بأن السيد نهرو بات يبحث في نهاية عمره عن الله .

دور الدين في سمو الأخلاق :

«نهرو» : إذا كنت تريد أن تطرح سؤالك بهذه الطريقة فأنا أقول : نعم ، لقد تغيّرت . ولا ينبع تأكيدي على الموازين والحلول الأخلاقية والروحية من جهل أو عدم وعي ، إنه تأكيد مدرّس ومتعمّد ونابع عن فهم وإدراك . وثمة دلائل جمة على هذه المسئلة ، الأول هو بغض النظر عن التنمية والتطور المادي الذي يعتبر أمراً ضرورياً ولازماً ، فإن فكر الإنسان برأي متعطّش لشيء أكثر عمقاً من التطور والتكامل الأخلاقي والروحي الذي من دونه لا قيمة للتطور المادي ولا أهمية ربما . وهنا سؤال

يطرح نفسه وهو كيف يمكن الإرتقاء بمستوى الأخلاق والمعنويات ؟ ، وطبيعي أن يكون الدين قد وجد لهذا السبب .

«كارانجيا» : لقد كنّا نتحدث عن كيفية الإستفادة من وقت الفراغ والبطالة ، كونها من المسائل التي لم يستطع «ماركس» التكهن بها ، وقد قلت إنه لا يمكن حل هذه المسألة عن طريق الأساليب العلمية والحلول الماركسية فقط» .

«نهرو : هذا صحيح ، ففي الحقيقة أن القضية هي قضية تكوين إنسان متكامل . يعني بالإضافة إلى تعزيز القدرات المادية وطرح مشاريع التطور الإقتصادي والمادي بهدف إيجاد إنسان حقيقي ، ينبغي أن تكون هناك أشياء أخرى ربما نستطيع أن نسميها بالعوامل الروحية والأخلاقية .»

«ان طرح المشاريع والتنمية الإقتصادية والمادية إتخذ اليوم شكل قاعدة علمية ورياضية إلى حد ما ، بحيث كلما توفرت أرضية محكمة وراسخة للإقتصاد ، برزت النتائج المطلوبة في مجال قيام رفاه مادي واقتصاد معتمد على الذات - يعني الإكتفاء الذاتي - .»

«ولكن هل يكفي هذا حقاً ؟ ، إنني لا أتصور ذلك أبداً . فالتطورات المادية لم تستطع حتى في البلدان المتطورة إقتصادياً من توفير حياة كاملة ولائقة وصحيحة للناس ، فهناك برز نوع من الفراغ والنقص وعدم التعادل»^(١) .

الحياة الطبيعية :

إن الإنسان بتركيبته الطبيعية هو عبارة عن مجموعة متجانسة من الروح

(١) أفكار نهرو ، ص ٢١٩ و ٢٢٢ .

والجسم والمادة والمعنى والمحسوس واللامحسوس . فهو يتمتع بغرائز حيوانية ونزوات بهيمية من جهة ، ويمتلك رغبات إنسانية سامية واستعدادات أخلاقية وروحية من جهة أخرى .

والإنسان السعيد هو ذاك الذي يسعى إلى تنظيم برنامج حياته بما يتلائم وتكوينه ، ويطابق سلوكه مع مبدأ الخلفة والتكوين ، فإلتفت إلى شؤونه الروحية والجسمية ويهتم بأوضاعه المادية والمعنوية ، دون أن يجمع رغباته الغريزية في سبيل تعزيز البعد المعنوي والسمو النفسي لديه ، ودون أن يصبح عبداً ذليلاً لغرائزه ضارباً بميوله المعنوية عرض الحائط من أجل اصابة اللذات الحيوانية ، بل يجدر به أن ينقاد إلى قانون الفطرة ونظام التكوين وأن يشبع كل رغباته المادية والمعنوية دون استثناء ولكن بشرط أن يتم ذلك وفق المقاييس الصحيحة ، وأن يهتم بالجوانب الحيوانية والإنسانية في نفسه كل في مكانه ، ويسعى لأن يبلغ بكل منها الكمال اللائق بها .

فإذا ما تم التخطيط لبرنامج أوقات الفراغ على الأساس ذي البعدين الإنساني والطبيعي في عالمنا الصناعي المتطور اليوم ، وإذا ما انصرف الشاب عن التفكير في إشباع غرائزه الحيوانية والمادية في ساعات فراغه ، وخصّص جانباً منها لإشباع أمانيه الإنسانية وبلوغ اللذات الروحية ، وعمل بما يبعث على راحته وسروره بالإعتماد على الله وخدمة عباده ، فإنه دون شك سيعيش حياة إنسانية شريفة ونزيهة ، وسيبقى في مأمن من الطبيعة الوحشية وأخطار الجرائم المتفاقمة .

أما إذا كان هدف الشاب من وقت فراغه ينحصر في اكتساب اللذات المادية وإشباع الغرائز والشهوات متجاهلاً الأبعاد الروحية والمعنوية ، فإنه يكون في طريقه نحو الوضاعة والإنحطاط والسقوط ، حيث الطبيعة الحيوانية ستغلب عليه ويصبح على أتم الإستعداد لارتكاب أي نوع من الجرائم .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : وَلَوْعُ الرَّجُلِ بِاللَّذَاتِ يُغْوِي وَيُرْدِي ^(١) .

الإنحراف عن الفطرة :

من المؤسف أن الكثيرين من الناس قد انحرفوا في عالمنا الصناعي المتطور عن صراط الفطرة المستقيم ، فهم باتوا يهتمون بالجانب المادي والمحسوس للإنسان ويستخدمون كل إمكانياتهم في هذا الطريق ، متجاهلين الجانب المعنوي اللامحسوس الذي يعتبر القاعدة الأساس لحياة الإنسان ، وفي تصوّرهم أن الهدف الأساس من حياة الانسان هو إرضاء غرائزه الحيوانية واشباع ميوله ورغباته النفسية وتحقيق مزيد من اللذات .

ويرى الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أن مثل هذا التصور الباطل الذي يهين مكانة الإنسان إنما هو ناجم عن الجهل ، وأن من يحمل في نفسه مثل هذا التصور يستحق عذاب الله .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : مَنْ لَمْ يَرَ أَنَّ لِلَّهِ نِعْمَةً إِلَّا فِي مَطْعَمٍ أَوْ مَشْرَبٍ فَقَدْ جَهِلَ وَكَفَرَ نِعَمَ اللَّهِ وَضَلَّ سَعْيَهُ وَدَنَا مِنْهُ عَذَابُهُ ^(٢) .

ان حصر الإنسان في الشؤون المادية والحيوانية وقمع الأبعاد المعنوية والروحية هو تخلف عن قانون الفطرة وتمرد على سنة التكوين الحكيمة ، والمتخلف عن قانون الخلقة كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لن يبقى دون عقاب .

إرتفاع نسبة الجرائم :

تحصد البلدان الصناعية المتطورة التي انحدرت إلى هذا السلوك اللافطري بنسب متفاوتة نتائجها المشؤومة والمدمرة ، وباتت تواجه عقاب تخلفها عن قانون الخلقة ونظام التكوين ، فقد أكدت إحصائيات رسمية أن نسبة

(١) غرر الحكم ، ص ٧٨١ .

(٢) تحف العقول ، ص ٥٢ .

الجرائم في تلك البلدان في ارتفاع مطرد ومخيف ، وهنا نورد وعلى سبيل المثال مقارنة تشير إلى الجرائم التي وقعت في أمريكا في العامين ١٩٦٧ و ١٩٦٨ .

« جاء في تقرير نشره رئيس الشرطة الفيدرالية الأمريكية أف . بي . آي «إدغار هوفر» أن نسبة الجرائم في أمريكا ارتفعت في العام ١٩٦٧ بمعدل ٣،١٥٪ . ويضيف التقرير أنه ربما لم يبلغ الميل إلى الجريمة في تاريخ بلادنا أبداً المعدل الذي بلغه اليوم . فالإحصائيات المأخوذة من سجلات الشرطة المحلية والحكومية تشير إلى وقوع أكثر من ٣٨ مليون جريمة حقيقية وعنيفة في أمريكا في العام ١٩٦٧ . »

« وقد أكد التقرير أن السلاح الناري (المسدس والبنديقية) كان الأكثر استخداماً في هذه الجرائم . ففي العام ذاته وقعت ٧٦٠٠ جريمة قتل و ٥٢٠٠٠ جريمة اعتداء وهجوم و ٧٣٠٠٠ جريمة سرقة جميعها تمت بواسطة المسدس . »

« وتشير الإحصائيات الواردة في التقرير المذكور إلى أن احتمال مقتل الفرد الأمريكي العادي قد ازداد من معدل ٢٪ في العام ١٩٦٦ إلى ١٥٪ في العام ١٩٦٧ . »

« وجاء في جانب آخر من التقرير أن معدل الجرائم بلغ في المدن التي يزيد عدد سكانها على ٢٥٠ ألف نسمة ١٧٪ ، وفي ضواحي المدن ١٦٪ وفي القرى والأرياف ١٢٪ . »

« وقد جرى تحديد عدد الجرائم نسبة إلى الزمن على الشكل التالي : حادثة قتل كل ٤٣ دقيقة ، حادثة اغتصاب كل ١٩ دقيقة ، هجوم وتهديد بالسلاح كل دقيقتين ، سرقة عادية كل دقيقتين ونصف الدقيقة ، سرقة منزل كل ٢٠ ثانية ، سرقة سيارة

كل ٤٨ ثانية ، وأخيراً حادثة نشل كل ٣٠ ثانية»^(١) .

«تحت عنوان «الجرائم تزداد في أمريكا» كتبت الشرطة الفيدرالية الأمريكية أف . بي . آي . تقريراً أكدت فيه أن معدل الجرائم الحقيقية قد ارتفع في العام ١٩٦٨ بنسبة ١٧٪ ، كما ارتفعت نسبة الجرائم المصحوبة بالعنف إلى ١٩٪ ، وارتفعت نسبة السرقات إلى ٢٩٪ ، أما معدل جرائم القتل والإغتصاب فقد ازداد بنسبة ١٤٪/١٤ عمّا كان عليه في العام ١٩٦٧ . وقال «إدغار هوفر» رئيس الشرطة الفيدرالية إن السرقة المسلحة ازدادت بنسبة ٣٤٪ وشكّلت بذلك ٦١٪ من مجموع الجرائم التي وقعت في العام الماضي . وتأتي نيويورك التي شهدت ٩٠٤ جرائم قتل في صدارة المدن الأمريكية الأخرى»^(٢) .

«لقد صرّح نيكسون قائلاً : إن المجتمع يمرّ اليوم بأزمة كبيرة نتيجة ارتفاع نسبة الجرائم بشكل يومي ، ويبدو أن أجهزة العدل الأمريكية عاجزة عن مواجهة ذلك ، وقد بلغ ارتفاع نسبة الجرائم الحدّ الذي بات معه الناس يخشون الخروج من منازلهم ويرجعون البقاء فيها ، ولو استمر الوضع على هذا المنوال حتى عام ١٩٧٢ ، فإن نسبة الجرائم التي تحصل اليوم في أمريكا ستزداد إلى الضعف»^(٣) .

اهتمام الإنسان بالمحسوسات :

ينظر عالمنا اليوم إلى المادة والماديات على أنها أساس حياة الإنسان ، ولا يهتم بالجوانب المعنوية ، والإنسان بدوره بات يهتم بالمحسوسات بشكل

(١) صحيفة كيهان ، العدد ٧٥٣٣ .

(٢) صحيفة إطلاعات ، العدد ١٢٨٥٧ .

(٣) صحيفة كيهان ، العدد ٧٤٣٤ .

كبير بحيث باتت شعوب البلدان المتطورة تبحث عن سعادتها في الماديات ومظاهرها فقط متجاهلة المعنويات تماماً .

لقد حقق الإنسان المعاصر نجاحات عظيمة في مجال العلم والمعرفة ، بيد أن هذه النجاحات لم تتجاوز حدود المسائل المادية والأمور المحسوسة في عالم الطبيعة ، والإنسان ليس فقط لم يحقق تقدماً يذكر في المسائل المعنوية والشؤون الإنسانية ، بل إنه ألغى كل ما يمت إلى المعنويات بصلة من قاموس العلم والمعرفة .

ويعتبر عالمنا اليوم العلم عبارة عن دراسة وتحقيق حول دنيا المادة وكشف أسرارها . والإنسان العالم هو ذلك الذي يضيء زاوية مظلمة في دنيا الحسّ والمادة ، ويكشف سرّاً من أسرار الطبيعة ، ويخطو نحو تحسين الحياة المادية للبشر ويزيد من لذاتها . والعلم باختصار في عالمنا اليوم مجرد وسيلة في خدمة الحياة المادية وإشباع الغرائز وإرضاء الميول والرغبات النفسية للبشر ، ولا يمتّ بصلة لا من قريب ولا من بعيد موضوع بناء الإنسان وإحياء الجوانب الروحية والمعنوية فيه .

قال تعالى : ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾^(١) .

ضرورة إحياء المعنويات :

يقول الدكتور «كارل» : علينا أن نرسي قواعد علم حقيقي للإنسان ، علم يكون قادراً وبمساعدة كل التقنيات والأساليب المعروفة على اكتشاف المزيد من عالمنا الداخلي واعتبار كل جزء فيه عاملاً يؤدي وظيفته بين مجموعة من العوامل . وتحقيقاً لهذا الهدف علينا أن نصرف اهتمامنا ولو لبعض الوقت عن التطور

(١) سورة الروم ؛ الآية . ٧ .

التقني وفي بعض الحالات عن الصحة والطب والعلوم الأخرى التي تبحث في الجوانب المادية لحياتنا . إن اهتمام الإنسان ينصبّ عادة على الأمور التي تبعث على ارتياحه وتزيد من ثروته ، ولكن ما من أحد يدرك أن ضرورة تحسين الوضع الهيكلي والعملية والنفسية لوجودنا لا يمكن إنكارها ، وأن سلامة العقل والأحاسيس والنظم الأخلاقية وبسط القوى الروحية والمعنوية تتساوى في أهميتها مع صحة وسلامة الأبدان والوقاية من الأمراض السارية»^(١) .

«لم يدرك الإنسان من الحقيقة إلا جانباً منها ، ولم يقطف من شجرة العلم سوى الفاكهة أو الثمرة المحرمة ، إلا أن هذه الثمرة لم تكن قد نضجت بعد وقد جعلتنا نرى كل شيء إلا أنفسنا . لقد جلبت التكنولوجيا لنا الثروة والسلامة والاستقرار وكافة أنواع التسهيلات الحياتية ، ولكن ثمة خطأ كبير حصل في مشروعنا ، فالعلوم الحياتية تخلّفت كثيراً عن علوم المادة غير المحسوسة ، وبتنا نسيطر على عالم المادة قبل أن ننجح في اكتشاف أسرار أجسامنا وأرواحنا . فالإنسان الحديث جعل المادة من أولويات اهتماماته وضخّى بالمعنى في مقابل الاقتصاد ، وإذا ما تم حصر الإنسان بنشاطه الاقتصادي فإنه يصبح كالشيء الذي يُقتطع منه جزء كبير»^(٢) .

الوعد الإلهي :

لقد وعد الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز قبل أربعة عشر قرناً باليوم السعيد الذي يتجلّى فيه الحق وتسوده الحقيقة .

(١) الإنسان ذلك المجهول ، ص ٣٩ .

(٢) سنن الحياة ، ص ٣٣ .

قال تعالى : ﴿سُرِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (١) .

تبدأ هذه الآية الشريفة بحرف السين وهو حرف استقبال ، وقد وعد الله تبارك وتعالى البشر بأنه سيريهم آياته في الأفاق وفي أنفسهم جنباً إلى جنب ليعترف الإنسان على العالم ونظام التكوين وعلى نفسه وأبعادها المادية والمعنوية ، ويتبين من خلال هذه المعرفة الحق لعامة الناس وينال الإنسان شرف الإيمان بالله والعبودية له .

التطور غير المتكافئ :

رغم التطور الكبير الذي أحرزه الإنسان المعاصر في معرفة العالم ونفسه ووقف إلى حد ما على آيات الأفاق والأنفس ، إلا أن هذا التطور لم يجر بشكل متكافئ وموزون ، بمعنى أن الحق والحقيقة لم يظهرها بشكل مطلوب ولم تتمتع المجتمعات البشرية بنعمة الإيمان بالله كما ينبغي .

فقد تقدم الإنسان اليوم خطوات ملحوظة على طريق معرفة عالم المادة واكتشاف آيات الأفاق ، فمن ناحية إكتشف نواة الذرة وسخر طاقتها ، ومن ناحية أخرى فتح الفضاء ونزل على سطح القمر ، لكنه كان ثقیل الخطوات على طريق اكتشاف ذاته ومعرفة آيات نفسه ، ولم يتوصل سوى إلى حدود بعض المسائل المادية والأمور المحسوسة ، فالعلم لم يخض في الأبعاد المعنوية للإنسان ولم يكتشف أسرار روجه .

معرفة الذات والحياة الإنسانية :

إن الإنسان سيعرف يوماً ما نفسه ويعي دقائق آياتها كما وعد بذلك القرآن الكريم ، عند ذاك يصبح هناك نوع من التوازن بين المادة والمعنى ، ومن الطبيعي أن الحق في مثل ذلك اليوم سيتجلى ليعيش الإنسان حياته في ظل

(١) سورة فصلت ، الآية : ٥٣ .

الإيمان لا تشوبها شائبة ولا يعكس صفوها شيء . لكن الإنسان في هذه المرحلة حيث يركّز كل اهتمامه على الشؤون المادية متجاهلاً الأمور المعنوية ، يسير في طريقه نحو التفسّخ الخلقي ، ويزيد من جرائمه وآثامه يوماً بعد آخر ويعيش في قلق وضغط نفسي شديد .

قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً ﴾ (١) .

جمود العواطف :

«لقد ابتعد الإنسان عن السعادة مسافة طويلة نتيجة تسلط المادة والآلة عليه والانتفاع منها بشكل كبير . فالإنسان المعاصر يغزو الفضاء معتمداً على العلوم المادية ، لكنه يجهل كل شيء عن عالمه الداخلي ، ولا يبدي أي اهتمام لهذا الموضوع ، أو بالأحرى لنقل إنه ليس لديه متسع من الوقت للاهتمام بهذا الموضوع» .

«فالإنسان المعاصر قد طوى مراحل الرقي مادياً نتيجة اختراع الآلة ، وهذا الإنسان وللأسف إما يأمر بقتل الناس بواسطة الآلات والمعدات الحربية الفتاكة أو يعمل على قتلهم أو يشاهد قتلهم في مناطق مختلفة من العالم ، أو أنه يرى الناس يموتون جوعاً ، وأن منطق القوة لا يزال يتغلب على منطق الحق ، وأن قانون الغاب غالباً ما يحكم البشرية في السر والعلانية» .

«ومن الناحية الفردية بات الإنسان مسكيناً نتيجة حالة الخوف والهلع وعدم الشعور بالأمن والاستقرار التي يعيشها . وقد سلبت سرعة تطور الآلة من الإنسان فرصة معرفة النفس والنظر إلى الذات ، ولم يعد الإنسان إنساناً ، بل أصبح آلة تعمل على رتيرة

(١) سورة طه ؛ الآية : ١٢٤ .

واحدة ، فيأكل وينام لمجرد استعادة القوى للعمل ثانية ، وينبغي عليه أن يعمل على إنجاب جيل جديد لمواصلة هذه الدورة الجهنمية ، فيأتي الإنسان تلو الإنسان كالألة فيعملون ويموتون وهكذا هواليك ، وهذه الدورة هي التي تبعد الإنسان يوماً بعد آخر عن السعادة والرضى ومعرفة الذات وحب الغير والتوحيد ، وذلك كله لأنه لا يهتم بالمعنى» .

«يعاني الإنسان نتيجة اختراع الآلة من تذبذب ما بين الرقي المادي والحضيض المعنوي ، فعقله وتفكيره وعواطفه كلها أصيبت بالجمود ، والحسّ والحركة فقط هما اللذان يعملان ، وهكذا حال الحيوان ، إذن ، هل الإنسان المعاصر أشبه ما يكون بالحيوان»^(١) ؟ .

الشباب ومكارم الأخلاق :

وفي ظل هذا العالم المظلم الذي يحكمه حبّ الذات والماديات ينبغي على الشاب المسلم أن يعتمد على التعاليم الإسلامية ويعمل بها ليتعرف على نفسه وربه ويكون محباً للآخرين قاضياً لحوائجهم ، ليصبح إنساناً حقيقياً يؤمن لنفسه السعادة والهناء .

والشباب المسلم ملزم بتخصيص جانب من أوقات فراغه لإحياء الأبعاد المعنوية والاستمتاع بلذاتها وإنقاذ نفسه من حضيض الحيوانية والانحطاط ويسلك طريق الرقي والتكامل من خلال العبادة الصادقة لله سبحانه وتعالى وإقامة الحق والفضيلة وحب الناس وقضاء حوائجهم ، وذلك كسباً لرضى الله وبلوغاً للمنزلة الإنسانية الشامخة .

وبإيجاز نقول ينبغي على الشاب أن يعلم أن أيام الشباب هي من النعم

(١) مجلة الطب النفسي ، السنة الثانية ، العدد ١ ، ص ٨ .

الإلهية العظيمة ومن أفضل الفرص التي تتاح للإنسان في حياته للتحلّي بمكارم الأخلاق وإحياء الجوانب المعنوية ، لذا عليه أن يقدر هذه النعمة العابرة ويعمل في أوقات فراغه على تنمية أبعاد شخصيته الروحية والمعنوية ليكون إنساناً حقيقياً .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : أَحْسِنُوا صُحْبَةَ النَّعَمِ قَبْلَ فِرَاقِهَا فَإِنَّهَا تَزُولُ وَتَشْهَدُ عَلَىٰ صَاحِبِهَا بِمَا عَمِلَ فِيهَا^(١) .

(١) مكارم الأخلاق ، ص ٧٧ .

المحاضرة الثلاثون

حول الشاب والترفيه الضار

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى في محكم كتابه : ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾^(١) .

قيادة عزيزة الترفيه :

من الميول الغريزية للإنسان التي لا بد وأن تخضع لمراقبة تامة وقيادة صحيحة وأن يتم إشباعها في الوقت المناسب وفق برامج إرشادية منتظمة يضعها مربون أكفاء ، هو الميل إلى الترفيه عن النفس .

فعادة ما يلجأ الإنسان إلى الترفيه والترويح عن النفس ويقضي أوقات فراغه بما يفرحه ويسليه ليتحرر ولو بشكل مؤقت من قيود الروتين ويمضي عدة ساعات من النشاط والحيوية دون أن يشعر بأية مسؤولية ، وكل ذلك بهدف إزالة تعب العمل اليومي والابتعاد عن الآداب والتقاليد الاجتماعية

والإنسان الذي يمضي في مثل هذه الظروف الحرجة وراء إشباع شهواته وإصابة اللذات وينقاد لأهوائه النفسية دونما حدود في سبيل إشباع غربرة

(١) سورة البقرة ؛ الآية : ٢١٩ .

الترفيه ، لا بد وأن يحصد نتائج سلبية وقد يواجه أحياناً آلاماً ومصائب لا تحمد عقباها .

قال أمير المؤمنين عليه السلام : مَنْ فَعَلَ مَا شَاءَ لَقِيَ مَا سَاءَ ^(١) .

سوء التشخيص ماضياً وحاضراً :

إن ما يؤسف له أن الكثير من الناس قد سلكوا خلال القرون الماضية طرقاً خاطئة في إشباع غريزة الترفيه ، وانحرفوا عن جادة الخير والصواب نتيجة افتقارهم للمربين الأكفاء أو تجاهلهم للبرامج التربوية الصحيحة . حيث أتبع هؤلاء أهواءهم النفسية بهدف نيل اللذات العابرة ، وأقدموا خلال ساعات فراغهم على أنواع خطيرة وسيئة من التسلية تحت شعار الترفيه ، وطبعوا أنفسهم على العادات الضارة جالين لأنفسهم التعاسة والشقاء .

وسوء التشخيص هذا لم يقتصر على العهود الماضية جالباً لها الكثير من المصائب والويلات ، بل إن ذات الأساليب المذمومة لا زالت متبعة اليوم في عالم الصناعة والآلة بشكل أكبر من ذي قبل كماً وكيفاً ، وبات سكان العالم لا سيما جيل الشباب يعانون وينسب متفاوتة من النتائج المشؤومة لتلك العادات الضارة والهدامة .

قال النبي صلى الله عليه وسلم : خَلَّتَانِ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فِيهِمَا مَفْتُونُ الصَّحَّةِ وَالْفَرَاغِ ^(٢) .

فحينما يكون الإنسان في صحة جيدة لا يفكر أبداً بأخطار الأمراض ، وهذا ما يجعله يتعد عن السلامة والعافية نتيجة إفراطه في تناول الطعام أو القيام ببعض الممارسات ، وهذا الإفراط يفقده صحته وسلامته . كما أنه يرتكب وتحت شعار الترفيه أعمالاً منافية للمصلحة في أوقات فراغه ، معرضاً

(١) غرر الحكم ، ص ٦٣١ .

(٢) روضة الكافي ، ص ١٥٢ .

نفسه للبؤس والشقاء في سبيل إصابة المزيد من اللذات .

نقطتان مهمتان :

ثمة نقطتان مهمتان يجب أن يلتفت إليهما الشاب بجدية ويعمل بهما بعزم وإرادة كي يقي نفسه من العواقب المشؤومة للترفيه الضار في ساعات الفراغ ، ويجنبها الرذائل والآثام .

النقطة الأولى هي وجوب تحرير الذات من قيود تقليد الآخرين ، والعمل على تشخيص الضار والمفيد من مختلف أنواع التسلية والترفيه من خلال نظرة واقعية وبالإستعانة بالتعاليم الدينية والتوجيهات العلمية ، وأن لا يستسلم المرء لتأثيرات الآداب المغلوطة والعادات الذميمة لبيئته أو مجتمعه ، وأن لا يكون من أولئك الذين قال عنهم القرآن الكريم : ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاجِسَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آيَةً﴾^(١) .

النقطة الثانية هي أن لا يكون المرء عبداً لميوله النفسية وشهواته الغريزية ، وأن يكون مسيطراً على الدوام على نفسه الأمانة ، وأن يستمتع بلذات الحياة المشروعة بالمقدار الصحيح ، وأن يتغاضى عن اللذات الضارة والمنافية للمصلحة ، وأن يتذكر دائماً أن عاقبة البحث عن اللذات اللامشروعة هي الفساد والانحراف .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : ضابطُ نَفْسِهِ عَنْ دَوَاعِي اللَّذَاتِ مَالِكٌ ، وَمُهْمِلُهَا هَالِكٌ^(٢) .

وهنا لا بد من أن نتطرق في بحثنا هذا إلى بعض أنواع الترفيه والتسلية الضارة ، ونبحث في جانب من الأخطار التي يتركها الترفيه الضار على جسم الإنسان ونفسه مستندين في ذلك على التعاليم الإسلامية والبحوث العلمية ،

(١) سورة الأعراف ؛ الآية : ٢٨ .

(٢) فهرست الغرر ، ص ٣٥٧ .

ومرادنا أن يستفيد الشاب من هذا البحث في حفظ سلامته وتأمين سعادته عن طريق اجتناب الترفيه الضار وما يترتب عليه من عواقب سيئة .

الخمير والميسر :

يعتبر الخمير والميسر وسيلتين ترفيهيتين خطرتين وتسليتين ضارّتين اعتمدتهما الشعوب طوال قرون متمادية مما أوقعها في الكثير من المصائب والويلات . واليوم أيضاً لا زال الخمير والميسر يُعدّان من وسائل الترفيه والتسلية للكثير من شعوب العالم ، حيث ابتليت المجتمعات أكثر من ذي قبل بالعواقب المدمّرة المترتبة علىّ عاملي الفساد والشقاء هذين .

ولا يخفى علىّ أحد أن المشروبات الكحولية تحظى بأهمية بالغة من الناحية الاقتصادية في البلدان التي تعمل في إنتاجها والمتاجرة بها ، فثمة أسر كثيرة تعيش علىّ ما يدرّ عليها بيع الخمير من أرباح ، وثمة ضرائب هائلة تعود علىّ الحكومات من جرّاء ذلك ، وبخلاصة فإن عائدات بيع الخمير والمتاجرة به ليست بالشيء الذي يستهان به .

عائدات الخمير والميسر :

«حتى عام ١٩٤٩ كان أكثر من أربعة ملايين فرنسي يؤمنون معاشهم عن طريق إنتاج وبيع المشروبات الكحولية . ومن المؤكد أن عدد الذين يعملون في إنتاج وبيع الخمير في الحال الحاضر يفوق هذا الرقم بكثير» .

«وأول ما ينبغي أن نأخذه بعين الاعتبار جموع المزارعين الفرنسيين الذين يعملون في زراعة الكرمة . فالأراضي التي زرعت بالكروم تجاوزت مساحتها المليون وخمسمائة ألف هكتار ، وهناك أراضٍ شاسعة في شمال غرب فرنسا مزروعة بالتفاح ، وتعمل مجموعات

كبيرة في إنتاج شراب التفاح لم تحدّها هذه الإحصائية»^(١) .

الميسر أو القمار شأنه شأن الخمر يُعدّ مصدراً مالياً ذا أهمية اقتصادية كبيرة . فهناك الكثير من مراكز القمار تنتشر في العديد من بلدان العالم يرتادها الأثرياء للهو ، وتحقق هذه المراكز أرباحاً خيالية تدفع جزءاً منها ضرائب للحكومات ، والجزء الكبير الآخر يتقاسمه أصحاب مراكز القمار والعاملون فيها .

إثم أكبر من نفع :

لم يتجاهل الإسلام منذ أربعة عشر قرناً البعد الاقتصادي للخمر ومنافعه المالية ، فقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بكل صراحة ، وقد حرّم الإسلام الخمر والميسر لأن إثمهما أكبر من نفعهما وكذلك ليصون المسلم من الأضرار المادية والمعنوية الكبيرة التي تلحق به في مقابل منافع اقتصادية تعود عليه من جرّاء عاملي الفساد والإثم هذين .

قال تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ .

طلب النفع وخفوت العقل :

مما يؤسف له أن طلب النفع والتفكير في تحقيق الأرباح الطائلة بات الشغل الشاغل للكثير من الحكومات والشعوب التي أصبحت تهتم بمسألة العائدات والسيولة النقدية الضخمة المتأتية من الخمر ومراكز القمار غير آبهة بالأضرار التي تلحق بالشعوب من جرّاء ذلك .

«تجاوز عدد الحانات في فرنسا حتى عام ١٩٤٩ ال ٤٥٥,٠٥٤ حانة ، حيث كان هناك حانة واحدة لكل ٨٦ شخصاً ، أما اليوم فهناك محل واحد لبيع المشروبات لكل ٦٨ شخصاً» .

(١) العلوم الجنائية ، ص ٩٧٠ .

«إن الأمر الذي يحظى بمزيد من الأهمية هو الوضع المالي للحكومة نفسها التي تشبع خزيرتها من الضرائب المالية الباهظة التي تفرضها على إنتاج وتوزيع واستهلاك الخمر . وفي مقابل هذه العائدات ما هو مدى اهتمام الدولة بمسألة ارتفاع عدد المرضى والمجانين والوفيات الطارئة وحوادث السير وانخفاض طاقة العامل على العمل» ؟ .

«يقول البروفسور «بيرن» : إن الحكومة الفرنسية تفكر بحساب دخلها اليومي ، ولا يمكنها أن تأخذ بعين الاعتبار الخسارة أو المعجز القومي الذي ستواجهه بعد عامين أو خمسة أعوام أو عشرة أعوام ربما . فالحكومة الفرنسية تهتم فقط بالسيولة النقدية التي تعود عليها من الخمر . وينظر وزراء المالية في فرنسا إلى التوازن الآتي في الميزانية ، وهم عاجزون عن التفكير بمستقبل مطمئن»^(١) .

إذن ، للمشروبات الكحولية والقمار نوعان من الأضرار ، نوع مشترك ونوع خاص بكل منهما أتت على ذكرهما الروايات والأحاديث الإسلامية . كما اعترف بوجود هذه الأضرار العلماء والمفكرون الذين أجروا سلسلة من الأبحاث والتحقيقات العلمية والاختبارات التجريبية ، فدوّنوا اعترافاتهم في مؤلفات وكتب حملت أسماءهم . وهنا لا بد من أن نتطرق إلى أضرار الخمر والميسر بمختلف أنواعها .

العداوة في الخمر والميسر :

من الأضرار المشتركة التي يولدها الخمر والميسر والتي تعتبر ذات أهمية بالغة من الناحيتين النفسية والاجتماعية ، العداوة والبغضاء التي تحصل بين

(١) نفس المصدر ، ص ٩٧٠ .

الناس بسبب العاملين المذكورين . فالخمر والميسر يثيران روح التشائم والحدق
في أعماق الإنسان ، ويعكران أجواء المحبة والالفة ، ويمهدان في الإنسان
سبيل البغض والانتقام .

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي
الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ﴾^(١) .

يقول الدكتور «إيتوف» : إن الخمر صانع كبير للخيلات
والأوهام . وشارب الخمر الذي يقل عنده حس الحقيقة وتراوده
أفكار باطلة ، يفسر أي حديث يدور حوله أو أية حركة يقوم بها
الآخرون بالقرب منه بتفسيرات واهية ، ومن هنا تتأجج نار غضبه
للاشيء ، وما أكثر الجرائم التي تقع لمثل هذا السبب^(٢) .

لا يحتاج العداوة والنزاع الذي يحصل أثناء لعب القمار إلى
توضيح وتفسير . وينبغي أن نذكر هنا بأنه يمكن ملاحظة آثار
انعكاسات الغرائز المدمرة بصورة أكثر ليونة ومرونة في أكثر
المجتمعات تمدناً وأكثر الألعاب صداقة وانسجاماً .

«ليس هناك من حاجة في لعبة البوكر لأن تتغير الدوافع المدمرة .
فلعبة البوكر تعتمد أساساً على المواجهة ، وفي هذه اللعبة يستطيع
كل لاعب وحسبما تجيزه قوانين اللعبة أن يسعى لفرض سيطرته
على اللاعب الآخر ، فبإمكانه أن يناور خصمه على ما معه ويوقعه
في الخطأ ، لأن هدف اللعبة إما خداع الطرف الآخر بحقيقة ما
معك أو إثبات تفوقك بما معك» .

«ولعبة الشطرنج تجسد هي الأخرى ميل الإنسان لتلطيف وتلين

(١) سورة المائدة ؛ الآية : ٩١ .

(٢) العلوم الجنائية ، ص ٨٥٧ .

غرائزه المدمرة ، مع فارق أن القوى العدوانية تبرز في هذه اللعبة بشكل واضح وصريح أكثر من أي لعبة أخرى . فهذه اللعبة هي عبارة عن لعبة حرب أي تمثيل حرب بين بلدين» .

«يقول «آرنست جانس» في دراسة حاذقة لعلم نفس الشطرنج : من المسلم به أن هدف لاعب الشطرنج لا يقتصر فقط على بعد المواجهة في هذه اللعبة والذي تمتاز به كافة ألعاب المواجهة ، بل هناك هدف أقيح وأذم وهو الانتقام ، لأن الهدف الأساس من لعبة الشطرنج هو تضيق الخناق على الملك وقتله . ويشعر «جان هس» بالندم لأنه لعب الشطرنج خلال الفترة التي قضاهها في السجن ، لأنه يعتقد أنه أبرز من خلال هذه اللعبة مشاعره السلبية»^(١) .

زوال الحياء :

ومن الأضرار المشتركة الأخرى للخمر والميسر والتي يمكن أن تدفع بالإنسان نحو الرذيلة والمعصية وتشجعه على ارتكاب الجرائم ، زوال الحياء .

دور الحياء في أداء الحقوق :

ثمة أشخاص ممن لا أخلاق لهم ولا إيمان ، ولا هم بالقوانين والحقوق بأبهي ، لكنهم وبسبب الحياء من الناس فقط يمتنعون عن ارتكاب بعض الخطايا والمعاصي ، ويقمعون بعض أهوائهم غير المشروعة في أعماقهم خشية نفور الناس منهم ، وفي الحقيقة فإن الحياء بالنسبة لهؤلاء يعتبر الضامن لاحترام القوانين الأخلاقية . والحقوق الإجتماعية ..

قال الإمام الصادق عليه السلام : فَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ لَوْلَا الْحَيَاءُ لَمْ يَرْعَ حَقًّا

(١) إعجاز التحليل النفسي ، ص ٢١٢ .

وَالذِّيهِ وَلَمْ يَصِلْ ذَا رَجْمٍ، وَلَمْ يُؤَدِّ أَمَانَةً وَلَمْ يَعْفُ عَنْ فَاحِشَةٍ^(١) .

يحتبر الخمر والميسر عاملين خطيرين بإمكانهما أن يمزقا حجاب الحياء ،
ويطردا من الذهن الشعور به ، ويجعلا الإنسان يتمادى بكل جرأة في الإتيان
بالمعاصي دون خوف أو وجل وازتكاب الجريمة دون أي انفعال مهما كانت
الظروف .

قال الإمام علي بن الحسين عليه السلام : . . . وَالذُّنُوبُ الَّتِي تَهْتِكُ الْعِصَمَ
شُرْبُ الْخَمْرِ وَاللَّعْبُ بِالْقَمَارِ^(٢) .

السُّكْرُ وَالْجَرِيمَةُ :

«تختلط المشروبات الكحولية فور تناولها بالدم ، والدم لن يترك
الدماغ والمخ دون نصيب ، وبنتيجة ذلك يضعف عمل ونشاط
السلسلة العصبية ، ويفقد الإنسان القدرة على كَفِّ النفس وهو
عمل إرادي في الإنسان ومصدر لخلجه وحيائه ومانع لارتكاب
الوقاحات . وبعبارة أخرى فإن الكحول تشلّ أسمى الأنشطة
المخية أي النشاط الرادع» .

«وبما أن الحياء قد زال فمن السهل جداً أن يرتكب الشمل الذي
يفقد قوة إدراك القبائح ، أعمالاً شنيعة وقبيحة . فالجرائم الجنسية
والقتل والضرب والسرقه والتسكع وما شابه ذلك ، غالباً ما تحصل
بعد تناول المسكرات» .

«إن الكحول تذهب بالحياء وتمزق ستار العفة وتحرر الإنسان من
كل القيود والعادات والتقاليد الاجتماعية والدينية والأخلاقية ،
وتخفق فيه صرخة الضمير ، وتبدل الملاك إلى شيطان . إن القدم

(١) بحار الأنوار ٢ ، ص ٢٥ .

(٢) بحار الأنوار ١٦ ، ص ١٦٢ .

غالباً ما نزلَ خارج نطاق العفاف أثناء السُّكْر ، لأن السكر يذهب العقل والضمير ، وفي غيابهما لن يكون هناك مفهوم للعفاف .
 «إن المضللين من الفتيان والفتيات والنساء غالباً ما يكونون قد انخدعوا للوهلة الأولى بشيء اسمه الخمر ، فاعتادوا عليها وانحرفوا عن جادة الصلاح بسببها ، فتاهوا في صحارى الحياة المرعبة ، وغرقوا في نهاية المطاف في مستنقع البؤس والشقاء»^(١) .

القمار والعداء :

إن الذي يخسر في لعب القمار وينهزم أمام منافسه ، يخفت نور عقله ويتمزق ستار حياته وتهيج غريزة العداء لديه ، وفي مثل هذه الحالة قد يرتكب جرائم كبيرة لا تحمد عقباها .

«كما يعلم الجميع فإن ذات القوى العدائية والمدمرة التي يُعتقد بأن اللعب يستوعبها ، تؤدي أحياناً إلى ظهور انفعالات أكثر تعقيداً ونشوب نزاعات أكثر خطورة ، وهذه الحقيقة لا تبرز فقط في ألعاب الصغار ، بل وتلاحظ كثيراً في ألعاب الكبار»^(٢) .

«عامل في التاسعة والثلاثين من العمر يخسر في أحد أندية القمار كل راتبه الأسبوعي ، فيغتاض وينفعل ويسحب سكينه ، فيقول له شخص لم يكن ضمن اللاعبين : ضع السكين جانباً يا «جان» ، وما كان من هذا العامل إلا أن غرز سكينه في قلب ذلك الشخص»^(٣)

(١) العلوم الجنائية ، ص ٨٣١ و ٨٤٣ .
 (٢) إعجاز التحليل النفسي ، ص ٢١٢ .
 (٣) العلوم الجنائية ، ص ٨٤٦ .

الخمير وبطلان العقل :

من الأضرار المنحصرة بشرب الخمر والتي أشارت إليها الروايات الإسلامية معتبرة إياها من أسباب تحريم الخمر ، الأثر السيء الذي تتركه الخمر على عقل الإنسان . فالخمير يبطل العقل ويجعله عاجزاً عن إدراك الحقائق .

عن الإمام الرضا عليه السلام قال : إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَرَّمَ الْخَمْرَ لِمَا فِيهَا مِنْ الْفَسَادِ وَبُطْلَانِ الْعُقُولِ فِي الْحَقَائِقِ وَذَهَابِ الْحَيَاءِ مِنَ الْوَجْهِ (١) .

يتعرض شاربو الخمر للإصابات العقلية لما في الخمر من سموم ، ويتهددهم نوعان من الجنون ، جنون حاد وجنون مزمن .

السكر أو الجنون الحاد :

الجنون الحاد هو عبارة عن جنون مؤقت ينتاب شارب الخمر ، فيربك عقله لعدة ساعات ، ويخرج سلوكه وكلامه عن طور العقلانية ، ويقوم بأعمال جنونية ويُقدم أحياناً على ارتكاب الجرائم .

«إن الخمر وما تفعله من بطلان عقل محتسبها لا تُبقي قدراً ومنزلة للإنسان ، فبالسكر تظهر كافة السليبيات الروحية والاجتماعية وتحتطم كل الموانع الأخلاقية . فحينما يفلت عنان النفس يزول ما كان يردع الإنسان ويحثه على ضبط النفس ، ولا يعود هناك عقل يصرخ في الإنسان أن افعل كذا ولا تفعل كذا وقل هذا ولا تنطق بذلك» (٢) .

قال رسول الله ﷺ : الْخَمْرُ أُمُّ الْخَبَائِثِ (٣) .

(١) مستدرک الوسائل ٣ ، ص ١٣٧ .

(٢) العلوم الجنائية ، ص ٨٤٠ .

(٣) مستدرک الوسائل ٣ ، ص ١٣٩ .

وقيل لأمير المؤمنين علي عليه السلام : إِنَّكَ تَزَعُمُ أَنَّ شُرْبَ الْخَمْرِ أَشَدُّ مِنَ الزُّنَا وَالسَّرِقَةِ ، فَقَالَ نَعَمْ ! وَإِنَّ شَارِبَ الْخَمْرِ إِذَا شَرِبَ زُنِيَ وَسَرِقَ وَقَتَلَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَتَرَكَ الصَّلَاةَ (١) .

عامل ارتكاب الجريمة :

«تعتبر الكحول من أكبر العوامل الدافعة لارتكاب الجريمة . فقد كانت السبب الرئيسي في ٧٥٪ من عمليات القتل و٣٨٪ من الاعتداءات و٨٢٪ من الحرائق المتعمدة» .

«إعترف ٦٠٪ من الأطفال والشبان الذي تقل أعمارهم عن ١٨ عاماً لدى مثولهم أمام محكمة مدينة نانت في العام ١٩٤٠ ، بأنهم تناولوا جرعات لا بأس بها من الخمر قبل ارتكاب جرائمهم . وباختصار فإن الخمر تبحث دائماً عن نزلاء للـسجون» (٢) .

الخمر والجنون المزمّن :

الجنون المزمّن هو عبارة عن نوع ثابت من الجنون يعاني منه الكحوليون أو بتعبير آخر المدمنون على الخمر ، ويودي بهم في نهاية المطاف إلى مستشفيات الأمراض العقلية . وينظر الإسلام إلى المدمن على الخمر كنظرته إلى المشرك وعابد الأوثان .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مُدْمِنُ الْخَمْرِ كَعَابِدٍ وَتَنٍّ إِذَا مَاتَ وَهُوَ مُدْمِنٌ عَلَيْهِ يَلْقَى اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ حِينَ يَلْقَاهُ كَعَابِدٍ وَتَنٍّ (٣) .

(١) الكافي ٦ ، ص ٤٠٣ .

(٢) العلوم الجنائية ، ص ٨٣٧ .

(٣) الكافي ٦ ، ص ٤٠٥ .

علاقة الخمر بالجنون :

«ثمة علاقة مباشرة بين الخمر والجنون . ويقول الدكتور «بلوزول» الذي يعترف عالم الطب بكفائته : إن الكحول تسوق الإنسان نحو الجنون ، ويمكن القول إن الكحول عامل مباشر في إصابة الأشخاص البالغين بنسبة متوسطها ١٧٪ بالجنون . ويبلغ عدد المجانين في المناطق التي يكثر فيها استهلاك الكحول أضعافاً مضاعفة عن تلك التي يقل فيها استهلاك الخمر . ومن هنا فإن عدد المجانين في كل مدينة يتناسب مع عدد الحانات فيها» .

«في فرنسا في عهد «بوانكاريه» (١٨٦٠ - ١٩٣٤) الذي كان رئيساً للوزراء ثم تسلّم في الفترة ما بين عام ١٩١٣ و ١٩٢٠ منصب رئاسة الجمهورية في فرنسا ، بلغ عدد المجانين بسبب الكحول ٢٠٠,٠٠٠ شخص» .

«وتفيد إحصائية نشرت في سويسرا أن ٢٢,٥٪ من الرجال الذين ادخلوا مستشفى المجانين بين عام ١٩٢٦ و ١٩٣٠ أي خلال خمسة أعوام ، كانوا يعانون من أمراض نفسية ناجمة عن الخمر ، وأن ٧,٦٪ منهم كانوا يعانون من أمراض نفسية أخرى أحد أسبابها الخمر ، أي أن ٣٠,١٪ من مجموع المرضى النفسيين قد ساقتهم الكحول إلى مستشفى المجانين»^(١) .

الخمر وخلايا المخ :

يتصور البعض من الناس أن الكحول لن تؤثر سلباً على عقل الإنسان وبدنه إلا باحتساء جرعات كبيرة منها ، وأن تناولها بجرعات قليلة لا يؤثر بشيء بل وقد يترك أثراً مفيداً على مزاجية الإنسان .

(١) العلوم الحنانية ، ص ٨٤١ .

إن مثل هذا التصور الخاطيء رفضته التعاليم الدينية وجاءت الأبحاث العلمية لتشاطرها الرأي . فقد حرّم الأئمة الأطهار عليهم السلام شرب الخمر قليلاً كان أم كثيراً ، وجاء العلماء والباحثون ليؤكدوا أن تناول الخمر ولو بمقدار قليل من شأنه أن يربك خلايا المخ .

فَقَهُ الرُّضَا عليه السلام عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ : كُلُّ شَرَابٍ يَتَغَيَّرُ الْعَقْلُ مِنْهُ كَثِيرُهُ وَقَلِيلُهُ حَرَامٌ ^(١) .

وعن معاوية بن وهب عن أبي عبد الله الإمام الصادق عليه السلام قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ ، فَمَا أَسْكَرَ كَثِيرُهُ فَقَلِيلُهُ حَرَامٌ . قَالَ : قُلْتُ قَلِيلُ الْحَرَامِ يُجِلُّهُ كَثِيرُ الْمَاءِ ، فَرَدَّ عَلَيْهِ بِكَفِّهِ مَرَّتَيْنِ لَا لَا ^(٢) .

وعنه عليه السلام قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ ، قَالَ : قُلْتُ أَصْلَحَكَ اللَّهُ كُلُّهُ حَرَامٌ ؟ ، فَقَالَ : نَعَمْ الْجُرْعَةُ مِنْهُ حَرَامٌ ^(٣) .

ضعف قوة الإدراك :

لقد أثبت الطبيب النفسي المعروف «كابلن» وتلامذته أن امتصاص الدم للكحول مهما كانت نسبتها ضئيلة يبعث على ضعف قوة التركيز وقدرة الإدراك ، وفي المقابل تزداد الإفرازات الجسمية ويختل انسجام العضلات والأعصاب والعظام في تحرك الإنسان وتقلاته ^(٤) .

«عقد كبار الأطباء من مختلف بلدان العالم منذ مدة اجتماعاً في واشنطن على هامش المؤتمر العالمي لمكافحة الكحول والادمان عليها» .

(١) مستدرک الوسائل ٣ ، ص ١٤١ .

(٢) الكافي ٦ ، ص ٤٠٨ و ٤٠٩ .

(٤) العلوم الجنائية ، ص ٨٥٥ .

«وفي أول جلسة للمؤتمر قال الدكتور «كنزلي» الذي أمضى سنوات طويلة في إجراء تحقيق حول الادمان على الكحول : إن تناول الخمر ولو بمقدار قليل يمكن أن يؤدي إلى تلفات كبيرة وكثيرة في المخ . فالإنسان الذي يشعر بلذة واستمتاع من جرء تناول جرعة صغيرة من الكحول يجهل أنه يساهم في إتلاف خلاياه المخية» ! .

«ويتصور الناس أن تناول جرعة قليلة من الكحول لا يشكّل أي خطر عليهم ، لا بل وقد يكون ضرورياً لهم . فالبعض يعتقد أن ارتشاف شيء من الكحول في المجالس والحفلات لن يؤدي بهم إلى الادمان ، أو أن الكحول لن يسبب لهم تلفات مخية ، بينما أثبتت الدراسات والأبحاث التي جرت في هذا المجال أن احتساء الخمر ولو بمقدار قليل جداً يتسبب في إرباك عمل خلايا المخ» .

«ويقول الدكتور «بنينغتون» الذي قدّم للمؤتمرين تقريراً من أربع صفحات : إن الكحول تعتبر من ألد أعداء الإنسان ، وإن أخطار هذا العدو تتهدّد حتى أولئك الذين يحتسون قليلاً منها بين الفينة والأخرى»^(١) .

المدمن على الخمر وأبناؤه :

من الأضرار الجسيمة الأخرى للمشروبات الكحولية التي أكدها الدين والعلم معاً هي العيوب والعاهات الوراثية التي تنتقل من المدمن على الخمر إلى أبنائه . فأبناء المدمن على الخمر يكونون عادة كسالى وأغبياء وحاديّ الطباع ، وكثيراً ما يصابون بأمراض مختلفة . وإذا ما انعقدت النطفة في وقت يكون فيه الأبوان أو أحدهما ثملاً ، فإن المولود سيعاني من أعراض عصبية ونفسية أكثر حدّة .

(١) صحيفة كيهان ، العدد ٧٥٦٨ .

«يقول الدكتور «كارل» : إن سكر المرأة أو الرجل حين المضاجعة يعتبر جريمة حقيقية ، لأنَّ الأطفال الذين يولدون في مثل هذه الظروف يعانون بمعظمهم من أعراض عصبية ونفسية لا علاج لها»^(١) .

الزواج من شارب الخمر :

لقد حذر أولياء الله ﷺ المسلمين من الزواج من شارب الخمر وتزويج بناتهم من المدمن على الخمر وذلك ليصونوا المجتمعات الإسلامية من خطر ولادة الأطفال المشوهين والمعاقين .

قال أبو عبد الله الإمام الصادق ﷺ : مَنْ زَوَّجَ كَرِيمَتَهُ مِنْ شَارِبِ الْخَمْرِ فَقَدْ قَطَعَ رَجْمَهَا^(٢) .

وعن النبي ﷺ : مَنْ زَوَّجَ كَرِيمَتَهُ مِنْ شَارِبِ الْخَمْرِ فَكَأَنَّمَا سَاقَهَا إِلَى الرُّنَا^(٣) .

وعن الإمام الصادق ﷺ : أَيُّمَا امْرَأَةٍ أَطَاعَتْ زَوْجَهَا وَهُوَ شَارِبُ الْخَمْرِ كَانَ لَهَا مِنَ الْخَطَايَا يَعْدِدُ نُجُومَ السَّمَاءِ ، وَكُلُّ مَوْلُودٍ يَلِدُ مِنْهُ فَهُوَ نَجِسٌ^(٤) .

«يقول البروفسور «آريندل» في مقالة تحت عنوان «الكحوليون والأطفال» نشرتها مجلة «نانت» الطبية : إن نسبة وفيات أطفال الكحوليين أكبر من نسبة وفيات أطفال المصابين بداء السفلس والسَّل . وبشكل عام فإن أطفال الكحوليين لا يتمتعون بأية قدرة على المقاومة إزاء الأمراض الميكروبية ، فالأطفال الرضع يصابون

(١) سنن الحياة ، ص ٩١ .

(٢) الكافي ٥ ، ص ٣٤٧ .

(٣) مستدرک الوسائل ٢ ، ص ٥٣٨ .

(٤) لثاليء الأخبار ، ص ٢٦٧ .

بالتهايات معويّة ومعديّة ، والأطفال الأكبر سنّاً يتعرضون على الدوام لشتى أنواع الحمى» .

«إن الأطفال الذين يولدون من آباء مدمنين على الكحول ، وبحالفهم الحظ على البقاء أحياء ، يكونون في الغالب ضعفاء ومرضى ويعانون من تشنجات قوية ، ويفتقرون للقدرة على مقاومة مشاكل الحياة وصعابها ، ولا يتمتعون بقدرة المقاومة إزاء الميكروبات» .

«ويلاحظ في صفوف مثل هؤلاء الأطفال الكثير من العاهات الجسمية والعقلية مثل عدم انسجام تقاسيم الوجه وانحراف العمود الفقري والصمم والبكم والحركات اللاإرادية والأعراض الناجمة عن قصور في عمل الغدة الدرقية ، وكذلك التلفات المخية كالتخلف العقلي والبلاهة وعدم النمو وتصلب شرايين المخ وداء الرقص والملنخوليا والجنون الحاد والهستيريا وغير ذلك»^(١) .

الخمير والأعراض الجسمية :

إن الأعراض الضارة الناجمة عن تناول الخمر لا تنحصر في تلفات معينة تصيب خلايا المخ لدى المدمنين أو العاهات التي يرثها عنهم أبناؤهم ، بل إن لهذا السمّ الفتاك أثراً سلبياً أيضاً على أجسامهم ، حيث يتهدّهم بأعراض خطيرة .

عن الإمام الرضا عليه السلام : **الْخَمْرُ يُورِثُ انْفَسَادَ الْقَلْبِ وَيَسْوَدُ الْأَسْنَانَ وَيُخْرِثُ النَّفْسَ** (٢) .

وعنه عليه السلام أيضاً : **.... وَهُوَ يُورِثُ مَعَ ذَلِكَ الدَّاءَ الدَّفِينِ** (٣) .

(١) العلوم الجنائية ، ص ٨٦٣ .

(٢) (٣٠٢) مستدرک الوسائل ، ص ١٣٧ .

الخمير والأعراض القلبية :

«تجري الكحول سريعاً ودون أي تغيير في طبيعتها في الدم ، ومن هنا فإن جهاز دوران الدم أي القلب والشرايين الذي يصبح معبراً لهذا السم سيتضرر لا محالة» .

«في كثير من الحالات تغطي طبقة من الدهون القلب وتعيق عمله ، لأن القلب لا يستطيع بوجود هذه الطبقة الدهنية أن يقوم بوظيفته في التقلص والتمدد ، كما أن البطين الأيسر للقلب لن يعود قادراً على ضخ الدم إلى الشرايين بسهولة . وعندما يصل الأمر إلى هذا الحد تزداد خفقات القلب ويعاني الإنسان من ضيق شديد في النفس يسلب منه القدرة على القيام بأي عمل يتطلب منه جهداً معيناً . إن التضخم الذي يصيب القلب ويحدث إرباكاً شديداً في نبضاته ، يجعل الإنسان يشعر باختناقات ليلية قد تؤدي به إلى السكتة القلبية»^(١) .

«ليس هناك عضو في جسم الإنسان لا يتضرر بأفة الكحول ، فالإنسان الذي يشرب الخمر ليقضي بعض عمره في نشوة السكر واللهو واللامبالاة ، ويصطنع الفرح والسرور لنفسه ، عليه أن يعلم أن هذه النشوة ستفارقه عندما يصبح مدمناً» .

الخمير والجهاز الهضمي :

«تلف الكحول الحليمات الذوقية للسان فيفقد الإنسان حاسة الذوق . كذلك يعطي تلف الكبد اللسان لوناً أحمر تعلوه طبقة قذرة . ونادراً ما تجد مدمناً على الكحول لا يشكو من معدته ولا

(١) العلوم الجنائية ، ص ٨٥٣ .

يعاني من سوء الهضم وتقلّص المعدة وأوجاع في البطن والتقيؤ الصباحي»^(١) .

«إن مهمة الكبد تحليل السموم التي تدخل إليها وإبطال مفعولها ، ولكنه وللأسف يقف عاجزاً أمام سموم الكحول التي تمارس قدرتها التحريكية على الكبد .»

«ويقوم الكبد لمواجهة هذه التحريكات والحيلولة دون وصول السموم إلى الخلايا الرئيسية التي يعتبر كل منها مختبراً صغيراً قائماً بحدّ ذاته ، بزيادة ضخامة النسيج الذي يحيط بهذه الخلايا ، وإذا ما استمر الوضع على هذا المنوال فإن الكبد سيتصلب والخلايا ستبقى حبيسة وراء قضبان قوية ، وفي مثل هذه الحالة يقال إن الكبد قد تشمّع ، والموت سيكون بانتظار من يصاب بهذا المرض»^(٢) .

الكحول وهزيمة فرنسا :

لم تترك الكحول آثارها السيئة على سكان بلد ما فتصيبهم بالضعف والعجز وتسلبهم قدرة المقاومة ازاء الأمراض فقط ، بل إن هذه السموم الفتاكة من شأنها أن تلحق الضرر بشخصية الشعوب ومكانتها فتحط من قدرها وتضعف من قوة مقاومتها الوطنية ودفاعها الاجتماعي ، مما يجعلها تشني وتستسلم فور تعرّضها لأي هجوم أو اعتداء أجنبي .

«تنتج فرنسا نصف ما تنتجه أوروبا من الكحول ، وأوروبا بدورها تنتج نصف ما ينتجه العالم من هذا النوع من المشروبات . ومع ذلك فإن ما تنتجه فرنسا لا يكفي للإستهلاك المحلي . وبعبارة أخرى نقول إن فرنسا تنتج ربع الإنتاج العالمي من الكحول ، ومع

(٢٠١) العلوم الجنائية ، ص ٨٥١ و ٨٤٩ .

ذلك فإن هذا الإنتاج لا يكفي الفرنسيين الذي يشكلون $\frac{1}{60}$ من سكان العالم . ولن نبالغ إذا ما قلنا إن استهلاك المشروبات الكحولية في فرنسا كان سبباً رئيساً في هزيمة فرنسا السريعة خلال الحرب العالمية الثانية . فعندما نجح الحلفاء في طرد القوات المحتلة من فرنسا وتحرير هذا البلد في العام ١٩٤٥ عمد كبار الشخصيات والعلماء إلى إجراء تحقيق لمعرفة سبب هذه الهزيمة النكراء التي منيت بها فرنسا ، فتبين أن أحد الأسباب المهمة في هزيمة الفرنسيين وتعاستهم هو الكحول والإدمان عليها . وحول هذا الموضوع كتب الدكتوران «هوير» و «دوشن» : لن نبالغ إذا قلنا إن إدمان الفرنسيين جيشاً وشعباً على الكحول هو من الأسباب المباشرة لهزيمتنا .

بيان الأكاديمية الطبية :

«كتب الدكتور «سيكار دو بلوزيل» تحت عنوان «الكحول من وجهة النظر الاجتماعية» يقول : إن الإدمان على الكحول يعتبر من أهم الأسباب التي جعلتنا نواجه ما واجهناه من مصائب . وقد ختم بيانه المعنون «تأثير الكحول في هزيمة عام ١٩٤٠ والذي سلمه إلى الأكاديمية الطبية في باريس بالقول : ليس الإدمان على المشروبات المقطرة وحده كان سبباً في هزيمة عام ١٩٤٠ ، بل إن تفشي الإدمان على الكحول بين سائر طبقات الشعب كان له تأثيره الكبير أيضاً في الهزيمة .»

«وقد صادقت لجنة الإدمان على الكحول التابعة للأكاديمية المذكورة بالإجماع على هذا البيان ، وأصدرت بدورها بياناً جاء فيه : من العوامل المتعددة التي لعبت دوراً مهماً في هزيمة فرنسا عام ١٩٤٠ هو الإدمان المزمن والحاد على المشروبات المقطرة

والكحولية ، وقد رأَت الأكاديمية أن من واجبها الإفصاح عن ذلك .

«في تلك الفترة كان الشعب الألماني يعمل ويكد ليل نهار ، وكان الشبان الألمان يتلقون تدريبات عسكرية ، وكان الجيش الألماني يعدّ عدّته ، بينما الشعب في فرنسا كان غارقاً ليل نهار في احتساء الخمر ، وقد رأى بأم العين ما لم يتوقعه»^(١) .

تصوّر جاهل :

بالرغم من أن العالم اليوم بات يدرك الأضرار المختلفة التي تحملها المشروبات الكحولية ، ويعرف إلى حدّ ما النتائج الخطيرة المترتبة على تناول هذا الصنف من المشروبات ، وذلك بفضل التحقيقات والأبحاث والإختبارات العلمية ، ولكن ولشديد الأسف يلاحظ سيطرة الأهواء النفسية على عالم البشرية . ويرغم ما تقتضيه حدود العقل والمصلحة فإن كل البلدان المتطورة والنامية قد زحفت إليها هذه السموم الفتاكة ، وأصبح شرب الخمر فيها في الوقت الحاضر وسيلة من وسائل الترفيه والتسلية يلجأ إليها الناس في أوقات فراغهم . والأنكى من ذلك أن شعوب بعض البلدان المتحضرة باتت تفتخر وتباهى بشرب الخمر وتعتبره دليل التفوّق والشهامة ، شأنها شأن عرب الجاهلية .

«من الصعب جداً إفهام العامل الفرنسي بأن الكحول ليست ضرورية لعمله ، وليست الكحول دليلاً على الأدب والرجولة . وابن العامل الفرنسي إن لم يذوق طعم الكحول يبقى يشعر في قرارة نفسه بالحقارة ، لأنه يتصوّر بأن شرب الخمر دليل على الكبر والشجاعة . أما زوجة العامل فإنها ما شكت إدمان زوجها على

(١) العلوم الجنائية ص ٨٣٤ .

الكحول لإحدى صديقاتها ، فإنها تشعر في قرارة نفسها أنها تمدحه ففتخر بذلك ، فهذه هي معنويات ذاك الشعب وأسلوب تفكيره^(١) .

وبإيجاز فإن شرب الخمر يعتبر من وسائل الترفيه الضارة ومن الأثام الكبيرة . وقد أكد الرسول الأكرم ﷺ والأئمة الأطهار عليهم السلام أن شارب الخمر يستحق الجزاء الدنيوي والعقاب الأخروي ، وهو إنسان تبرأ منه الله ورسوله والمؤمنون حتى يتوب عن أفعاله المشينة ويعود إلى صوابه .

قال رسول الله ﷺ : لا يَنَالُ شَفَاعَتِي مَنْ شَرِبَ الْمُسْكِرَ وَلَا يَرُدُّ عَلَيَّ الْحَوْضَ لَا وَاللَّهِ^(٢) .

وعن أبي عبد الله الإمام الصادق عليه السلام قال : شَارِبُ الْمُسْكِرِ لَا عِصْمَةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ^(٣) .

فإذا كان الشاب ممن تهمة سعادته المادية والمعنوية ويريد سلامة عقله وجسمه ، عليه أن يتتهج التعاليم الإسلامية ويغض الطرف عن هذه الوسيلة الترفهية الخطيرة ، ولا يدنو في ساعات فراغه من هذا السمّ الفتاك ، ولا يفرط بشبابه في سبيل إصابة لذة ومتعة عابرة .

مجالس الخمر :

من الضروري جداً أن يعلم الشاب أن الإسلام لم يكتف بتحريم شرب الخمر على المسلمين ، بل ونهاهم عن المشاركة في المجالس التي يشرب فيها الخمر ، لأن مشاهدة شرب الخمر قد تثير الطبيعة العدوانية في الإنسان وتدفعه نحو ارتكاب إثم من جرّاء شرب الخمر .

أقام أحد قادة جيش المنصور الدوانيقي مجلس ضيافة في الحيرة بمناسبة

(١) نفس المصدر ، ص ٩٧١ .

(٢) الكافي ٦ ، ص ٤٠٠ و ٣٩٨ .

ختان ولده ، ودعا إليه جمعاً من الرجال بينهم الإمام الصادق عليه السلام .

ولما امتد السماط وانهمك الجميع في تناول الطعام طلب أحد المدعوين
مئة فجيء إليه بكأس من الشراب ، فما كان من الإمام الصادق عليه السلام إلا أن
نهض وغادر المجلس ، ولما سأله صاحب الدعوة عن السبب ، قال عليه السلام :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **مَلْعُونٌ مَنْ جَلَسَ عَلَيَّ مَائِدَةً يُشْرَبُ عَلَيْهَا
الْخَمْرُ** ^(١) .

القمار والإنفعال النفسي :

القمار أيضاً - عزيزي القارىء - له أضراره الخاصة إضافة إلى الأضرار
المشتركة بينه وبين الخمر التي أوردناها خلال ما مرّ من بحثنا في هذه المحاضرة .
فلاعب القمار يخرج عن طوره العادي إذا ما خسر في القمار ويصاب بانفعال
نفسي شديد ، وهذا الإنفعال يدفعه إلى التضحية بنومه وراحته في سبيل
التعويض عن الخسارة ، فيترك عمله اليومي ليواصل اللعب على أمل أن يتمكن
من التغلب على خصمه ليهديء من روعه وفورة غضبه . وحتى إذا ما خسر
مجدداً وفقد كل ما يملك فإنه لن ينسحب ، وقد يقامر بكرامته وشرفه بشكل
جنوني على أمل الفوز على خصمه .

وفي العصر الجاهلي كان القمار رائجاً بين الناس بأشكال مختلفة ، ففي
البداية كان المقامرون يقامرون بأموالهم ، فإذا ما خسر أحدهم قامر بما لديه من
بضاعة ، فإذا ما خسرها أيضاً قامر بزوجته التي كان عليها مغادرة بيت الزوجية
إذا ما خسرها زوجها لتكون في طاعة المقامر الفائز .

عن أبي عبد الله الإمام الصادق عليه السلام قال : **كَانَتْ قُرَيْشٌ تُقَامِرُ الرَّجُلَ
بِأَهْلِهِ وَمَالِهِ فَتَنَاهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ ذَلِكَ** ^(٢) .

(١) بحار الأنوار ١١ ، ص ١١٥ .

(٢) الكافي ٥ ، ص ١٢٢ .

وللأسف الشديد أن هذا الجهل لم يكن يقتصر على عرب الجاهلية .
فما أكثر من ثارت نائرتهم بسبب خسارة منيوا بها في القمار فوضعوا زوجاتهم
وشرفهم ليخسروها هي الأخرى على طاولة القمار .

المقامرة بالزوجة والحرية :

«المكسيك ، وكالة الصحافة الفرنسية ، ٢٥ نوفمبر ، تشرين
الثاني . أقام «ريكارد فلموس» وهو أحد أعضاء فرقة الجاز التابعة
للتلفزيون المكسيكي ، وله ولع شديد في لعبة البوكر ، أقام مساء
أمس مجلساً للقمار في منزله ، وبعد أن خسر كل ما يملك
لأصدقائه ، قرر أن يقامر بالشيء الوحيد الذي بقي ملكه وهو
زوجته .»

«وللأسف فقد خسر زوجته أيضاً في نهاية اللعب ، ولما رفضت
الزوجة الإمثال لأوامره والإستسلام للفائز ، إنهال عليها ضرباً
وركلاً حتى فقدت وعيها ، وها هي ترقد في المستشفى ولا أمل
في شفائها»^(١) .

«ويقول المؤلف الرومي «تاسيت» عن ولع الألمان بالقمار إنهم
يقامرون حتى بحرياتهم ، فإن خسروها أصبحوا عبيداً لدى
الفائزين»^(٢) .

اللعب بالشطرنج والنرد :

لقد حرم الإسلام على المسلمين من خلال القرآن الكريم
والروايات والأحاديث الإسلامية الكثيرة ، كافة أنواع القمار ، واعتبر أن الأموال
التي يحصل عليها الإنسان من القمار بأنها أموال غير شرعية ، وحذر المسلمين

(١) صحيفة إطلاعات ، العدد ١٠٠٧١ .

(٢) موسوعة دهخدا ، «قمار» ، ص ٤٦٦ .

من التصرف بتلك الأموال .

عن الإمام الرضا عليه السلام قال : إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى نَهَى عَنْ جَمِيعِ الْقِمَارِ وَأَمَرَ الْعِبَادَ بِالاجْتِنَابِ مِنْهَا وَسَمَّاهَا رِجْسًا ، فَقَالَ : ﴿رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ ، مِثْلَ اللَّعْبِ بِالشُّطْرُنْجِ وَالنَّرْدِ وَغَيْرِهِمَا مِنَ الْقِمَارِ ، وَالنَّرْدُ أَشْرٌ مِنَ الشُّطْرُنْجِ ^(١) .

قال الإمام الباقر عليه السلام : يَدْخُلُ فِي الْمَيْسِرِ اللَّعْبُ بِالشُّطْرُنْجِ وَالنَّرْدِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْقِمَارِ ^(٢) .

وقال أبو عبد الله الإمام الصادق عليه السلام في قوله تعالى :

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾ ، قَالَ ذَلِكَ الْقِمَارُ ^(٣) .

«يقول «فريد وجدي» : شاع القمار في القرن السادس عشر بين جميع الناس في جميع أنحاء أوروبا ، حيث أقيمت نوادٍ كبيرة للقمار ، وبلغ عدد هذه النوادي في باريس وحدها ٤٧ نادياً

«وقد استمر الوضع على حاله بعد قيام الثورة الفرنسية . ثم تم تخفيض عدد النوادي في باريس إلى تسعة أندية وتقرر منح رخصة تأسيس نادٍ جديد للقمار لمن يدفع مبالغ طائلة كضريبة للبوليس السري في فرنسا» .

«وفي عام ١٨٣٧ حظرت الحكومة الفرنسية منح رخصة إنشاء نادٍ للقمار مقابل دفع الضرائب ، وكان عدد النوادي العامة في باريس لم يتجاوز ٧ أندية ، وفي القصر الحكومي كانت هناك

(١) مستدرک الوسائل ٢ ، ص ٤٣٦ .

(٢) تفسير مجمع البيان ٣ ، ص ٢٣٩ .

(٣) وسائل الشيعة ٤ ، ص ١١٧ .

أربعة أندية خاصة واحد منها «من للنساء» .

«وفي إنجلترا حظرت الحكومة لعب القمار عام ١٨٥٣ ، ولكن بقي ١٨ نادياً للقمار دائراً لأعيان المملكة بعد صدور قرار الحظر . كما حظرت لعب القمار في كل من : أمريكا عام ١٨٥٥ ، وبروسيا عام ١٨٥٤ ، وألمانيا عام ١٨٨٢» .

«وكان الإسلام قد حرّم القمار قبل هؤلاء المتمدينين بعدة قرون»^(١) .

القمار في عصرنا الحاضر :

إن ما يؤسف له أن القمار بات في عصرنا الحاضر وسيلة من وسائل اللهو والترفيه التي يلجأ إليها الكثيرون من الناس في أوقات فراغهم ، حتى ان بعضهم قد اعتاد على هذا العمل الذميمة الذي يهدرون في سبيله مقاطع مهمة من أعمارهم ويعانون من أضرار روحية وعصبية وأخلاقية ومالية .

لكن الشاب العاقل الذكي لا يدنو من القمار أبداً ولا يقتل ساعات فراغه بما يضره ويتلف أعصابه ويشوش عليه تفكيره ويبعث على بؤسه وشقائه .

والشاب المؤمن الذي يفكر بعواقب الأمور ويظل متمسكاً بالتعاليم الإسلامية فضلاً عن أنه لا يلعب القمار ولا يسجل على نفسه مثل هذا الإثم الكبير ، لا يمكن أن يجالس المقامرين أو أن يضحي بسمعته من أجل أمور تافهة .

الشباب والمخدرات :

ثمة نوع آخر من أنواع الترفيه الضار المتبع ولشديد الأسف في معظم بلدان العالم لا سيما البلدان الغربية المتطورة ، وهذا النوع من الترفيه قد وجد

(١) دائرة المعارف - لفريد وجدي ، المجلد ٧ ، «قمر» ، ص ٩٤٤ .

مكاته في أعماق الشباب ، وهو آخذ بالازدياد والانتشار السريع ، الأوهو
المخدرات والمنشطات .

فالإنسان بطبيعته يميل إلى إشباع غرائزه وإصابة ما يقدر من اللذات
والشهوات سعياً منه لتأمين ما يفرحه ويسعده . ولأن المخدرات تعتبر واحدة من
أقوى الوسائل التي تؤمن للإنسان لذته ونشوته وتشبع ميله الطبيعي ، فإنها
بالإجبا تستأثر باهتمام اللاهثين وراء اللذات الذين يجهلون الأعراض الخطيرة
جداً التي تبيتها لهم هذه المواد المخدرة والمنشطة .

والإنسان العاقل لا يمكن أن يورط نفسه بمصائب وويلات كبيرة وآلام
مستمرة من أجل لذة عابرة .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : لا يَقُومُ حَلَاوَةُ اللَّذَّةِ بِمَرَارَةِ الْأَفَاتِ (١) .

هدية المدنية الجديدة :

لقد ترك تطوّر العلوم وانتشار الصناعات الآلية آثاراً كبيرة على كافة شؤون
الإنسان الحياتية ، وأربك كلياً أوضاع المجتمعات البشرية . فقد توصل الإنسان
وبفضل العلم إلى الكثير من أسرار الخلق وعرف خصائص الثروات الطبيعية
وتركيبتها الكيميائية ، وتوصل إلى اكتشاف الكثير من الظواهر الصناعية والمواد
الخام التي تدخل في الصناعات وتوفّر للإنسان كل مقومات الحياة الأفضل . بيد
أن التطور العلمي والتقدم الصناعي قد قدّم بموازاة الظواهر النافعة والمفيدة
للمجتمعات ظواهر سيئة وضارة . فالهيوثين والماريجوانا ومادة إل . أس . دي
وغير ذلك من المخدرات هي هدية المدنية الجديدة للمجتمعات والتي تعتبر من
الظواهر الضارة لهذه المدنية .

فما أكثر الشباب الذين أضاعوا شخصيتهم الإنسانية وهددوا فضائلهم
الأخلاقية بسبب تعاطي المخدرات ، فأصبحوا أذلاء منحطين وتلطخت أيديهم

(١) غرر الحكم ، ص ٨٤٤ .

بعار الجريمة والسرقه ، وأخيراً قضاوا وهم في أشد حالات البؤس والشقاء .

وما أكثر اولئك الذين فرطوا بشبابهم وحياتهم من أجل المخدرات ، وحرموا من سلامة العقل والجسم ، وأصيبوا بأعراض جسمية وأمراض نفسية ، وانتهى بهم الأمر إلى دار المجانين حيث هُدرت كرامتهم وذُهِبَ أعمارهم أدراج الرياح .

ولكي يعي شبابنا الأخطار الرهيبة الناجمة عن المخدرات ويطلعوا أكثر فأكثر على الأضرار التي تسببها هذه السموم الفتاكة ، إرتأينا أن ننقل مقتطفات من أقوال الصحف حول الأوضاع المزريّة التي يعيشها الفتيان والفتيات المدمنون في عدد من البلدان الغربية .

المراهقون المدمنون :

«الرأي العام الفرنسي يعيش حالة من الانفعال ، فكل يوم تقع فاجعة في هذا البلد . حيث توفي كل من «مارتين» في «باندول» ١٧ عاماً و «باتريشيا» في «كان» ١٦ عاماً و «جان كلود» في «مرسليا» ٢١ عاماً نتيجة تعاطي المخدرات» .

«يقول الدكتور «روماجون» : القضية ليست محصورة بتعاطي المخدرات عن طريق الفم فقط ، فقد التقيت خلال الأعوام الثلاثة الماضية بفتيان وفتيات لم يتجاوزوا الرابعة عشرة من العمر ، فشاهدت على سواعدهم آثار وخز الإبر ، وهذا معناه أنهم يعرضون أنفسهم للموت عن طريق تعاطي المخدرات بواسطة الحقن» .

«أيقظ رجال الشرطة الاسبوع الماضي امرأة شابة ترتدي ثياباً رثة عبارة عن معطف من الصوف وثوب من القطن وحذاء بسيط ، كانت نائمة على قارعة الطريق ، فاقتادوها إلى أقرب مركز للشرطة . وفي الطريق لاحظ أحد رجال الشرطة أنها ترتجف ،

فألقي عليها جراً من الصوف . ولدى استجوابها قالت المرأة :
 إسمي «فرانسواز» ولي من العمر ١٧ عاماً ، لم أتناول أية مادة
 مخدرة منذ يومين . فأمرها المحقق برفع أكمامها والكشف عن
 ساعديها ، فأطاعته . لقد كان ساعداها منخورين بآثار ونخز الإبر ،
 لقد كانت تحقن نفسها بمادة الهيروئين ، وقالت : لقد اضطرت
 إلى تزريق نفسي بكعب قدمي لأنني لم أعثر على شريان في
 يدي ، وأضافت : حينما زرقت أول أمس لاحظت أن الحقنة
 سحبت كمية من الدم ، فأدركت أن عليّ أن أسحبها ، وهذا الدم
 كان بمثابة الضوء الأحمر لي . فكلما دخل الدم إلى الحقنة
 علمت أن عليّ أن أوقف التزريق وأنتظر يومين لأعيد الكرة
 ثانية»^(١) .

«إن للدواء المخدّر دوراً كبيراً في الجرائم والحوادث التي تشهدها
 نيويورك ، ويعتقد أن عدد المدمنين في هذه المدينة قد
 تجاوز ٢٥٠ ألف شخص ، مائة الف منهم يقطنون حيّ
 «هارلم»»^(٢) .

الإدمان والسرقة :

«إن غالبية السجناء الأمريكيين مدمنون على مادة الماريجوانا
 المخدرة . وتقول السلطات الرسمية إن نحو ثلثي السجناء من
 الرجال و٩٥٪ من النساء السجينات في واشنطن مدمنون على
 المخدرات . وبالنظر إلى هذه الأرقام يتبين وجود ما لا يقل عن
 خمسة آلاف شخص مدمن على المخدرات في العاصمة الأمريكية ،
 ينفقون سنوياً ١٥ ألف دولار لتأمين احتياجاتهم من

(٢١) صحيفة كيهان ، العدد ٧٨٢٦ و ٧٨٧١ .

المخدرات ، ولتأمين هذا المبلغ فإنهم يقومون بسرقة ما لا يقل عن مائة وخمسين ألف دولار من البضائع من مختلف المناطق والأحياء»^(١) .

«قال «آرت لينغ لينز» وهو صاحب وجه تلفزيوني معروف في هوليدود ، رمت ابنته البالغة من العمر ٢٠ عاماً نفسها من نافذة المنزل قبل يومين وهي تحت تأثير مادة إل . أس . دي ، قال : ينبغي على الآباء والأمهات أن يدركوا حقيقة انتشار المخدرات والكحول في صفوف الشباب ، وأن يسعوا بكل تعقل إلى إنقاذ أبنائهم من مصائب وويلات المخدرات والادمان على الكحول . وبعد مراسم الدفن حيث ووريت ابنته «دايان» الثرى ، قال : إن مادة إل . أس . دي دخلت سرايين ابنتي كالنمر الجائع المتوحش ، وأفقدتها صوابها فذهبت في رحلة لا عودة منها ، لقد قتلها صانعو مادة إل . أس . دي ، ودفنوا «دايان» من أجل مصالحتهم»^(٢) .

«أعلن المتحدث باسم وزارة الصحة الانجليزية أن عدد المدمنين على المخدرات في هذا البلد قد ارتفع إلى ستة أضعاف . واقترح إعادة النظر في الأساليب المتبعة لمكافحة المخدرات . وتشير الإحصائيات إلى أن غالبية المدمنين هم من الشباب»^(٣) .

لذة عابرة وفضيحة مستمرة :

وأخيراً إذا ما أراد الشاب فعلاً أن يبقى في مأمن من أسر الادمان الضار

(١) صحيفة إطلاعات ، العدد ١٢٨١٢

(٢) صحيفة كيهان ، العدد ٧٨٦٦ .

(٣) صحيفة إطلاعات ، العدد ١١٨٥٣ .

وعدم الوقوع في شرك المخدرات ، ينبغي عليه أن يحذر صحبة ومجالسة المدمنين عليها . وعليه أيضاً أن يتبسه لنفسه لكي لا تتغلب عليها لذة المخدرات . وليتذكر دائماً أن هذه اللذة العابرة الزائلة تترك وراءها فضيحة مستمرة ترافقه مدى الحياة ، وهل تساوي مثل هذه اللذة العابرة فضيحةً تلازمه طوال عمره ؟ .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : عَارُ الْفُضِيحَةِ يُكَدِّرُ حَلَاوَةَ اللَّذَّةِ^(١) .

ونستشف من خلال هذا البحث أن الخمر والميسر والمخدرات ، كلها من أنواع الترفيه والتسلية الضارة . والشاب الذي يلجأ إليها في أوقات فراغه ويدنس سمعته ، عليه أن يعلم أنه بعمله هذا يسير في طريق السقوط والضياع ، ويهدم بيديه صرح سعادته .

انتهى بعون الله تعالى

(١) فهرست الفرر ، ص ٢٥٨ .

فهرس المصادر والمراجع للجزئين الأول والثاني

- ١ - آداب النفس - للسيد محمد العيثاني .
- ٢ - الأخلاق والشخصية ، لجان ديوي ، عن الفارسية (أخلاق وشخصيات) .
- ٣ - الإرشاد ، للشيخ المفيد .
- ٤ - الأسفار .
- ٥ - الإشارات .
- ٦ - الإسلام والحضارة العربية .
- ٧ - أسد الغابة ، لابن الأثير .
- ٨ - إعجاز التحليل النفسي عن الفارسية .
- ٩ - أعلام الوري .
- ١٠ - أفكار نهرو : عن الفارسية .
- ١١ - أفكار فرويد عن الفارسية .
- ١٢ - أمراض السلسلة العصبية لدى الأطفال ، مرحلة الطفولة والبلوغ ،

عن الفارسية (بیماری های سلسله أعصاب در نوزادان ، دوران کودکی وبلوغ) .

١٣ - امالي الصدوق .

١٤ - اميل ، لجان جاك روسو ، عن الفارسية .

١٥ - الآمال الجديدة عن الفارسية .

١٦ - الإنسان ذلك المجهول ، عن الفارسية (إنسان موجود ناشناخته) .

١٧ - بحار الأنوار ، للعلامة المجلسي .

١٨ - البطالة : عن الفارسية .

١٩ - البهجة ، عن الفارسية (شادكامی) .

٢٠ - تأثير العلم على المجتمع عن الفارسية .

٢١ - تاريخ البشرية ، عن الفارسية (تاريخ بشری) .

٢٢ - تاريخ إيران الإجتماعي .

٢٣ - تاريخ اليعقوبي ، لأحمد بن أبي يعقوب .

٢٤ - تنمة المنتهى .

٢٥ - تعليم التاريخ عن الفارسية .

٢٦ - تحف العقول ، للحسن بن شعبة الحراني .

٢٧ - تجديد حياة الشباب .

٢٨ - تفسير البرهان ، للسيد البحراني .

٢٩ - تفسير روح البيان للبروسوي .

٣٠ - تفسير مجمع البيان للطبرسي .

- ٣١ - جسم الإنسان ، عن الفارسية (بدن إنسان) .
- ٣٢ - الجعفریات .
- ٣٣ - جوامع الحكایات .
- ٣٤ - حياة الحيوان ، للدميري .
- ٣٥ - دائرة المعارف لوجدي .
- ٣٦ - الدفاع عن الإسلام وكتاب روح القوانين .
- ٣٧ - سفينة البحار ، للشيخ عباس القمي .
- ٣٨ - سلامة الروح ، عن الفارسية (سلامت روح) .
- ٣٩ - سر خلقه الإنسان : عن الفارسية .
- ٤٠ - السيرة الحلبية ، لعلي بن برهان الدين الحلبي .
- ٤١ - سيرة الحياة .
- ٤٢ - سبل الحياة ، عن الفارسية (راه ورسم زندگي) .
- ٤٣ - سنّة الحياة ، عن الفارسية (آئين زندگي) .
- ٤٤ - شباب قریش .
- ٤٥ - شرح نهج البلاغة ، لصبحي الصالح .
- ٤٦ - الشفاء .
- ٤٧ - صحيفة إطلاعات الإيرانية .
- ٤٨ - الصحيفة السجّادية .
- ٤٩ - صحيفة كيهان الإيرانية .
- ٥٠ - الطب النفسي ، للدكتور مير سپاسي ، بالفارسية (روانشناسي پزشكي)

- ٥١ - العقل الكامل ، عن الفارسية (عقل كامل) .
- ٥٢ - عقدة الحقارة عن الفارسية .
- ٥٣ - علم النفس الإجتماعي ، عن الفارسية (روانشناسى إجتماعى) .
- ٥٤ - علم نفس الطفل عن الفارسية .
- ٥٥ - العلوم الجنائية عن الفارسية .
- ٥٦ - عين اليقين .
- ٥٧ - غرر الحكم ودرر الكلم ، للآمدي .
- ٥٨ - الفتوحات الإسلامية .
- ٥٩ - قصة الحضارة ، لويل ديورانت ، عن الفارسية .
- ٦٠ - الكافي ، للكليني .
- ٦١ - الكامل في التاريخ ، لابن الأثير الجزري .
- ٦٢ - لثالىء الأخبار للتويسركانبي .
- ٦٣ - ماذا أعرف ؟ ، الأمراض النفسية والعصبية ، عن الفارسية (چه مي دانم ؟ بيمارى هاى روحى وعصبى) .
- ٦٤ - ماذا أعرف ؟ ، البلوغ ، عن الفارسية (چه مي دانم ؟ بلوغ) .
- ٦٥ - ماذا أعرف ؟ ، تربية الأطفال الصعبة ، عن الفارسية (چه مي دانم ؟ ، تربيت أطفال دشوار) .
- ٦٦ - ماذا أعرف ؟ ، الجريمة ، عن الفارسية (چه مي دانم ؟ ، جنایت) .
- ٦٧ - ماذا أعرف ؟ ، الذاكرة ، عن الفارسية (چه مي دانم ؟ حافظه) .
- ٦٨ - ماذا أعرف ؟ ، نحن وأبناؤنا ، عن الفارسية (چه مي دانم ؟ ما وفر زندان ما) .

- ٦٩ - مباحج الفلسفة لويل ديورانت .
- ٧٠ - مبادئ علم النفس ، لنورمان . ل . مان ، عن الفارسية .
- ٧١ - المبسوط .
- ٧٢ - مجلة القانون المعاصر .
- ٧٣ - مجلة مقروءات باللغة الفارسية .
- ٧٤ - مجلة القانون المعاصر باللغة الفارسية .
- ٧٥ - مجلة سلامة البدن باللغة الفارسية .
- ٧٦ - مجمع البحرين ، للشيخ فخر الدين الطريحي .
- ٧٧ - مجموعة ورّام ، للورّام .
- ٧٨ - المحجة البيضاء ، للفيض الكاشاني .
- ٧٩ - المستطرف في كل فنّ مستظرف للأبشيهي .
- ٨٠ - مستدرك الوسائل ، للنوري .
- ٨١ - مشكاة الأنوار ، للشيخ الطبرسي .
- ٨٢ - مصير البشرية ، عن الفارسية (سرنوشت بشر) .
- ٨٣ - معاني الأخبار ، للشيخ الصدوق .
- ٨٤ - معرفة الجمال .
- ٨٥ - مقدمة على فلسفة التربية والتعليم ، عن الفارسية (مقدمه أى بر فلسفه آموزش وپرورش) .
- ٨٦ - مكارم الأخلاق ، للطبرسي .
- ٨٧ - ناسخ التواريخ ، لميرزا تقي خان لسان سبهر .

- ٨٨ - النظرات ، للمنفلوطي .
- ٨٩ - نظرة إلى تاريخ العالم عن الفارسية .
- ٩٠ - النمو والحياة ، عن الفارسية (رشد وزندگی) .
- ٩١ - نمو الشخصية عن الفارسية .
- ٩٢ - نهج البلاغة .
- ٩٣ - الهورمونات ، عن الفارسية (هورمونها) .
- ٩٤ - وسائل الشيعة للحر العاملي .

الفهرس التفصلي

١٢	تحمل الفشل		
١٣	منشأ الشخصية		
١٣	الوراثة والمحيط	٥	الشاب وإحراز الشخصية
١٤	الغباء والشعور بالحقارة	٥	الشاب والمحيط الإجتماعي
١٥	طلاقة الوجه	٥	إثبات الشخصية
١٦	الوجه البشوش	٦	الفئة الفاشلة
١٦	الوجه العبوس	٧	إظهار الكفاءة
١٧	الشخصية الموزونة	٧	حسن التوافق
١٨	التعويض عن النقص	٨	الصفات الطبيعية والتربوية
١٩	إضمحلال الشخصية	٨	ما هي الشخصية ؟
٢٠	أثر توجيهات المرَبّي	١٠	الصفات الثابتة
٢٠	مشكلة أصحاب الذكاء الخارق	١٠	الجنون الأخلاقي
٢١	الشعور بالتفوق	١١	نقطتان مهمتان
٢٢	تعقيد الآخرين	١١	الإسلام والصفات الشخصية
٢٣	إثارة العداة	١٢	المرونة
٢٤	فرصة الإنتقام	١٢	قابلية التكيف

٣٩	تجلي الضمير الأخلاقي	٢٥	دور البيئة في بناء الشخصية
٤٠	التمييز بين الخير والشر	٢٥	الأسرة والمجتمع
٤١	تفجّر الاستعدادات	٢٥	أهم عوامل التربية
٤١	تكوّن الأخلاق	٢٦	أسلوب إدارة الأسرة
٤١	أزمة البلوغ	٢٨	المحيط الإجتماعي والسياسة العامة
	تغييرات جذرية في الأخلاق	٢٨	الأسرة والحالة الإقتصادية
٤٢	والمعتقدات	٢٨	أثر الحالة الإقتصادية في الشخصية
٤٣	ميول غير مستقرة	٢٩	الفقر وضعف الشخصية
٤٤	بناء الشخصية	٢٩	سوء الظن والإضطراب
٤٤	قيم الحياة	٣١	الثروة والشخصية
٤٥	تكوين الأخلاق على أساس القيم	٣١	الأبناء وروح التمرد والعداء
٤٥	زينة الحياة	٣٢	الفضائل الأخلاقية
٤٦	الشخصية الفاشلة	٣٢	محبة الناس
٤٧	حساسية الشاب تجاه القيم	٣٣	الأخلاق الذميمة
٤٧	قيمة أيام العمر	٣٣	الصفات الذميمة
٤٨	إختلاف نظرة الشباب إلى القيم ..		المحاضرة السابعة عشرة
٤٩	إختيار القيم الحقيقية	٣٥	الشباب ونمو الشخصية
٤٩	تضييع الفرصة	٣٥	نمو الشخصية
٥٠	الأخلاق الحميدة والذميمة	٣٦	تدارك النقص
٥٠	مسؤولية المربين	٣٦	الشخصية والنشئة الطبيعية
٥١	الإهتمام بجميع القيم	٣٧	الرضيع وردود الفعل
٥١	قياس القدرة والرغبة	٣٧	الطفل والشخصية الخفية
٥٢	عشق العبادة	٣٨	ردود فعل غامضة .
٥٢	مسؤولية الشباب	٣٨	نمو الجسم والشخصية
٥٣	تجنّب الإفراط والتفريط .	٣٩	تفتح العواطف والأحاسيس

٦٧	إختلاف حياة الكائنات الحيّة	٥٤	مفتاح الرّؤس والشقاء
٦٨	الحيوانات، ومرحلة الطفولة	٥٤	حبّ الذات
٦٨	مقدار المحبة	٥٤	عبادة الذات
٦٨	الإنسان ومرحلة الطفولة	٥٦	حبّ الذات ونمو الشخصية
٦٩	الإنسان وحاجته للمجتمع	٥٧	مفاسد الإعجاب بالنفس
٧٠	ضرورة الأخلاق	٥٧	العجب مرض
٧٠	سرّ النجاح	٥٨	حبّ الغرور
٧٠	آداب المعاشرة	٥٨	الإفراط في التفكير
٧١	تنمية الإستعدادات	٥٩	ضرورة تعديل الأحاسيس
٧٢	المحيط التربوي	٦٠	الشخصية الكاذبة
٧٣	الطفل والأسرة	٦١	عبادة الذات وتحطم الشخصية
٧٤	الطفل وسلوك الآخرين	٦١	التعلّق بالقضايا السياسية
٧٤	التربية الواعية	٦٢	الرغبة في اكتشاف الأشياء
٧٥	التربية اللاواعية	٦٢	توقّع في غير محلّه
٧٥	أسس الشخصية	٦٢	الفكر الخام والطموح
٧٥	التربية السليمة والتربية السقيمة	٦٣	الشباب غير الناضج
٧٦	المحيط الإجتماعي	٦٣	التطرّف غير المسؤول
٧٨	الإنسان والتبعية للمجتمع	٦٤	التصورات القائمة على الأحاسيس
٧٩	الميل إلى البدع الحديثة	٦٥	الطمأنينة قبل الإختبار
٧٩	تأثير المجتمع في المعتقدات	٦٥	إستغلال الشباب
٨٠	التعرّب بعد الهجرة	٦٥	وصايا حكيمة
٨١	حركة الفرد في المجتمع	٦٦	الطاعة الذميمة
٨٢	حركة الغوغائيين	٦٦	سلم الضلال
٨٢	المجرمون المجهولون		المحاضرة الثامنة عشرة
٨٤	اختلال الشخصية	٦٧	دور البيئة في بناء شخصية الشاب

١٠١	الشباب والأحاسيس الحادة
١٠١	العواطف العابرة
	الشباب وتمرّده على العادات والتقاليد
١٠٢	القديمة
١٠٢	الشباب والحدائث
١٠٣	العقل سبيل التكامل
١٠٣	التكيف مع التحوّلات
١٠٣	معرفة الأيام
١٠٤	شرط السعادة
١٠٤	الكهول المحافظون
١٠٥	مخلفات الحرب
١٠٥	الشباب وتجديد المحيط
١٠٦	الرسول الأكرم (ص) والشباب ..
١٠٦	الشباب والرغبة المفرطة في التحرر ..
١٠٧	أثر التقليد وعدمه
١٠٧	ميزان العقل
١٠٨	التقليد الأعمى
١٠٩	التقليد الأخرق
١٠٩	الإستبداد بالرأي
١١٠	التوازن العقلاني
١١١	التقليد في الجهة المعاكسة
١١٢	الشباب والأوهام
١١٣	التخيّلات المفيدة
١١٤	التطوّر الفكري
١١٤	الشباب والحسّ المرهف
١١٥	التخيّلات الباطلة

٨٤	التطور في عالم الصناعة
٨٥	الأداب الإجتماعية
٨٦	الأسس الأخلاقية
٨٦	إختلاف الآداب والسنن
٨٧	عادات غير ثابتة
٨٨	تغيّر الزمان
٨٨	التربية بمقتضى الزمان
٨٩	التطور بمقتضى الزمان
٩٠	الوسائل الحديثة
٩١	السنن الثابتة
٩٢	الهدف من الحياة في عالم اليوم ..
٩٣	أفضل سبل الحياة في ظل العلم
٩٣	الصناعة والنتائج السلبية
٩٤	أخطار تهديد البشرية
٩٤	تعزير مبادئ الأخلاق
٩٥	البلوغ الجنسي والبلوغ الإقتصادي ..
٩٥	ضعف الأخلاق
٩٦	صعوبة الحياة في عالم الصناعة ..
٩٦	زوال العقّة والحياء
٩٧	شيوخ الرذيلة
٩٨	التنبؤ بالإنحطاط الخلقي
٩٨	إنهيار صرح الأخلاق

المحاضرة التاسعة عشرة

١٠٠	الشباب والشخصية
١٠٠	الشباب وتوكيد الشخصية

١٢٨	نهضة الرسول الأكرم (ص)
١٢٩	العصر الجاهلي
١٢٩	تغييرات جذرية
١٣٠	الرسول (ص) والشباب
	المواجهة الأولى بين الشباب
١٣٠	والمشركين
	المحاضرة العشرون
١٣٢	الشباب وتغير الشخصية
١٣٢	الصفات القابلة للتغيير
١٣٣	الصفات الوراثية والمكتسبة
١٣٣	الإجتهد في إصلاح النفس
١٣٤	إستخدام العقل والمنطق
١٣٥	الغرور يحجب العقل
١٣٥	أعجز الناس
١٣٦	السعادة في ظل العمل والمثابرة
١٣٦	أثر سوء المعاشرة
١٣٧	مجالسة شارب الخمر
١٣٨	الأخلاق هل تتبع الغرائز؟
١٣٩	هل المحيط أقوى من الغرائز؟
١٣٩	القواعد الأساسية للتربية
١٤٠	تأثير العادات في حياة الإنسان
١٤١	مصدر العادات الحسنة والسيئة
١٤١	التصبر على المكروه
١٤١	العادات تحكم الإنسان
١٤٢	أسلوب مكافحة العادات انضارة
١٤٣	تعبئة القوى

١١٥	الإسلام والأمال
١١٦	كثرة الأمانى وطول الأمل
١١٦	الشخصية الموهومة
١١٧	الشباب وأسباب التمرد
١١٧	التمرد السطحي
١١٨	عصيان غير مستقر
١١٨	الشباب وحالة الإنقلاب
١١٩	المخالفة من جرأء المرض أو النبوغ
١١٩	الغرور الفطري
١٢٠	المنطق الخاطيء
١٢٠	شخصية غير قابلة للتغيير
١٢١	الهستيريا
١٢٢	الفصام
١٢٢	الشباب والغضب
١٢٣	العجز عن التكيف مع المحيط
١٢٣	عدم الثقة بالنفس
١٢٤	الأذكىء والشخصية
١٢٤	القادة الروحانيون
١٢٥	قيادة إبراهيم (ع)
١٢٥	حديث إبراهيم (ع) وأزر
١٢٦	إبراهيم (ع) ومقارعة الأصنام
١٢٦	تصعيد المواجهة
١٢٧	الإعلان عن تحطيم الأصنام
١٢٧	محكمة إبراهيم (ع)
١٢٧	ثمرة الإنقلاب

المحاضرة الحادية والعشرون	١٤٣
الشباب والخوف وتحطيم الشخصية ١٦٠	١٤٤
أثر الأخلاق ١٦١	١٤٤
الإسلام وتزكية النفوس ١٦١	١٤٥
أهمية تربية الأخلاق ١٦٢	١٤٦
هل الخوف غريزي عند الطفل؟ ١٦٣	١٤٧
الخوف الغريزي والايحائي ١٦٣	١٤٨
حاجة الطفل للخوف ١٦٣	١٤٨
الخوف غير المبرر ١٦٤	١٤٩
الخوف نتيجة القسوة ١٦٥	١٥٠
علاج مرض الخوف ١٦٥	١٥٠
تحليل الحالات النفسية ١٦٦	١٥١
البحث عن العلاج ١٦٦	١٥٢
الخوف النافع ١٦٧	١٥٢
الخوف الضار ١٦٨	١٥٣
الخوف من الطيرة ١٦٨	١٥٣
الطيرة والقلق ١٦٩	١٥٤
الخوف والقرارات المتسارعة ١٦٩	١٥٤
الإسلام ومحاربة الخرافات ١٧٠	١٥٤
الإنسان وعلم النجوم ١٧٠	١٥٤
إدعاءات باطلية ١٧١	١٥٤
الخوف واستشارة الكهنة ١٧١	١٥٥
الإسلام وعلم النجوم ١٧٢	١٥٦
التفكير في خلق السموات والأرض ١٧٢	١٥٧
التصورات الخاطئة ١٧٢	١٥٨
الخوف وأثره على الجسم والروح ١٧٤	١٥٨

الإستفادة من الغرائز ١٤٣	١٤٣
سبل تعزيز الإرادة ١٤٤	١٤٤
غريزة حب الذات ١٤٤	١٤٥
الغريزة والإيمان ١٤٥	١٤٦
علاج الفرور ١٤٦	١٤٧
مكافحة الحسد ١٤٧	١٤٨
علاج التكبر ١٤٨	١٤٨
صعوبة المكافحة ١٤٨	١٤٩
السعادة في المجاهدة ١٤٩	١٥٠
الإسلام ثورة من أجل التغيير ١٥٠	١٥٠
أثر الدعوة ١٥٠	١٥١
روابط الأخوة ١٥١	١٥٢
إرساء قواعد حضارة جديدة ١٥٢	١٥٢
ضعف أهل مكة ١٥٢	١٥٣
الإسلام والقدرة ١٥٣	١٥٣
تفوق المسلمين ١٥٣	١٥٤
عوامل النصر ١٥٤	١٥٤
ثبات النبي (ص) ١٥٤	١٥٤
ثبات المسلمين ١٥٤	١٥٥
الثبات في ظل الإيمان ١٥٥	١٥٦
دور العربي ١٥٦	١٥٧
الرسول (ص) وثمره جهاده ١٥٧	١٥٨
ترك العادات المذمومة ١٥٨	١٥٨
ضرورة مكارم الأخلاق ١٥٨	

١٩١	الخوف والإنقطاع عن المجتمع
١٩٢	الخوف من تحمّل المسؤولية
١٩٢	الخوف من المرحلة الدراسية
المحاضرة الثانية والعشرون	
١٩٤	الشباب والحرية
١٩٤	الحرية وبلوغ الكمال
١٩٥	الحيوان والرغبة في الحرية
١٩٥	الفرق بين الحرية والإفراط
١٩٦	الشباب والرغبة في الحرية
١٩٦	الشباب والتهوّر
١٩٧	الشباب وحدّة المشاعر
	الشباب والرغبة في الحرية
١٩٧	اللامحدودة
١٩٨	الشباب وثورته ضد القيود
١٩٨	الشباب والتنافس الاجتماعي
١٩٩	خطر الحرية المطلقة
١٩٩	الحرية والتفسخ الخلقي
٢٠٠	ضرورة تعديل الغرائز
٢٠٠	الحرية والموانع الطبيعية
٢٠١	جزاء الإفراط في إشباع الغريزة
٢٠١	إلزامات القوانين الطبيعية
٢٠٢	تضاد الغرائز
٢٠٣	الحرص والطمع
٢٠٣	بالعقل نهدي الغرائز
٢٠٤	الحرص وإماتة العز
٢٠٤	الحرص والذل

١٧٥	الخوف وضعف الإرادة
١٧٥	الخوف الناجم عن عاهة جسمانية
١٧٥	الخوف من السخرية
١٧٧	علاج العاهات الموروثة
	تشخيص المواهب والإ استعدادات
١٧٧	الذاتية
١٧٨	إستغلال سائر الملكات
١٧٩	سبل التعويض عن الحقارة
١٧٩	الخوف وسوء التربية
١٨٠	التربية على أساس الخوف والرجاء
١٨٠	الموازنة بين الخوف والرجاء
١٨١	التنويه من عوامل التقدم
١٨١	المقارنة بين التنويه والتوبيخ
١٨٢	الثواب والعقاب في الإسلام
١٨٣	مسؤولية السلطان
١٨٣	حسن التربية وراحة البال
١٨٣	سوء التربية والقلق
١٨٤	أعراض الخوف
١٨٥	الخوف وعقدة الحقارة
١٨٦	الخوف وأثره على الجسم والروح
١٨٧	مكافحة مصدر الخوف
١٨٧	علاج الخوف
١٨٨	تحليل الحالات النفسية
١٨٩	كسب الودّ
١٩٠	يبدأ بالسلام
١٩٠	المحبة المفرطة

٢١٩	الإيمان والطبائع الجامحة
٢٢٠	سمو النفس
٢٢٠	الميول الخاصة بالإنسان
٢٢١	تصرفات لا إنسانية
٢٢١	توازن الميول
٢٢٢	أدل من مملوك

المحاضرة الثالثة والعشرون

٢٢٣	الشاب بين الضمير والغريزة
٢٢٣	الضمير والغرائز
٢٢٤	الخير والشر
٢٢٤	الضمير والعقل
٢٢٥	الضمير أو النور الذاتي
٢٢٦	معيار التمييز بين الخير والشر
٢٢٦	الإنقياد لنداء الذات
٢٢٧	الضمير والصفات الإنسانية
٢٢٧	السعادة في ظل الضمير
٢٢٧	الوحشية في ظل انعدام الضمير
٢٢٨	البلوغ وتفتح الضمير
٢٢٩	الشاب والفضيلة
٢٢٩	الرغبة في بسط العدالة
٢٣٠	الشاب وبناء الذات
٢٣٠	الشاب والميل إلى الفضيلة
٢٣٠	إستجابة الشباب
٢٣١	الشباب والفضيلة
٢٣١	الإيمان الصادق

٢٠٥	إخفاق الحريص
٢٠٥	نزاع نفسي
٢٠٥	ضرورة تعديل الميول
٢٠٦	القوانين وتحديد الحرية
٢٠٦	هدف التمدّن
٢٠٧	تحديد الحرية دليل على الحرية
٢٠٨	حدود الإنسان داخل المجتمع ..
٢٠٨	بداية الحرية
٢٠٩	الحقوق على أساس العدل
٢٠٩	جزاء الإعتداء على حقوق الآخرين
٢١٠	تحديد الحرية
٢١٠	الإسلام والحرية الفردية
٢١٠	الإسلام وانتهاك حرية الآخرين
٢١١	تحليل القضية
٢١٣	ميل الإنسان إلى الحرية المطلقة
٢١٣	معارضو المدنية
٢١٤	خطر إلغاء القوانين
٢١٤	عواقب زوال المدنية
٢١٥	الإشباع المطلق للغرائز
٢١٦	العودة إلى الحياة البدائية
٢١٦	مناهضو الأنظمة الدينية أو الوضعية
٢١٧	الفضيلة الفطرية محل القوانين
٢١٧	نظام بدون نظام
٢١٨	مساوىء الحرية المطلقة
٢١٨	الإسلام والحكرمة

٢٥٢	الإنسان ورغبة العزّة
٢٥٣	الشاب وعزّة النفس
٢٥٣	عزّة النفس والحرية
٢٥٤	عزّة النفس وتجنّب المعصية
٢٥٤	حق الولد على أبيه
٢٥٥	عزّة النفس الضمان لتطبيق الفضائل
٢٥٥	قمع عزّة النفس
٢٥٦	الطفل وعزّة النفس
٢٥٧	المدرسة وعزّة النفس
٢٥٨	التنويه ونتائجه الإيجابية
٢٥٩	التنويه الباطل
٢٦٠	تجنّب التوبيخ
٢٦٠	تطبيق الجزاء القانوني
٢٦١	خطأ تربوي
٢٦٢	توبيخ البريء
٢٦٣	النصح بدل التوبيخ
٢٦٣	النصح سراً
٢٦٤	عزّة النفس والمحيط الإجتماعي
٢٦٤	دور النظام في إحياء الكرامة
٢٦٥	الكرامة والقانون
٢٦٦	الحياة في ظل النظام الاستبدادي
٢٦٦	الإسلام وعزّة النفس
٢٦٧	محاربة الله
٢٦٧	إجتناّب الذل
٢٦٨	الإسلام ومقارعة الشرك

٢٣٢	شكوى المشركين من الرسول
٢٣٢	غضب الآباء والأمهات
٢٣٣	حياة المسلمین
٢٣٣	المسلمون في الحبشة
٢٣٤	المهاجرون في بلاط الملك
٢٣٥	الإمتناع عن السجود للملك
٢٣٥	جواب جعفر الطيار
٢٣٧	الضمير والغرائز
٢٣٨	باروك ينتقد نظرية فرويد
٢٣٨	دور الغرائز في علم النفس
٢٣٩	الشاب ودواعي الإنحراف
٢٤٠	سوء العادة من سوء التربية
٢٤١	الشاب والبيئة الفاسدة
٢٤٢	مفاهيم الخير والشر
٢٤٣	دافع الغرائز والشهوات
٢٤٤	البلوغ والتحوّل الأخلاقي
٢٤٥	الضمير والغرائز
٢٤٥	هاوية الحياة
٢٤٦	الشاب عند مفترق طريقيين
٢٤٧	فشل الحب والانتقام
٢٤٨	الشباب والصراعات النفسية
٢٤٩	تضاد الغرائز
٢٤٩	عذاب الضمير

المحاضرة الرابعة والعشرون

٢٥٢	الشاب وعزّة النفس
-----	-------------------

٢٨٨	الصدقة في الكبر
٢٨٨	الشاب والصدقة الإعتباطية
٢٨٩	صدقة دون تفكر
٢٨٩	الشاب والتعصب في الصحة
٢٩٠	الشاب والصدقة المفرطة
٢٩١	الشاب والإفراط في الصحة
٢٩٢	إحترام حقوق الصدقة
٢٩٢	التعقل بعد القطيعة
٢٩٣	الصديق الكفوء
٢٩٤	الشاب والغرور
٢٩٥	الشاب والمحيط
٢٩٥	الإنقياد للمشاعر الحادة
٢٩٦	الإعتدال في الصحة
٢٩٧	الشاب والعلاقة المتكافئة
٢٩٧	الشاب وصحة المسن
٢٩٩	الشاب والكفاءة
٢٢٩	الشاب وكنم السر
٣٠٠	العلاقات الجريئة
٣٠٠	الصديق وأسس الأخلاق
٣٠١	الصحة على أساس العقل
٣٠١	تجنب الأحق
٣٠٢	الصديق المخطيء
٣٠٢	الصديق الجاهل
٣٠٣	الصديق اللبيب
٣٠٣	المعتصم في ضيافة الوزير
٣٠٤	ذكاء إبراهيم الموصلي
٣٠٥	قرين السوء

٢٦٨	الحكم والكرامة
٢٦٩	أخلاق الرسول(ص)
٢٧٠	جزاء سوء التصرف
٢٧٠	الصحة والإحترام المتبادل
٢٧٢	النظام الإستبدادي والجزاء القاسي
٢٧٤	جزاء العار وسوء السمعة
٢٧٥	عذاب المقاطعة والهجرة
٢٧٦	الشاب والكرامة
٢٧٧	الأمانة وعزة النفس
	الحرب العالمية الثانية والجرائم
٢٧٧	الأخلاقية
٢٧٩	القساوة والظلم
٢٧٩	السعادة في صون الكرامة
المحاضرة الخامسة والعشرون	
٢٨١	الشاب والصدقة
٢٨١	حاجة الإنسان إلى الصحة
٢٨١	تأثير الصديق
٢٨٢	ثروة الحياة
٢٨٣	مدرسة التضحية
٢٨٣	رفيق السوء
٢٨٤	وصايا الأولياء
٢٨٤	سرقة لاشعورية
٢٨٤	الشاب واختيار الصديق
٢٨٥	الشاب وحب الصحة
٢٨٦	الشاب والحاجة للتوجيه والإرشاد
٢٨٦	دوافع الصدقة
٢٨٧	الصدقة بين الطفولة والشباب

٣٢٧	العمل وسعيار الذوق والإستعداد
٣٢٩	العمل وشروط النجاح
٣٣٠	الزراعة والإقتصاد
٣٣١	العمل في ظل العالم الصناعي
٣٣١	مشاكل العمل في الإقتصاد الصناعي
٣٣٢	العمل حسب المقدرة ..
٣٣٣	التصور الخاطيء
٣٣٤	دليل الضج
٣٣٤	إحترام العمل
٣٣٥	موانع العمل بعد انتهاء الدراسة
٣٣٦	مشكلة العثور على عمل
٣٣٦	ظاهرة الصناعات الآلية
٣٣٧	إشراف الآلة على الآلة
٣٣٨	البطالة التكنولوجية
٣٣٩	ضرورة السعي لطلب الرزق
المحاضرة السابعة والعشرون	
٣٤٠	الشاب ودنيا الآلة
٣٤٠	الإنسان والعقل
٣٤١	الحرية في ظل العقل
٣٤١	الإنسان وعمارة الأرض
٣٤٣	الإنسان والإستعداد اللامحدود
٣٤٣	تسخير الأجرام السماوية
٣٤٤	الإنسان وسيادته على الأرض
٣٤٤	الإنسان والغذاء
٣٤٥	إنعدام الأمن الإقتصادي
٣٤٦	بداية التكامل في ظل الزراعة ..
٣٤٦	إرساء أسس الحضارة
٣٤٧	أهمية الزراعة في حياة الإنسان

٣٠٦	رفيق السوء وسوء السمعة
٣٠٦	الصديق التمام
٣٠٧	الصديق المتملق
٣٠٨	صفات الصديق المثالي
المحاضرة السادسة والعشرون	
٣٠٩	الشاب والعمل
٣٠٩	الشاب واختيار العمل
٣١٠	البطالة وفساد الأخلاق
٣١٠	السلامة في ظل العمل
٣١١	أهمية العمل في الإسلام
٣١١	الرسول (ص) وتشجيع العامل
٣١٢	مسؤولية الآباء
٣١٢	العمل والإفتخار
٣١٣	العمل وقوة الشخصية
٣١٤	الأعمال المشرعة
٣١٤	العمل والأخلاق
٣١٦	العمل ولقمة العيش
٣١٦	دوافع العمل
٣٢٠	تقسيم العمل
٣٢٠	الناس والخصائص الموروثة
٣٢١	الحقوق والمجتمع
٣٢٢	التفاوت بين الناس
٣٢٣	العمل على أساس الإستعداد الفطري
٣٢٤	تشخيص الإستعدادات
٣٢٥	تحديد الإستعداد الخاص
٣٢٦	الرغبة واختيار العمل

٣٦٥ الأخلاق والمعنويات
٣٦٦ عمل بلا إبداع
٣٦٧ العمل والذوق
٣٦٨ التكامل والحرية
٣٦٨ العمل والحكمة
٣٦٩ العامل والصناعات الثقيلة
٣٦٩ الترفيه والترويح عن النفس
٣٧٠ مسؤولية التلميذ

المحاضرة الثامنة والعشرون

٣٧١	الشباب وأوقات الفراغ
٣٧١	ضرورة الترفيه في الحياة
٣٧١	الترفيه وراحة البال
٣٧٢	الترفيه وزوال التعب
٣٧٢	فرصة ثمينة
٣٧٣	الإسلام والترفيه
٣٧٣	تقسيم ساعات النهار
٣٧٤	الترفيه بعد تأمين المعاش
٣٧٤	مرحلة الصناعات اليدوية
٣٧٥	الآلة محل اليد العاملة
٣٨٥	الإنسان ووقت الفراغ
٣٧٦	الآلة وزيادة الإنتاج
٣٧٧	زيادة ساعات الفراغ
٣٧٨	الجرائم في ما يسمى بالبلدان المتطورة
٣٧٩	قضية حياتية
٣٧٩	الثروة في الإقتصاد الصناعي

٣٤٨	قدسية الزراعة لدى الأديان السماوية
٣٤٨	عمارة الأرض
٣٤٨	خير الأعمال
٣٤٩	إدخار القوت وراحة البال
٣٤٩	إحراز القوت وتكامل الإنسان
٣٥٠	الإنسان والحاجة الأهم
٣٥٠	الجوع وخفوت العقل والإحساس
٣٥١	ثورة صاحب الزنج
٣٥٢	زوال عاطفة الأخوة
٣٥٢	الأم الجائعة تلتهم إبنها
٣٥٢	أثر الزراعة والصناعة
٣٥٣	نتائج الثورة الصناعية
٣٥٥	الصناعة وتسخير الطبيعة
٣٥٦	إنتشار المدارس والجامعات
٣٥٨	أهمية التعليم في العالم الصناعي
٣٥٨	العلم والتقدم الإجتماعي
٣٥٩	الشباب والعلم
٣٦٠	تفوق العلم على العوامل الطبيعية
٣٦١	الإنسان والغرور العلمي
٣٦١	الإنسان والطبيعة
٣٦٢	الغرور وعدم الإيمان
٣٦٢	العلم في خدمة الغرائز
٣٦٣	العلم والإيمان
٣٦٣	حرية الغرائز العدوانية
٣٦٤	إرتفاع نسبة الجرائم
٣٦٤	علاج الأمراض الإجتماعية

٣٩٨ الصيد

٣٩٨ صيد اللهو

المحاضرة التاسعة والعشرون

٤٠٠ الشاب وحبّ الغير

٤٠٠ غريزة حب الذات

٤٠٠ غريزة حب الغير

٤٠١ إضعاف غريزة العدوان

٤٠٢ الإخلاص في حب الغير

٤٠٣ الأنبياء وحب الناس

٤٠٣ الصفات السامية للرسول (ص)

٤٠٣ المسلم والواجب الإنساني

٤٠٤ حب الغير والتعايش

٤٠٥ أوضاع العالم اليوم

٤٠٦ شقاء الناس

٤٠٧ علاج المعاناة الإجتماعية

٤٠٨ العقل والتودّد

٤٠٨ الشاب وحب الغير

٤٠٩ تقسيم ساعات الفراغ

٤١٠ كيف يُستفاد من الوقت الحر

٤١١ تنمية الصفات الإنسانية

٤١٢ الأنبياء وبناء الإنسان

٤١٣ اللذة في ظل الإيمان

٤١٣ قمع الميول الروحية

٤١٤ الإمرة وإقامة الحق

٤١٥ ضرورة الأخلاق في عصرنا

٤١٥ المدنية في ظل الإيمان

٣٨٠ إنهيار مبادئ الأخلاق

..... ضرورة تعديل الرغبة في الترفيه عن

٣٨١ النفس

٣٨٢ عدم الإهتمام بأوقات الفراغ

٣٨٢ الإسلام واللذات

٣٨٣ الإفراط في اللذات

٣٨٤ المعصية تحت شعار الترفيه

٣٨٥ الترفيه وتنمية القوى

٣٨٧ السفر والسياحة

٣٨٧ السفر والسلامة

٣٨٨ السفر واكتساب المعلومات

٣٨٩ فوائد السفر

٣٨٩ الرياضة في عالمنا اليوم

٣٩٠ نشاط العضلات وسلامة الجسم

٣٩٠ خمول الأجهزة العضوية

٣٩١ الرياضة وتوازن القوى

٣٩١ الإسلام والقوة الجسمانية

٣٩٢ نعمة السلامة

٣٩٢ الفروسية والرماية

٣٩٣ إشتراك الرسول (ص) في السباق

٣٩٣ الرسول (ص) والرماية

٣٩٤ الإمام الباقر (ع) والرماية

٣٩٥ السباحة

٣٩٦ إنتشار الرياضة

٣٩٧ الملاكمة

٤٣٩	عامل إرتكاب الجريمة	٤١٦	دورالدين في سمو الأخلاق
٤٣٩	الخمير والجنون المزمن	٤١٧	الحياة الطبيعية
٤٤٠	علاقة الخمر بالجنون	٤١٩	الإنحراف عن الفطرة
٤٤٠	الخمير واخلايا المخ	٤١٩	إرتفاع نسبة الجرائم
٤٤١	ضعف قوة الإدراك	٤٢١	إهتمام الإنسان بالمحسوسات
٤٤٢	المدمن على الخمر وأبناؤه	٤٢٢	ضرورة إحياء المعنويات
٤٤٣	الزواج من شارب الخمر	٤٢٣	الوعد الإلهي
٤٤٤	الخمير والأعراض الجسمية	٤٢٤	التطور المتكافئ
٤٤٥	الخمير والأعراض القلبية	٤٢٤	معرفة الذات والحياة الإنسانية
٤٤٥	الخمير والجهاز الهضمي	٤٢٥	جمود العواطف
٤٤٦	الكحول وهزيمة فرنسا	٤٢٦	الشاب ومكارم الأخلاق
٤٤٧	بيان الأكاديمية الطبية		المحاضرة الثلاثون
٤٤٨	تصور جاهل	٤٢٨	الشاب والترفيه الضار
٤٤٩	مجالس الخمر	٤٢٨	قيادة غريزة الترفيه
٤٥٠	القمار والإنفعال النفسي	٤٢٩	سوء التشخيص ماضياً وحاضراً
٤٥١	المقامرة بالزوجة والحرية	٤٣٠	نقطتان مهمتان
٤٥١	اللعب بالشطرنج والنرد	٤٣١	الخمير والميسر
٤٥٣	القمار في عصرنا الحاضر	٤٣١	عائدات الخمر والميسر
٤٥٣	الشاب والمخدرات	٤٣٢	اثم أكبر من نفع
٤٥٤	هدية المدنية الجديدة	٤٣٢	طلب النفع وخفوت العقل
٤٥٥	المراهقون المدمنون	٤٣٣	العداوة في الخمر والميسر
٤٥٦	الإدمان والسرقة	٤٣٥	زوال الحياة
٤٥٧	لذة عابرة وفضيحة مستمرة	٤٣٥	دور الحياة في أداء الحقوق
٤٥٩	فهرس المصادر والمراجع	٤٣٦	السُّكر والجريمة
٤٦٥	الفهرس	٤٣٧	القمار والعداء
		٤٣٨	الخمير وبطلان العقل
		٤٣٨	السُّكر أو الجنون الحاد